

نافتالى لويس

الحياة فى مصر فى العصر الرومانى

٣٠ ق.م - ٢٨٤ م

ترجمة وتعليق : دكتورة آمال الروبى

مراجعة : الدكتور محمد حمدى إبراهيم

اهداءات ٢٠٠١
ا.د/ المرحوم زكى على
القاهرة

نافتالى لويس

الحياة فى مصر فى العصر الرومانى

(٣٠ ق.م - ٢٨٤ م)

ترجمة وتعليق :
دكتورة آمال محمد محمد الروبى
أستاذ التاريخ اليونانى والرومانى المشارك جامعة الملك عبد العزيز

مراجعة : دكتور محمد حمدى إبراهيم
أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية ونائب رئيس جامعة القاهرة

الطبعة الأولى
١٩٩٧



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
ᶜEIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف . محمد أبوطالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمى - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:ÈIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

5, Maryoutia st., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

هناك قول مأثور وحقيقة مسلم بها وهى أن "التاريخ يكافىء المنتصرين" ، إن تاريخ روما وتكوينها لإمبراطوريتها هو سجل متصل للنجاح العسكرى ونجاح نظامها الإدارى ، أما صوت الخاضعين لهما فنادرا ماسمعنا به ، فنحن نسمعه عاده من خلال مؤيديها من الكتاب الرومان، أو أولئك المعضدين لها من أمثال بوليبيوس Polybius ويوسيفوس Josephus . ولكن هناك استثناءان من هذه القاعدة : يتمثل الأول فى الإغريق الذين نعرف عنهم اليوم الكثير من خلال مواصلتهم لإبداعهم الأدبى والفلسفى لقرون طويلة أثناء خضوعهم للحكم الرومانى ، والثانى من سكان وادى النيل الذين يعرف عنهم المتخصصون اليوم كثيراً من المعلومات ، ولم تتح هذه المعرفة من خلال إنتاجهم الأدبى - الذى كان قليلا - والذى يمكن أن يرسم ويقدم صورة عنهم ولكن من خلال مئات الآلاف من أوراق البردى والأوستراكا (قطع اللخاف) التى ترجع للعصر الرومانى والتى كشف عنها فى السنوات الحديثة كم يقدر بمئات الآلاف ، تم استخراجها من المدن والقرى القديمة ؛ إن هذه الأوراق التى تم الكشف عنها وصلتنا بحالتها الأصلية التى كتبت بها ، غير مزيفة ، ولم يقم أحد من الكتاب القدامى بتأويلها .

إن هذا السجل الحافل الذى تقدمه هذه الأوراق لم يتوافر لأية ولاية رومانية أخرى. وترتب على ذلك أن الصلة بيننا وبين سكان وادى النيل أصبحت اليوم مباشرة ووثيقة ، فى حياتهم الخاصة والطريقة التى يفكرون بها ، وفى ممارستهم لأعمالهم ، وفى علاقاتهم مع إدارة بلادهم، وعلى الرغم من استفادة تاريخ مصر من هذا المصدر الفريد من المصادر المادية إلا أن كتابة تاريخ مصر مازالت تدور فى إطار القالب التقليدى الذى لايتعدى فى الهدف والمظهر دراسة نظم الحكم الرومانية .

ولذلك فإن هذا الكتاب يضرب صفحا عن هذا القالب ويتناول الموضوع بطريقة مختلفة من حيث اعتماده فى المقام الأول على المصادر المادية ، فهو يعنى بأفراد الشعب ، أولئك الذين كتبوا تلك الأوراق ، والذين تظهر شخصياتهم عليها سواء أكانت أوراق خاصة أو رسمية من أجل ذلك فإننا نحاول فى هذا المؤلف أن نجيب على السؤال التالى :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ماهو نوع الحياة التى كان يعيشها سكان مصر خلال العصر الرومانى ؟

أن مثل هذه النظرة الموجهة أساساً "إلى الطبقات الشعبية" لايمكن الحصول على مثلها من أى مكان آخر فى دائرة العالم اليونانى - الرومانى . فمع أن مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين تقدم لنا قاعدة عريضة من المعلومات الفكرية والمادية للعصر الكلاسى ، كما قدمت النصوص اليونانية واللاتينية التى بدأ الاهتمام بها منذ عصر النهضة وحتى الآن فيضاً من المعلومات التى يمكن للدارسين من خلالها معرفة أشياء تتجاوز ما جاء فى مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين، فقد استطعنا عن طريقها أن نتتبع مصادرهم وقضاياهم ، ونعرف جوانب القوة والضعف فى مؤلفاتهم ، ونشرح أهدافهم وتميز أغراضهم ، إلا أنه بالإضافة إلى كل ماتقدم ، فقد تجمعت لدينا مصادر أخرى تضم معلومات هائلة من آلاف النقوش الحجرية (بعضها دُّون على ألواح برونزية) مدونة باليونانية واللاتينية ، وقد عثر عليها فى أنحاء متفرقة من الإمبراطورية الرومانية ، وتبدأ سلسلتها من نقوش لمقابر متواضعة ، وأختام طينية ، لتصل إلى القرارات الرسمية والإمبراطورية . وقد أماطت الصدفة البحته اللثام عنها منذ فترة طويلة ، ولاشك أنها تضيف للباحثين معلومات تفيدهم عند قيامهم بدراسة ماورد فى المؤلفات الكلاسيكية ، كما ترتب عليها ظهور علم قراة النقوش القديمة Epigraphy ، ذلك العلم الذى أصبحت دراسته مصدراً مهما من مصادر دراسة التاريخ والحضارة الإغريقية والرومانية .

وتتميز مصر بكونها فريدة بين دول البحر المتوسط التى قدمت لنا مصادر هائلة من المعلومات التى دونت على أوراق البردى ، تلك الأوراق التى كان يتم تصنيعها فى مصر وكان يستخدمها العالم القديم .

إذ اختفت تلك الأوراق التى استخدمها العالم القديم - فيما عدا مصر - بسبب رطوبة التربة ، أما مصر فقد حفظت رمال صحرائها الجافة هذه الأوراق بين خرائبها الأثرية التى عثر عليها فيها ، حتى قام الهواة من الحفارين وعلماء الآثار بكشف مئات الالآف منها وآلاف أخرى من قطع اللخاف التى تغطى الفترة من بداية الألف الثالث ق.م حتى نهاية الألف الأول الميلادى ، حقيقة لقد عثر على أوراق متفرقة من البردى من أنحاء العالم خارج مصر كانت لها ظروف مناخية مشابهة مثل تلك الوثائق التى عثر عليها فى صحراء الأردن وصحراء النقب فى إسرائيل ، وهى ترجع للعصر الرومانى والعصر البيزنطى المتأخر ، كما عثر على ملف من البردى يتضمن تعليقًا على أشعار للرثاء فى أحد مقابر مقدونيا التى يرجع تاريخها إلى القرن

الرابع ق.م ، بالإضافة إلى عدد من كتب مكتبة هيركولانيوم Herculaneum التى تفحمت وتحجرت بفعل ثورة بركان جبل فيزوف الشهير والذى كان يقع بالقرب منها عام ٧٩م.

وأوردت الأنباء فى ربيع عام ١٩٨١ نبأ الكشف عن لفافة صغيرة من أوراق البردى عثر عليها فى إحدى مقابر أثينا التى يرجع تاريخها إلى عام ٤٥٠/٤٠٠ ق.م ، ونظرا للحالة السيئة التى وجدت عليها هذه اللفافة فإننا لم نستطع أن نعرف عنها شيئا حتى الآن ، وتأتى أهمية هذه اللفافة من كونها تمثل أقدم نص للكتابة الإغريقية القديمة ، وهكذا تظل مصر فريدة فى عدد ماعثر عليه من أوراق البردى فيها ، بالإضافة إلى الامتداد الزمنى للبرديات التى أكتشفت فيها .

ومنذ عام ١٧٧٠ بدأ الرحالة والضباط الأوربيون يحملون معهم عند عودتهم من مصر إلى بلادهم نماذج من أوراق البردى القديم ، بل لقدحمل بعضهم معه لفافات كاملة منها مكتوبة بالهيروغليفية أو اليونانية ، ومع نهاية عام ١٨٧٠ بدأ عصر الكشف المكثف عن أوراق البردى .

وقد ظهر كنز منها فى سوق العاديات فى القاهرة لأول مرة عندما عثر فلاحو الفيوم على آلاف من تلك الأوراق المسجلة باللغة اليونانية واللاتينية والقبطية والعبرية والسوريانية والفارسية والعربية عند قيامهم بالحفر للبحث عن السماد فى خرائب القرى القديمة . وقد وصل الجزء الأكبر من هذا الكنز إلى المتاحف الأوربية عندما قام قناصل دول انجلترا وفرنسا وألمانيا باغتنام الفرصة لشرائها ، أما نصيب الأسد منها فقد وصل إلى النمسا التى بلغ مجموع الأوراق البردية فى مكتبة متحفها القومي - مكتبة المتحف الإمبراطورى سابقا - حوالى ١٠٠,٠٠٠ ورقة بردية ، وقد كتبت حوالى ٧٠٪ من هذه الأوراق باللغة اليونانية .

وفى عام ١٨٨٢ أسست لأول مرة فى انجلترا لجنة لتمويل الكشف عن الآثار فى مصر باسم Egypt Exploration Fund وتسمى الآن Egypt Exploration Society .

وأصبحت مسئولة منذ ذلك التاريخ عن إجراء الحفائر فيها . وبدأت عملها منذ عام ١٨٩٥ لعدة مواسم شتوية متصلة ، حيث قامت بإجراء الحفائر فى الخرائب التى ترجع للعصر الهلينيستى والرومانى ، ونشطت هذه الجمعية فى عملها عندما أشرف عليها اثنان من الشباب المتخصص فى الدراسات الكلاسيكية من كلية Queens College فى مدينة أكسفورد ، وهما جرنفل B. P. Grenfell وهنت A. S. Hunt اللذان قاما بتطوير وسائلهما بانفسهما واستعانا

فى هذا الصدد بمعايير ووسائل تقنية بقدر ما أتيح لهما وكشفا عن كثير من الوثائق الهامة والآثار القيمة من بينها الأوراق البردية التى تمكنا من نقل آلاف منها إلى أكسفورد .

وكانت منطقة البهنسا التى تبعد حوالى مائتى كيلومتر جنوب مجرى النهر (جنوبى) القاهرة ، هى أكثر المناطق ثراء فيما كشفت عنه حفائر جرنفل وهنت ، فقد تمكنا منذ بداية موسم حفائرهما الأول من العثور على مصادر أثرية هامة عندما قاما بالحفر فى عاصمة إقليم البهنسا Oxyrhgnchite nome وكانا قد استهلا عملهما بالحفر فى جبانه الإقليم ، ولما كانت حفائرهما فيها مخيبة للآمال فقد انتقلا منها إلى العاصمة ، وعلى الرغم من تقارير جرنفل المتزنة التى كان يقوم بإرسالها إلى الجمعية فى انجلترا إلا أننا يمكننا أن نحس بمشاعر الإثارة التى كانت تتملكه أثناء فترة الكشوف حيث يقول :

"عندما تحركنا شمالا إلى مناطق أخرى من الموقع ، أصبح نهر البردى جارفا مما أصبح من الصعب بمكان مجاراته .. وقد استأجرنا رجلين لصناعة صناديق من القصدير لحفظه فيها ، ولم يتمكن هذان الرجلان خلال الأسابيع العشرة التالية من الانتهاء منها إلا بصعوبة . ولم يكن شيئا نادرا أن نجد أعدادا كبيرة من البردى مجتمعة فى مكان واحد خصوصا فى ثلاثة أكوام من التراب ، وكانت الأعداد طائلة مما دفعنا إلى الاعتقاد بأنها تمثل جزءا من دار الوثائق المحلية التى استخدمت لحقب زمنية متتالية . وكان أضخم ماتم العثور عليه فى الفترة من ١٨/١٩ مارس هو ثالث هذه الأكوام وهو عبارة عن أرشيف يرجع للعصر البيزنطى ، وفى يوم ١٨ مارس وصلنا فى الحفر إلى حلقة سميكة تضمنت أغلب اللفافات ، وكان يعمل معنا هنا إثنا عشر رجلا وصبيا لحفظ مايتم استخراجه من وثائق ، وأصبح من الصعب بمكان أن نحصل على السلال الكافية لوضع الأوراق فيها - وفى نهاية اليوم استطعنا الحصول من البهنسا على ٣٦ سلة من الحجم المناسب ، بعض تلك الأوراق التى عثر عليها كان قد تم حفظها بطريقة جيدة ، وكان طولها يتراوح من ثلاثة إلى عشرة أقدام ، وهى تمثل أطول اللفافات البردية التى وقعت عينى عليها ، ولما كنا فى حاجة شديدة إلى السلال لكى نضع فيها إنتاج حفائر اليوم التالى ، فقد قمت مع هنت منذ الساعة التاسعة مساءً بعد تناول العشاء وحتى الثالثة من صباح اليوم التالى بوضع البردى فى الحقائب الفارغة التى كانت تحت أيدينا . ثم قمنا فى مساء اليوم التالى بإعادة العمل وذلك بإفراغها فى ٢٥ سلة أخرى".

وإلى جانب البردى الذى عثر عليه فى أماكن عديدة - فى مصر العليا وبصفة عامة وفى الأماكن الفقيرة منها - تم العثور على كميات كبيرة من الأوستراكا المدونة بنفس نوع الحبر القديم المصنوع من السِناج الذى كان يستخدم فى كتابة أوراق البردى .

ويلاحظ على الكتابة المدونة وعليها أنها مختصرة - وتتضمن قوائم بأسماء وخطابات ، وواجبات مدرسية بالإضافة إلى إيصالات خاصة بالضرائب - وإذا قمنا بتجميع المعلومات التى تضمنتها هذه الشقافات فإنها يمكن أن تمدنا بإضافات هامة تكمل ماتقدمه أوراق البردى من معلومات . وينبغى أن يوضع فى الاعتبار أن استخدام هذه الأجزاء الصغيرة من الشقافات لم يكن بهدف حفظها لمدة طويلة ، كما يعتقد القارىء ، ولكنها استخدمت نظراً لرخص تكاليفها ، حقيقة يبدو أن البردى لم يكن مرتفع الثمن فى بلد صنعه وإنتاجه حيث كان يمكن بسهولة شراؤه والحصول عليه ، ولكن هذه الشقافات كان يمكن الحصول عليها من أى منطقة من مناطق المخلفات دون أن تكلف المرء شيئا .

وتعتبر أكوام المخلفات أكثر المناطق ثراءً للحصول على البردى القديم فهى تمثل مستودعات لكل نوع من أنواع مخلفات الورق بدءاً بقوائم الحسابات الخاصة وانتهاءً بالوثائق الرسمية والكتب . وبالإضافة إلى ماتقدم فقد تم العثور على أعداد كبيرة منها بين أطلال المبانى المنهارة .

أما البردى الذى عثر عليه فى الجبانات فقد استخدم فى المقام الأول كعادة من عادات الدفن التى كانت شائعة لعدة قرون ، خصوصا فى إقليم الفيوم حيث كان يتم فى العادة تغليف موميات التماسيح والأفراد بطبقة من الكرتون المصنوع من البردى بدلا من تغليفها كما جرت عليه العادة بطبقة من نسيج الكتان . وفى بعض الأحيان كانت المومياء تغلف بطبقة واحدة من ذلك الكرتون ، أما فى أغلب الأحيان فقد كانت تغلف بعدة طبقات ملتصقة لضمان مزيد من الصيانة والحفظ لها وكذلك لتغطية سطحها بالرسوم . وقد استخدمت الآن الطرق الكيمائية لفصل هذه الطبقات عن بعضها دون أن يؤثر ذلك على الكتابة المدونة عليها ، واتضح من النصوص المدونة على تلك الأوراق أنه لم يستخدم فيها فقط الأوراق التى لم يكن هناك حاجة إليها ، بل أيضا صفحات من كتب تم فصلها واستخدمت فيها . والملاحظ أن أوراق مثل هذه الكتب كانت فى حالة جيدة ، ولذلك يبدو أنها كانت نوعاً من أنواع القرابين الجنائزية - وقد شاع استخدام أوراق البردى فى عملية التحنيط فى العصر البطلمى ، ولكنها لم تستمر لفترة طويلة فى العصر الرومانى ، ولانعرف السبب من وراء ذلك ؟ *

---

* ربما لتغيير عادات الأمن نظرا لانتشار ديانة المسيحية التى بدأت فى مصر منذ مطلع القرن الأول الميلادى . المترجمة .

وقد نتج عن الحفائر التى قامت بها البعثات الأثرية من دول عديدة ، وأيضا عن طريق شراء أوراق البردى من أسواق العاديات ، أن تجمعت أعداد طائلة منها ، كبيرة وصغيرة وكذلك من الأوستراكا فى المتاحف العامة والجامعات وبعضها فى المكتبات الخاصة ، لكل من دول أوروبا والولايات المتحدة بالإضافة إلى مصر . وكما ذكر جرنفل فإن هذا البردى الذى عثر عليه يتراوح فى حجمة بين شذرات صغيرة جدا ولفائف كاملة ، ويمثل النوع الأخير لفافة كاملة عثر عليها فى قرية كرانيس ومحفوظة الآن فى مكتبة جامعة ميتشجان ، وتتكون من ٦٠٠٠ر*٦ سطر ، وعدد قليل من هذا الأوراق الخاصة بالعصر الذى خصص له هذا الكتاب مكتوب باللغة اللاتينية وهى عبارة عن سجلات للجيش الرومانى إبان فترة الاحتلال ، كذلك عثر على عدد منها قليل مسجل بالكتابة الديموطيقية وهى الشكل المتأخر للكتابة المصرية القديمة . أما بقية حصيلة وثائق العصر الرومانى فهى مسجلة باللغة اليونانية التى أصبحت اللغة الشائعة Lingua Franca فى منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط منذ حملة الأسكندر الأكبر . فبعد موت الإسكندر ثم إبنه الذى خلفه إسميا فى الحكم أن آل حكم المنطقة إلى اثنين من كبار قادته العسكريين حيث أسس بطليموس الحكم البطلمى فى مصر ، وآل الحكم فى سوريا إلى الأسرة السلوقية .

وعندما احتل الرومان بلاد هذه المنطقة الواحدة البلد تلو الأخرى فوجئوا برقيها وتقدمها الحضارى ، ومن ثم لم يجدوا حاجة للتدخل فيها وإثارة سكانها بتغيير عاداتهم ، ومارسوا فيها سياسة - متعقلة ، متسامحة تتسم حينا باللا مبالاة وحينا بالاهتمام بمصالحهم الخاصة - كما يرى البعض - ويمكن اعتبار هذه السياسة السبب الرئيسى فى استمرارية حكمهم الطويل لها .

وبعد أن تم اكتشاف هذا الكم الهائل من أوراق البردى وقطع الأوستراكا ، فقد أصبح أمام المتخصصين فى الدراسات الكلاسيكية نوع من أنواع التحدى الرائع لقراءة الخطوط القديمة ، فقد عاد علماء الخطوط بدراستهم لأنواع الخطوط القديمة Palaeography لألف عام إلى

---

* نشرت هذا اللفافة فى مجموعة بردى ميتشجان فى المجلد رقم ٤ وقد قامت المترجمة بدراستها دراسة تفصيلية حيث تمكنت من حل مشكلة العملة التى كانت تحصل بها ضريبة الرأس Laographia فى قرية كرانيس ، وقد نشرت ذلك فى رسالة الدكتوراة الخاصة بها وهى التى تحمل العنوان التالى كرانيس فى العصر الرومانى ، دراسة اقتصادية اجتماعية فى ضوء الوثائق البردية "٣٠ ق . م- ٢٨٤م .

(والتى حصلت بها على درجة الدكتوراة مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٦)

الوراء من تاريخ المخطوطات المعروفة فى العصور الوسطى - أن هذه المخطوطات التى وضعت تحت الأضواء تبدأ من الكتب المدونه بالخط المنمق المتناسق ، إلى مادونته أيدى الكتاب المهرة بالخط الجارى (الرقعة) Cursive ، وتلك الخطوط التى خطها أنصاف المتعلمين لتصل إلى الكتابات التى دونت بطريقة المخربشات التى يصعب فهم محتواها .

وهكذا يتضاعف عبء العمل فى نشر البردى المدون بالخط الجارى (الرقعة) الذى كتبه غير المتعلمين من ناحية ترجمة مضمونة لامتلائه بالأخطاء الإملائية ، والنحوية مما أدى إلى نمو فرع آخر من فروع الدراسات الكلاسيكية ، وفى أثناء السنوات الأولى منذ بداية عملية الحفر والتنقيب بدأ جرنفل وهنت فى نشر النصوص التى بين أيديهما من الوثائق الأدبية والرسمية بطريقة حماسية ولكنها ماهرة حتى أنه من الصعب بمكان مناظرتها ، فهما يعتبران مع كل من كينون F. G. Keynon من المتحف البريطانى ، وفيلكن U. Wilcken ومساعديه فى برلين الرواد الأوائل الذين وضعوا أسس علم جديد فى الدراسات الكلاسيكية ألا وهو علم دراسة أوراق البردى (وفى أثناء قيامى بكتابة هذا المؤلف فى أكتوبر من عام (١٩٨١) كان قد تم نشر ٣٫٤٣٠ لفافة ووثيقة بردية فى ٤٨ مجلدا ، من مجموعة بردى البهنسا The Qxy-rhynchus Papyri التى تعتبر من أضخم المجموعات ، ومازال يتوالى نشرها تباعا . كذلك تم نشر حوالى ٢٥٫٠٠٠ وثيقة بردية من العصر الرومانى فى مجموعات متفرقة ، ويبدو أنه مايزال هناك ضعف هذا العدد لم يتم نشره بعده .

وعلى الجانب الآخر فإن الوثائق الرسمية أو تلك التى لها صفة تعاقدية كانت فى العادة يتم تأريخها ، أما فى حالة عدم وصول مثل هذه الوثائق كاملة فقد كان يفقد منها التاريخ ، كذلك كان يمكن أن تصل إلينا الوثيقة كاملة ، ولكنها غير مؤرخة وذلك فى حالة كونها مسودة أولية أو نسخة من وثيقة ، وكانت طريقة التأريخ تتم بذكر سنة حكم الإمبراطور الرومانى ثم ذكر الشهر واليوم ، ويتم حساب السنة الأولى من حكم الأباطرة من اليوم الذى يبدأ فيه الإمبراطور تولى منصبه ويعنى هذا من الناحية العملية معرفة اليوم الذى تولى فيه الإمبراطور العرش بالنسبة للسلطة الحاكمة فى مصر ، وكان هذا من الناحية العملية يتم بعد مضى فترة تتراوح عامة بين شهر وأربعة شهور من توليه السلطة - إلى نهاية السنة الجارية طبقا للتقويم المصرى. أما السنة الثانية من تولى الإمبراطور السلطة والسنتين التى تليها فقد كانت تبدأ من اليوم الأول من السنة المصرية الجديدة ، ومن اليوم الأول من شهر توت الموافق ٢٩ أغسطس من السنة الرومانية . وهذا يعنى أن التواريخ المصرية التى ستذكر فى هذا الكتاب سوف يذكر معها المقابل لها تتويجيا فى معظم الأحيان .

ويمكننا أن نلخص ماتقدم بأن نقول : أن أوراق البردى اليونانية (واللاتينية) والأوستراكا قد قدمت ومازالت تقدم لنا معلومات لامثيل لها عن الحضارة القديمة فقد أضافت إلى نصوص الأدب الكلاسى المعروفة منذ عصر النهضة عدة نصوص أخرى كانت مفقودة ، وقليل من هذه النصوص وصل إلينا كاملا ، أما أغلبها فقد وصلنا على هيئة شذرات ، كذلك فقد امدتنا ببعض الشذرات التى تنتمى لأعمال معروفة تسبق زمنيا مخطوطات العصور الوسطى الموجودة بألف عام . وتتمثل الغالبية العظمى من أوراق البردى فى أوراق غير أدبية ووثائق ، وقليل منها هو الذى يشبه النقوش حيث توجد لدينا منشورت رسمية ، وقوانين تشريعية ، وسجلات رسمية من مختلف الأنواع .

أما بقية الأوراق فهى تتضمن الكتابات التى تدون فى الحياة اليومية مثل : الحسابات ، العقود ، الخطابات ، الملحوظات ، المذكرات اليومية التدريبات المدرسية والمخربشات ، وهذه المصادر تقدم لنا نظرة قريبة عن "الأغلبية الصامتة" من الرجال والنساء والأطفال والقاعدة العريضة من قاع المجتمع فى حياتهم اليومية .

إننا نرى المحكومين فى المصادر الأدبية فقط من خلال عينى المؤلف وفى الثوب الذى يعرضه لهم أو الشرح الذى يقدمه عنهم ، ونقرأ فى النقوش ماتريد الحكومة أو الأفراد أن يحفظوه للمستقبل ، فهو أثر تم تشيده ليكون بمثابة عين على أحوال السلف وعين على الحاضر ، أما البردى فهو المصدر الدنيوى الوحيد المتبقى لنا - فقد حفظ لنا رسالته كما هى والظروف الخاصة التى أحيطت بها ويمكننا أن نطلق عليه ماتسميه فرجينيا وولف Virginia Woolf (بلحظة الوجود) ، فنحن يمكننا من خلال هذه الأوراق فقط وضع أيدينا على هذه اللحظة الحيوية Sur le vif فى شئون الحياة . وهذا يجعلنا على صلة مباشرة مع المكان وسكانه ، فنحن نقابل السكان ليس من خلال كتاب أو مسرحية تصورهم بشخصيه معينة ، ولكن من خلال طريقتهم الخاصة التى يريدون هم أن يظهروا بها وجها لوجه أفرادا وجماعات .

إن الفصول التى يتضمنها هذا الكتاب تدور فى إطار زمنى يبلغ مداه ثلاثمائة عام : من عام ٣٠ ق.م حتى ٢٨٥م ، أى منذ فتح أغسطس لمصر حتى نهاية عصر نظام المواطن الأول Principatus ، ذلك النظام الذى أسسه أوكتافيا نوس بعد أن منح لقب أغسطس ، أما الفترة الزمنية التى أعقبت عام ٢٨٥م والتى يطلق عليها عصر الحكم الفردى Dominate، والتى كان الحكم فيها بيد الأباطرة الرومان ، فقد جرت فيها تغيرات دستورية أسرعت بها فى اتجاه العصر البيزنطى لكن هذه قصة أخرى .

الفصل الأول
وصول الرومان

العصر البطلمى :

لقد بزغ فجر منتصف شهر أغسطس لعام ٣٠ ق.م مثله مثل أى يوم آخر فى صيف مصر الحار ، ولكن فى هذا اليوم بدأ الرومان يحولون أنظارهم التى كانوا قد ركزوها على مَلَكة مصر ، عندما استطاعت إحدى وصيفاتها المخلصات أن تُهرِّب لها حية سامة من نوع الكوبرا التى كانت تصور على التاج المصرى القديم تمكنت بها ملكة مصر أن تضع حدا لحياتها ، وإذا جاز لنا أن نصدق الشعراء الرومان مثل فيرجيل Virgil وهوراس Horace وبروبرتيوس Pro-pertius فإن وصيفة كليو باترا هربت إليها زوجا من الحيات السامة التى قامت بلدغها فى ذراعها الأيسر ؛ ويصر فريق آخر على أنها لدغتها فى ذلك الجزء العارى من الجانب الأيسر من الصدر . وهكذا فإن هناك كثيراً من التفاصيل الجانبية تدور الخلافات حولها ، أما الحقيقة الجوهرية فتظل واضحة : لقد أنهى السم حياة كيلو باترا السابعة التى لقبت بثافيلورباتور Thea Philopator (الإلهة المحبة لأبيها) والتى تعتبر آخر سلالة البطالمة ، تلك الأسرة المقدونية الأصل التى حكمت مصر قرابة ثلاثة قرون منذ هزيمتها على يد الإسكندر . أما أوكتافيانوس أغسطس الفاتح الجديد ، الذى كان قد اعتزم أن يعرض الملكة فى موكب نصره عند دخوله روما ، فقد تفرس بسرعة فى جسدها المسجى أمامه ، والذى كان يسخر من نصره ، وابتلع مرارة خيبة أمله وأخذ ينظم شئون الحكومة ، وعند نهاية شهر أغسطس كان قد أضاف مصر رسميا إلى امبراطورية الشعب الرومانى . بهذا الإعلان الرسمى الموجز والذكى والذى لم يتجاوز خمس كلمات لاتينية Aegyptum Imperio Populi Romani adieci والتى سجلها فى نقشه الذى دونه فى آخر حياته * إن أوكتافيان الذى أصبح يلقب منذ الآن بلقب أغسطس

---

* سجلت هذه العبارة فى أعمال أغسطس المؤله Res Gestae Divi Augusti المشهور باسم أثر أنقره التذكارى Monumentum Ancyranum والتى أتم أكتافيوس كتابتها قبيل وفاته عام ١٤ بشهور قليلة ، ويصف العلامة الألمانى موش هذا النقش بأنه غرة النقوش اللاتينية Titulos inter Latinos Primarius وذلك لأهميته فى تاريخ الفترة الأخيرة من عصر الجمهورية أو فترة الانتقال من الجمهورية إلى الإمبراطورية (٤٤-٢٨ ق.م) وعصر أغسطس (٢٧-١٤م) ويتضمن سجلا بألقاب وسلطات ومناصب أغسطس التى =

يشير إلى الأسباب الحقيقية للحرب الأهلية التى شنها ضد أنطونيوس والتى قادت روما للاستيلاء على مصر . إن هذا التعبير الموجز يقدم لنا لمحة عن حقيقة العلاقات السابقة التى نشأت بين مصر وروما .

بعد وفاة الإسكندر الأكبر وتقسيم إمبراطوريته ، كانت مصر من نصيب بطلومايوس Pto-lemaios أو بطليموس Ptolemy - كما يكتب فى اللغة الإنجليزية - الذى نجح فى تحويلهاإلى مملكة اعتلى عرشها وتمكن من إضافة عدة أقاليم أخرى إلى ملكه ، وقد بدأت العلاقات الدبلوماسية بين مصر وروما منذ عام ٢٧٣ ق.م * أى قبل عامين من هزيمة الملك بيروس ملك إبيروس Epirus صاحب الانتصار المعروف باسم Pyrrhic Victory (أى الانتصار غالى الثمن) - على يد الرومان وإرغامه على إنهاء غزوه لإيطاليا ويبدوا أن هذه الأنباء هى التى دفعت ببطليموس الثانى الملقب بفيلاديلفوس Philadelphus (المحب لأخته والتى تزوجها) أن يقوم بإرسال سفارة لروما لتبادل علاقات الود والصداقة معها *.

= قبلها أو رفضها وسياسته المالية والعمرانية ، وسياسته العسكرية وفتوحاته وكان أغسطس قد أمر بتدوينه على عمودين مستطيلين مغطى كل منهما بلوحات من البرونز وإقامتهما أمام ضريحة فى ساحة الإله مارس Campus Martius خارج حدود مدينة روما Pomerium ولكن النقش الأصلى ضاع ، وعثر على أول صورة منه عام ١٥٠٠ فى أنقرة وهو مكتوب من صورتين واحدة باللاتينية والأخرى باليونانية ، واكتشفت نسخه أخرى يونانية (غير كاملة) فى بلدة أبولونيا بإقليم بوسيديا بآسيا الصغرى أيضا وأخيرا اكتشفت نسخة ثالثة (فى شكل شذرات باللاتينية فى أنطاكية Antiochea وعن نص الوثيقة وترجمتها والتعليق عليها راجع :

CIL., III, 2 (c 1873), pp. 769-799; E.G. Hardy, The Monumentum Ancyranum, Oxford 1923.; F.W. Shipley, Velleius Paterculus- Res Gestae Divi Augusti, Clcl. 1924; Y.E. Sandys, Latin Epigraphy, 2 nd edit. rev. by S.G. Campbell, Cambridge 1927; R.H. Barrow, A Selection of Latin Inscriptions, Oxford 1934; J.D. Newly, Numismatics Commentary on the Res Gestae of Augustus, USA. 1938; J. Gage, Res Gestae Divi Augusti Pub. Fac. (ett. Univer. Strasb; Textes d'Etudes. 5, 2 eme ed. Paris 1950 ' N.Lewis and M. Reinhold, Roman Civilization, Vol. II, New york. 1955.

المترجمة .

* وعن تطور العلاقة بين مصر والجمهورية الرومانية منذ القرن الثالث حتى فتح أغسطس لمصر راجع : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية فى ضوء الوثائق البردية ، الطبعة الثانية جدة ، ١٩٨٣ ومايليها .

أما حكام الممالك الهللينستية الأخرى فقد اكتفوا بتجاهل تلك الأحداث التى كانت تدور شرقى البحر الأبيض المتوسط ، لقد استطاع فيلاد يلفوس أن يتنبأ بأن روما سوف تصبح خلال الأجيال الثلاثة القادمة سيدة العالم المعروف فى ذلك الوقت ، وقد استفاد البطالمة الأواخر من بعد نظره وثاقب فكره ، إذ أخذت روما تنشر نفوذها فى الشرق منذ القرن الثانى ، ودخلت فى صراع مع الممالك الهللينستية الواحدة وراء الأخرى ، أما مصر التى احتفظت منذ فترة طويلة بصداقة الرومان ، والتى لم تقف قط إلى جانب أعدائها فقد قامت روما بمساعدتها ومديد العون لها عند الحاجة ثم أخذ هذا العون يتطور ليأخذ شكل الحماية بالتدريج ، فقبل أن تصل كيلو باترا إلى عرش أسلافها ، كانت مصر لاتزال دولة مستقلة من الناحية الشكلية ، أما فى واقع الأمر فقد أصبحت دولة تابعة تدور فى فلك روما .

إن الإشارات الطفيفة التى تشير إليها المصادر تمكننا من أن نتتبع المراحل التى مرت بها مصر : من دولة هللينستية قوية إلى دولة تابعة لروما فعندماكان الإنتاج الزراعى الإيطالى يعانى من التخريب الذى ألحقه به هانيبال عام ٢١٠ ق.م عند غزوه لإيطاليا كان الرومان على استعداد للحصول على مساعدة من غلال مصر وعندما اعتلى عرش مصر بطليموس الخامس الملقب - بالإله الظاهر - إبيفانيس Epiphanes بعد خمس سنوات من التاريخ المشار إليه ، كان صبيا فى الخامسة من عمره ، حدثت اضطرابات فى الإسكندرية بسبب المكائد التى أدت إلى وقوع الصراع الدموى فى شوارع المدينة . وإذا ولينا أنظارنا اتجاه المملكة السلوقية فى سوريا نرى أن ملكها أنطيوخوس الثالث Antiochus وجد فى ظروف مصر وأحوالها فرصة أرسلتها السماء لكى يتمكن بها من تمزيق إمبراطورية البطالمة ، فقام بحصار فينقيا واستولى عليها ، وواصل الجيش السورى زحفه حتى وصل إلى بوابة مصر ، كانت روما قد انتهت لتوها من حربها ضد هانيبال ، لذلك أسرعت بالتدخل وأصدرت أوامرها لأنطيوخوس بأن يبعد يده عن مملكة تقع فى دائرة وصايتهم طبقا لآخر وصية أوصى بها والد الملك بطليموس الخامس الرومان[١] .

لقد انحنى أنطيوخوس الداهية أمام القرار الأخير Ultimatum وحافظ على انتصاراته خارج مصر ، واختتم الوضع الراهن Status Quo بأن زوج ابنته للملك بطليموس الخامس .

وبعد مضى جيل آخر اعتلى العرش البطلمى ثانية صبى صغير هو بطليموس السادس فيلوميتور Philometor (المحب لأمه) ولما كانت روما مشغولة فى ذلك الوقت فى حربها ضد الملك برسيوس Persius المقدونى ، فقد أقدم أنطيوخوس Antiochos الرابع على غزو مصر وأسر ملكها ، وأعلن نفسه ملكا على كل أراضى النيل .

وعندما كان فى معسكره الذى أقامه على مقربة من الأسكندرية عام ١٦٨ ق.م وصلت إليه أنباء انتصار الرومان وسحقهم لبرسيوس فى معركة بيدنا Pydna وهنا ظهر جايوس بوبيليوس لايناس Gaius Popillius Laenas على المسرح وكان مدعما بقرار من مجلس السناتو الرومانى ، ثم تتابعت فصول المسرحية الدرامية كما يذكرها لنا المؤرخ الإغريقى المعاصر بوليبيوس Polybius * :

"لقد سلم لايناس لأنطيوخوس" قرار السناتو الذى يأمره فيه بإنهاء حربه فورا ضد بطليموس وبسحب جيشه فى مدة محددة إلى سوريا ، فلما قرأ الملك الرسالة طلب مهلة للتشاور مع أصدقائه عن التطورات الأخيرة ، هنا قام بوبيليوس بفعل حازم اتسم بالعجرفة الزائدة والكبرياء أمام كل الحاضرين ، فقد كان يحمل فى يده عصا قطعت من كرمة عنب فرسم بها دائرة حول أنطيوخوس وأمره أن يجيب على رسالة السناتو قبل أن يغادر الدائرة ، ولقد بهت الملك من عنف هذا التصرف ، لكنه بعد تردد قصير أجاب بأنه سيفعل كل ما يطلبه منه الرومان"[٣] .

لقد وصلنا الآن إلى نقطة فاصلة فى تاريخ العالم الهللينستى السياسى ولكى نستوعب ذلك لسنا فى حاجة إلى فطنة أو نظرة شمولية ، كما أنه لم يكن هناك سر خفى على المعاصرين المتميزين ، فقد ذكره لنا هنا المؤرخ بوليبيوس فى كلمات عنيدة فى فصله الافتتاحى لمؤلفه التاريخى الكبير . ومنذ الآن فصاعدا أصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية ، وأصبح الذين يعيشون فى دوله وحولها ينظرون إلى روما على أنها الفيصل والحكم فى مصائرهم .

وبعد طرد أنطيوخوس من مصر قامت المنازعات بين بطليموس السادس وأخيه الصغير ، وأنهى مجلس السناتو الرومانى تلك المشكلة بالإبقاء على الأخ الأكبر على عرش مصر التى فصلوا عنها قورينه Cyrenaica (وهى ليبيا الآن على وجه التقريب) وجعلوها مملكة مستقلة ليحكمها أخوه الصغير . وبعد مضى سنوات قليلة ادعى ملك ليبيا أن أخاه دبر مؤامرة لقتله لكى يحكم ليبيا ولكنه تمكن من القضاء عليها بمهارة إذا كانت هناك فى الحقيقة ثمة مؤامرة

---

* من أهم الدراسات التى كتبت عن بوليبيوس تلك التى قام بها الأستاذ فرانك وولبانك وهى على النحو التالى : F. Wallbank, Polybius, Vol. I, Cambridge 1973, Val. II Cambridge 1991.

ولذلك قام بكتابة وصية أوصى فيها بملكه للرومان ، وقد عثر على هذه الوصية مدونة على أحد النقوش فى قورينه ولم توضع هذه الوصية موضع التنفيذ لأن كاتبها آل إليه حكم مصر بعد موت أخيه .

وتولى عرشها تحت اسم بطليموس الثامن يورجتيس الثانى Euergetes (أى الخير) وكذلك حمل لقب فيسكون Physkon (أى صاحب البطن الضخمة Potbelly) ويعتبره عهده من أطول عهود البطالمة إذ حكم لمدة ٥٤ عاما .

وقد نتج عن ازدهار مدينة الإسكندرية الاقتصادى أن استقر بها كثير من التجار والبحارة الرومان كما قام كثير من رجال الدولة الرومان برحلات سياحية لزيارة معالمها . وقد عثر على بردية ترجع لعام ١١٢ ق.م فى خرائب إحدى القرى التى تبعد حوالى مائة كيلو متر عن تمثال أبى الهول والأهرامات الكبرى تتضمن التعليمات التالية التى أصدرها أحد كبار الموظفين فى الإسكندرية حيث يقول :

"سوف يقوم لوكيوس ميموس Lucius Memmius عضو مجلس السناتو الرومانى ، والذى يشغل مركزا مشرفًا رفيعا برحلة من الإسكندرية إلى إقليم الفيوم Arsinoite nome لمشاهدة المنطقة ، لذلك يجب استقباله استقبالا حافلا كما يجب أن تعد دور الضيافة فى الأماكن المناسبة وأن تكون المراسى البحرية المؤدية إليها منتظمة فى عملها كذلك ينبغى إعداد الهدايا المذكورة فى القائمة لكى تقدم له فى كل مرسى ، وأن تكون كل دار من دور الضيافة مؤثثة ومعدة لاستقباله كما ينبغى إعداد طعام جيد لبيتوسوخرس Petosouchos (إله التمساح) والتماسيح الأخرى - التى على قيد الحياة - والقيام بعمل الترتيبات الضرورية لكى يقوم بمشاهدة قصر التيه Labyrinth وعملية تقديم القرابين والأضاحى . باختصار ينبغى القيام بعمل اللازم "لتحقيق الراحة الكاملة له واستقباله استقبالا حارا .." (فقدت بقية أجزاء البردية[٤]) .

لقد أصبح واضحا الآن مدى ازدياد اهتمام الرومان بمصر من الناحيتين التجارية والسياسية، ثم تقيدت حركة روما لبعض الوقت نتيجة لاستمرار مشكلتى النزاع الداخلى على السلطة فى روما وحروبها الخارجية ، وبذلك تمكنت مصر فى هذه المرحلة من أن تدير شئونها الداخلية لمدة بلغت ثلاثين عاما دون تدخل من جانب الرومان ، ثم سرعان ما التقى المسار السياسى لكل من مصر وروما مرة أخرى فى حقبة الثمانينات ، فعندما كان سلا Sulla يعسكر فى الشرق أخذت روما تزيد من سيطرتها على مصر ، إذ توفى بطليموس التاسع

سوتير الثانى Soter عام ٨٠ ق.م دون أن يخلف وراءه ذرية من الذكور ، ولذلك قام سلا بملأ الفجوة واختار أحد أفراد الأسرة البطلمية ونصبه على العرش ، وهكذا أصبح هذا الملك تحت حمايته .

لقد أصبح هناك منذ الآن فصاعدا ظل دائم للتدخل الرومانى فى شئون مصر التى غدت ألعوبة فى أيدى الساسة الرومان ، ففى عام ٥٨ ق.م لجأ بطليموس الحادى عشر الملقب بأوليتيس Auletes (الزمار) - لمهارته فى العزف على المزمار - لروما ، وتمكن من الحصول على تأييد بومبى الذى أشار عليه بالاستعانة بصديقة جابنيوس Gabiniusحاكم ولاية سوريا الرومانى . لهذا قام جابنيوس بغزو مصر وأعاد الزمار على عرشها عام ٥٤ ق.م ثم قام بطليموس بتعيين جابوس - رابيريوس بوستيموس Gaius Rabirius Postumus وزيرا لمالية مصر ، وقد ادعى بطليموس لتبرير ذلك أنه لم يعد قادرا على إدارة شئونها المالية ودفع لجابينيوس الرشوة المالية الكبيرة (١٠٠٠٠ر١٠ تالنت) التى كان قد وعده بها ، كما عجز عن أن يسدد الديون الأخرى التى كان قد اقترضها من الدائنين الرومان بعد أن كان فى الحقيقة قد قدم لهم مملكته كضمان لسداد ديونه .

ولانستطيع أن نعرف على وجه التحديد من هو الذى استفاد من تعيين رابيريوس وزيرا لمالية مصر ، ولكننا نعرف من خطب شيشرون Cicero التى ألقى فيها التهم على كل من جايينيوس ورابيريوس أن الأول عاد إلى روما حيث حوكم وتمت إدانته بتهمة الرشوة وحكم عليه بالنفى ، أما الثانى فقد برأ من نفس التهمة .

وعندما توفى بطليموس الزمار فى عام ٥١ تولى عرش مصر طبقا لوصيته كل من ابنته الكبرى كيلو باترا وكانت فى الثامنة عشرة من عمرها ، وابنه الأكبر بطليموس ، وكان فى حوالى التاسعة أو العاشرة من العمر ، وجعل بطليموس الرومان أوصياء على تنفيذ وصيته . ثم اشتعلت الحرب بعد مضى سنتين ليس فقط بين قيصر Caesar وبومبى Pompeius ولكن أيضا بين الحزبين الملكيين المتناحرين فى مصر ، ومات بومبى فى العام التالى ٤٨ ق.م ، أما قيصر الذى كان يتعقبه فقد وصل لمصر . ومات بطليموس الثانى عشر عندما هزمت قواته أمام قوات قيصر ، وحل محله بموافقة قيصر أخوه الأكبر بطليموس الثالث عشر ، ليكون شريكا فى الحكم وزوجا لأخته كيلو باترا ، وكان مجرد طفل صغير . وبعد تلك الفترة المشحونة بالأحداث أمضى قيصر شهرين فى مصر فى الاحتفالات والاستمتاع ، حيث حمل الصندل الملكى فى النيل كل من قيصر وكيلو باترا فى رحلة غرام شاعرية وسط آثار مصر الرائعة .

وعندما غادر قيصر مصر كانت كيلو باترا تحمل ابنه ، وفى عام ٤٦ ق.م وصلت لروما مع زوجها الصبى ، وطفلها الذى أطلق عليه اسم بطليموس ، ولكنها كانت تفضل - كما نفضل نحن - أن نطلق عليه اسم قيصرون Caesarion (أى أبن قيصر) وأقامت الأسرة الملكية فى ضيعة قيصر الواقعة على تل جانيكولا Janiculan عبر نهر التيبر من وسط روما . هناك اختلطت مشاعر المجتمع تجاهها لتصبح مزيجا من الغضب والابتهاج (الاثارة). * وقبل حوالى عشر سنوات مما حدث كتب فيرجيل Virgil أنشودة فى مجموعة قصائده الرعوية العاشرة Eclogae يقول فيها "لقد هزم الحب الجميع" على أن سهام كيوبيد أثبتت أنها أضعف فى المباراة أمام قوات قيصر أوكتافيانوس العسكرية ، فقد هزم كل من كيلو باترا وأنطونيوس فى سبتمبر من عام ٣١ ق.م فى معركة أكتيوم البحرية غربى بلاد الإغريق بسبب الخلاف الذى حدث بينهم لوضع خططتهم العسكرية . وفر الاثنان عائدين إلى مصر وقام أوكتافيانوس بتعقبهم لذلك فضلا الانتحار على الوقوع فى يد المنتصر ، أنطونيوس أولا ثم كيلو باترا بعد ذلك وقد أبقى المنتصر على حياة أبنائهم الثلاثة ، وقامت أوكتافيا شقيقة أوكتافيانوس - وزوجة أنطونيوس السابقة - بالإشراف على تربيتهم . أما قيصرون فقد تخلص أغسطس منه، حيث ذكره أحد فلاسفة الإسكندرية - إذا كان فى حاجة إلى تذكير - أن وجوده يمثل خطورة عليه لأنه يحمل اسم قيصر . هكذا أصبحت مصر فى عام ٣٠ ق.م فى يد الفاتح الرومانى دون وجود أى مطالب بعرش البطالمة ، وقام أوكتافيانوس بوضع الترتيبات التى كان لابد من اتخاذها من تعيين حاكم رومانى وجهاز إدارى لها إلى جانب وجود جيش لاحتلالها وحفظ الأمن فيها .

---

* وبعد شهر من اغتيال قيصر اعتبرت كيلو باترا أن من الأحكم أن تغادر روما وتقفل راجعة إلى مصر مع عائلتها وحاشيتها . أما علاقة كيلو باترا بأنطونيوس فقد دامت زهاء اثنى عشرة سنة أى من ٤٢ - ٣٠ ق.م ولقد خلدت مشاعر الحب الرومانسية بينهما فى قصائد وحكايات لانرى ضرورة لاعادة سردها هنا ، ومالم يكن معروفا هو أن كيلو باترا قد حملت من أنطونيوس توأمين ولدين وبنتا وأن علاقة حبهما قد توجت فى النهاية بزواج رسمى . وأيا كان الدور الذى لعبته العاطفة فى قلب أنطونيوس إلا أنه اختار كيلو باترا بناء على حس سياسى ذكى . فقد كان يعرف أنه سوف يتصارع مع أوكتافيانوس على روما وامبراطوريتها وأن هذا الصراع حتمى . لذا اختار مصر بمواردها الغنية ومعها زوجة مصرية هى كيلو باترا ، وبذا استطاع أنطونيوس أن يحصل على نصف العالم الرومانى وهو النصف الأغنى بالرجال والثروة .

مصر فى العصر الرومانى :

ومنذ عام ٢٧ ق.م أخذ الحاكم الرومانى يسير بخطى حذرة لوضع مظلة على شخصية أوكتافيانوس وإبراز شخصية أغسطس ، الذى احتل المرتبة الأولى فى سلسلة الذين نطلق عليهم الأباطرة الرومان ، هذا على الرغم من اختيار أغسطس لقب المواطن الأول ، Princeps له ولخلفائه من بعده ، لقد حكم أغسطس لمدة بلغت ٤١ عاما قام خلالها بإجراء عديد من الإصلاحات الدستورية والاجتماعية فى المجتمع الرومانى ، وأعاد تنظيم هيئة النبلاء بعد النكسة الكبيرة التى لحقت بها . وماتزال الطريقة التى أدار بها مصر تثير جدلا كبيرا بين الباحثين ، ولكن هناك أمور متفق عليها هى على النحو التالى :

فيما يختص بالقاعدة العريضة من جماهير الفلاحين من الشعب المصرى فقد ظلوا يمارسون حياتهم فى قراهم بدون تغيرات جوهرية ، فيما عدا الإحساس بزيادة وطأة الضرائب فالرومان كانوا أكثر حنكة فى جباية الضرائب من حكومات البطالمة المتأخرة والضعيفة .

أما فيما عدا ذلك فقد واصلت الحياة سيرها فى القرى المصرية بالطرق التقليدية فى بعض الأحيان ، كما واصل نهر النيل فيضانه السنوى ، بمنسوبه المرتفع فى بعض الأحيان والمنخفض فى أحيان أخرى ، كما أنه كان يتناسب مع حاجة المحاصيل للرى فى أوقات أخرى ، لقد أدرك المصريون أن الحاكم الجديد الذى يقيم بعيداً لن يتدخل فى نمط حياتهم ، وأنه مثله فى ذلك مثل الحكام البطالمة بل أيضا ملوك الفرس قبلهم ، ولذلك اعتبروا حكمه بداية حقبة جديدة من الفراعنة الأجانب ، وواصلوا بناء معابدهم وزخرفتها على نمطهم المصرى طوال حقبة المواطن الأول التى بلغت ثلاثة قرون من الزمان . وقد ظهر الأباطرة على رسوم الجدران فى مكان فراعنتهم وبأوضاعهم التقليدية فى الخراطيش الملكية حيث كانوا يرتدون الزى الفرعونى ، ويضعون التاج على رؤوسهم ، ووضعوا إلى جانب كل منهم اسمه فى خرطوشة ، وتردد النقوش الهيروغليفيه المسجلة لهم ألقاب التشريف التى اعتاد المصريون إطلاقها على فراعنتهم مثل "ابن رع" ، والمقرب إلى بتاح وإيزيس " الخ .

لقد جعل النظام الإدارى وإدارته المحلية والمركزية من مصر منذ عصر أغسطس ولاية رومانية ، وتمثل واجب مصر الأول فى دائرة الإمبراطورية الرومانية فى تغطية ثلث احتياجات مدينة روما السنوية من الغلال لإطعام شعبها . وحتى يضمن أغسطس عدم حدوث اضطراب فى هذا المورد فقد وضع مصر فى وضع أصبحت تبدو فيه كما لو كانت تابعه للخزانة

الإمبراطورية ، وعلى عكس الولايات الرومانية الأخرى التى كان يحكمها طبقة من الحكام وصلوا إلى مرتبة نائب القنصل Proconsul فقد أسندت مصر إلى حاكم أقل أهمية لقب بلقب برفكت Praefectus ويقوم الإمبراطور بتعيينه ليكون بمثابة نائب إله وكان هذا الوالى ينتمى إلى طبقة الفرسان ، وهى الطبقة التى ينتمى إليها أغسطس فى الأصل ، والتى أصبحت منذ بداية توليه الحكم بمثابة العمود الفقرى والمعقل الذى يؤيده . وحرم أغسطس على أعضاء السناتو الرومان والفرسان اللامعين زيارة مصر إلا بإذن من الإمبراطور .

وربما يظن البعض أن أغسطس اتخذ هذا الإجراء لأن الزيارات المتكررة من قبل أصحاب المناصب العليا فى روما لمصر الذى يشغل واليها مرتبة أدنى منهم تقلل من مكانته فى نظر من يقوم بحكمهم ، ولذلك قرر أغسطس منع هذا الوضع .

ولكن كان الدافع الأول من وراء وضع هذه القيود يرجع إلى منع ذوى الطموح السياسى من المعارضين له أن يفكروا فى إمكانية اتخاذ مصر قاعدة لمعارضته السياسية والعسكرية كما فعل أنطونيوس من قبل ، أما والى مصر الذى احتل مكانة رفيعة بين المصريين فقد نظروا إليه على أنه كان نائبا عن فراعنتهم الذين كانوا يقيمون بعيدا فى روما .

لقد أبقى أغسطس على أقسام مصر الإدارية بأقاليمها الثلاثين nomes والتى يحكم كل منها مدير Strategos فبدلا من أن يغير أغسطس فى الشكل أجرى تغييراً فى المضمون من حيث سلطات حكامها ، فقد كان المديرون يجمعون فى العصر البطلمى بين السلطتين الإدارية والعسكرية ، لذا قام أغسطس بسلبهم الجانب العسكرى من اختصاصهم وأبقى على الجانب المدنى منه ، أما السلطة العسكرية فقد جعلها من اختصاص القوات الرومانية . إن هذه القوات التى كانت تنتشر انتشارا استراتيجيا فى الولاية لم يكن جنودها من طراز جنود البطالمة الذين كانوا جنودا ومزارعين فى آن واحد ويعيشون مع عائلاتهم فى أراضيهم الزراعية التى وزعها عليهم الملك البطلمى ، ولكنهم كانوا يعيشون فى معسكرات حصينة قلما كانوا يغادرونها ، وقد وضع أغسطس فرقة عسكرية بالقرب من الإسكندرية ، والثانية وضعها فى بابليون عبر النيل قرب منف ، ثم قام بتوزيع وحدات أخرى على الأماكن الهامة مثل الحدود ، المناجم ، المحاجر ، الطرق الرئيسية وحراسة مستودعات الغلال .

إن الحكومة المدنية كما أسسها أغسطس ، وطورها خلفاؤه من بعده كانت رومانية الملامح ، وكان شاغلو وظائفها ماعدا العليا منها من الطبقات المحلية ، وكانت اليونانية وليست اللاتينية هى لغتها ، وفى الإسكندرية كان يوجد بين موظفى الحاكم بعض الضباط والكت

يتحدثون اللغتين معا blingual وهؤلاء هم الذين كانوا يقومون بترجمة الأصول والمراسلات الخاصة بالإمبراطورية التى أصدرها الأباطرة والحكام باللاتينية إلى اللغة اليونانية لنشرها فى الولايات كذلك استمرت بعض الألقاب البطلمية ، ولكن أدخل عليها بعض التعديلات مثلها فى ذلك مثل مناصب مديرى الأقاليم . أما فيما عدا ذلك فقد نشأت بعض المناصب الجديدة ، واستحدثت ألقاب جديدة طبقا للحاجة إليها ، كما وضعت تنظيمات جديدة لمعالجة بعض النواحى الاقتصادية والاجتماعية والدينية الهامة .

لقد استغرقنا وقتا فى رسم حدود الصورة وإطارها وحتى لانستغرق فى مزيد من التفصيلات ينبغى علينا أن نوجه اهتمامنا الآن لشعب ولاية مصر الرومانية لنتتبع أحوال معيشتهم .

الفصل الثانى
الطبقات والسكان أو تحديد الوضع الطبقى

فى عام ١٠٠م كتب بلينى Pliny الصغير ذلك الرومانى النبيل المثقف ، وأحد رجال الدولة المرموقين إلى الإمبراطور الرومانى تراجان Trajan قائلا :

"إننى أقدم لك ياسيدى جزيل شكرى لمنحك كاتبى حربوقراط الجنسية الرومانية ، وقد ذكرنى بعض الأفراد الذين لهم دراية أكثر منى فى المجال القانونى بأننى كان يجب أن أحصل لحربوقراط على الجنسية السكندرية أولا : لأنه مصرى الأصل . لذلك فإننى أرجوكم منحه الجنسية السكندرية حتى يمكنه الاستفادة من منحتكم من الناحية القانونية"# وقد رد عليه الإمبراطور قائلا :

"حيث أننى أقتفى أثر الأباطرة السابقين ، فإن سياستى تقضى بعدم التهاون فى منح الجنسية السكندرية . ولكن حيث أنك قد حصلت بالفعل على الجنسية الرومانية لكاتبك حربوقراط ، لذا ينبغى عليك أن تخبرنى عن الأقليم التابع له ، حتى يمكننى أن أكتب إلى صديق بومبيسوس بلانتا Pompius Planta والى مصر عن هذا الأمر" .

من هذين الخطابين المتبادلين يتضح لنا شكل البناء الاجتماعى والسياسى لمصر فى العصر الرومانى لقد كانت هندسته تأخذ شكلا هرميا ، تحصل فيه قمته الطبقية على أكثر الامتيازات، وقد تكونت من عدد قليل من الرومان الذين كانوا يقيمون فى مصر . ويلى هذه الطبقة ، طبقة أخرى أكبرى عددا ولكن أقل امتيازا وتتكون من الإغريق ساكنى المدن ، واليهود قبل أن تسقط عنهم الحكومة امتيازاتهم . لقد ارتكزت هاتان الطبقتان اللتان احتلتا القمة علي قاعدة عريضة وعميقة من بقية السكان : تضم الفلاحين ، الصناع ، ملاك الأراضى والتجار قليل منهم من كان يتمتع بالثراء ، ولكن أكثرهم كانوا فقراء ، حيث كان الوضع يسمح لسكان المدن بالحصول على بعض الامتيازات ، أما القرويون فلم يكن لهم حق

راجع الوثيقة كاملة فى : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص ٢٥٣ .

التمتع بأية ميزة . وباختصار فإن تلك القاعدة الشعبية العريضة التى كانت الحكومة الرومانية تجمعها معا بازدراء وبدون تمييز كانت تطلق عليها اسم المصريين . أما العوائق التى وضعت لمنع التحول من طبقة لأخرى فقد كان من الصعب اجتيازها إلا باستثناء من الإمبراطور . أما طبقة السكندريين تلك الطبقة الثرية المشهورة فقد كافئوا أهلها بتميزهم فى جنسيتهم مثل الرومان . وعلى أى حال فقد كان هناك ثمة قرابة بين مواطنى العاصمتين العالميتين إضافة إلى أن العادة قد جرت على أن الطبقة الثرية فى جميع ولايات الإمبراطورية الرومانية كانت تؤيد الرومان . أما الحكام الذين كان هدفهم الرئيسى المحافظة على استقرار الأوضاع الاجتماعية ، فلم يكم لديهم ما يدفعهم لتشجيع المصريين إلى التحرك من وضعهم الذى حدد لهم ضمن هذا الإطار . وفى عام ٢١٢ قام الإمبراطور - كاراكالا بمنح الجنسية الرومانية لكل المقيمين بين حدود الإمبراطورية الرومانية بجرة قلم أما قبل ذلك فقد كان لايمكن لمصرى أن يحصل على الجنسية الإسكندرية أو الرومانية دون استثناء من الإمبراطور .

الرومان :

حمل حاكم الولاية لقب والى مصر Praefectus Aeggpti وكان بمثابة نائباً عن الإمبراطور الذى يرسله من روما . ولذلك فقد كان يعمل بالطبع على إرضائه وتراوحت مدة شغله لمنصبه بين سنة وثلاث سنوات ، وقلماارتفعت لتتراوح ، بين أربع وخمس سنوات ، وكان يقيم فى الإسكندرية مع الموظفين الرومان ، ويقوم بمغادرتها مرة واحدة كل عام فى رحلة لمدة أربعة أو خمسة شهور يصحب فيها موظفا أو أكثر من مرؤسيه الرومان لزيارة مدينتين : إحداهما فى الدلتا ، والثانية فى مصر العليا حيث يعقد المحاكمات الجنائية الكبرى ، ويقوم باستلام الالتماسات من السكان المتضررين ، ويفحص حسابات وإجراءات موظفى الإدارة المحلية وكانت هذه الزيارة التشريعية تعتبر فى نظر شعب الولاية رمزا للحكومة التى تقيم بعيدا عنهم ولا يشاهدونها .

أما رموز الحكم الرومانى التى كان يشاهدها سكان الولاية بصفة دائما فتمثلت فى الجنود الرومان الذين يعسكرون فى الولاية . وقد تكون الجيش فى أغلب فترات الحكم الرومانى من فرقتين Legiones من المواطنين الرومان ، بالإضافة إلى عدد من القوات المساعدة Auxilia التى كانت تتكون من سكان الولايات فيما عدا عددا قليل من الرومان - وكانت توضع تحت قيادة ضباط رومان . وقد تراوح العدد الإجمالى لتلك القوات بين سبعة عشر ألفا وثمانية عشر ألفا - أما القوات المساعدة فكانت تضم : مشاة وفرسان وقوات بحرية تمركزت فى

الإسكندرية للقيام بعملية الإشراف البحرى والنهرى . ونستطيع أن نستخلص من أوراق البردى وجود عدد آخر من أفراد الوحدات الذين يتمركزون فى الأماكن الاستراتيجية على طول البلاد وكانوا يقيمون فى بعض الأحيان فى معسكراتهم ، وفى أحيان أخرى كان يسند إلى فرد أو مجموعة منهم القيام بعمل معين ويمثل تلك الفرق من القوات المساعدة تلك التى تمركزت لأول مرة عبر النهر فى اقليم أبوللونوبوليس Apollonopolis فى مصر العليا عام ١٣١م وقد رأيناها بعد خمس وعشرين عاما من ذلك التاريخ ماتزال تقيم فى معسكرها هناك ، وقد تكونت من ٥٠٥ جندى ضمتهم وحدات مئوية Centuriae ، وثلاث وحدات عسكرية ، و٣٦٣ جنديا من قوات المشاة و١١٤ فارسا ، ١٨ جملا[٢]. لم يكن يسمح لغير الرومان بالخدمة فى الفرق الرومانية التى بلغت مدة الخدمة فيها خمسة وعشرون عاما . أما القوات المساعدة التى كان يكافىء المسرحون منها تسريحا مشرفا بالحصول على الجنسية الرومانية . فقد بلغت مدة الخدمة فيها سبعة وعشرون عاما . على أى حال فإن جميع الطرق المؤدية إلى الحصول على الوضع المميز ، بما فى ذلك طريق الخدمة العسكرية الطويل كان موصدا أمام جماهير الشعب المصرى . واستمر هذا الوضع حتى نهاية القرن الثانى عندما وجدنا عدد من أفراد القوات المساعدة ينتمون إلى عواصم الأقاليم المصرية (الفصل الثالث) ، وترجع جذور هذه الفئة إلى طبقة الإغريق الذين استوطنوا مصر أثناء العصر البطلمى . أما على الجانب الاجتماعى المقابل لجموع الجنود فنجد عددا من أثرياء الرومان يقومون بزيارة مصر - كما هو الحال لدى بعض الأوربيين اليوم - ليتمتعوا بجوها الجاف لكى يشفيهم سواء كان ذلك حقيقة أم خيالا من بعض الأمراض .

وهكذا أخذت أعداد الرومان الذين استقروا فى مصر تتزايد تدريجيًا كما حصل بعض أفراد من العائلات السكندرية على الجنسية الرومانية ، وكان أغلبهم من الجنود المسرحين من الخدمة العسكرية وقد اتبع الأباطرة الرومان على مدى قرن ونصف من الزمان سياسة تجنيد جنود من الولايات ووضعهم فى وحدات عسكرية متمركزة فى ولايات ومناطق أخرى غير مواطنهم . وقد ترتب على ذلك أن الجنود الذين تم تسريحهم خلال تلك الفترة والذين استقروا فى مصر كانوا يرجعون لأصول أجنبية فقد عسكروا فى مصر خلال فترة شبابهم لذا شعروا بأنها موطنهم ، كما كانوا قد تزوجوا وأنجبوا أطفالا حتى قبل ثلاثة قرون من الاعتراف بزواج الجنود أثناء فترة خدمتهم ، هؤلاء الأطفال وتلك الزوجة كان يتم الاعتراف بهم بعد تسريح الجنود تسريحا مشرفا من الخدمة العسكرية . أما التغيير الذى تم فى عهد الإمبراطور هادريان ١١٧/١٣٨م والذى تمثل فى سياسة التجنيد المحلى للجنود فقد ترتب على هذه السياسة أن أصبح الجنود

المسرحين المقيمين فى مصر والذين ترجع جذورهم إلى منتصف القرن الثانى أصبحوا من طبقة سكان المدن الذين اتخذوا طريق ازدواج أسمائهم فى الكشوف وتأدية الخدمة العسكرية سبيلا للدخول إلى العالم الرومانى المتميز* .

وكان يمكن للجندى المقتصد غير المبذر أو المغامر أن يقوم بمشروع اقتصادى ويصبح من أصحاب الثروة . لأنه لم يكن يحصل فقط على مكافأة التسريح التى كانت تبلغ ١٢٫٠٠٠ دراخمة لجندى الفرقة ، وأقل من ذلك للقوات المساعدة ، ولكن يبدو أنه خلال فترة خدمته العسكرية التى تصل لربع قرن من الزمان كان يفرض عليه أن يدخر جزءا من راتبه . وفى أثناء خدمة الجندى العسكرية والبوليسية والأعمال الأخرى المرتبطة بها كان يمكن للرجل الذى يدخر مبلغا نقديا أن يجد فرصا عديدة لاستثمار أمواله استثمارات قصيرة أو طويلة الأجل وأن

---

* كان الجنود المسرحون من القوات المساعدة أو الأسطول يمنحون عند تسريحهم تسريحا مشرفا بعد خدمة ٢٥ عاما فى القوات المساعدة Auxilia والمسرحين من الأسطول Classis بعد ٢٦ عاما حق الجنسية الرومانية Civitas لهم ولأبنائهم وأحفادهم السابقين واللاحقين ، أو منح هذا الحق لهم ولأبنائهم اللاحقين فقط منذ حوالى عام ١٤٤م ، فضلا عن حق الزواج الكامل الأهلية Conubium . والمعروف أن الزواج كان محرما فى الأصل على الجنود طوال مدة الخدمة العسكرية حتى رفع هذا الحظر حوالى عام ١٩٣م . وبمقتضى حصول الجندى على حق الزواج فمعناه أن أبناء الجندى الذين ينجبهم من امرأة غير رومانية يكتسبون مثله الجنسية الرومانية والبراءات العسكرية Diplomata Militaria التى كان يحصل عليها الجندى المسرح فى صور من شهادات كانت تصدر فى روما بمقتضى مراسيم امبراطورية Constitutiones وهى عبارة عن لوحين مستطيلين من البرونز (٥ X ٦ بوصة) موصول أحدهما بالآخر diptycha بسلك مضفور يمر بين ثقبين (أو أكثر) بحافة اللوحتين وثقبين آخرين فى الوسط . وكانت الشهادة تحرر من صورتين إحداها على الوجه الداخلى Scriptura interior والأخرى على الوجه الخارجى لهما Scriptura exterior ، ثم يطوى اللوحين ويضع سبعة من الشهود أختامهم على أحد الوجهين الخارجين عند السلك المار بثقبى الوسط ويوقع كل منهم باسمه أمام ختمه. وكان القصد من ذلك حفظ النص الداخلى سليما والرجوع إليه فى حالة الطعن بأن النص الخارجى قد تناولته يد بالتحريف أو التزييف ويبلغ ماعثر عليه من براءات عسكرية حوالى ٢١٠ براءة من جميع أنحاء الإمبراطورية وقام بجمعها الأستاذ نسلهاوف وعلق عليها فى مجلد واحد هو المجلد السادس عشر من مجموعة النقوش اللاتينية عام ١٩٣٦ ونشر لها ملحقا عام ١٩٥٣ .

وراجع أيضا ، عبد اللطيف أحمد على ، مصادر التاريخ الرومانى ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١١٧-١١٩ .

يحصل على عائد سهل منها . ومن بين هذه الاستثمارات شراء وبيع العبيد والمشاركة فى أعمال متعددة تأتى فى مقدمتها القروض المالية ، التى كان عائدها الشهرى يبلغ ١٪ مما يؤدى إلى الزيادة السريعة فى رأسمالها فقد سجل أحد الجنود أنه قام بشراء نول للنسيج بلغ ثمنه ١٣٫٠٠٠ دراخمة نقدا ، وهو مبلغ كبير فى فترة التضخم الاقتصادى ، كما امتلك قائد مائة Centurion مركباً نهرياً صغيراً تزن حمولته ٥٠٠ أردب من الغلال (حوالى طن ونصف) واستأجر له أحد البحارة ليقوم بتشغيله . ولدينا وصية لقائد مائة آخر من سلاح الفرسان حيث يذكر فى قائمة ممتلكاته قوائم بأملاك عسكرية وشخصية عديدة إضافة إلى مبلغ نقدى يقدر بثمان قطع من العملة الذهبية ومائة وتسعة وتسعون ونصف تالنت من الفضة ، وهذا المبلغ يساوى أكثر من مليون دراخمة ، ولكن المعروف أنه فى أثناء فترات التضخم المالى كان يتم حساب الدراخمات بالألف وبالعشرة آلاف ، وقد احتفظ بجزء قليل من هذه الأموال النقدية فى صندوق متين ، أما الجزء الأكبر فقد كان موزعاً على شكل خمسة عشر قرضا .

وعندما يفكر الجندى فى التخطيط لمستقبله عند التقاعد فإنه يحرص على أن تكون أوراقه كاملة ولدينا على سبيل المثال وثيقة من قيصرية بفلسطين مؤرخة بـ ٢٢ يناير عام ١٥٠م ، وعثر عليها فى الفيوم التى حملها إليها أحد الأطراف ممن يهمهم أمرها حيث تشهد الوثيقة بأن الجنود الاثنين والعشرين المذكورة أسماؤهم فيها قد سرحوا من الفرقة وليس من القوات المساعدة تسريحا مشرفا .

ولدينا بردية أخرى ضمن مجموعة بردى أرسلو Oslo نشرت فى العام الماضى فقط ، مؤرخة فى يوم ١٠ ديسمبر عام ١٤٩م ، وهى من نفس نوع الوثائق الخاصة بامتيازات الجنود المسرحين والوثيقة عبارة عن خطاب أرسله أحد موظفى الإسكندرية الرومان يأمر فيها كاتب الإقليم بأن يعطى لجندى أتم خدمته العسكرية شهادة تؤكد إعفاءه من دفع ضريبة الرأس.[٣]

أما الخطوة التالية التى كان يقوم بها الجندى المسرح وهو يحمل فى يده مستنداته وحظه فقد تمثلت فى الحصول على المشروع المناسب ، وهنا كانت الأفضلية من نصيب المشروع الذى يجمع بين المنطقة التى سيقيم فيها الجندى والمنطقة التى يستثمر فيها أمواله . وتوضح الأوراق التى بين أيدينا اتجاه الجنود إلى التركيز على القرى الكبيرة المزدهرة ففى قرية فيلادليفا بالفيوم Philadelphia بلغ عدد هؤلاء خمس من الملاك الزراعيين فى أوائل القرن الثالث . وعلى النقيض من ذلك تأتى قرية سوكنوبايو نيسوس Soknopaiou Nesos التى تبعد عن الأولى حوالى خمسين كيلو مترا من جانبها الغربى وفى اتجاه الشمال ، والواقعة فى نفس

الأقليم، إذ لم نجد فيها أراضى من تلك التى هى موضوع حديثنا ، كذلك لم تشر وثائقها أو تلك المتعلقة بها إلى وجود مالك رومانى واحد من ملاك أراضيها الزراعية . ويرجع ذلك إلى وقوع هذه القرية فى المنطقة الخلفية للإقليم ، على حافة الصحراء خارج إطار وسائل الرى.(٤)

وكما توقعنا ، فقد بدأ بعض الجنود يبحثون عن المنطقة التى سوف يقيمون فيها قبل أن يتم تسريحهم بعام أو عامين ونرى ذلك بوضوح فى خطاب مؤرخ فى عام ١٣٦ وفيه كتب جندى يتوقع تسريحه بعد مضى سنة أخرى إلى أخيه الذى كان قد سرح قبله من الخدمة - وعاد إلى موطنه فى قرية كرانيس Karanis فى إقليم الفيوم قائلا : *

"أبعث إليك مع تحياتى توصيتى على ترينتيا نوس Terentianus حامل هذه الرسالة ، والمسرح تسريحا مشرفا من الخدمة العسكرية ، وأرجو أن تقدمه إلى القرويين حتى لايتعرض لإيذاء من قبلهم ، فهو يملك مالا ويرغب فى الإقامة هناك . وقد عرضت عليه أن يستأجر منزلى لمدة سنتين هذا العام والعام الذى يليه نظير مبلغ ستين دراخمة ، فإن يستأجر حقلى أيضا نظير ستين دراخمة أخرى وأرجو أن تشترى بهذا المبلغ وهو ١٢٠ دراخمة كتانا من أصدقائنا تجار الكتان فى المعبد .." (بقية البردية تذكر تفصيلات أخرى غير مرتبطة بموضوعنا)(٥) .

ونحن لانعرف شيئا عن حياة ترينتيانوس Trentianus هذا بعد ذلك أكثر من كونه أنه لابد قد استقر فى كرانيس وعندما قامت بعثة أثرية من جامعة ميتشجان بالحفر فى كرانيس فى الفترة من ١٩٢٤/١٩٣٤ عثرت على مجموعة من الخطابات فى أحد المنازل عرف منها أن ترينتيانوس كان ابنا لجندى مسرح من خدمة الأسطول الذى كان يتمركز فى الإسكندرية .

إننا نقرأ بين سطور الخطاب السابق أن القرويين لم يكونوا يستقبلون الجنود العائدين دائما بأذرع مفتوحة ، كما أنهم لم يعتبروا وجودهم بينهم تخفيفا من جراحهم . لقد كان الوضع يعتمد إذن ويتوقف على شخصية الجندى وسلوكه ، ولذلك حرص كاتب هذا الخطاب على التأكيد عليها بوضوح حتى يمكنه بمساعدة أخية أن يتمكن من أن يضع قدميه على الطريق الصحيح ويمكننا أن نتفهم الأسباب التى كانت تقف وراء عدم ترحيب القرويين بالجنود سواء العاملين فى الجيش أو المسرحين منه .

---

* عن الجنود المسرحين من الخدمة العسكرية والمقيمين فى كرانيس . راجع آمال الروبى ، ص ١٨٤ .

فقد جرت العادة على أنه عند انتشار الوحدات العسكرية أو الضباط ونزولهم القرى كانوا يقومون بإلزام الأهالى بتقديم أشياء معينة لهم مثل الإيواء والسكن والطعام والضرائب وهكذا ، حقيقة لقد كانت مثل هذه المطالب مصرح بها من قبل الإدارة ، ولكن يبدو أن الجنود كانوا يغالون فيها حرصا على مصالحهم الخاصة . أما هؤلاء الفلاحين المروعين الذين لم يكن لهم حول ولا قوة فلم يكن فى استطاعتهم وضع حد لإبتزاز الجنود لهم (أنظر الفصل الثامن) أما عندما يسرح الجندى فقد كان يقرر أن يعيش بينهم كجار مسالم ، بل ربما يصبح رجلا باراً بمنطقتة . أما إذا كان على عكس ذلك فإنه فى هذه الحالة يصبح عبئا على المجتمع الذى يعيش فيه . فعلى سبيل المثال فإن إعفاءه من العديد من الضرائب والخدمات التى تفرض على غير الرومان كان أمر يثير بلا شك امتعاضهم ، ليس فقط بسبب وضعه الطبقى المميز الذى منح له ، ولكن لأن هذا الوضع سيزيد نسبيا من تلك الأعباء الملقاة على جيرانه الذين لايتمتعون بأية امتيازات . بل لقد أثبتت التجارب أكثر من ذلك أن هؤلاء القادمين الجدد كانوا يصرون على ممارسة امتيازاتهم إلى النهاية وكانوا يتعالون على المصريين والإغريق المصريين الذين يعيشون بينهم . إن الطريقة التى كان يتصرف بها الجنود المسرحين وضعت حواجز نفسية واجتماعية بينهم وبين جيرانهم ذوى الأصول المتواضعة . ولدينا بردية ترجع لعام ١٦٢م وهى عبارة عن شكوى تقدم بها جندى مسرح وهو جايوس يوليوس نيجر Niger ، حقيقة أن فحوى الرسالة مفقود بسبب ضياع مقدمتها ولكننا نقرأ فى الجزء المتبقى منها والذى حفظ جيدا نيجر وهو يقول " إن هذه الإصابات التى أصابتنى واضحة ، وحيث أننى رجل رومانى يعانى من هذه الإهانة التى لحقت به على يد المصريين فإننى أطالب ..." ولقد اكتشفت واقعة مماثلة لهذه من عدة سنوات سابقة إذ لدينا قسم وقعه مقدموه" ، وأقسموا فيه بحياة الإمبراطور قيصر تيتوس أيليوس هادريانوس أنطونينوس بيوس Titus Aelius Hadrianus Antoninus Pius بأنهم سوف يقدمون الشهادة الصحيحة التالية : أنه فى أثناء وجودنا فى قرية فيلادلفيا Philadelphia فى الفيوم التابعة لقسم هيرأكليديس Herakleides شاهدنا عند معبد القياصرة واقعة الاعتداء على جايوس مايڤيوس أبليس Gaius Maevius Apelles وهو جندى مسرح من قسم أبيا Appia حيث تم ضربه وجلده بالحبال والسياط على يد اثنين من قوات الحرس بأمر من هيراكس Hierax مدير الإقليم . لذلك فنحن نشهد على جلده فى قرية فيلادلفيا ١١ فبراير ١٥٣م ثم توقيع سبعة من الشهود جميعهم من الرومان .

إن هذه القضية تعتبر أكثر من أية قضية أخرى إثارة لمشاعر الرومان وذلك فى ضوء الاعتزاز التقليدى بأن أول قانون صدر عقب تأسيس الجمهورية كان ذلك الخاص بمنع "أى حاكم

رومانى magistratus من إصدار حكم الإعدام أو حتى الجلد على مواطن رومانى دون إعطائه حق الاستئناف"* ونحن هنا نجد مجرد موظف فى ولاية يعتدى على مواطن رومانى بطريقة كانت محرمة على كبار حكام روما إلى أين إذن كان يتجه العالم . (٦)

ولقد احتل بعض الجنود مكانه مرموقة فى مجتمعاتهم الجديدة التى اختاروها لإقامتهم ليس فقط لتمتعهم بالجنسية الرومانية ولكن للثروة التى امتلكوها . لقد كانو أثرياء قياسا على مستوى القرى منذ اللحظة الأولى لظهورهم ووصولهم إليها . فمنذ اللحظة الأولى لظهورهم على مسرحها شرعوا فى الحصول على أراضى ، واستثمرها أغلبهم فى الزراعة والمشروعات المرتبطة بها . ولدينا تفاصيل عن مثل هؤلاء الأثرياء منها مجموعة كبيرة من أوراق محارب قديم يدعى لوكيوس بيللينوس جمللوس Lucius Bellenus Gemellus الذى أقام فى الفيوم بعد تسريحه عام ٨٠م فعند وفاته بعد ثلاثين عاما من وصوله وكان يبلغ حوالى السابعة والسبعين أو أكثر كان يمتلك أراضى فى قرى عديدة ، وبعض هذه الأراضى كان يقع بالقرب من قرية يوهيميريا Euhemeria والبعض الآخر فى قرية ديونيسياس Dio-nysias ، بالإضافة إلى أراضى تقع فى ثلاث قرى أخرى على الأقل ، وكان يساعده وكلاء فى إدارة أملاكه التى كان بعضها يبعد عن أملاكه بحوالى خمسة عشر كيلو مترا ولكن إشرافة تناول أدق التفاصيل على أمورها وفى أثناء موسم الحصاد فى أحد حقوله قام باستئجار سبعة وعشرين رجلا للعمل هناك . كذلك امتلك معصرة لعصر الزيوت . وقام بإرسال هدايا إلى حكام الإقليم بمناسبة قرب الاحتفال بأعياد ازيس ، وأمر بإرسال عشر دجاجات لتقديمها فى احتفالات أعياد الساتورناليا Saturnalia كما قام بتقديم عجل للتضحية به فى أحد الأعياد مما يدل على مدى ثرائه . لقد تكونت أسرته من ابنة وثلاثة من الأبناء الذكور ومثل هذه الأسرة كانت تعتبر دعامة أساسية فى المجتمع المحلى .

ولدينا نموذج آخر كالذى سبق وقدمناه وهو خاص بجايوس يوليوس نيجر Gaius Julius Niger فعند تسريحه عام ١٥٤م من قوات الفرسان أقام فى كرانيس وكان يبلغ فى ذلك الوقت السابعة والأربعين من العمر ، واشترى فيها منزلا به فناءان بمبلغ ٨٠٠ دراخمه فضية ، وهذا السعر إذا قمنا بمقارنته بالأسعار المناظرة فى ذلك الوقت نجد أنه يدل على أن هذا المنزل كان كبيرا ويدل على ثروة صاحبه . وعاش نيجر فى هذا المنزل حتى وصل لسن الحادية

---

* – عند هذا القانون راجع آمال الروبى ، أجهزة الحكم فى روما فى العصر الرومانى ، جدة ١٩٨٦ ، ص١٢.

والثمانين، وعاصر وباء الطاعون الذى انتشر فى جزء كبير من الإمبراطورية الرومانية عام ١٧٠م ومن بينها مصر ، وخلال فترة إقامته فى كرانيس استطاع أن يضيف إلى أملاكه أملاكا أخرى لها قيمتها ، من بينها أراضى زراعية فى عدة قرى ثم آلت هذه التركة بعد موته إلى إثنين من أبنائه ، وبعد موت أبنائه آلت الثروة إلى أرملة أحد أبنائه ويبدو أن الابن الثانى لم تكن له زوجة أو أبناء .

إغريق المدن واليهود :

ضمت مصر التى ألحقها أوكتافياس بالإمبراطورية الرومانية بين حدودها ثلاث مدن (Poleis) إغريقية ، تمتعت بحكم ذاتى مستقل وعدة امتيازات أخرى وتبدأ سلسلة هذه المدن بمدينة نقراطيس الواقعة فى دلتا النيل ، وقد أسسها أحد فراعنة القرن السادس ق.م اعترافا منه بفضل التجار والجنود المرتزقة الإغريق ، ثم الإسكندرية ذلك الميناء البحرى العظيم الذى أسسه الإسكندر الأكبر عام ٣٣١ ق.م ، وتأتى بعد ذلك مدينة بطليمة Ptolemais التى أسست بعد جيل من تأسيس الإسكندرية وتقع على بعد حوالى ١٢٠ كيلو مترا شمال غرب مدينة طيبة عاصمة الفراعنة ، وقد حملت اسم مؤسسها بطليموس أول حكام العصر الهللينستى الجديد . ثم قام الإمبراطور هادريان فى عام ١٣٠ بتأسيس مدينة انتينوبوليس Antinoopolis فى مصر الوسطى تخليدا لذكرى صفيه أنطينووس Antinous ذلك الشاب الوسيم الذى كان يصاحب الإمبراطور بصفة دائمة والذى غرق فى مكان المدينة أثناء قيام الإمبراطور برحلة نيلية .

وأسس الإمبراطور هذه المدينة بالطريقة التقليدية للمدن الإغريقية فكان لها حكومتها التقليدية مع إضافة بعض نظم البلديات الرومانية ومنح سكانها عدة امتيازات تتناسب مع وضعهم ، وكان من بين مؤسسيها من السكان بعض مواطنى مدينة بطلمية الذين لانعرف على وجه التحديد سبب وجودهم هناك ؟ هل يرجع ذلك إلى أنه تم إغراؤهم بامتيازات المدينة أم أنه تم اختيارهم وإرسالهم إلى هناك ؟

أما ملكة مدن شرقى البحر الأبيض المتوسط ، وعاصمة الثقافة فى العالم الهللينسيتى ، وملتقى طرق التجارة بين العالم الإغريقى والرومانى وبلاد الشرق والجنوب ، التى تردد عليها العرب والأحباش والهنود ، والتى استضافت أفراداً من جميع الجنسيات المتواضعين منهم والمشاهير ، فهى مدينة الاسكندرية التى كثيرا مابرزت صورتها فى الأدب الإغريقى واللاتينى، هذا على الرغم من أنه لم يتبق من مصادرها التاريخية المعاصرة سوى عدد قليل من النقوش، أما وثائقها البردية فقد فقدت نتيجة لرطوبة تربتها الواقعة فى منطقة الدلتا

(وعلى الرغم من ذلك فلدينا عدد قليل من وثائقها تم حفظها بسبب تفحمها بطريق الصدفة البحتة . وفيما عدا العدد القليل من مخلفاتها الأثرية ، فإن بقية آثارها التى صنعت من مواد متينة قد اختفت لتعاقب الأجيال على سكنها . ونعرف من تخطيطها الطوبوجرافى جزيرة فاروس Pharos وفنارتها التى كانت أحد عجائب العالم السبع ، ولدينا أيضا بعض معلومات عن حدودها إضافة إلى معرفتنا ببعض الحقائق عن مينائها ، كما بلغ عرض الطريق الرئيسى فيها ثلاثين مترا بالإضافة إلى رصيف من الجانبين تراوح عرضه بين ستة وسبعة أمتار تم رصفة بالأحجار وطبقا لما ذكره ديودوروس فقد بلغ عدد سكانها من الأحرار فى عصر أغسطس ٣٠٠٫٠٠٠ شخص ، وعلى هذا يمكننا أن نقول أن المجموع الكلى لسكانها قد بلغ حوالى نصف مليون فى ذلك الوقت .

ومعلوماتنا عن مدينتى نقراطيس وبطليمة خلال عصر المواطن الأول ضئيلة أما مدينة أنتينوبوليس فهى على العكس من ذلك ، حيث قدم لنا البردى الذى تم كشفه خلال المائه سنة الأخيرة كما كبيرا من المعلومات خصوصاً عن بنائها السياسى وامتيازات مواطنيها . ورغم أن هناك اختلافات واضحة فإن المدن الأربع تكاد تتفق كلها فى نفس النظام التأسيسى .

أما العنصر الرئيسى الذى اشتركت فيه المدن الإغريقية الأربعة فقد تمثل فى تسجيل مواطنيها فى قبائل وأحياء - تلك الرابطة التى تمثل حلقة الاتصال بينها وبين المدن الإغريقية القديمة من الناحية الدستورية - . وجاء معهد التربية (الجمانزيوم) ليمثل الخاصية الثانية المميزة لها والذى وضح بجلاء فى منظماتها كدليل على استمرار تقاليد دولة المدينة Polis الإغريقية. وترتب على استمرار هذا التقليد القديم ، توالى سكان المدن الإغريقية المصرية فى شغل منصب مديرى معهد التربية (الذى يشرف على مد المعهد بالزيت لاستخدامه فى الإضاءة والتدليك) ومنصب المشرفين على التدريب Kosmetae (الذين يشرفون على تسجيل الشبيبة ephebes أى الشباب كما كان يطلق عليهم) على أى حال لقد بدأت الآن الرياضية الشعبية تتركز فى المدرجات الرومانية amphiheatres التى أصبحت الآن منتشرة فى كل أنحاء الجانب الشرقى للبحر المتوسط . أما رياضة المصارعة والملاكمة والجرى والأنواع التقليدية للألعاب الإغريقية الأخرى فقد تركت للمحترفين من الرياضيين Atheletes وقلما اشترك المواطن العادى فى الألعاب ولكنه تحول بالتدريج إلى متفرج على الطريقة الرومانية .

قام مواطنى المدن الإغريقية بانتخاب أعضاء مجلس الشورى Boulé الذى يعتبر المؤسسة التقليدية للحكومة المحلية فى المدن الإغريقية من بينهم ، أما الإسكندرية فقد قاست لأكثر من

قرنين خلال الحكم الرومانى من عدم السماح لها بوجود مجلس للشورى ، وقد سن أوكتافيانوس - كما قيل لنا هذه السياسة كعقاب لمواطنيها لموقفهم العدائى من قيصر أولا ثم منه بعد ذلك -. وهناك إشارة فى إحدى البرديات يمكن أن تدل على أن كلا من مدينتى نقراطيس وبالمثل بطليمة قد احتفظتا بمجلسيهما (٧) ومنحت مدينة أنتيوبوليس مؤسسة الاستقلال الذاتى - مجلس الشورى - منذ بداية تأسيسها ، وأخيرا حصلت الإسكندرية على مجلسها عام ٢٠٠م ، عندما قام الإمبراطور سبتيميوس سيفروس Septimius Severus بمنحها وجميع عواصم الأقاليم حق إقامة مجالس للشورى ، ورغم ابتهاج السكندريين بهذه المنحة إلا أن الغُصة سرعان ما أصابتهم عندما رأوا مدينتهم المجيدة توضع على قدم المساواة مع بقية المدن الإقليمية الأخرى .

ومن الناحية الاقتصادية تمتع سكان المدن الأربعة بامتيازات كبيرة ، كما تمتع غير المواطنين بالامتيازات التجارية التى وفرتها لهم مدينة الإسكندرية . أما الإعفاء من ضريبة الرأس فلم يتمتع به سوى مواطنى هذه المدن مثلهم فى ذلك مثل الرومان ، ومن المعروف أن هذه الضريبة كانت تمثل بالنسبة لباقى سكان الولاية عبئا اقتصاديا باهظا إضافة إلى كونها رمزا للخضوع. وبالإضافة إلى ماتقدم يبدو أنه كان يسمح خلال القرن الأول من العصر الرومانى لمواطنى المدن الإغريقية الأربعة دون المصريين بشراء أراضى الدولة عند بيعها ، وليس لدينا أدنى شك فى أن عددا من مواطنى الإسكندرية وأنتينوبوليس وربما نقراطيس وبطلمية أيضا ، قد امتلكوا مساحات من هذه الأراضى ، بل لقد تمكن بعضهم من تكوين ضياع واسعة انتشرت فى أنحاء متفرقة من القطر وعلى بعد مئات الكيلو مترات من المدن التى يعيشون فيها ، كما تمتعت الأراضى التى كانت تقع فى إطار حدود مدينة الإسكندرية بإعفاء ضريبى ، وحيثما كانوا يمتلكون هم وأفراد أسرهم ممتلكات كان يتم إعفاؤها من الخدمات الإلزامية Liturgies بمختلف أنواعها ، بينما يرغم الأهالى المحليين على أدائها .

وأخيرا وليس آخرا فقد سمح لمواطنى المدن الإغريقية بالخدمة فى الفرق الرومانية ، وكانوا يتحولون إلى مواطنين رومان بمجرد تسجيل أسمائهم فيها ، بينما لم يكن يسمح لسكان مصر كما سبق وذكرنا بتسجيل أسمائهم إلا فى القوات المساعدة وكان يسمح لهم بالحصول على الجنسية الرومانية بعد مضى أكثر من ربع قرن من الخدمة العسكرية فيها .

والواقع أن مجرد الإقامة فى المدينة لم تكن تجعل من ساكنها مواطنا بصفة تلقائية ، حيث أن فرص العمل التى قدمتها أغرت السكان المحليين والأجانب بالقدوم إليها . وزاد من عدد

سكانها قدوم العبيد والعمال ومصريين من كافة الشرائح للإقامة بها وتغطية احتياجات خدمة مواطنيها ومدهم بالخدمات ، وإلى جانب ذلك وجدت مجموعة أخرى كبيرة من السكان فى المدينة لوحظت أكثر ما لوحظت فى مدينة الإسكندرية ، وأعنى بذلك اليهود الذين سنعود للحديث عنهم فى موضع تال .

بعد خروج اليهود كما ورد بالتوراة فإن هناك الآن مايدل على وجود اليهود فى مصر منذ منتصف القرن السادس ق.م ولدينا مئات من أوراق البردى وقطع الأوستراكا التى دونت باللغة الآرامية من القرنين : الرابع والثالث ق.م وتشير إلى استقرار اليهود فى منطقة الشلال الأول من نهر النيل حيث كانوا يقومون بحراسة حدود مصر الحيوية ويعملون فى خدمة حكامها الفرس فى ذلك الوقت . ونقرأ فى هذا الوثائق الآرامية عن زواجهم وطلاقهم ، اقتنائهم للعبيد وتحريرهم لهم (وكان بعضهم يحمل أسماءً مصرية ، والبعض الآخر أسماء سامية) وعن قيامهم بمد قوات حرس الحدود بما كانت تحتاجه من طعام كما نستدل على تفصيلات أخرى لحياتهم اليومية ، مثل الدعاوى فى قضايا مختلفة ، ونقل ملكية المنازل والأراضى إما عن طريق الهبة أو البيع ، وقروضهم المالية النقدية (بلغ عائدها السنوى ٦٠٪) والعينية التى لدينا نموذج منها حيث كانت تدفع مضاعفة فى خلال عشرين يوما ، ولايثير دهشنا أننا نعرف أنه كان لديهم معبد أقاموه لعبادة " يهوه" على جزيرة الفانتين ، وأنه قد أعيد بناؤه بعد تخريبه أو تدميره (ولانعرف كيف أو لماذا) . إما الأمر المثير لبعض الدهشة فيتمثل فى أنهم عبدوا فى هذا المعبد آلهة أخرى إلى جانب إلههم يهوه ، وفى هذا إشارة مبكرة فيما يبدو ودلالة على استعدادهم للتوفيق بينهما ، هذا التوفيق الذى وضح بجلال خلال العصر الهللينستى والرومانى (أنظر الفصل الخامس) .

انتشرت بعد ذلك مجتمعات اليهود وازدهرت فى مصر ، وسمح لهم البطالمة بأن يعيشوا وفقا لتعاليم ديانتهم ، ورغم أنهم كانوا يمارسون حياتهم بالطريقة التقليدية إلا أنهم لم يكونوا متزمتين خصوصا فى مدينة ذات نشاط حافل مثل الإسكندرية حيث تأثروا بالثقافة الإغريقية كما أن القصة التقليدية للترجمة السبعينية للتوراة فى مدينة الإسكندرية فى القرن الثالث قد أصبحت مقبولة بصفة عامة على الرغم من شك بعض الدارسين المعاصرين فيها . وفى خلال الحقبة الأولى من القرن الأول ق.م استغرق فيلون Philo وهو أحد أثرياء يهود الإسكندرية فى دراسة الفلسفة ، وأنتج عملا ضخما قدم باللغة اليونانية مازلنا نقرأه إلى يومنا هذا . وقد شرح فى هذا المؤلف الضخم للقراء من غير اليهود كتب التوراة بأسلوب وعرض يتفق مع العقلية الهللينية .

وقد ذكر فيلون فى أحد كتبه أنه كان يعيش فى مدينة الإسكندرية فى عصره ميلون يهودى، ومما لاشك فيه أن هذا الرقم مبالغ فيه أو ربما هو من قبيل المبالغة اللغوية . حيث نعلم أن عدد سكان المدينة بأسرهم لم يكن يزيد على حوالى نصف هذا الرقم (راجع ص٣٠) . وكانت الإسكندرية مقسمة إلى خمسة أحياء احتل اليهود حيا كاملا منها . وأبقى أغسطس لليهود جميع امتيازاتهم التى تمتعوا بها فى العصر البطلمى تقديرا منه لمساعدتهم له ، وكان من بينها مجلس شيوخهم ، هذا فى الوقت الذى حرم فيه السكندريين من مجلس الشورى Boulé ولذلك لايثير دهشتنا أن يشعر اليهود نتيجة لهذه الظروف السابقة أنهم أصبحوا سكندريين لهم حق المساواة مع الإغريق ، من حقهم على سبيل المثال دخول الجمنازيوم الذى يعتبر الصفة الجوهرية لهيئة المدينة الإغريقية . وقد واجه السكندريون موقف اليهود بعداء سافر ، وأدى هذا الحقد الدفين إلى اشتعال الثورة وقيام مذبحة فى عام ٣٨م. وعقب أحداث هذا الشغب الدامى رأينا وفود كل من الإغريق واليهود المتنافسين يلجأون إلى الإمبراطور كاليجولا فى روما لعرض قضيتهم . كذلك قام الوفدان بزيارة الإمبراطور كلوديوس -Claudius بعد شهور من توليه المنصب فى عام ٤١ ، وأجابهما بوضع قاعدة شهيرة (محفوظة فى وثيقة بردية حصل عليها المتحف البريطانى فى عام ١٩٢١) حيث أمر فيها كلا الجانبين بالاكتفاء بالوضع كما هو Status Quo وأن يعيشوا فى سلام". وقد ورد فى خطاب خاص بأحد السكندريين كتب بعد شهور قليلة من نفس السنة فى معرض الحديث عن سلسلة من التعليمات الخاصة بإدارة الأعمال ملحوظة غير واضحة وهى على النحو التالى : "ومثل كل شخص آخر عليك أنت أيضا أن تكون أحذر من اليهود"(٨) .

لكن تم القضاء على امتيازات اليهود بحده بعد ثوراتهم فى القرن الأول والثانى ففى عصر الثورة الأولى عندما قام اليهود الفارون من فلسطين بمحاولة إثارة المقاومة فى كل مكان عقب سقوط أورشليم وتدمير المعبد اليهودى عام ٧٠م ، ظل يهود مصر على ولائهم للرومان ، هذا على الرغم من سلب كنوز معبدهم الرئيسى فى ليونتوبوليس Leontopolis بالقرب من ممفيس وتدميره ، لقد خشيت السلطات الرومانية أن يحل هذا المعبد محل معبد أورشليم كمركز لإثارة السخط ضد الرومان . كما فرض الرومان ضريبة على اليهود لإصلاح ماتم تدميره ، وهى ضريبة النصف شيكل Shekel (تساوى دراخمتين) وكانت تخصص فى الأصل لمعبد أورشليم ويتم فرضها سنويا على البالغين من الذكور ، ولكن الرومان قاموا بمضاعفة هذه الضريبة أربع مرات وأصبحت تفرض على جميع أفراد الأسرة (بما فيهم العبيد) منذ بلوغ الطفل سن الثالثة، وخصص دخلها لإصلاح معبد جوبتر كابيتو لينوس كبير آلهة الرومان والذى تم تدميره فى

أورشليم نتيجة لأحداث ثورة اليهود . لقد جاءت هذه الضريبة كنوع من العقاب أكثر من كونها ضريبة تعويض ، والدليل على ذلك استمرار تحصيلها فى القرن الثانى بعد فترة زمنية طويلة من فرضها ، حيث كان قد تم بناء معبد جوبتر الذى خصصت فى الأصل الضريبة من أجله . على أى حال فإن الظروف السابقة لم تقلل من حق اليهود فى "أن يعيشوا وفقا لنظم أسلافهم" .

وعلى العكس من ثورة اليهود الأولى التى اندلعت فى فلسطين والتى انعكست على يهود مصر بعد ذلك ، فقد كانت مصر هى موطن ثورة اليهود الثانية ضد الرومان وترجع جذور اندلاعها إلى العداء المستمر والأعصاب المتوترة والمناوشات المستمرة بين الإغريق واليهود فى الإسكندرية ، وربما يرجع السبب المباشر لانتهاز اليهود فرصة انسحاب بعض وحدات من قوات الرومان العسكرية من مصر لحاجة الإمبراطور تراجان إليها فى حربه ضد الفرس ، لقد اندلعت الثورة فى عام ١١٥م فى كل من مصر وقورنيه ثم سرعان ما امتدت إلى قبرص وفلسطين وبلاد مابين النهرين ، ويبدو أنه قد تم القضاء عليها سريعا فى الإسكندرية ، أما خارجها فلم تطفئ نيرانها إلا بعد فترة قصيرة من اعتلاء الإمبراطور هادريان عرش الدولة عام ١١٧م . لقد قامت قوات المخربين من اليهود بنشر الخراب والدمار لمدة بلغت ثلاث سنوات فى كل أنحاء مصر ، من الدلتا إلى طيبة . وتشهد مجموعة من أوراق البردى التى عثر عليها فى أماكن متفرقة من مصر على ضراوة الصدام ، وعلى أعداد القتلى وهؤلاء الذين أرغموا على ترك ديارهم ، وذلك الخراب الذى لحق بالأراضى الزراعية والمنشآت والمبانى نتيجة لهياج اليهود . وتدل النقوش التى عثر عليها فى قورينة على الطرق التى قطعت ، والمنشآت التى أحرقت ، ولدينا خطاب طريف كتبه أحد مديرى الأقاليم المصرية إلى والى مصر فى ٢٨ نوفمبر سنة ١١٧م يطلب فيه "أجازة لمدة ستين يوما حتى أستطيع أن أضع الأمور فى نصابها .. ليس فقط بسبب الإهمال الذى أصاب مصالحى بسبب غيابى الطويل ، ولكن أيضا بسبب الهجوم الضارى الذى قام به اليهود الكفرة مما ترتب عليه فقدى لكل ما أملك فى قرى إقليم هرموبوليس ، كما أن مصالحى فى عاصمة الإقليم تتطلب وجودى لرعايتها وفى حالة قبولكم طلبى فسوف يمكننى أن أعيد ترتيب أمورى قدر استطاعتى وبذلك يمكننى عند العودة لعملى أن أقوم بتأديته بروح معنوية مرتفعة".

وبعد حوالى مائة عام من نهاية هذه الثورة كانت مدينة البهنسا Oxyrhynchus ماتزال تحتفل بذكرى الانتصار عليها وذلك "للحماس والإخلاص والصداقة التى أبداها شعبنا للرومان

فى حربهم جنبا إلى جنب ضد اليهود ، من أجل ذلك مانزال نحتفل حتى اليوم كل عام بذكرى الانتصار عليهم" [٩] .

وفى عام ١١٧م انتهت مقاومة اليهود نهائيا فى مصر ، ولكنهم ثاروا مرة أخرى فى فلسطين وطنهم القومى بعد سبعة عشر عاما . ثم كانت آخر محاولة عنيفة أبداها اليهود لسبرغور الرومان تلك التى قادها المصلح الاجتماعى المرموق "باركوشبا" أى "ابن النجم" باركوبا . ومع ذلك فحتى الأصداء المسيحية المبالغ فيها لهذه الحركة قد عجزت عن إشعال نيران الفتنة أو الثورة ضد الرومان فى صفوف البقية الباقية من يهود مصر الذين جنحوا للهدوء والمسالمة * .

المصريــون :

إذا كنت أحد سكان مصر ، ولم تكن رومانيا ، فسواء أكنت أحد مواطنى المدن الإغريقية الأربع ، أو يهوديا ، فأنت فى نظر الحكومة تعتبر مصريا . ليس من المهم أن تكون منحدرا من سلالة الذين خدموا فى الجيش لستة أجيال أو سبعة ، تلك الطبقة التى كانت لها حقوق توارثتها وكانت تقيم فى مصر منذ العصر البطلمى ، لقد ذهب الآن امتيازهم الطبقى ، إن أولئك الذين كانوا ينحدرون من سلالة مميزة ، وكانوا يشيرون باعتزاز إليها فى بياناتهم للدلالة على أصولهم الإغريقية والمقدونية ، كأن يكون الفرد منهم من كوس أو من كريت أو ثيشالى الأصل ، لقد أصبح الجميع فى سجلات الحكومة الآن مصريون لا أكثر من ذلك ولا أقل ، ولدينا قرينة معاصرة لايخامرها أدنى شك تؤكد ذلك وهى تتمثل فى ملاحظة المؤرخ ليفيوس الذى كان يكتب تاريخه أثناء حكم "أغسطس" أن المقدونيين قد انحدروا إلى مستوى المصريين[١٠] .

وعندما ما يكون السكان غير متجانسين فى أصولهم فإنهم سرعان مايتجمعون معا بحيث يكون لهم وضع سياسى وقضائى مقرر كما أنهم سرعان ما يكونون طبقة اجتماعية تضمهم فى إطار المجموع الكلى للسكان .

---

* عن اليهود فى عصرى البطالمة والرومان راجع مصطفى كمال عبد العظيم ، اليهود فى مصر فى عصر البطالمة والرومان ، القاهرة ، ١٩٦٨ ويعتبر هذا المؤلف من أفضل ما قدم عن هذا الموضوع . المترجمة .

وفى عصرنا الحديث عندما يوجد مثل هذا التميز فإنه يعتمد على قاعدة من اختلاف اللون والبشرة كما هو الحال فى الهند أو فى منطقة الكاريبى ، أما بالنسبة لجماهير المصريين أثناء الحكم الرومانى فقد كانت الهلينية هى حجر الزاوية . لقد شاع الزواج بين المصريين والذين انحدروا من نسل الإغريق خصوصا فى الريف ، وكان الأبناء الذين ينجبون من مثل هذا الزواج يحملون اسما من كلا الطرفين (وسوف نجد نماذج على ذلك فى هذا الكتاب) ولكن عندما يتم تسجيل الصبى باسم مصرى ، ثم يرغب بعد ذلك فى تغييره إلى اسمه الإغريقى كان لابد من الحصول على إذن بذلك من السلطات الرومانية المختصة ففى ٢٧ من أغسطس عام ١٩٤م قدم الطلب الآتى :

"إلى سعادة كلوديوس أپوللونيوس Claudius Apollonius

مدير الحساب الخاص ، من يورايمون بن بسويبس وتياثريس Eudaimon Son of Psois and Tiathres من قرية .. الواقعة فى إقليم نيستى Nesyt إننى أتقدم برجاء الموافقة على تغيير اسمى إلى يودايمون بن هيرون ديديمى هيرون وديديمى Eudaimon Son of Heron and Didyme بدلا من اسمى الذى أحمله كابن لبسويبس وتياثريس . وسوف لايترتب على هذا التغيير أى ضرر بالمصالح العامة ، أو الخاصة ، كما وأننى سوف أستفيد من ذلك ، مع خالص تحياتى أنا يودايمون قمت بتقديم الطلب (ثم التاريخ) .

كتب فى أسفل الطلب تأشيرة الحاكم كالتالى : "يسمح بذلك حيث إنه يترتب عليه أى ضرر للمصالح العامة أو الخاصة.(١١)

إن جميع الأمور الخاصة بالوضع الطبقى والعلاقات بين الطبقات أصبحت تدخل فى نطاق اختصاص مدير الإمبراطور الخاص ، وهذا الموظف الرومانى الذى كان يعينه الإمبراطور) يقوم بتنفيذ مجموعة من القواعد العديدة ، والقيود الملزمة ، وجباية جميع الغرامات والمخالفات المالية . وقد نشرت لفافة بردية كانت توجد فى المتحف المصرى فى برلين الشرقية عقب الحرب العالمية الأولى ويتضمن مئات من هذه القواعد . وإذا ألقينا نظرة فاحصة على هذه القواعد نرى أنها لاتترك مجالا لأدنى شك فى أن القاعدة الأولى التى وضعها أغسطس ثم حافظ عليها خلفاؤه من بعده لمدة مائتى عام تتلخص فى الإبقاء على التمييز الطبقى بين السكان ومنع الاندماج فيما بينهم لأطول مدة ممكنة وهى بالإختصار سياسة فرق تسد divide et Impera إن اختيار فقرات قليلة من هذه الوثيقة الطويلة كفيل بتوضيح ذلك .

نسخه من قانون التنظيمات التى وضعها أغسطس لإدارة الحساب الخاص والإضافات التى أضيفت عليها من قبل الأباطرة ومجلس الشيوخ الرومان والولاة أو مديرى الحساب الخاص من وقت لآخر .

فقرة ٨- أضيفت العبارة التالية إلى وصية مواطن رومانى (إن أى ترريث بوصية أكتبه باليونانية فى ملحق الوصية سيكون سارى المفعول" . فإن هذه العبارة لا قيمة لها لأنه لايسمح للرومانى أن يكتب وصيته باللغة اليونانية .

فقرة ١٨- تتم مصادرة الإرث الذى يتركه الإغريق للرومان ، أو يترك من الرومان للإغريق بأمر من فسباشيان المؤله . ويحصل الذين كشفوا عن هذه الحالة على نصف المبلغ المصادر .

فقرة ٣٨- يعتبر الأبناء الذين يتم إنجابهم من أم إغريقية وزوج مصرى ، مصريين ولكن يسمح لهم بأن يرثوا كلا الوالدين .

فقرة ٣٩- إذا تزوج رومانى ، رجلاً كان أم امرأة ، بإغريقية أو إغريقى أو مصرية أو مصرى لايحصل أبناؤهم سوى على الوضع القانونى الأدنى .

فقرة ٤٢- يعاقب من يطلق على نفسه ألقابا أو أسماء غير صحيحة بمصادرةربع أملاكه كما يعاقب من يتستر عليهم بنفس العقوبة وهى مصادرة ربع الأملاك .

فقرة ٤٣- إذا دون مصرى بالسجلات أن والدة المتوفى رومانى يعاقب بمصادرة ربع أملاكه.

فقرة ٤٤- إذا قام مصرى بتسجيل ابنه على أنه أحد أعضاء منظمة الشبان ephebe (فى المدينة) يصادر سدس ممتلكاته .

فقرة ٤٥- إذا تزوج إغريقى من سكان المدن من مصرية وتوفى دون ذرية ، تؤول جميع أملاكه إلى الخزانة ، ويصادر ثلث أملاكه إذا كان لديه أبناء ، أما إذا أنجب ثلاثة أبناء أو أكثر من زوجة إغريقية من سكان المدن فتؤول كل ممتلكاته إليهم . أما إذا كان لديه ابنان فقط فيحصل كل واحد منهما على ربع أو خمس أملاكه ، ويصادر نصف أملاكه إذا ترك ابنا واحدا.

فقرة ٤٦- لايحق للعبد الذى أعتقه مواطن سكندرى الزواج من مصرية .

فقرة ٥١- إذا تزوج شخص والده سورى ، وأمه إغريقية من سكان المدن من امرأة مصرية يحكم عليه بغرامة مالية ينص عليها .

فقرة ٥٣- إذا ادعت مصريات متزوجات من جنود مسرحين من الخدمة العسكرية أنهن رومانيات يخضعن لما يخضع له من ينتهك الوضع القانونى .

فقرة ٥٤- إذا أطلق الجنود على أنفسهم صفة رومان قبل الحصول على التسريح القانونى لهم تصادر ربع ممتلكاتهم .

ويختلف المؤرخون اختلافا كبيرا فى تفسير إجراءات أوكتافياس أغسطس السياسية ولكن أكثر المعجبين به فى هذا القرن يتفقون على أن مجموعة قواعد وقوانين مدير الحساب الخاص يجب أن تعتبر "أداة للتعسف الضريبى". *

حقيقة أن المطحونين والفقراء فى جميع أنحاء الإمبراطور الرومانية لم يكونوا فى وضع يحسدون عليه . ولكن من الواضح أن الشعب المصرى يعتبر الاستثناء الوحيد من بينها الذى عومل بمثل هذه المعاملة القاسية .

إن سياسة الرومان تجاه المصريين كانت تحاول كبح جماحهم لمنعهم من الثورة ، إن محاولة فهم الدافع الذى دفع أغسطس إلى وضع هذه القواعد أمر يحتاج إلى التأمل والتفكير العميق، ولكن تأكيد ذلك ينبغى أن يكون فى ضوء الأدلة التى يمكن أن نلمسها ، يبدأ ذلك منذ فترة طويلة مع القرن الثانى ق.م الذى شهد انتصارات الرومان البحرية ، ثم ما نتج عن ذلك من تأثرهم بالحضارات الأجنبية (الإغريقية على وجه خاص) وتمثلهم لها منذ تلك الفترة أصيب الرومان بعقدة كراهية الأجانب Xenophobia ، تلك الفكرة التى كان لها تأثيرها على حياتهم السياسية والاقتصادية ، لقد كان كاتو Cato الأكبر (الرقيب) هو صاحب العبارة المشهورة التى تنادى بوجوب تدمير قرطاجة Carthago delevdaest وهو المحرك الأول لسياسة كراهية الأجانب بالإضافة إلى أنهم نظروا إلى الحضارة الشرقية بنوع من الازدراء . وبمرور الوقت ظهر أو كتافياس على المسرح بعد مائة عام من عصر كاتو الأكبر ، وكانت الصورة التى طبعت فى أذهان الرومان عن مصر هى أنها الأرض التى تتزايد فيها الثروة تزايداً خرافيا مما أدى للانحلال ، الأرض التى يحكمها ملوك مترهلين أشرار واصلوا فجورهم عن طريق زواج الأخت بأخيها ، بالإضافة إلى ذلك فإن قصة غرام أنطونيوس وكيلو باترا مع مراعاة أنه قد تم التغاضى فيما بعد عن وزر قيصر - قد قدمت لأوكتافيانوس سلاحا دعائيا جاهزا استطاع أن يستخدمه بمهارة بالغة . أما إيطاليا فقد كانت تخشى قرنا آخر من الحرب الأهلية المتكررة - لذلك أعلن أوكتافيانوس أن هذه الحرب لن تكون حربا أهلية أخرى (ضد أنطونيوس) ولكنها جهاد ضد الخطر الأجنبى الذى يهدد كل ماهو رومانى .. لقد ضخمت

---

* عن هذا الموضوع راجع الدراسة المستفيضة التالية :

دعاية أوكتافيانوس التى . تعدت كل المقاييس واللياقة من حجم كيلو باترا وعندما أقدم أنطونيوس على طلاق زوجته الرومانية أوكتافيا Octavia شقيقة أوكتافيانوس لم تعد هناك حدود للقذف أو انتشار الشائعات . حتى هوراشيوس Horasius ذلك الشاعر العاطفى البعيد عن الرصانة لحق بموكب الجنون وألف أنشودة عن الملكة المجنونة" ذلك الوحش المميت ، التى تقود بفجور غير عادى عصابة من الأغبياء لتدمير تل الكابتول والإمبراطورية الرومانية " . وبالرغم من كل الاعتبارات التى تداخلت فى تنظيم أغسطس ووضعه لقواعد الحكم الرومانى فى مصر ، فإن القواعد التى وضعها لكبح جماح الشعب المصرى فى نظم مدير الحساب الخاص تعتبر متطابقة تماما مع سياسية التفرقة العنصرية للعالم القديم ، وتعكس موقف الشعب الرومانى العدائى تجاه مصر وهو الموقف الذى وصل إلى ذروته بالحملات العسكرية والدعائية .

وفى عام ٢١٢م أصدر الإمبراطور كاراكالا Caracalla منشوره الشهير الذى منح بمقتضاه الجنسية الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية (فيما عدا المستسلمين dediticii الذين دار خلاف كبير بين الباحثين حول تعريفه) ويمكننا أن نستشف الدوافع التى حركت الإمبراطور كاراكالا لإصدار هذا المنشور ، ولكن هناك شيئا واحدا وضحه لنا البردى : وهو أن التغير - على الأقل فى البداية - كان نفسيا وشكليا إلا أنه رغما عن ذلك لم يحدث تغيير جوهرى فى البنية الاجتماعية لمصر ، أو فى العلاقات بين الطبقات أو الضوابط التى كانت تحكمها .

لقد كان الأمر بالنسبة للمصريين فى المدن والقرى على النحو التالى ، بقدر مايكون هناك تغيير ، بقدر ما يظل الوضع على ماهو عليه (بالنسبة لهم).



الفصل الثالث

المدن الإقليمية أو "مقابلة صغار الأعيان"

عاصمة الإقليم :

كانت مصر التى أضافها أغسطس لملكية الشعب الرومانى مقسمة إلى ثلاثين وحدة إدارية تسمى إقاليم nomoi ، والاصطلاح الأخير إغريقى نقل إلى اللغة الإنجليزية بالصورة "Nomes" ، ولقد أبقى أغسطس وخلفاؤه على التقسم الإدارى السابق لمصر ولكنه سحب من مديرى الأقاليم Strategoi وهو الاسم الذى كان يسمى به المديرون أو المحافظون -اختصاصاتهم العسكرية - وكان يتم تعيينهم على يد والى Prefect مصر ، ويعملون بالتالى وفقا لمشيئته ، وكان لكل مدير مساعد يحل محله أثناء غيابه ، ويلقب بلقب الكاتب الملكى Basilikogrammateus وهو أيضا اصطلاح استمر بعد العصر البطلمى .

وكان لكل إقليم عاصمته metropolis التى تتمركز فيها إداراته ، وقد اختلفت هذه الأقاليم فى أسمائها وحجمها وعدد سكانها ، وقد انعكس هذا التباين فيما تم العثور عليه من بقاياها أثناء الحفائر الأثرية التى أجريت فيها وفى ما تم العثور عليه من أوراقها البردية ، ومن الصعب بمكان معرفة عدد سكان تلك الأقاليم ، فقد كشفت الحفائر الأثرية فى مدينة منف Memphis أن تخطيطها العام كان كمثرى - بيضاوى الشكل - بطول بلغ خمسة كيلو مترات أحيط بمساحة بلغت حوالى كيلو متر مربع . أما مدينة هرموبوليس Hermopolis فكان تخطيطها مربعاً وكانت مساحتها أكبر من هذه المساحة بحوالى مرة ونصف مرة ، ولكن هذا لايعنى بأى حال أن عدد سكان مدينة هرموبوليس كانوا أكثر عددا من سكان مدينة منف بمرة ونصف . حقيقة لدينا عدة مقاييس يمكن استخدامها ، ولكنها مقاييس متغيرة وغير معروفة ولانستطيع أن نتحكم فيها وعلى سبيل المثال : ماهى المساحات التى خصصت فيها للمبانى العامة ؟ أو للمنشآت الدينية ؟ وتشير البقايا الأثرية للبهنسا أن مسرحها كان يضم مقاعد تكفى لاستيعاب عدد يتراوح بين ثمانية آلاف وأثنى عشر ألفا ، ولكن مثل هذا الافتراض ، بوضع حد أدنى وحد أعلى له ، هل يمكن منه استنتاج العدد الكلى لسكان المدينة ؟ لو قمنا بمثل هذه المحاولة فسوف نصطدم بحشد هائل من الأسئلة التى لن نتمكن من الإجابة عليها ، وتأتى الصعوبة الرئيسية من أننا لانعرف الشريحة التى خصص لها هذا المسرح من بين شرائح المجتمع ، هل هم كل البالغين من الذكور ؟ أننا نعرف أيضا أن المسرحيات الإغريقية كانت

تقدم على هذا المسرح ، فهل خصص المسرح للمتحدثين باليونانية فى عواصم الأقاليم ؟ من الصعب بمكان الإجابة على هذه الأسئلة وأسئلة أخرى غيرها كثيرة .

وقد عثر على وثيقة من إحدى عواصم الأقاليم المصرية عن مسح تم فيها عام ١١٦م . وهى على النحو التالى :

"من هيراكيون Hierokion كاتب المدينة (فيمايلى) الترتيبات الأمنية للشوارع الرئيسية وطرقات المدينة .

– من شارع حمام السيدات إلى منزل فاناثيس بن سيسوئيس Phanais S. of Sisois حتى زقاق أونوفريس Onrophris تاجر الزيت – ١٢٣ منزلا .

أنتايوس بن هليودوروس Antaios S. of Heliodoros رئيسا ، باريتوس بن Paaretos S. of وهيرجيوس الصغير بن ثوتسيتميس Hergeus Jun S. of Thotsytmis عضوا شرف .

– من معبد سيرابيس Serapis إلى منزل أور سينوفيس بن بيتوسيريس Orsenouphis S. of Petosiris ومنزل خايراس Chairas الرسام ١٢٩ منزلا : باخوموس بن هيراكيون Pachomos S. of Hierakion رئيساً فموليلوس بن سياس Phmoulilous S. of Seias بانجورساويس بن بساخيس Pangorsauis S. of Psachis عضوا شرف .

– من بداية معبد أبو للون وأفروديتى ، الربين المعظمين ، إلى مكان الاحتفال بالموكب ١٣٢ منزلا : أنتايوس بن يسينتار بسياس Antaios S. of Psentarpsais رئيساً، هاسيئيس بن كولوتيخمّيس الكبير Hasies S. of Kollouteuchmis وبيتيموثيس بن ميسيس Pe-teimouthes S. of Miysis عضوا شرف .

المجموع الكلى = ٢٧٣ر١ [1] منزلاً (وهناك تسجيل لعشر حالات بالطريقة السابقة).

وإذا كانت الوثيقة السابقة إحصاء كاملاً للمدينة كما هو واضح من العنوان الذى يظهر عليها ، فهى إذن تناظر مثيلاتها من عواصم الأقاليم الأخرى ، وكانت مدينة هرموبوليس على العكس من ذلك إذ بلغ العدد الإجمالى لمنازلها نحو ٠٠٠ر٧ منزلا ، وهو الرقم الذى استخرج من ترميم لوثيقة بلغ عدد المنازل الواضحة منها ٠٠٠ر٤ منزلا ، والواقع أننا نعرف الكثير عن الهيكل التخطيطى لهرموبوليس نتيجة للحفائر التى تمت فيها بعد عشر سنوات من الحرب العالمية الثانية ، فقد أحيطت المدينة بسور من الطوب اللبن ، وكان النطاق الدينى يقع فى

الجزء الشمالى منها ، وكانت أسوارها سميكة بشكل غير عادى ، إذ بلغ سمكها حوالى ٢٥ مترا ، وكانت تبدو كمعبد محصن ، وفى وسط النطاق الدينى الذى بلغ عرض واجهته خمسون مترا بعمق بلغ أكثر من مائة متر ، كان يوجد معبد هرميس ، الذى أشتق منه اسم المدينة ، وهو الصورة الهلينية للإله المصرى توت Thot أو تحوت ، ومن الداخل كان المعبد لأغسطس.وبالإضافة إلى مجموع العاملين فى هذا المعبد فقد كان النطاق المقدس يضم أيضا- وهذا مرجح - مقر الحامية المحلية ، وربما أقام فيه أيضا بعض العائلات المحلية التى لم تكن لها صلة بالشعائر الدينية ويمتد ذيل الشارع الرئيسى فى المدينة بحذاء الحافة الجنوبية للنطاق الدينى ، ويبدأ من بوابة القمر فى الجانب الغربى إلى بوابة الشمس فى الجانب الشرقى ، ويواصل سيره باتجاه ميناء المدينة النهرى ، حيث تقع قبالته مدينة أنتينوبوليس Anti-noopolis . وقد غير الإمبراطور هادريان اسم هذا الشارع العريض (أو على الأقل الجزء الشرقى منه) من شارع سيرابيس إلى شارع أنتينوس تخليدا لذكرى صفيه المتوفى Anti-nous، ثم يواصل الشارع امتداده بزاوية إلى اليمين نحو الجنوب حتى يقترب من معبد هرميس . وكانت نقطة تقاطع هذين الشارعين الرئيسين هى محور أنشطة المدينة فكان يوجد فيها السوق الرئيسى ، المنشآت العامة الضخمة ، معبد أنتينوس ومعبد هادريان ، ومعبد سيرابيس - النيل، ومعبد أفروديتى ، ومعبد ربة الحظ ، ومعبد الربة أثينا ، وخصص الجزء الجنوبى من المدينة للسكنى ، وقد كشفت الحفائر عن اثنين من الحمامات العامة وجمناز يوم (له حمام خاص كان هدية من الإمبراطور هادريان) وعدة-منازل فاخرة تفاخر بحماماتها الخاصة، وبالاضافة إلى كل هذه المزايا التى امتلكتها هرموبوليس كان يوجد بها حديقة عامة وبحيرة . (٢)

أما العاصمتين اللتين تعرف عنهما معلومات أفضل مما تقدم فهى مدينتا الفيوم Arsinoe والبهنسا Oxgrhynchos ، فقد تمكنا من خلال آلاف الوثائق البردية التى عثر عليها فى البهنسا والقرى القريبة منها أن نعرف معلومات ضخمة عنها مثل أسماء الأقسام الرئيسية فى المدينة وأسماء عديد من شوارعها ، كما نستطيع أن نحدد وجود ومكان بعض مؤسساتها مثل: الجمناز يوم ، الحمامات العامة ، المسرح ، البنك الذى كان قائما عند مزار سيرابيس العظيم .. وعشرين معبداً آخر ، بالإضافة إلى كنيستين ترجعان لنهاية القرن الثالث الميلادى . وتوجد لدينا لفافة بردية فى مكتبة المتحف البريطانى تتضمن حساباً خاصاً بالإيرادات والمصروفات قام المقاولون المشرفون على تزويد مدينة الفيوم بالمياه بتسجيله ١١٣م ، ومنه نعلم أن مدينة الفيوم قد زودت بالمياه الجارية على الأقل فى بعض أجزائها ، إذ كان يوجد

خزانات تضخ المياه إليهما من أحد فروع النيل بواسطة عشرين أو أكثر من الطنابير (التى ابتكرها أرشميدس) وآلات أخرى (الفصل السادس) ، وتم تشغيل هذا الآلات بواسطة جماعات تتكون كل جماعة منها من عدد من الرجال يتراوح بين ستة إلى عشرين فردا يعملون صباحاً ومساء بالتناوب، وتراوحت أجرة المياه للمستهلكين بين ١٫٣٠ إلى ٤٠ دراخمة يوميا، وكان من بين المستهلكين الحمامات العامة ، مصنع البيرة الواقع بالقرب من معبد سيرابيس ، ومعبد ومكان لصلاة يهود طيبة (مما يشير إلى احتمال وجود معابد أخرى لهم فى المدينة) ، ولكن ليس من الواضح لنا من هذه البردية ما إذا كانت المنازل قد تم توصيل المياه إليها أم لا.(٣)

الأعيان ومجتمع الصفوة :

إن أكثر ما نقابله من خلال أوراق البردى هم أولئك الأفراد الذين يقيمون فى عواصم الأقاليم ، وقد سبق أن رأينا خلال الفصل الثانى أن جميع سكان المدن بما فيهم أولئك الذين يدعون انحدارهم من نسل إغريقى خالص قد أنزلتهم الحكومة الرومانية إلى مرتبة المصريين ، وعلى الرغم من ذلك فإن مواطنى عواصم الأقاليم - كما كانت الأرستقراطية المحلية تسمى نفسها - قد تشبثوا باعتزاز بروابطهم - سواء كانت حقيقة أم خيالا - بالثقافة الهللينية . فقد صاغوا حياتهم والجو المحيط بهم بطريقة تشبه الحياة فى المدن الإغريقية الأربع ، وخصوصا الإسكندرية وذلك بقدر ما أتاحته لهم إمكاناتهم ، فقد احتفلوا بالألعاب الإغريقية وأعياد الآلهة اليونانية بطريقة تجاوزت حد الحكمة والتبصر ، ومع نهاية القرن الثانى عانت كثير من عواصم الأقاليم من العجز فى مواجهة نفقاتها الجارية وقد جرت محاولات لوضع حلول لتخفيض نفقاتها ، ولكن أتهم أصحابها بقصر النظر من قبل أولئك المتمسكين بالمظاهر ورأوا أنه لاينبغى أن يلجأوا إلى هذه الوسيلة إلا إذا كانت هى الحل الأخير ، وقام أحد رجال البر فى عام ٢٠٠ بإيقاف وقف خصص دخله للإنفاق على مباريات الشبيبة Ephebic Contests السنوية بحيث تكون على نفس مستوى تلك التى تجرى فى مدينة أنتينوبوليس ، وفى الواقع لقد كان هناك تمسك بالمظاهر الهلينية حتى خلال فترة المشاكل السياسية والاقتصادية فى الحقبة الأخيرة من القرن الثالث ، وبدلا من تخفيض هذه النفقات فقد استمر مواطنى عواصم الأقاليم فى انفاق غيرها والإقبال على ما يتطلب نفقات طائلة ، وعلى سبيل المثال فقد أنشأوا فى البهنسا طبقة شرقية تتكون من مائتين من مواطنى عواصم الأقاليم من أصحاب الامتيازات ، تضاف نفقاتهم على النفقات العامة ، وكونوا منهم مجلسا للشيوخ يذكرهم ببلاد الإغريق فى عصرها الكلاسى . كما أدخل فى البهنسا وبعض عواصم الأقاليم الأخرى - ولا

نستطيع أن نقول جميعها - نظام توزيع هبات القمح المجانية لعدد من أفرادها ، ولاشك فى أن هذا التصرف الأخير كان محببا إلى قلوبهم ، حيث إنه كان سمة مميزة ليس فقط للإسكندرية أو أنتينوبوليس ولكن لروما أيضا . (٤)

ولايثير دهشتنا أن مواطنى عواصم الأقاليم الذين عرفوا - بتعلقهم بحياة المدن الإغريقية قاموا بنبذ كل ماهو قروى أو مصرى - لقد كتب أحد مواطنى البهنسة وكان يزمع زيارة أسرته وأصدقاءه بعد أن عاش بعيدا عنهم لمدة عام قائلا : "ربما تظنون أو تتوقعون أننى قد أصبحت بربريا أو مصريا غير متحضر" ، لقد كتب ذلك حتى يؤكد أنه لم تحدث له مثل هذه التغيرات.(٥)

حقيقة أن الوثائق التى لدينا من عواصم الأقاليم تقدر بالمئات وبالرغم من ذلك فإننا لانستطيع أن نحدد تحديدا مؤكدا ماهو المقصود بعبارة "مواطنى عواصم الإقليم met-ropolites وعبارة "الذين هم من عاصمة الإقليم "لقد تكونت هذه الطبقة فيما يبدو من أولئك المنحدرين من نسل طبقة الأغريق الذين أغراهم البطالمة بالاستيطان فى مصر ، ولكن هل تكونت هذه الطبقة من هؤلاء فقط أم أنهم كانوا نواتها ؟ كما أننا لانعرف على وجه التحديد ما إذا كانت هذه الطبقة تشمل أولئك الذين انحدروا من الزواج المختلط بين المصريين وسواهم أم لا ؟ وهل كان تسجيل الإقامة فى عاصمة الإقليم يتبعه بالتالى الحصول على حقوق مواطنيها ؟ إن الإجابة المؤكدة على هذين السؤالين هى بالنفى حيث اتضح لنا من الوثائق أنه كان يتم تسجيل مواطنى عواصم الأقاليم من الذين انحدروا من والدين من نفس الطبقة (وبناء على ذلك فقد كان يحق لمواطنى عواصم الأقاليم أن يفاخروا بأنهم مازالوا يمارسون حياة دولة المدينة الإغريقية القديمة والتى كانت أشهرها أثينا فى عصر بركليس الذهبى) وبناء على ماتقدم فإن المصريين المقيمين فى عاصمة الإقليم والأبناء الذين أنجبوا من زواج مختلط كان محرما عليهم الحصول على مواطنة عاصمة الإقليم .

ويدور السؤال الآن هل كانت طبقة مواطنى عواصم الأقاليم تعتبر طبقة متجانسة ؟ يبدو أن الأمر لم يكن كذلك ، فلدينا مجموعة من ٤٧٥ز٦ من المستوطنين فى أرسينوى ولدينا من هرموبوليس والبهنسا" "طبقة الذين ينتمون إلى معهد التربية" ويبدو أن هؤلاء كانوا يعتبرون فئة مميزة داخل طبقة مواطنى عواصم الأقاليم طبقة منفصلة أو منبثقة عنها .

وإذا حاولنا معرفة أصل ومغزى المشار إليهم بـ "٦٤٧٥ من المستوطنين فى الفيوم" فإننا لانستطيع إيجاد تفسير لهذه المشكلة . فمن الناحية الشكلية فربما يشبه هذا الاصطلاح ، اصطلاح تعبير الحد الأقصى Numeras Classus الذى لايسمح بتعديه ، ولكن إذا كان الأمر

كذلك فماذا يحدث إذا زاد العدد نتيجة لزيادة السكان ؟ ماذا سيكون مصير أبناء هذه الطبقة المميزة ؟ هل يظلون خارج نطاق عضويتها إلى أن يخلو مكان لهم بالوفاة ؟ وماهى الطريقة التى كانت يُشغل بها المكان الخالى ؟ هل لأكبرهم سنا ؟ أم كان ذلك يتم بالاقتراع ؟ إن جميع هذه القيود قد تتعارض مع حق الأطفال فى أن يسجلوا فى طبقة والديهم وأن يتمتعوا بحقوقهم عند بلوغ سن الرابعة عشر . وفى ضوء ماتقدم - وعلى الرغم من أنه لم يتم التأكد من ذلك - فإن التفسير المحتمل أن عدد ٦٤٧٥ يمثل عدد الفئة المميزة عندما تم أنشاؤها وبالتالى فقد ظلت أجيالها المتعاقبة تحمل هذا اللقب المميز ، دون أدنى انزعاج بفكرة عدم انطباق الرقم على حقيقة العدد .

لقد خضع المقيمون فى مصر أثناء الحكم الرومانى فيما عدا الرومان والإغريق مواطنى المدن الإغريقية ، واليهود أو بمعنى آخر أولئك الذين صنفتهم الحكومة الرومانية على أنهم مصريين ، خضعوا جميعاً لدفع ضريبة الرأس أبتداء من سن الرابعة عشر وحتى سن الستين (وهو من لم يصل إليه إلا عدد قليل نسبياً فى العصور القديمة) ولقد تم تخفيض هذه الضريبة بالنسبة لمواطنى عواصم الأقاليم وعبيدهم ، فقد دفعها أفراد هذه الطبقة بمعدل ثمانية دراخمات فى العام فى كل من هيراكليوبوليس وهرموبوليس وبمعدل ١٢ دراخمة فى البهنسا ، وعشرين دراخمة فى الفيوم ، ويبدو أن هذا التفاوت فى معدلها يعكس مستوى الرخاء فى هذه الأقاليم: فقد كانت أراضى الفيوم خصبة ومثمرة (أنظر الفصل السادس) ولذا ارتفع معدل هذه الضريبة فيها على كل رأس Per Capita .

وعندما يبلغ الصبى فى هذه الطبقة سن الرابعة عشر من يوم مولده يتقدم والديه بطلب رسمى لفحصة epikrsis أى (فحص وضعه القانونى) .. وتسجليه فى طبقتهم ، وبالنسبة لمواطنى عواصم الأقاليم فقد كان يذكر فى الطلب السنة التى قام فيها والده بتسجيله ، أما بالنسبة لطبقة الفيوم المميزة فقد كان على مقدم الطلب أن يثبت أن والديه ينتميان إلى طبقة الـ ٦٤٧٥ من المستوطنين ، وقد كان الوضع على العكس من ذلك فى كل من البهنسا وهرموبوليس ؛ فقد جرت العادة على إثبات عضوية مقدم الطلب فى هيئة الجمنازيوم من جهة الأجداد سواء من جانب الأم أو من جانب الأب ، ولذلك كان يتم الرجوع إلى القوائم الرسمية التى أعلنت عام ٤/٥م ، أو تلك القوائم التى أعدت بناء على منحة خاصة من الجهات الرسمية بين التاريخ السابق وعام ٧٢/٧٣م والتى أغلق بعدها الباب أمام أى إضافات جديدة، وفى هذا الطلب التالى الذى سلم فى البهنسا فى ٢٨ أغسطس عام ٢٦٠م يذكر مقدمه باعتزاز أن أسلاف الصبى الذى ينتمى لطبقة الجمنازيوم يرجعون "لسبعة أجيال سابقة" .

"طبقا للتعليمات الصادرة لفحص الحالات المتقدمه لمعرفة إذا كان المتقدمين من طبقة الجمنازيوم فإننى أقرر أن ابنى (فقد الاسم) الذى بلغ سن الرابعة عشر فى السنة السابعة من حكم الأباطرة ڤاليريان Valerian وجالّلينوس Gallinus ليس له علامة مميزة ، الرماح فى التدريبات ، والمسجل فى ضاحية .. على أى حال فإننى أصرح لإتمام إجراءات فحصه بأن جدى الكبير من جهة والدى هو ديونيسيوس بن فيلون Dionysios S. of Philon كان مسجلا فى ضاحية ميترون Metroon أثناء فحص عضوية الجمنازيوم التى تمت فى السنة الخامسة من حكم فسباسيان Vespasian (٧٢/٧٣م) طبقا للأدلة التى قدمها وتثبت أنه جد ديونيسيوس بن فيلون Dionysios S. of Philon كان مدرجا فى قاعة عام ٣٤ من حكم أغسطس المؤله (٤ر٥م) وأن جد جد والدى الأكبر (فقد الاسم) كان قد سجل فى ضاحية كريت فى الفحص الذى تم فى عام ... من حكم المؤله .. دوميتيان (٨١؟٩٦م) ؟ وأن جد جدى الأكبر كورنيليوس Cornelius كان مسجلا فى ضاحية ميترون Metroon أثناء عملية فحص المرشحين فى العام السابع عشر من حكم المؤله تراجان (١١٣/١١٤م) ، كما أنه قد تم تسجيل جدى فى نفس الضاحية فى فحص عام .. من حكم المؤله أنطونينوس (١٣٧/١٦١م) ، كما أنه قد تم تسجيل والدى سارابيون Sarapion فى ناحية أنا مفود ارخيس Anamphodarchs فى فحص المرشحين فى العام السادس من حكم المؤله ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius وليوكيوس فيروس Lucius Verus (١٦٥/١٦٦م) - كما أننى مسجل فى ضاحية كريت .. وبالإضافة إلى ما تقدم فإنه بالنسبة لزوجتى فإن جدها الكبير ، أبوللونيوس بن أبوللونيوس Apollonios S. of Apollonios كان مسجلاً فى ضاحيه ... أثناء الفحص الذى تم فى العام الخامس من حكم المؤله فيسباسيان ، (تلى ذلك السنة التى تم فيها تسجيل كل منهم ، الجد الكبير للأم ، والجد الكبير للأب ، والأب) .

وأقسم بحياة أباطرتنا (أسماؤهم) أن كل المعلومات التى سبق تقديمها صحيحة وأن (فُقد الاسم) ابنى الشرعى من (فُقد اسم الأم) ، وليس ابنا بالتبنى أو مزيفا ، كما أننى لم أستخدم وثائق الآخرين ، أو لفظا فى غير محله وأقر بأننى مستعد لتحمل تبعات هذا القسم التاريخى وتوقيع ثلاثة من الشهود). (٦)

وقد نشرت لفافة بردية حديثة من مجموعة بردى البهنسا Oxyrhynchus Papyri يتضمن بقايا لفافة خاصة بمثل هذه الطلبات ، وتعطى اللفافة للثلاثة عشر طلبا الباقية منها أرقام من ١٠٩ - ١٢٣ ، وجميعها مؤرخة بعام ١٤٩ ، ولذا يبدو من المحتمل (وإن كنا غير متأكدين)

أن الأعداد من ١٠٨/١ ربما تكون مؤرخة من نفس العام ، إن تقديم أكثر من مائة طلب لإحصاء الشبيبة فى عام واحد يشير إلى أن طبقة الجمنازيوم فى البهنسا كانت أكبر مما يتوقع.(٧)

ولايثير دهشتنا كثيرا أن مواطنى عواصم الأقاليم ومجموعتهم المميزة كانت تنمو بطريقة ملحوظة ، وكما لاحظنا سابقا فقد كان الزواج من خارج نطاق طبقتهم يحرم الأبناء من التمتع بحقوقها ، أما الأمر الذى يثير دهشة القارىء الحديث فهو أن الطلاق فى مثل هذا الزواج الذى يتم من داخل الطبقة أو بين العائلات وبعضها كان أمرا نادرا ويدخل فى إطاره الزواج بين الإخوة والأخوات ولدينا الآن دعوة لحضور مثل هذا الزواج :

"تتقدم هيرائيس Herais بدعوتكم لحضور زواج أطفالها غدا فى منزلها فى اليوم الخامس، وسيبدأ الحفل فى الساعة التاسعة (الثالثة بعد الظهر).(٨)

وعندما بدأت تظهر لأول مرة بعض نماذج للزواج بين الأخوة على أوراق البردى استقبلت بشك كبير فى بعض الأنحاء ، وقد بنى المتشككون رأيهم على عدم إمكانية أن يسمح المجتمع بمثل هذا الاعتداء الصارخ على المحارم ويقر بالفسق بهم هذا على الرغم من أن بعض الأنثروبولجين يرون فيه "ظاهرة عالمية" فى المجتمع الإنسانى . ولاينفى البعض الآخر هذه الظاهرة ويرون أنه قد يحدث أحيانا أنه ينادى الزوج زوجته "بأختى" أو يطلق الصديق على صديقه لقب "أخى" ، وهو أمر يماثل ما كان يحدث فى الشرق الأدنى القديم . إن مثل هذه المناقشات البارعة سوف تختفى تماما فى مواجهة الأدلة المتراكمة من أوراق البردى العديدة سواء من خلال الوثائق الرسمية أو الخاصة ، التى تذكر الزوجة فيها أنها "أخت لزوجها ، ولدت من نفس الأب ونفس الأم " ، وقد وضح انتشار مثل هذا الزواج فى تاريخ ديودور الصقلى ، وقد أتخذت الحكومة الرومانية إجراءا رسميا ضد هذه العادة ، حيث قضت المادة ٢٣ من قواعد مدير الحساب الخاص : أنه يحظر على الرومان الزواج بأخواتهم أو عماتهم أو خالاتهم ، ولكن يسمح فقط بالزواج من أبناء الإخوة وبعضهم" وربما كان لهذا التحريم صلة بالمصريين الذين حصلوا على الجنسية الرومانية أو ربما حدثت عدة مخالفات منهم ، ثم حرم زواج .. الأخت بأخيها فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية طبقا للمنشور الإمبراطورى الذى صدر فى عام ٢٩٥م . (٩)

كان للزواج بين الأخوة فوائده الاقتصادية ، لأنهم بذلك يحافظون على أنصبتهم التى يرثوها معا ، وعن هذا الطريق أمكن حفظ ضياع كثيرة من تقطيعها وتفتيتها إلى أجزاء

صغيرة ، ويتضح لنا من جميع أنواع الوثائق أن أسر مواطنى عواصم الأقاليم ظلت حتى رمقها الأخير تعيش فى رغد من العيش ، فقدأمتلكت كل أسرة منها منزلا فى المدينة ، ومزرعة فى الريف على الأقل وأزدهرت مشروعاتهم الاستثمارية ، فقد امتلك بعضهم أملاكا عديدة وثروات طائلة . لقد بلغت الضرائب الزراعية لإحدى ضياع مواطنى عواصم الأقاليم فى إحدى القرى ١٥٪ من ضرائب القرية بأسرها . وفى قائمة للمزروعات من قرية أخرى سجل الزارعون المحليون عند قيامهم ببذر الحبوب استخدامهم من ١ :١٢ أردباً من القمح بينما استخدموا لبذر الحبوب فى أراضى عدة ملاك كانوا يقيمون بعيدا عن أرضهم وكان أحدهم رومانيا واستخدم الباقون من طبقة مواطنى عواصم الأقاليم - مقدارا يتراوح بين ٢١ : ٣٤ أردباً من الغلال . كذلك امتلك أحد مواطنى عواصم الأقاليم ١٨ مزرعة تجاوزت مساحتها أكثر من مائة أرورا ، ويمكن تقدير حجم العمل فى أملاكه من خلال كشف حساب النفقات الشهرية للمشتريات ولتأجير العمال وقد بلغ ٢٫٣٠٠ دراخمة كما بلغ الدخل الشهرى أكثر من ٢٫٧٠٠ دراخمة (١٠) .

وكانت القروض المالية من أكثر المشروعات الاقتصادية التى عمل مواطنو عواصم الأقاليم فى ميدانها خصوصا الكبيرة منها ، فمن بين النماذج العديدة التى لدينا نلاحظ هذا القرض الذى بلغت قيمته ١٫٥٠٠ دراخمة ، والآخر الذى بلغ ٦٫٥٠٠ دراخمة بفائدة شهرية بلغت ١٪ ومثل هذه الفائدة فى المبالغ الكبيرة تعطى دخلا كبيرا لايستهان به ، ولذا كان يفضل فيها أن تظل القروض بحوزة من اقترضها لأطول فترة ممكنة ، وهناك وثيقة أخرى ذات طابع مميز ، وهى تلك المؤرخة بعام ١٨٦م والتى قام فيها أحد أعضاء طبقة الجمنازيوم بإقراض أحد الأفراد مبلغا من المال بلغ مقداره تالنت أى حوالى ١٢٫٠٠٠ دراخمة ، وهو مبلغ كان يمكن به شراء زورقين نهريين صغيرين ، أو خمس أو ست من العبيد ، ولما كانت فائدة هذا القرض قد بلغت $\frac{٢}{٣}$ المعدل المعتاد ، فلذلك يمكننا أن نقول إنه كان قرضاً بين صديقين . وتتحدث إلينا وثيقة أخرى عن أحد موطنى عواصم الأقاليم الذى اقترض من خزانة البلدية - وهى الخزانة التى كان قد تم إنشاؤها قبل خمسة وعشرين عاما للإنفاق على ألعاب الشبيبة السنوية- مبلغ ٧ تالنت، ١٫٧٠٠ دراخمة ، أى حوالى ٧٣٫٧٠٠ دراخمة ، ومعنى ذلك أن أملاكه كان يمكنها تغطية أكثر من قيمة القرض ، وتذكر لنا وثيقة أخرى بأحد رجال الأعمال أن أحد أعضاء طبقة الجمنازيوم كان يملك مصنعا يعمل فيه ٣٦ نساجاً . (١١)

لقد قام مواطنو عواصم الأقاليم بتغطية احتياجاتهم الضرورية ووسائل راحتهم ، وبالإضافة إلى ذلك فقد استخدموا ثرواتهم للمحافظة على مظاهرهم الاجتماعية بطريقة واضحة ، فقد ساعدت عادة تبرعات أهل الخير والإحسان فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية على إنشاء وزخرفة المبانى العامة ، وتقديم التسهيلات للحمامات ، وإنشاء الأروقة ، والأسواق العامة وهكذا ، وقد سُجل ذلك على قواعد التماثيل التى أقيمت للمتبرعين ، أما التماثيل نفسها التى تم تشييدها بأعداد كبيرة فى جميع أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط فقد إختفت فى معظم الأحيان ، وقد تم تشييد معظم هذه التماثيل بمناسبة تولى المتبرع لأحد المناصب العامة ، وفى الواقع فإن مواطنى عواصم الأقاليم فى مصر لم يمارسوا قبل القرن الثالث أى عنصر من عناصر الحكم المحلى الذاتى ، ولم يصلوا إلى الحد الأدنى الذى تمتعت به الجاليات اليهودية ، وعلى أية حال فقد منح مواطنو عواصم الأقاليم الحق فى اختيار موظفين من بينهم للقيام ببعض الأعمال البلدية ، كما سمح لهم أن يطلقوا على هؤلاء الموظفين لقب الحكام Mag-istrates. وقد اعتاد الكتاب المعاصرون على استخدام هذا الاصطلاح . كما لو كانوا يمارسون نوعا من السلطة الحكومية ، لذا يجب علينا أن نوضح أنه حتى عام ٢٠٠م ، وهو العام الذى منح فيه الإمبراطور سبتميوس سيفروس عواصم الأقاليم بعض المؤسسات الإدارية التى أنيطت بها مسئوليات محددة ، وسوف نقوم بمناقشتها فيما بعد ، ولم تكن هيئة حكام مواطنى عواصم الأقاليم هيئة حكومية ، ولكنها كانت لجنة للإشراف على بعض الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع " أى أنه لم يكن هناك وجود حقيقى للحكام فى واقع الأمر ، كما أن عواصم الأقاليم لم تكن أكثر من مدن ولكن مواطنى الأقاليم كان يسعدهم من الناحية النفسية أن يشعروا بأنّهم ينحدرون من نسل أولئك الذين حملوا ألقابا". لقد امتدت سلطة مدير الإقليم الحكومية وجهازه الإدارى لتشمل كل أنحاء الإقليم بما فى ذلك عاصمته Metropolis .

لقد أضافت هذه المناصب لمركز مواطنى عواصم الأقاليم الاجتماعى رونقا وبهاء ، ويرجع السبب الأول فى ذلك إلى اللقب الذى كان يحمله من شغل أحدها ، ويقوم من يشغل أحد هذه المناصب بدفع رسم لشغل منصبه وحمل لقبه والقيام بأعبائه ، كما أنه كان يتولى الإنفاق الكلى أو الجزئى عليه وفى يوم الاحتفال بتوليه منصبه تزين المؤسسة وتلقى فيه خطب المديح البليغه ، وحمل هؤلاء الحكام ألقابا تقليدية ترجع إلى القرن الخامس ق.م فى أثينا وعند الاحتفال بالتنصيب يوضع إكليل الغار على رأس المسئول الجديد وتسمى هذه العملية بالتتويج.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد تم العثور على إحدى الدعوات الخاصة بهذا الاحتفال فى البهنسا حيث جاء فيها :

"يدعوكم يودايمون Eudaimon لتناول طعام العشاء فى الجمنازيوم بمناسبة تتويج ابنه نيلوس Nilos فى اليوم الأول من الشهر ، وسوف يبدأ الحفل فى الساعة الثامنة (الثانية ظهرا) (١٢).

وعندما يشغل أحد الأفراد واحدا من هذه المناصب يظل طوال حياته يتمتع بشرف التعيين فيها مثل منصب مدير معهد التربية" ومنصب الكوزمتيس Cosmetes وهكذا ، وهى نفس العادة التى تلاحظها حتى اليوم فيمن يشغل أحد المناصب العامة العليا .

وكانت مناصب عاصمة الإقليم مكونة من ست مناصب : خمس منها حملت الألقاب البطلمية ، أما واجباتها فقد تواءمت مع ضرورات وظروف الحكم الرومانى ، وأنشىء المنصب السادس وهو منصب المشرف على التموين Eutheniarch إما فى القرن الأول أو الثانى ويمكن أن نميز قواعد وواجبات هذه المناصب الست على النحو التالى :

رئيس معهد التربية Gy mnasiarch ، وهو لم يكن منصبا إداريا بقدر ما كان منصبا يعتمد على تمويل شاغله له ، وكان هذا مسئولا عن إدارة الجمنازيوم يوما بيوم ، ويشرف بالدرجة الأولى على تزويد المعهد باحتياجاته الأساسية مثل الوقود اللازم لتدفئة المياه ، والزيت لاستخدامه فى التدليك والإضاءة ، وتمثلت شارات منصبه فى غطاء رأس أرجوانى اللون وحذاء مميز أبيض اللون ، وكان يصاحبه حرس شرف يتكون من أربعة من الشبيبة أثناء الاحتفالات .

الكورميتيس Kosmetes (مسئول التدريب والنظام)

ويشرف على الإجراءات الروتينية الخاصة بتدريب شباب الجمناسيوم أى الشبيبة ، وفى أثناء الاحتفالات خصص له حرس شرفى يتكون من اثنين من الشبيبة .

المديـــر Exegetes

وهو يرأس مجموعة من الحكام الذى يدوم منصبهم لمدة عام ، وهى المجموعة التى أصبحت مع نهاية القرن الثانى إذا لم يكن قبل هذا التاريخ تبدو مثل منظمة أو هيئة أو نقابة ، أما اختصاصاته الأخرى إذا كانت توجد لديه اختصاصات فهى غير واضحة (١٣) ، وكان له حرس شرفى يتمثل فى اثنين من الشبيبة .

المشرف على تموين الطعام Eutheniarch :

فقد حدد اختصاصه الذى يتمثل فى "مد المدينة بالطعام" ويعنى هذا الاصطلاح من الناحية العملية مراقبة طحن الغلال وخبز الخبز حتى لايكون فيه إلا الحد الأدنى من الشوائب ، ولما كان لايملك سلطة بوليسية ، فإن أدواته لتنفيذ عمله تتمثل فى منع وقوع أية اضرابات أو مشكلة عامة عن طريق الإقناع وحافظة ممتلئة بالنقود ، وكان يتوقع منه حتى ولو لم تكن هناك ضرورة رسمية أن ينفق من موارده الخاصة لحل أى مشكلة فى نقص المواد التموينية .

المشرف على السوق Agoranomos :

وبالإضافة إلى ما يشير إليه لقب هذا الموظف ، فنحن لانعرف إلا القليل عن واجبات هذا المنصب ، ففى إحدى الوثائق التى ترجع لمنتصف القرن الثالث رأينا أحد المشرفين على السوق يقوم بتأجير بعض أكشاك فى السوق لحساب مجلس المدينة وخصص له حارس شرفى واحد .

كبير الكهنة Archiereus :

وبالرغم من اللقب الفخم الذى أطلق على شاغل هذا المنصب إلا أنه لم يكن رئيسا لمجموعة من الكهنة بل لقد كان واجبه الرئيسى يتمثل فى القيام بتأديه طقوس عبادة الأباطرة والأسرة الإمبراطورية ، أما حرسه الشرفى فقد أقتصر على حارس واحد .

لقد تم ترتيب القائمة السابقة كما هو واضح طبقا لأهمية كل منصب ومظاهر التشريف التى أسبغت عليه ، وفى كل عام كان يجرى فى العادة اختيار منصب أو أكثر ليتم شغله لمدة عام واحد ، وهذا يؤدى من الناحية العملية إلى قيام أكبر عدد من الأفراد فى المشاركة فى نفقات المنصب وأيضا فى الحصول على شرف شغله وقد قام بعض المتطوعين بالخدمة فى المنصب لمدة تجاوزت العام ، وخصوصا فى منصب رئيس الجمنازيوم ، ولانستطيع أن نعرف على وجه التحديد ماهى الشروط التى كان ينبغى توافرها للتقدم لانتخابات شغلها . أو يمكننا أن نستنتج – من خلال مقارنة الأدلة الواضحة الخاصة بالمناصب ، أو على الأقل بأكثرها أهمية- أنها كانت خاصة فى الأصل بالفئة الأرستقراطية من طبقة عواصم الأقاليم ، ثم فتحت أبواب هذه المناصب فيما بعد أمام بقية أفراد الطبقة ، لأنه بمرور الوقت وبسبب نقص الثروات أصبح من الصعب تقدم عدد كاف من المرشحين من بين المجموعة الأرستقراطية لشغلها .

ولدينا الآن مجموعة كبيرة من الحقائق توضح الآتى : أنه ابتداء من النصف الثانى من القرن الثانى م وما بعد ذلك أصبحت نفقات هذه المناصب تبدو أكبر مما هى عليه ، ويرجع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السبب فى ذلك إلى أن الاقتصاد المصرى (وفى كل أنحاء الإمبراطورية) أصبح يدل دلالات لاتخطئها الفراسة على أنه يتجه للانحدار التدريجى ، كما أخذ الوضع الاقتصادى لطبقة مواطنى عواصم الأقاليم يسير نحو التردى . لذلك أصبحت هناك موجة لتحاشى شغل المناصب الشرفية بطريقة أو بأخرى فقد تعاون أكثر من فرد فى شغلها ، كما وضعت حلول أخرى لمحاولة المواءمة بين حاجات المناصب وحقائق العصر . وعلى سبيل المثال فقد زاد عدد شاغلى المنصب الواحد حيث كان يتمتع الواحد منهم بالتشريف بشغل المنصب لمدة عام ولكنه يكون مسؤلا عن نفقاته لشهر واحد أو ربما أقل من ذلك . أما التطور الآخر الذى حدث فيتمثل فى أن المرشحين للمناصب أصبحوا يجادلون بشأن المنصب الذى سوف يقومون بشغله ، وكان يتم إعتذارهم عن شغل المنصب بذكر ماسببه لهم شغله فى المرة السابقة من تدهور فى مصادرهم المالية . وربما يقبل المرشح حلا وسطا يتمثل فى شغل منصب نفقاته قليلة بدلا من الذى رشح له أصلا .

وفى عام ٢٠٠م أدخل تغيير جوهرى على بناء عواصم الأقاليم الإدارى عندما قام الإمبراطور سبتيميوس سيفروس بإنشاء مجلس محلى أو مجلس للمدينة فى ظل عاصمة منها . ويعتبر هذا الإجراء خطوة عريضة لرفع عواصم الأقاليم إلى درجة البلديات الرومانية (أما الخطوة الأخيرة فلم تتم إلا فى القرن الرابع . وقد استقبل مواطنو عواصم الأقاليم هذه المنحة بسعادة غامرة أو ذلك قبل أن تتضح لهم جوانبها الأخرى بفترة .

ويعزو بعض المؤرخين آراء سيفروس وسياسته كإمبراطور ، والتى كان يخالف بها سياسة أسلافه من بعض الوجوه إلى ظروف نشأته فى شمال أفريقيا . وأيا كان السبب ، فليس هناك من شك فى أن فترة شغله لمنصبه الإمبراطورى تعتبر علامة على بداية الحقبة التى اتجهت فيها سياسة الإمبراطورية إلى محاولة الوصول إلى المساواة بين رعاياها ، فنحن نرى هنا أنها رفعت من وضع الولايات لتقترب من ذلك الوضع الذى كانت تتمتع به إيطاليا بمفردها من قبل : لقد وضعت الفقراء والمتواضعين جنبا إلى جنب مع علية القوم Vis - a - Vis . إن دستور مجلس شورى عواصم الأقاليم شيء لابد لنا من توضيحه ، إنه يعنى دون شك إضفاء مظاهر الشرف والتكريم على كل من عاصمة الإقليم ومواطنيها الذين أصبحوا أعضاء فى المجلس ، ففى هذا المجلس الجديد ومن خلال حكامهم التقليديين الذين ظلت مناصبهم كما هى ، أصبحوا يمارسون الآن مسئولية يومية فى إدارة أعمال مدينتهم وعلى أية حال فلم يكن لمجالس الشورى أية

سلطة تشريعية ، لقد كان هيئة إدارية بالدرجة الأولى ، مهمتها الأساسية الإدارة والإشراف على : الشئون المالية ، الأعمال العامة ، المنشآت العامة فى عاصمة الإقليم ، إضافة إلى جمع الضرائب الحكومية من كل أنحاء الإقليم .

إن تحمل مسئوليات ضخمة كهذه كان يتطلب بالتالى دفع مبالغ مالية كبيرة وقعت على عاتق أعضاء المجلس والحكام المحليين ، ومع انكماش مصادرهم المالية فى نهاية القرن الثالث، فقد كان لامفر أمامهم من التنازل عن هذه المناصب الشرفية لغيرهم ومحاولة إيجاد حل خارج حدود طبقتهم . ويتضح لنا من إحدى وثائق المتحف البريطانى التى ترجع لمنتصف القرن الثالث، تلك المحاولة التى قام بها حكام مدينة الفيوم لتخفيف الأعباء الملقاة على عاتق مواطنى عاصمة الإقليم عن طريق تكليف اثنين من القرويين الذين تتوافر لديهم الأموال اللازمة لشغلها لكن المحاولة باءت بالفشل ، لقد كان مواطنى المدينة لايزالون ينظرون باحتقار إلى القرويين حتى هذا الوقت ، وبطبيعة الحال قاوم القرويون هذه المحاولة التى كان الهدف منها السطو على مواردهم المالية . لقد كانت هذه القضية فى حاجة إلى أن توضح الحكومة موقفها منها ، من أجل ذلك عرضت على والى مصر ، وفى إحدى مراحل عرض القضية سمعنا محامى القرويين يدافع عنهم قائلا : "إننى سوف أقوم بتلاوة قانون الإمبراطور سيفروس الذى يذكر فيه أنه لاينبغى إجراء القرعة على القرويين لشغل مناصب مواطنى عاصمة الإقليم .. ولقد سار جميع ولاة مصر الذين حكموا بعده على نهج قانونه . وهنا رد عليه محامى المعارضين موجها حديثه للوالى قائلا : "إن للقوانين تقديرها واحترامها ، ولكن لكى يمكن الحكم فى مثل هذه القضية ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار كيف كان يقوم الولاة السابقون بمراعاة مصالح المدن .. إنك تجلس هنا للحكم فى قضية خاصة بمواطنى مدينة الفيوم ، تلك المدينة التى كانت غنية سابقا برجالها مزدهرة فى اقتصادها ، ولكن رجالها الآن سيتعرضون للخراب الشامل إذا شغلوا مناصبها حتى ولو كان ذلك لمدة يومين . وبعد قليل سأل الوالى أحد محامى القرويين عن رأيه "فى قانون سيفروس وقرارات الولاة " فأجابه هنا قائلاً " لقد أصدر سيفروس قراره فى مصر عندما كانت المدن ماتزال مزدهرة . وهنا رد عليه الوالى ملاحظا أن مناقشة قضية الازدهار أو التحول عنه مسألة تنطبق على القرى والمدن سواء بسواء" والجزء الباقى من الوثيقة مهلهل ، ولم يحفظ لنا الحكم الذى أصدره الوالى ، ولكن من الواضح أنه أصدره لصالح القرويين ، ويؤيد ذلك تلك الفقرة التى يقول الوالى فيها : أن قوة القوانين ينبغى أن

تعضد (بدلا من معارضتها) بمضى الزمن" ، وهكذا نجد أن قانون سيڤيروس بعد مضى حوالى نصف قرن من الزمان على صدوره لايزال يقوم بحماية القرويين ضد بعض الانتهاكات الإدارية من قبل مواطنى عواصم الأقاليم . (١٤)

حمل عضو مجلس الشورى لقب Bouleutes (الجمع بوليتاى Bouleutae) ويمكننا أن نحصى عدداً من أعضاء المجلس من خلال الوثائق البردية التى لدينا بل إننا نستطيع كذلك معرفة البعض بأسمائهم ، ولكننا مازلنا لانعرف كيف كان يتم ترشيح الفرد منهم للمجلس ، أو ماهى شروط عضويته . ولكن الشىء الذى نعرفه أنه إذا حصل الفرد على عضوية المجلس كان يحمل لقب عضويته طوال حياته ، ولكن هذا لايعنى أنه كان يشغل المنصب طوال حياته ولكن الشىء الأكثر احتمالا أن الوضع كان يماثل ما كان يحدث بالنسبة لحكام المدينة فقد أستخدم اللقب كنوع من التشريف طوال حياته طالما قام بأداء العمل فى إحدى دورات المجلس، ومن المحتمل أيضا أنه كان يمكن شغل المنصب أكثر من مرة .

ومن المنطقى أن نفترض أنه كان يتم اختيار أعضاؤه من بين أرستقراطى المدينة ولكن هل كان هذا الاختيار قاصراً عليهم فقط ، أم أنه كان يسمح لجميع أفراد الطبقة بشغله ؟ وكم كان عدد أعضائه ؟ هذه الأسئلة المطروحة لايمكننا الأن أن نقوم بالإجابة عليها .

وكان عضو مجلس الشورى يقوم بدفع "رسم شرف" دخول المجلس شأنه فى ذلك شأن جميع حكام المدن فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، وقد نشرت حديثا وثيقة بردية ترجع لعام ٢٣٣م كشفت أن هذا الرسم بلغ فى البهنسا ١٠٫٠٠٠ دراخمة أو أكثر ، وهو مبلغ كبير كان يمكن به شراء ست منازل من الحجم المتوسط فى المدينة أو دفع أجرة العاملين فى عشرين مزرعة لمدة عام. ومن هنا يتضح لنا أنه كان فى استطاعة الأثرياء فقط الإنفاق على عضوية المجلس .

لقد آن الأوان الآن لنترك حياة الأعيان العامة فى كلياتهم لنولى وجهنا شطر نماذج من حياتهم الخاصة ومجريات أمورهم اليومية . ويتضح لنا من الوثائق المتبقية لنا أنهم تمتعوا بسعة العيش والرخاء فى حياتهم الخاصة وذلك حتى منتصف القرن الثالث م مثلما كان الوضع فى حياتهم العامة . ،لنأخذ على سبيل المثال المنازل التى كانوا يقيمون فيها ، حيث تذكر لنا الوثائق أنها تكونت فى المدينة من طابقين أو ثلاثة ، كما تقدم لنا نماذج لمنازل بها أجنحة منفصلة أو قاعات لاستقبال الرجال والنساء ، وأخرى مزدانة بالأروقة والمقاصير والشرفات Exedras للحصول على شمس الشتاء أو للتمتع بالنسمات الرقيقة فى أمسيات الصيف .

كذلك توجه الوثائق انتباهنا إلى القباب والمظلات التى أقيمت فوق الأبواب بالإضافة إلى خصائص معمارية أخرى تهدف إلى الراحة وإضافة مزيد من الأناقة . وقد أدت بعض المنازل غرضين فى آن واحد ، حيث أستخدمت الحجرات التى على الشارع كحوانيت ، وهو نظام معروف لنا اليوم من أطلال مدينتى بومبى Pompeii وهيركولا نيوم Hercalaneum فلدينا وثيقة بردية من الفيوم نشرت حديثا خاصة بطلب تأجير ناصية منزل يوجد فيها ثلاثة حوانيت أمامية واثنان يطلان على الشارع الجانبى .(١٥)

لقد كان من النادر أن تشير الوثائق إلى مساحة الحجرات الفردية أو مساحة المنازل بصفة عامة ، ولكننا عثرنا على منزل صغير من البهنسا بلغت مساحته الكلية ١٥ مترا مربعا ، وعلى النقيض من ذلك المنزل عثرنا على منزل آخر بلغت مساحته السطحية أكثر من مائة متر مربع . وشيدت جدران المنازل من مادة البناء الأساسية التى كانت تستخدم فى مصر منذ زمن سحيق ، أى من الطوب اللبن المجفف فى الشمس ؛ ولولا سقوط الأمطار التى تسبب تلفها لأمكن لهذه المادة أن تعمر فترة زمنية طويلة . أما الجدران الخارجية فقد كانت تشيد فى العادة من عدة صفوف متوازية من الطوب السميك ، وأقتصر الأمر على صفين فى العادة بالنسبة للجدران الداخلية ، وطليت الجدران الداخلية وكثيرا مازخرفت برسوم لموضوعات أسطورية ودينية ولونت بألوان مشرقة ، وكانت هذه الموضوعات هى التى لها الأفضلية الأولى . حقيقة كانت الأحجار متوفرة فى محاجر مصر العديدة ، ولكن نظرا لارتفاع تكاليفها بالمقارنة بالطوب اللبن فقد أستخدمت باقتصاد فى الدور الخاصة ، وفى أغلب الأحيان فى أعتاب ، وأكتاف الأبواب ، وعندما تحدث إلينا أحد أثرياء البهنسا عن "منزله الحجرى" فمن المحتمل أنه كان يقصد بهذه الإشارة أن جدران منزله الخارجية ومدخله فقط قد شيدت من الحجر ولايقصد أن المنزل برمته قد تم تشييده من الحجر .(١٦)

لقد زود كل منزل من منازل المدينة الضخمة والأنيقة ببئر خاصة عميقة للمياه فى فنائه وكما تقوم الشمس بتجفيف الطوب فهى بالتالى سوف تقوم بتبخير المياه وبناء على ذلك فيبدو أن البئر كان يتم تشييده بالحجر أو بالطوب المحروق وربما يستخدم معه أولا يستخدم الحجر على السطح .

وتقع الأقسام الخاصة بالمعيشة والنوم فى الدور الأرضى ، أما تلك الصغيرة التى تبنى على شكل قباء فقد خصصت للخزين ، وأيضا خصصت بعض الغرف العلوية لنفس الغرض ، ولدينا وثيقة ترجع لعام ٢٠٠م تتضمن المحتويات التالية :

"**قائمة بمحتويات المنزل :**

فى المخزن : عدد ١ طشت من البرونز ، عدد ١ كوز من الصفيح ، عدد ١ فنجان صفيح ، ١ ميزان خشبى له يد مكسوة بالحديد ، ١ طشت غسيل ، ١ قاعدة لمبة برونزية مع غطائها .

فى حجرات المخزن : ١ صحن صغير من الصفيح ، ٣ فناجين وصحونهم من الصفيح ، ١ لمبة صغيرة برونز ١ عباءة ذهبية اللون ، ١ لحاف سرير ذهبى اللون (أيضا) .

فى الغرف العلوية : ١ غلاية شاى من البرونز ، ١ فنجان صفيح ، ١ كأس من برونز ، ١ مصفاة برونزية صغيرة ، ٢ إناء للعجين ، ٣ سكين لتقليم الأشجار ، ١ طبق من الصفيح ، جرة واحدة من البرونز ، ٢ ميزان خشبى بيد مغطاة بالحديد ، ٣ عباءة ذهبية اللون ، ١ لحاف كبير من الكتان ، ٢ وسادة خضراء ، ١ لحاف ملون ، ٢ حشية محشوة ، ١ مفرش سرير ، ١ سرير ، ١ صندوق ، صندوق صغير (؟) ، ١ برونز . [١٧]

من المحتمل أن هذه القائمة السابق تقديمها تتضمن أشياء إضافية لا حاجة لاستخدامها فى الاستعمالات اليومية التى كانت توجد الأدوات الخاصة بها فى الحجرات السفلى من المنزل ، أما السرير والصندوق والمرتبة المذكورة فى نهاية الوثيقة فيبدو أنها كانت خاصة بحجرة للزوار فى الطابق العلوى ، ونلاحظ أننا لم نرى تقريبا فى القائمة ملابس من نوع ما ويبدو أنها وضعت فى حجرات المعيشة وغرف النوم فى الطابق الأرضى ، أما العباءات الأربع التى حفظت فى حجرات التخزين فيبدو أنها كانت من النوع الثقيل لذا وضعت بعيدا لحين الحاجة إلى استخدامها فى الشتاء التالى .

ويدور السؤال الآن ماهى الملابس التى كانت ترتديها طبقتنا ؟ لقد كانوا ينتعلون الصنادل والأحذية فى أقدامهم وربما كانت هذه تصنع من خامات عديدة ؟ من لحاء البردى أو الجلود ، وربما كانت تزين بالخرز أو المواد اللامعة أو الملونة ، أما الثياب التى كانوا يرتدونها على أجسادهم فهى تدل على الألوان التى كانوا يفضلونها وخصوصا : الأخضر ، والأحمر ، وكان اللون الأزرق بكل درجاته هو المفضل لديهم ويرتدون فوق الجسم مباشرة قمصان تصنع عادة من الكتان ، وكان الثوب الخارجى يصنع من الكتان أو الصوف . وقد ساد الاعتقاد فى مصر لفترة قريبة جدا أن القطن دخل مصر عن طريق الهند قبل العصر الرومانى بمدة طويلة ، ولكن لدينا ثلاث وثائق من مجموعة ميتشجان البردية قدمت الدليل على أن القطن لم يكن يستخدم فقط فى مصر ولكنه كان يزرع بها على الأقل فى القرن الثانى م ، وتم استيراد المنسوجات

الحريرية من الصين وجاء بعضها أيضا من الهند وأخرى من فارس وخصوصا فى القرون المتأخرة وكانت تزين بها باقات وأطراف ملابس الأثرياء .(١٨)

لقد توافرت لدينا معلومات عن جحم العائلات من خلال سياق الحديث الوارد على وجه الخصوص فى وثائق الوصايا والمواريث وتقسيم الثروة "بين الأحياء" Inter vivos ، وفى وثائق التعداد التى كان يقدمها كل صاحب منزل كل أربعة عشر عاما ومنها يتضح أن أسرة مواطن عاصمة الإقليم التى تقابلها من خلال أوراق البردى تتكون من خمسة أطفال أى بمتوسط من ٢ إلى ٣ أطفال ولكن يبدو أن معدلات .. الميلاد كانت أكبر من تلك الأرقام التى تشير إليها ، ومعنى هذا أن المعدل سيزيد عما ذكرناه ، ولكننا لانستطيع أن نعرف العدد على وجه الدقة لعدة أسباب أولا : بسبب ارتفاع معدلات الوفيات بين الأطفال وهو أمر معروف خلال العصر القديم ، ثانيا بسبب عادة الأغريق التى درجوا عليها فى التخلص من المواليد غير المرغوب فيهم بالوأد (الإلقاء فى العراء) ، ثالثا أن وثائق التعداد لم تكن تتضمن الأبناء الذين كبروا وتركوا منزل أبيهم . بالإضافة إلى أن بيانات التعداد كثيرا ماتضمنت إحصاء لواحد أو أثنين من أبناء صاحب المنزل المتزوجين وزوجاتهم وأبنائهم ، وفى أحيان أخرى نجد أحد والدى مقدم البيان أو بعض ذوى القربى يعيشون معه ، وفى أغلب الأحيان نجد لديهم عبدا أو اثنين ، وقد أوضحت الوثائق أن حوالى ربع أسر مواطنى عواصم الأقاليم التى لدينا كان لديهم عبدين أو أكثر وفى إحدى الأسر الكبيرة فى حجمها نجد أن عدد أفرادها كان على النحو التالى : الزوج ويبلغ من العمر ٥٠ عاما ، وزوجته شقيقته تبلغ من العمر ٥٤ عاما ، وأربعة أبناء ذكور تتراوح أعمارهم بين ٩ ، ٢٩ عاما ، وابنة عمرها ٧ سنوات ، وزوجة الإبن الأكبر وابنيها التوأم اللذين يبلغ عمرهما عاما واحدا ، وزوجة الابن الثانى وولديها (السن غير واضح) ، وثلاثة من أبناء الأخت أو الأخ تتراوح أعمارهم بين ١٩ ، ٣٤ عاما ، وزوجة الكبير منهم مع ابنتها التى تبلغ من العمر عاما واحدا ، ورجل متقدم فى السن يبلغ عمره ٤٤ عاما ، ويبدو أنه كان جد هذه الطفلة لأمها مع أخته وزوجته التى بلغت من العمر ٥٢ عاما وابنهم الكبير الذى يبلغ عمره ٨ أعوام ، وثلاثة أخوة لزوجة الابن الثانى لصاحب المنزل تتراوح أعمارهم بين ٥٢ ، ٢٦ عاما ، وزوجة وأخت أصغر هؤلاء الأخوة الثلاثة وتبلغ من العمر ٢٣ عاما . ويبلغ عدد هؤلاء جميعاً ١٧ فرداً من البالغين وسبعة أطفال . وذكر بيان التعداد أن كل هؤلاء كانوا يعيشون فى عُشر (واحد على عشرة) منزل فى المدينة .(١٩)

لقد تراوح متوسط عمر الفرد خلال العصر القديم بين ٢٥ ، ٣٠ عاما ، وإذا كانت الأعداد السابقة تبدو غير حقيقة أو منخفضة فإننا - يجب أن نتذكر أن معدلات الوفيات المرتفعة بين الأطفال كانت فى الحدود العادية وطبقا لتحليلات الحاسب الآلى المستمدة من بيانات خاصة بمصر فى العصر الرومانى يتضح أنه منذ سن البلوغ ينشطر عدد الأحياء إلى نصفين كل عشر سنوات ، وهذا يعنى أن جميع الذين بلغوا سن ١٥ عاما يموت نصفهم ويظل النصف الآخر على قيد الحياة ليصلوا إلى سن ٢٥ عاما ، ثم نجد أن ربع العدد فقط هو الذى يصل إلى سن ٣٥ عاما . إن هذه المعلومات توضح لنا الآن لماذا كنا نجد فى مصر الرومانية أعدادا كبيرة من الأرامل ، كما نقابل كثيرا الزواج للمرة الثانية ، والإخوة والأخوات غير الأشقاء .

ومن بين وثائق التعداد العديدة التى لدينا وجدنا فى اثنتين منها فقط أنه كان لدى أسرة أحد مواطنى عواصم الأقاليم عدد من الإناث أكثر من عدد الذكور فيها (وفيما عدا ذلك نجد دائما ابنة أو ابنتين على التوالى) لقد ظل مواطنو عواصم الأقاليم يمارسون العادة الإغريقية القديمة عادة التخلص من الأطفال غير المرغوب فيهم مع حاجياتهم الخاصة ، أما المصريون الذين كانت عقيدتهم الدينية تمنعهم من قتل الأطفال فكثيرا ما قاموا بإنقاذ الأطفال الذين تركوا للموت ، وقد سمح القانون لهم يتبنى اللقطاء أو اتخاذهم عبيدا . وكان أصل هؤلاء الأطفال يذكر فى الأسماء التى يحملونها مثل اسم كوبريوس Kopreus واشتقاقاته المختلفة ، وهو اسم يعنى" الذى عثر عليه فى كوم سباخ" ولدينا خطاب كثيرا مايستشهد به منذ نشره عام ١٩٠٤ ، وهو مؤرخ فى ١٧ يونيو ١ ق.م يقول فيه شخص يدعى هيلاريون Hilarion لزوجته وأخته عندما كان فى عمل له فى الإسكندرية الآتى :

"اعلمى أننى مازلت فى الإسكندرية ، وأرجو أن لاتقلقى إذا جاءوا إليك أثناء وجودى فى الإسكندرية ، إننى أطلب وأرجو منك أن تهتمى بطفلنا ، وبمجرد أن يصلنى أى مبلغ سوف أقوم بإرساله لك فى الحال ، وإذا أنجبت طفلا (قبل أن أعود إلى المنزل) وكان ذكرا أبقيه أما إذا كانت أنثى فتخلصى منها . لقد كتبتى لى كلمة تقولين فيها "لاتنسانى" (وأرد قائلاً) كيف أنساك ؟ أرجو منك أن لا تنشغلى علىّ" .

وبالمصادفة فإن موضوع تخلص الإغريق من الأطفال حديثى الولادة بإلقائهم فى العراء قد لفت الأنظار بتوضيحه فى الاتفاق الذى كتب فى الإسكندرية عام ٨ ق.م وفيه نجد امرأة صغيرة السن ترملت حديثا بعد زواج دام لعام واحد قد أقرت أنها استعادت من والدة زوجها

المتوفى الدوطة التى كانت قد أحضرتها معها لمنزل زوجها ، ولهذا فهى تعلن تنازلها عن أى حق لها فى ميراث زوجها ، ويتضمن الاتفاق العبارات الآتية :

"وعلى الرغم من أنها حامل إلا أنها لن تقوم بالمطالبة بأيه (نفقات) لطفلها لأنها مكتفية (ماليا) كما أن لها الحق فى التخلص من الطفل ، وأن تتزوج من رجل آخر" [٢٠].

وينبغى أن لا يتبادر إلى أذهاننا أنه كان يتم التخلص من المواليد الإناث فقط ، ولكن الأدلة التى لدينا توضح أنهن عانين من هذا المصير أكثر من الذكور ، أما السبب الذى كان يجعل المولودة الأنثى غير مرغوب فيها فيرجع إلى الدوطة التى كانت تحتاج إليها عند الزواج. على أية حال فإن الدوطة الكبيرة كانت شكلاً من أشكال الأرستقراطية الاجتماعية . وقد قام والدى عروس على سبيل المثال بإرسالها لمنزل الزوجية فى عام ١٢٧ مع جهاز أنيق كان من بين محتوياته زوج من الحلقان بزنة ٣ مينا ، ١٤ ربع مثقال ، وبروش يزن ٨ أرباع مثقال بالإضافة إلى مجوهرات أخرى يصل وزنها الكلى إلى ٥ مينا ، وعدد ٢ رداء ثوب خارجى ، أحدهم أحمر والآخر ملون بألوان الزهر ، وروب ، وعباءة بلغ ثمنهم جميعا ٥٦٠ دراخمة فضية (وهذا الثمن يساوى خمسة أمثاله لو كانت هذه الملابس سادة أو عادية) ، ومبلغ نقدى بلغ ١٫٨٠٠ دراخمة ، وهكذا بلغ المجموع الكلى للدوطة ٤٫١٠٠ دراخمة .

وجرت العادة على أن يتم زواج الشباب بين سن ١٨ ، ٢٠ ، وكانت الزوجة أقل بعدة سنوات فى سنها عن زوجها فى أغلب الأحيان ، وقد تزوجت بعض الفتيات وأنجبن وكن فى سن يتراوح بين ١٥ ، ١٦ عاما ، وتكشف عقود الزواج الباقية حتى الآن أنها كانت تتضمن عادة عبارة "الرغبة فى أن يعيش الزوجان معا بدون خلافات ، وأن يضعا فى اعتبارهما حقوق الزواج ، فعلى الزوج أن يغطى احتياجات زوجته طبقا لإمكانياته" . أما بالنسبة لعقود إغريق المدينة فقد كان يتم فيها تبادل الحقوق بين الزوجين مع ذكر تفصيلات كثيرة لحقوق الزوجة على النحو التالى :

"يجب عليه أن لايسىء معاملتها أو أن يقوم بطردها خارج المنزل أو بسبّها أو أن يحضر امرأة أخرى إلى المنزل ، وإذا فعل شيئا من ذلك القبيل فسيقوم بدفع قيمة الدوطة مضافا إليها نصفها . أما هى فينبغى عليها أن تقوم بأداء واجباتها كاملة لزوجها ولأفراد أسرته ، ولا يجب عليها أن تمضى ليلة أو يوما خارج منزلها دون إذن منه ، كذلك يجب أن لاتجلب له

العار أوتسيء إلى أحد أفراد أسرته ، ولا ترتبط بأي علاقة مع رجل آخر ، وإذا ثبت ارتكابها لأي خطأ مما تقدم فيتم تجريدها من دوطتها".(٢١) ويبدو أن الطلاق كان أمرا سهلا ومتكررا وعلى وجه الخصوص بين الزيجات التي تتم بين الشباب كما هو الحال اليوم .

وعندما ينتهي الارتباط بالطلاق فقد كان على الزوج أن يعيد لزوجته كل منقولاتها ودوطتها ، أما الهدايا الأخرى التي قدمت لها (إذا كان قد قدم لها شيء) أو أي شيء آخر فعليه أن يعوضها عنه نقدا ، ولكن جميع حالات - الطلاق كما هو الحال اليوم -لم تكن تتم بالاتفاق ، ولدينا خطاب غامض . يبدو منه أنه عبارة عن إعتذار من زوج غيور لزوجته لكي يستعيدها بعد أن هجرته . أما كولوبوس Kolobos "قصير الذنب" المذكور في الخطاب فيبدو أنه اسم الرجل الذي فرت معه الزوجة .

"من سيرينوس Serenus إلى أخته وزوجته إزيدورا Isidora : إنني أتمنى قبل كل شيء أن تكوني بخير ، أنني أدعو لك يوميا أمام الربة ثيوريس Theoris التي تحبك صباحا ومساء إنني أريد أن أخبرك أنه منذ اليوم الذي تركتني فيه وأنا حزين ، أبكي طوال الليل ، وأنتحب بالنهار ، ومنذ أن أستحممت معك في ١٢ من شهر ياخون فإنني لم أستحم أو أدهن جسدي بالزيت حتى ١٢ من شهر هاتور Hathyr (بعد ثلاثين وما) وعندما وصلني خطابك الذي يفتت الصخر أثارتني كلماتك إلى أبعد مدى ، وقد كتبت لك في الحال في اليوم الثاني عشر عما تضمنه خطابك . لقد ذكرت في خطابك "إن كولوبوس Kolobos قد جعل مني عاهرة "، لكنه قال لي : "إن زوجتك تبعث إليك بهذه الرسالة (ذكريه بذلك) ، لقد كان هو الذي يبيع العقد لي، وهو نفسه الذي وضعني على القارب" . إنك يجب أن تقولي ذلك لأن الناس لاتريد أن تصدق دفاعي ، ولكن ضعي في اعتبارك أنني سوف أكتب وأظل أكتب لك ، هل سوف تعودين إلى أم لا ؟ أخبريني" (٢٢)

وكان من الممكن أيضا أن ينتهي الزواج على يد والد الزوجة" الذي كان يملك الحق القانوني في هذا الإجراء ، ويرجع أصول هذا الحق إلى قانون أثينا القديم الذي يقضي بحق الأب في فسخ زواج ابنته من زوجها حتى ولو كان ذلك ضد رغبتها ، ليقوم بتزويجها من رجل آخر . ولكن اتضح خلال فترة الحكم الروماني "فإن هذا القانون غير الإنساني" الذي ثبت أنه كذلك من بعض الحالات ، قد انحسر وأصبح التعامل به يتكيف مع القواعد الإنسانية . ففي إحدى

قضايا عام ١٨٦م والتى تم عرضها على المحاكم لمدة عامين حدثت فيها مناقشات طويلة رفضت الزوجة أوامر أبيها بترك زوجها ، وهكذا وضعت هذه السابقة . وفى عام ١٢٨م قام والى مصر فى أثنائها بوضع قاعدة جديدة يحكم من خلالها وهى : "مع من ترغب المرأة المتزوجة أن تعيش ؟ وفى قضية مماثلة جاءت بعد ذلك بخمس سنوات قرر المدير العام Epis-tratagos " أن قاعدة الوالى تقضى بسؤال المرأة عن رغبتها" ، وعندئذ أجابت المرأة " إنها تريد أن تظل مع زوجها" . ولذا فقد أمر بذلك وبعد مضى عام أو عامين تقدم أحد خبراء القانون بمشورته أمام محكمة صغيرة قائلا بفتور "لقد منحت المرأة الوسيلة التى تتحرر بها من الزواج الذى تم على يد والدها ، وهكذا لم تعد خاضعة لسلطانه"[٢٣] .

إن الشكل النموذجى لأسرة مواطنى عاصمة الإقليم يتكون من : الوالدين ، الأطفال ، وربما بعض أفراد الأسرة ، والعبيد . لقد كان لدى كل عائلة عبد أو اثنين وبعضهم كان لديه أكثر من ذلك العدد ، أما العائلات التى امتلكت أعدادا غفيرة من العبيد فقد كانت تعتبر استثناء. ولقد علمنا مؤخرا أنه كان لدى إحدى عائلات الإسكندرية النبيلة التى ارتقت منزلتها بحصولها على الجنسية الرومانية أكثر من مائة عبد يمتلكهم الأب وثلاثة من أبنائه معا. [٢٤]

لقد عملت الغالبية العظمى من العبيد فى الخدمات المنزلية ، وكان يتم تدريب بعضهم لإنتاج الحرير (الفصل السابع) . والملاحظ غياب الأدلة . التى تدل على مشاركة العبيد فى الإنتاج الزراعى ، وهى ظاهرة عامة فى المجتمعات القديمة ؛ ويرجع السبب الرئيسى فى ذلك إلى أن الفلاحين الأحرار الذين كان يعيش أغلبهم على الكفاف كانوا يقدمون للعمل الزراعى مصدرا أكثر رخصا من استخدام العبيد الذين كانوا يحتاجون إلى رأسمالى لشرائهم بالإضافة إلى نفقاتهم طوال العام . أما العامل الرئيسى الثانى فيتمثل فى أن طبيعة وادى النيل الضيق ونهرها الخصب الذى يجرى بين صحراوين على الجانبين - وذلك على عكس الحال فى سهول إيطاليا الفسيحة وسهول شمال أفريقيا - لم يتح الفرصة لإنتاج مكثف يرتفع لمستوى الضياع الرومانية الكبرى Latifundia ، والتى كانت الدواعى الاقتصادية تستدعى استخدام العبيد فيها . حقيقة لقد نمت بعض الضياع الكبيرة فى مصر - غير تلك الخاصة بالأباطرة - فى القرن الثالث م ولكن كان الشكل العام للملكية الزراعية فى مصر خلال عصر الإمبراطورية صغيرا ومحددا ، فكانت عبارة عن وحدات يقوم بزراعتها ملاكها أو الذين يلتزمون بزراعتها (فصل ٤ ، ٦) .

إن ماتقدمه مصادر مصر عن العبيد واستخدامهم توضح ظروف انتشارهم فى أنحاء الإمبراطورية ، فالمعروف أنه نتيجة لحروب روما التوسعية فى القرن الثانى ق.م طرح عشرات الآلاف من الذين تم أسرهم للبيع فى أسواق العبيد وعندما يصبح ثمن العبد زهيدا ، فإن مالكه لم يكن يجنى سوى فائدة ضئيلة من تربية نسل العبيد ، حيث كان من الممكن أن يموت الطفل قبل أن يصل إلى السن الذى يستفيد منه المالك فى استعادة بعض ما أنفقه عليه . ولكن عندما قلت الحروب فى خلال القرنين الأول والثانى الميلادى ، ترتب على ذلك انخفاض شديد فى عدد الأسرى الذين يتم بيعهم . ونتيجة لما تقدم فقد شجع ملاك العبيد عبيدهم على إنجاب الأطفال ، ولذلك بدأ يظهر اصطلاح " العبد الذى ولد فى المنزل أو الوطن" ، فى أوراق البردى . وربما استخدمت مثل هذه الإشارات لترويج شراء العبد حيث إنها تؤكد على قدرته على تحمل الظروف المحلية ، وذلك بمقارنته بالعبد الذى يتم استيراده من الخارج والذى لايعرف أصله أو تاريخه على وجه التحديد . ولكن ليس لدينا ما يوضح ما إذا كان سعر العبد الوطنى أكثر من غيره أم لا ، ولكن لدينا عبارة ذكر نصها بمهارة فى قواعد تنظيمات مدير الحساب الخاص يتضح منها تحريم تصدير العبيد من مصر للخارج .

لقد ظلت أعداد قليلة من العبيد تستورد لمصر خلال كل العصور من كل أنحاء الإمبراطورية ، ومن المناطق الواقعة خلف الحدود ، ومن بين الأماكن التى ورد ذكرها فى البردى : تراقيا Thrace، فريجيا Phrygia وأوسيرونيا Osrhoenia جلاتيا Galatia ، ليكيا Lycia ، بامفيليا Pamphelia ، بلاد العرب Arabia ، أثيوبيا Fthiopia وموريتانيا Mauretania . وكما ذكرنا آنفا فقد كان يمكن التقاط المواليد الذين تم التخلص منهم بإلقائهم فى "أكوام السماد" والقيام بتحويلهم إلى عبيد . ولقد شجعت الحكومة الرومانية الأشخاص (الذين التقطوا هؤلاء المواليد على تحويلهم إلى عبيد ، وذلك بفرضها عقوبة على من يقوم بتبنيهم كأبناء أو بنات . فقد ورد فى القاعدة رقم (٤١) من قواعد مدير الحساب الخاص "أنه إذا عثر مصرى على طفل ملقى به فى أكوام السماد وقام بتبنيه تصادر ربع ثروته عند وفاته" .

إن القاعدة الأخلاقية التى كان يعامل على أساسها مواطنو عواصم الأقاليم عبيدهم تشبه تلك التى نسميها اليوم "ماتفرضه النبالة" Nobless oblige . ويتضح لنا من خلال الوثائق أن عددا من العبيد قد تم تعليمهم القراءة والكتابة ، وكان عددهم أكبر من أن يجعلنا نعتقد

أنه كان نوعا من أنواع استثمار سادتهم لهم . كذلك فإن استمرار خدمة العبيد لنفس الأسرة لمدة ثلاثة أو أربعة أجيال متعاقبة يدل على المعاملة الإنسانية التى كانوا يلاقونها .. والتى كانت أكبر درجاتها منحهم حريتهم بطبيعة الحال ، وكثيرا ماتم عتقهم على يد سيدهم أو سيدتهم فى وصيته الأخيرة أو فى اتفاقاته ، كمكافأة لهم على خدمتهم له أولها بآمانة وإخلاص طوال حياتهم وعلى سبيل المثال فقد ورد فى إحدى الوثائق التى سجلت فى عام ١٥٦م قيام صاحب الوصية بعتق أربعة من عبيده بعد وفاته وذلك لإخلاصهم وعطفهم ، وترك لورثته كل العبيد الآخرين ونسلهم الحالى أو أى نسل ينجبوه بعد ذلك" . وجرت العادة على تحرير اثنين من العبيد خلال حياة مالكهم ، كما قام بعض العبيد الذين كانت لهم مهارات خاصة بشراء حريتهم من سادتهم بما أمكنهم جمعه من مدخراتهم الضئيلة التى سمح لهم سادتهم بالاحتفاظ بها لأنفسهم ، وفى العادة كان يتم عتق العبد أو شراء حريته فى أحد المعابد تحت حماية إله أو إلهة المعبد . (٢٥)

وقبل أن ننهى هذا الفصل فلنطرح على أنفسنا السؤال التالى : ماذا يقدم لنا ورق البردى عن المستوى الثقافى لمجتمع عاصمة الإقليم ؟ إن المجموعة الأولى من المعلومات نستقيها من البردى الأدبى ، فإذا قمنا بإلقاء نظرة سريعة على قائمة النصوص الباقية لدينا يتضح لنا أن جميع مؤلفات كبار الكتاب الإغريق أو متوسطى المقدرة منهم كانت ماتزال تنسخ ويعاد نسخها طوال فترة الحكم الرومانى ولعدة قرون بعد ذلك . ومما لاشك فيه أنه كان هناك دوماً من هو مستعد لشراء مثل هذه الكتب أو استعارتها ليقوم بنسخها لمكتبته الخاصة ، ولقد كان الإغريق يشيرون إلى هوميروس دائما خلال العصور القديمة بأنه "الشاعر" ، وكان هو شاعرهم المفضل فى كل وقت سواء بالنسبة لقرائه من الكبار أو فى الفصول الدراسية فى المدارس وحتى الآن تم نشر حوالى ٧٠٠ وثيقة بردية وقطعه أو ستراكا تحمل نصوصاً من أشعار هوميروس يتراوح حجمها بين بيت واحد أو عدة أبيات ، أقتسبت من كتاب واحد أو أكثر ، بالاضافة إلى كتب كاملة من الإليـاذة ، ويليه فى الأهمية الخطيب ديموسثينيس Demosthenes ، ثم الكاتب المسرحى يوريبيديس Euripides والشاعر هيسيودوس Hesiod ، حيث عثر على حوالى مائة شذرة من أعمالهم .

كما أن إشارات البردى التى وردت من أنحاء الولاية لها أيضا مغزاها ، حيث تضمنت بعض الوثائق التى عثر عليها فى بعض القرى مثل تبتونس Tebtynis وكرانيس Karanis

نصوصًا أدبية ، وعلى الرغم من أن الكم الأكبر من أكوام البردى الأدبى أو المسيحى قد عثر عليها فى بقايا المنازل وأكوام مخلفات المدن ، إلا أنه ليس هناك إلا أمل ضئيل فى القيام بكشوف أثرية فى الإسكندرية أو على مقربة منها . ويرجع ذلك إلى أنه بخلاف استهلاك الأشياء التى كتبها أصحابها من الذين أقاموا فى هذا المكان فإن رطوبة الأراضى فى منطقة الدلتا قد أدت إلى تحلل أوراق البردى إلا فى حالة عدة أوراق تقدر بالعشرات حفظت لنا بسبب تفحمها ، وقد عثرت إحدى البعثات الأثرية أثناء قيامها بالتنقيب فى منطقة مدينة أنتينوبوليس Antinoopolis فى عام ١٩١٣-/-١٩١٤ على ٢٠٦ وثيقة بردية فى باطن الأرض منها ١٤٨ وثيقة أدبية وعلمية (طبية ، فلكية الخ) . أما بانوبوليس Panopolis – وهى عاصمة إقليم فى مصر العليا – فعتبر المصدر الوحيد الذى أمدنا بكوميديا كاملة للشاعر مناندروس Menandes بالإضافة إلى جزء كبير لثلاث من مسرحياته ، كما أنها قدمت لنا أقدم مصدر لنصوص كتب العهد الجديد وكتابات مسيحية أخرى يؤرخ أقدمها بعام ٢٠٠م أما البهنسا فهى تعتبر أغنى مصدر لكل أنواع البردى، ، فقد نتج عن الحفائر التى جرت بها منذ نهاية القرن الماضى وما تلاه أن قدمت لنا كنوزا يبدو منها أنها كانت بقايا لمكتبتين خاصتين على الأقل ، حيث تم العثور على مئات من البردى الأدبى بعضها معروف لنا وآخر جديد ، وقد تم نشر العديد منها ، وما زالت هناك مئات أخرى فى طريقها للنشر .

وفى بعض الأحيان تقدم لنا الوثائق لمحات عن كيفية قيام مواطنى عواصم الأقاليم بتكوين مكتباتهم أثناء الحديث عن شراء واستعارة ونسخ الكتب ، مثل تلك البردية التى سجل فيها دفع مبلغ من المال لأحد الكتبة ليقوم بنسخ مسرحية "إله الثراء" بلوتوس لأرسطوفانيس Aris-rophanes ، ومسرحية ثييثيس "الثالثة" لسوفوكليس Shophocles ، وتذكر لنا بردية رابعة سفر أحد الأبناء بحرا إلى الإسكندرية لشراء صناديق كتب لوالده المقيم فى البهنسا ، ومازلنا نقرأ فى وثيقة أخرى هذا الملحق الذى ذيل به الخطاب :

"قم بنسخ وإرسال من (كتاب) ساخر الكوميديا " Butts of Comedy لهيبسكراتيس Hypsikrates الكتب : ٦ – ٧ ، وقد ذكر لى هاربوقراطيون Harpokration أنها موجودة بين كتب بوليو Polio (ومن المحتمل أن آخرين قد حصلوا عليها) ، كما أن لديه ملخصات نثرية "لأساطير التراجيديا" لثيرساجوارس Thersagoras .

ثم أضاف الملحق التالى على الخطاب :

"وطبقا لما ذكره هاربوقراطيون Harpokration فإنها موجودة عند ديمتريوس Demetrios بائع الكتب ، وقد كتبت لأبو للونيديس Apollonides لكى يرسل لى بعض كتبى التى سوف يطلعك عليها Seleukos بنفسه ، وإذا عثرت على شىء أكثر مما ذكرته لك قم بنسخه وإرساله لى ، ويوجد عند ديودوروس Diodoros وأصدقائه بعض كتب لاتوجد عندى .

وقد اقترح بعض المفسرين احتمال - ولكننا لانستطيع أن نتأكد من ذلك لسوء الحظ - وهو أن الاسم الأول لجامع الكتب المذكور فى الخطاب هو فاليريوس بوليو Valerius Polio السكندرى الذى عرف عنه أنه كان يقتنى معجماً للغة الإغريقية وأنه كان له ابن يدعى ديودورس Diodoros .

وهناك وثيقتان أخريان ، الأولى موجودة فى فلورنسا والثانية فى ميلانو وهما هامتان بالنسبة للكتب وجامعيها وكانت الوثيقة الأولى مخصصة فى الأصل لتسجيل ضرائب على مساحة من الأرض ، وعند ما لم يعد هناك حاجة لهذا السجل قام أحد الأفراد من البهنسا وكان أغلب الظن أحد باعة الكتب ، بكتابة قائمة بأسماء بعض الكتب على ظهرها وأمر أحد الأفراد ليقوم بشرائها له . وكان يريد ٢٠ محاورة من محاورات أفلاطون ذكرها بالاسم ، وأربعة من أعمال أكسينيفون Xenephon وطلب منه أن يحضر له كل مايجده عن هوميروس، ومناندروس Menander ، وأرسطوفانيس Aristophanes أما الوثيقة الثانية فيخبرنا فيها كاتبها عن وصول الكتب التالية إليه من الإسكندرية : بؤوثيوس Boethos "عن التدريب" الكتب ٣-٢٤ ، ديوجنيس Diogenes ، "عن الزواج" ، عن الخلاص من الألم ، عن فضل الوالدين ، عن فائدة استخدام العبيد فى المنزل ، الكتب ١-٢ ، بوسيدونيوس Poseidonios، "عن الاقناع" on Persausion الكتاب رقم ٣ . (٢٦)

ومما لاشك فيه أنه كان يدخل فى عملية تجميع الكتب ، خصوصاً الكبيرة أو فى إنشاء مكتباتها عنصر الزهو والافتخار - كما هو الحال اليوم - ولكن هذا الإحساس سرعان ماينحسر عند معرفتنا أن هذه الكتب قد تم اقتناؤها لكى تقرأ وتعاد قراءتها . إن ولاء مواطنى عواصم الأقاليم للتقاليد الكلاسيكية قد تضمن أيضا العروض المسرحية للمسرحيات الكلاسيكيةومسرحيات أخرى بنصوص حديثه ، وكانت تقدم فى المهرجانات وتخصص فيها جوائز للمتنافسين ، وقد نشرت حديثا بعض فقرات من يوربيديس Euripides ترجع للقرن الثالث تضمنت تعليمات مكتوبة على الجانب الأيسر من النص للممثلين ، وهناك كشف

حساب قبل أو بعد التاريخ السابق يذكر دفع مبلغ ٤٩٦ دراخمة لممثل ، ومبلغ ٤٤٨ دراخمة لمن يقوم بإلقاء أشعار هوميروس وتعتبر هذه المبالغ كبيرة فى وقت كان يحصل فيه عامل البناء الماهر على أجر يبلغ أربعة دراخمات يوميا . (٢٧)

ومن المهم أن نعلم أيضا أن عددا من الكتاب الذين تفاوتت درجات شهرتهم قد ولدوا فى مدن وعواصم الأقاليم المصرية وكان من بينهم أثينايوس Athenaeus ، ذلك الجامع الدؤوب للمتفرقات ، والذى ولد فى نقراطيس ، وأفلوطين Plotinus ، فيلسوف الأفلاطونية الحديثة الكبير الذى ولد لأسرة رومانية كانت تقيم فى ليكوبوليس Lykopolis فى مصر العليا . ومن المؤكد أن هؤلاء الكتاب قد تركوا موطنهم لكى يتموا دراساتهم فى الإسكندرية أو روما ولكن مسقط رأسهم ، حيث أمضوا فترة تكوينهم الأولى ، لم يكن بحال من الأحوال بلدا عاطلاً من الثقافة .

وهناك عنصراً آخر فى مجال البردى الأدبى لابد من ذكره وهو يتمثل فى ظهور الكتاب اللاتين على أوراق البردى ، ويلاحظ أن المخطوطات اللاتينية كانت قليلة بصفة عامة ويؤرخ أغلبها بعد القرن الثالث الميلادى ، أى الفترة التى أعقبت المنحة الشاملة لحقوق المواطنة الرومانية ، وقد ترتب على هذا الإجراء نتيجة هامة ممثلة فى إيجاد سوق للقواميس ثنائية اللغة التى تساعد الإغريق على ترجمة النصوص اللاتينية .

إن كل هذه الحقائق التى قدمناها عن النشاط الأدبى تقدم لنا صورة عن مجتمع يستطيع أفراده أن يقرأوا ويكتبوا اللغة التى يتحدثون بها (هذا ينطبق على المرأة مثل الرجل ، وسوف نناقش هذا الموضوع فيما بعد) وعلى هذا الأساس يمكن لمواطنى عواصم الأقاليم أنه يشبهوا أنفسهم بمواطنى أثينا فى عصرها الكلاسيكى . (٢٨)

ولكن البردى الأدبى لايعتبر المصدر الوحيد أو حتى أفضل المصادر التى توضح معرفة مواطنى عواصم الأقاليم بالقراءة والكتابة ، لقد عثرنا على أفضل الأدلة من خلال البردى غير الأدبى : من وثائق الحياة اليومية ، ومن العقود والوصايا وكل أنواع البرديات الأخرى ، فعندما يوجد شخص لايستطيع أن يقوم بالتوقيع بإمضائه ، كان يقوم غيره أو غيرها بالتوقيع نيابة عنه أو عنها لأنه أو لأنها أمية . وعندما تم حصر عدد من أوراق البردى التى نشرت عن القرون الثلاثة الأولى وجد أن من بينها ٦٠٠ فرد أمى لايعرفون القراءة والكتابة ، كان من بينهم ثلاثة فقط من القرن الثالث من مواطنى عواصم الأقاليم ، وهى الفترة التى أصاب العسر فيها طبقة مواطنى عواصم الأقاليم . من أجل هذا يبدو أنهم تنازلوا عن التعليم الذى

كان يعتبر من قبل أمراً مهما فى هذه الدائرة الاجتماعية . وفى الواقع فإن كثيرا من أسر مواطنى عواصم الأقاليم قد بدأت بالتدريج تخفف من عاداتها فى الانعزال عن حياة المصريين من سكان المدن ، وبدأ الزواج المختلط الذى لم يكن يفكر فيه أحد من قبل فى الانتشار . ولقد اتضح لنا هذا التحول من خلال طلب نشر حديثا وهو خاص بتسجيل صبى ولد عام ٢٦٠م . فى طبقة الجمنازيوم الأرستقراطية فى مدينة البهنسا ، وعند سرد سلسلة نسبه كانت هناك تفصيلات مثيرة للانتباه ، فقد كان أجداده على مدى خمسة أجيال يحملون أسماءً إغريقية ولكن الابن كان يحمل اسما مصريا وهو باترموثيس Patermouthis .

ويعتبر هؤلاء الأميين الثلاثة استثناء بين أفراد طبقة مواطنى عواصم الأقاليم ، فحتى فى أوقات العسر الاقتصادى حرص أفراد هذه الطبقة على إرسال أبنائهم للمدارس ، أما بالنسبة للفتيات فقد كان قرار تعليمهن من عدمه أمرا شخصياً يتوقف على آبائهن ، أكثر من كونه يمثل قاعدة اجتماعية ، ولدينا ست خطابات من أوائل القرن الثانى م تتحدث لنا عن إبنة أحد مديرى الأقاليم كانت تتعلم فى مدرسة بعيدة عن منزلها ، وعلى النقيض من ذلك نجد وثيقة ترجع لعام ١٥١م يقوم فيها أحد أفراد طبقة المستوطنين المميزة فى الفيوم بالتوقيع نيابة عن أخته الأمية ، وكانت المرأة التى تستطيع القراءة والكتابة كثيرا ماتزهو بنفسها ، وتنتهز الفرصة لتذكر هذه الحقيقة سواء كان ذلك مناسبا للموقف أم لا . ففى عام ٢٦٣م. ذكرت إحدى السيدات وكانت تدعى أوريليا ثايسوس Aurelia Thaisous وكانت تسمى أيضا لوليان Lolliane ، فى التماس لها قدمته إلى والى مصر ذكرت فيه دونما حاجة إلى ذلك معرفتها بالقراءة والكتابة : "إننى سيدة أتشرف بأن لدى ثلاثة من الأطفال من ذوى الامتيازات وقد منحت الحق فى التصرف بنفسى والتفاوض دون وكيل قانونى لى فيما يتعلق بما أنجزه من أعمَال ، كما أننى أعرف القراءة والكتابة ، وعلى ذلك فإننى فخورة بوجود هؤلاء الأطفال كما أننى غير أمية وأكتب بيسر وبسهولة . ولذا فإننى التمس من سيادتكم (الخ)".(٣٠)

ولم تعان عواصم الأقاليم أو القرى الكبيرة من نقص فى معلمى مبادىء اللغة اليونانية ، وكان بعضهم من العبيد ، وآخرون من النساء . ويبدو أن التعليم كان يبدأ فى المدارس عندما يبلغ الصبى سن العاشرة ، فقد وجدنا صبياً يبلغ التاسعة من عمره ولايستطيع أن يوقع باسمه على الوثيقة الخاصة بميراثه ، وآخر بلغ الرابعة عشر وكان من أعضاء طبقة الجمنازيوم ولايزال يتعلم القراءة والكتابة . وفى إحدى وثائق تعداد عام ٢١٦م ذكر الوالد اثنين من أبنائه أحدهما يبلغ من العمر ١٣ عاما والآخر بلغ العاشرة من عمره ، وأضاف بعد ذكر اسم كل منهما أنهما مازالا يتعلمان القراءة والكتابة .(٣١)

وكانت المدارس المحلية تقوم بتعليم التلميذ كيفية القراءة والكتابة ، وربما كانوا يدربونه على بعض من ثروة الإغريق الكلاسيكية ، أما فيما عدا هذا المستوى فقد كان التعليم يحتاج لمواصلته فى الإسكندرية حيث ، أرسلت بعض عائلات من أسر مواطنى عواصم الأقاليم أبناءها إلى هناك ليحصلوا علوم المرحلة الأخيرة والرفيعة من تعليمهم . وجرت العادة على أنه يصاحب الابن فى الإسكندرية عبد أو اثنين للعمل على خدمته وراحته وكثيرا ما أثبتت التجربة العملية أن مدينة الإسكندرية تلك المدينة الكبيرة ذات الشهرة العريضة كانت أقل مما يتوقع الطلبة منها حيث ضمت بين أساتذتها من هم دون المتوسط وكذلك وبعض الدجالين ، وقد كتب أحد الشبان فى القرن الأول لأسرته خطاباً يعبر فيه عن خيبة أمله حيث يقول :

"على أمل أن أستطيع أن أجد أستاذا بعد فترة وجيزه بعد ما رفضت أن يعلمنى Theon ، الذى كونت عنه رأيًا سيئا لأنه لايقدر المسئولية بطبيعته ، وعندما أخبرت فيلوكسيموس Phi-loxemos برأيى وافقنى علية وأخبرنى أن المدينة تعانى نقصا فى الأساتذة ، وأن ديديموس Didymos (الذى يبدو) أنه صديقه سوف يبحر جنوبا ليقوم بإنشاء مدرسة هناك ، كما ذكر أن ديديموس يعتبر أفضل من الآخرين ، كما أنه قام بإغراء أبناء أبولونيوس بن هيروديس Apollonios S.of Herodes بأن يدرسوا على يد ديديموس ، وذلك لأنه منذ وفاة أستاذهم فيلولوجوس Philologos الذى كانوا يدرسون على يديه فإنه مازال يبحث لهم عن أستاذ آخر أفضل ، أما من ناحيتى فإنه إذا استجيبت صلواتى فسوف أتمكن من العثور على أستاذ آخر من الذين يستحقون الاهتمام عندئذ لن أنظر فى وجه ديديموس ولو حتى من بعيد ؛ فالشىء الذى يثيرنى حقا هو كيف يجرؤ على أن يضع نفسه على قدم المساواة مع باقى الأساتذة (هنا) مع أنه ليس أكثر من أستاذ من الأقاليم . لذلك فبعد أن تأكدت أنه لافائدة ترجى من أى أستاذ هنا وأننى أقوم فقط بدفع رسوم باهظة مقابل لا شىء ، فقد قررت أن أعتمد على إمكانياتى الخاصة وأرجو أن تكتب لى بسرعة عن رأيك ، إذ يوجد هنا ديديموس وقد ذكر لى فيلوكسينوس أنه مستعد دائما لأن يخصص لى وقتا كافياً وأن يفعل أى شىء يستطيعه من أجلى ولكنى متأكد أن ما أفعله هو الصواب ، إذ سأقوم بمشيئة الآلهة بالاستماع إلى المحاضرات العامة التى سيكون من بينها تلك التى يلقيها الأستاذ بوسيدونيوس Po-seidonios ."

وكتب أب آخر لابن يماثل هذا الأبن قائلا إنه بسبب ضغط العمل فسوف يضطر إلى تأجيل زيارته له للشهر القادم وأضاف قائلا : "ينبغى أن تركز جميع حواسك فى سعيك للعلم على

كتبك ، وسوف تجد فيها فائدة جمة". ومما لاشك فيه أن لورد شسترفيلد Chesterfield كان سيصوغ هذه العبارة بطريقة أكثر أناقة وأن بلونيوس Polonius كان سيصوغها بطريقة طنانة لكن ذلك الأب الذى يفصل بيننا وبينه ثمانيه عشر قرنا قد أفلح فى صياغتها بطريقة موجزة ومعبرة حتى أنه دفعناإلى أن نلاحظ منها اهتمام الآباء الألى بحياة أولادهم ورفعة منزلتهم(٣٢).

الفصل الرابع
فلاحو القرى (القرويون)
"قانعون بالقليل ونعنى من السعادة"

عاش القرويون مكدسون فى قرى وكفور متجاورة ، حتى يتمكنوا من الانتقال على أقدامهم أو على ظهور دوابهم وحميرهم لحقولهم التى كثيرا ما كانت تقع على مسافة بعيدة من مساكنهم ، لقد كانت القرية فى طبيعتها وحدة أصغر من عاصمة الإقليم ، وهى تقدم لعين المسافر عندما يقترب منها منظرا لمجموعة من الجدران المشيدة من الطوب اللبن المعتم المنتشر خلال المنظر الطبيعى ، وعندما يقترب منها المسافر يرى أنها عبارة عن كتل متلاصقة البنيان يفصل بينها شوارع وممرات ضيقة وتعتبر الفيوم التى تبعد حوالى خمسين كيلو مترا من شمال شرقى القاهرة أفضل نموذج لهذه المنازل القديمة من خلال خرائب قرية كرانيس التى قامت بعثة جامعة ميتشجان بالحفر فيها فى الفترة مابين الحربين العالميتين .

"وتكشف رمال الصحراء عن منازل يبلغ عمرها ألفى عام (كتب ذلك أحد الذين قاموا بزيارتها فى عام ١٩٦٣ وقدم نموذجاً لأحد منازلها) . إن ذلك المنزل يعتبر جزءاً من مجمع أكبر ، يمكن الدخول إليه عبر ثلاثه خطوات من ممر ضيق يؤدى إذا اتجهنا شمالا إلى الشارع الرئيسى، ومازال دعامة مدخله الخشبى قائمة عند باب المنزل ، الذى يقود إلى حجرتين ، تراوحت مساحة كل واحدة منها بين تسعة وعشرة أقدام ، شيدت أرضيتها من الطين ، وطليت جدرانها . لم يكن هناك أى ضوء يدخل الحجرة الأولى إلا ذلك الذى يصلها عبر الباب ، والمعروف أن الشمس فى مصر ساطعة ولذلك كان يتم تحاشى دخول الضوء بقدر الإمكان .. أما الحجرة الثانية فكانت ذات كوة - نيش - فى جدارها الشمالى ، ونافذة تطل على الممر .. وعلى جانب الشارع من الحجرة الرئيسية يوجد مخرج فى مواجهة الباب الخارجى حيث توجد سلسلة من المخازن . ويبدو أن هذه المخازن كانت عبارة عن حوانيت لها فتحات منفصلة على الممر . لم يتضمن المنزل وجود حجرات سفلى تحت الأرض أو سراديب كما كان الحال لدى بعض السكان ، كذلك لم يوجد فناء للمنزل حيث كان يقع الفرن ، والطاحونة ، أو مكان لحظيرة الحيوانات". (١)

لقد أثار دهشة هيرودوت فى القرن الرابع ق.م أن الفلاحين المصريين كانوا يبقون حيواناتهم المنزلية معهم فى المنزل ، ثم اختتم قوله بأنهم هم الوحيدون الذين يفعلون هذا . (٢)

لقد كان المنزل بالنسبة لسكان القرية هو مكان إقامتهم من المهد إلى اللحد أما الفلاحون الموسرون فكانوا يبحثون عن مستوى اجتماعى وثقافى أفضل من ذلك الذى يعيشون فيه وذلك بنقل أسرهم إلى الإقامة فى عواصم الأقاليم ، حيث كان بوسعهم أن يعيشوا فى المدينة فى جو يشبه ذلك الذى أقامه الإغريق من مواطنى عواصم الأقاليم لأنفسهم ، وأن يكيفوا حياتهم مع طريقة حياة مواطنى عواصم الأقاليم الحضارية ، وذلك على الرغم من أنهم كانوا محرومين لتواضع مولدهم من الانتماء للطبقة المميزة فى المدينة . ومن هؤلاء سارابيون بن يوتيخيديس Sarapion S. of Eutychides الذى قرر فى عام ١٠٠م وكان يبلغ من العمر حوالى أربعين عاما أن يستقر فى مدينة هرموبوليس مع زوجته سيلينى Selene وأبنائهما الأربعة وابنتهم ، ومربية أطفالهم ، ولدينا معلومات وفيرة عن هذه الأسرة من خلال أرشيف وثائقها الذى يبلغ محتواه ١٥٠ وثيقة بعثرت خلال سوق العاديات على متحفين ، وخمس مكتبات خاصة فى أوربا والولايات المتحدة . لقد امتلكت أسرة سارابيون فى المركز Toparchy أو أحد المناطق الريفية قرب العاصمة أملاكا زراعية تضم حدائق للكروم ومراعى بالإضافة إلى مزارع للقمح ومحصولات زراعية أخرى . لقد كانت هذه الأملاك كبيرة لدرجة أن سارابيون وأبناءه من بعده كانوا يقومون بالإشراف على سير العمل فيها يوما بيوم . وبلغت قطعان الخراف والماعز لديهم أكثر من ألف رأس ، وكانوا يقومون ببيع إنتاجها فى مجموعات تراوحت من دستة إلى سبع ، ويقدر قيمة هذا القطاع من ممتلكاتهم بحوالى ١٥٫٠٠٠ دراخمة . أما فى ميدان النشاط الزراعى فقد امتد نشاطهم ليشمل تأجير مساحات لزراعتها من الآخرين بالإضافة إلى مايمتلكونه من أراضى . وتذكر إحدى وثائق أرشيفهم أنهم قاموا فى إحدى السنوات بحصاد مساحة بلغت ٢٣٠ أرورا (١٥٦ فدان انجليزى أو ٦٢ هكتار) وهى مساحة تعادل عشرين أو ثلاثين مرة مايمكن للمزارع الصغير أن يقوم بزراعته ، كذلك يبدو أن زوجته سيلينى Selene كانت تملك أرضا خاصة بها آلت إليها عن طريق الوراثة وتقع فى القسم الشمالى من المركز ونتيجة لبعد موقعها عن مدينة هرموبوليس فقد فضلوا أن يؤجروها لمزارعين محليين بشروط مريحة ، ومن المبالغ النقدية التى كانت تدخل إليهم استطاعوا استثمار بعضها فى قروض مالية لآخرين ، ويتراوح قيمة القرض منها بين مائة ، ومائتى دراخمة .

ونتيجة لكل ماتقدم واصل دخل هذه الأسرة نموه وازدياده ، ولكن ليس بدون ثمن ، فلقد دفع الإبن الأكبر هذا الثمن لأنه كان يعانى من التخلف ، أى كان مختلا من الناحية العصبية، ولا أمل فى شفائه .(٣)

لكن لم تفلح عاصمة الإقليم فى إغراء كل فلاح ميسور بالإقامة فيها ، فلقد فضل أكثرهم البقاء حيث هم فى مكانهم كأعمدة لمجتمعهم المحلى ، يعيشون فى منازل كانت تنافس نظيراتها فى عاصمة الإقليم من حيث الحجم والديكور وعدد العبيد العاملين فيها . وكان فى استطاعة هؤلاء أن يحصلوا على قدر طيب من التعليم والثقافة ولكن هل يوجد سبب آخر غير هذا يمكن أن يفسر وجود النسخ العديدة التى تم العثور عليها لمؤلفات هوميروس ، وهيسيودوس ، وهزيود ويوربيديس ، وأفلاطون وكتاب آخرون من بين أطلال هذه القرى ؟

فقد كان بوسعهم عندما يريدون التمتع ببعض المباهج أن يؤجروا عدداً من الفنانين بما لديهم من ثروة كما هو واضح من الوثيقة التالية :

"إلى إزيدورا راقصة الصناج ، من أرتيمسيا Artemisia من قرية ثيادلفيا Thea-delphia إننى أرغب فى أن تحضرى مع راقصتين أخرين من راقصات الصناج لترقصوا فى منزلى لمدة ستة أيام ابتداء من يوم ٢٤ من شهر بؤونة وفقا للطريقة القديمة للتقويم ، وسوف أقوم بدفع مبلغ ٣٦ دراخمة عن كل يوم بالإضافة إلى منحة من ٤ أرادب شعير وعشرين رغيفاً من الخبز عن المدة بأكملها وستكون جميع الملابس والمشغولات الذهبية التى تحضرينها معك فى أمان . كما أننى أتعهد بتجهيز حمارين لاستخدامها فى رحلتك (من عاصمة الإقليم) وأيضا عند عودتك (التاريخ) "يونيو ٢٠٦م ". (٤)

مثل هؤلاء الرجال والنساء الميسورين وذوى النفوذ كانوا قلة بطبيعة الحال ، وإذا قمنا بإلقاء نظرة عامة على سكان القرية لوجدنا أن أغلبهم كانوا يحصلون على ضروريات الحياة بصعوبة ، لقد عاش الرجال والنساء والأطفال والحيوانات المنزلية متراكمين جميعاً فى أحياء قريبة ومزدحمة . ويوضح هذا الازدحام تلك الوثائق العديدة التى تسجل بيع أجزاء صغيرة جدا من حصص المنازل مثل أربعة أخماس حصة من ست حصص فى إحدى الحالات ، وفى أخرى عشر حصة من أربع وعشرين حصة ، وحصتين من أربعين حصة ، لقد وجدنا سبعة عشر شخصا من البالغين وسبع أطفال يعيشون معا فى عشر منزل .

ترى كم كان عدد سكان القرية التقليدية ؟ هذا النوع من الأسئلة يفتقر إلى البيانات الإحصائية ، إذ أننا لانستطيع بأى حال أن نجيب عليه إجابة تقريبية محددة ، إن أفضل الطرق لمحاولة إجابته هو أن نجازف بوضع بعض الافتراضات لكى تكون بمثابة مفتاح للإجابة ، لقد بلغ عدد الذكور فى إحدى القرى التى فقد اسمها - فى عام ٩٤م من الخاضعين لدفع ضريبة الرأس ٦٣٦ رجلا وتراوح سنهم بين الرابعة عشر عاما والستين ، وعلى هذا يمكننا أن نفترض

أن العدد الكلى لسكان هذه القرية كان يبلغ حوالى ثلاثة آلاف فرد . كما بلغ عدد الخاضعين لضريبة الرأس فى سجلات كرانيس لعام ١٧٣/١٧٢ حوالى ألف شخص ، مما يجعلنا نفترض أن سكانها كان يتراوح عددهم بين أربعة آلاف وستة آلاف نسمه . وبمقارنة سكان فيلادلفيا Philadelphia بسكان كرانيس يمكن أن نفترض أن عدد السكان فى القرية الأولى كان أقل من الثانية بحوالى ألف شخص . وعلى العكس من هذه القرى الكبيرة كان يوجد عدد كبير من الكفور الصغيرة التى يسكنها عدد ضئيل من السكان ، وقد سمعنا عن فرار جميع سكان أحد هذه الكفور ربما بسبب انتشار وباء الطاعون الذى استمر لعدة سنوات خلال عهد ماركوس أو ريليوس ، ولذلك فقد انخفض عدد رجالها من ٢٧ رجلا إلى ثلاثة ثم إلى لاشيء بعد ذلك ، وفى كفر آخر انخفض عدد السكان من ٥٤ فرداً إلى الصفر . (٥)

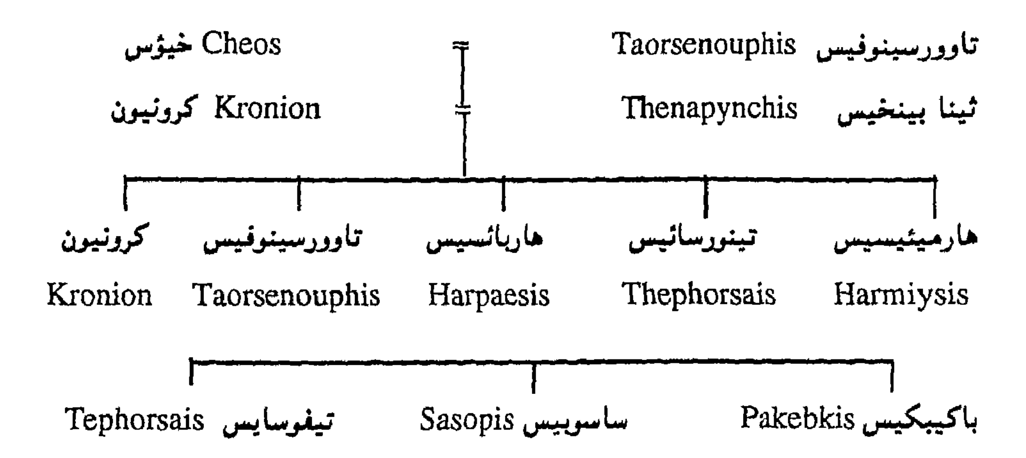
ونتساءل الآن عن الطعام الذى كان يتناوله القروى ؟ لقد جرت العادة فى المجتمعات الزراعية أن تمثل النشويات الجزء الأكبر من الوجبة ، إذ كان الطعام يتكون أساسا من الحبوب والخضروات التى يقوم الفلاح بزراعتها ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت مستنقعات النيل مجالا كبيرا لنمو النباتات وكان بعضها صالحا لطعام الإنسان ، وقد كفت هذه النباتات الفقراء شر الحاجة . كما يقول ديودوروس الصقلى ، وكان نبات اللوتس من بين النباتات التى تنمو فى الأحراش ، وهو نبات يمكن عمل وجبة من الخبز منه ، كما أن ثمار التوت كانت تستخدم كنوع من الحلوى ، كذلك كان السكان يأكلون الأطراف السفلى من سيقان نبات البردى الذى كان ينتشر بوفرة فى أنحاء البلاد ، ويتم تناولها إما مسلوقة أو مشوية ، بالإضافة إلى أنه كان يمكن مضغه لامتصاص عصارته ثم يتم إلقاء مخلفات هذا النبات كما يفعل المصريون الآن فى أعواد قصب السكر وكما يفعل الصينيون مع براعم نبات الخيزران ، وكان المصريون يحصلون على حاجاتهم من البروتين والدهون من الدجاج والحيوانات المنزلية ، وبالإضافة إلى ذلك كان يمكن وضع أصناف أخرى على مائدة الطعام من تلك التى يقومون بتربيتها بالمنزل أو يمكنهم دفع ثمنها . وقد أشارت بعض المصادر إلى الألبان ، أما الجبن فقد جاء ذكره على نطاق أوسع من اللبن وتوافرت الأسماك من النهر والبحيرات والبرك الصناعية ، كما انتشرت الطيور البرية على البحيرات مع الأسماك الموجودة فيها . وفى أغلب الأحيان كان يتم دفع رسوم نظير حق الصيد ومع ذلك فإن سرقة الصيد من الأسماك لم تكن شيئا غير عاديا ، وتذكر لنا وثيقة بردية من عام ٣١م أنه تمت سرقة أسماك تبلغ قيمتها ٦٫٠٠٠ دراخمة من إحدى البرك الخاصة. وتذكر وثيقة بردية أخرى قيام مجموعة من الرجال بدفع مبلغ ١٨٠ دراخمة نظير حق صيد الأسماك فى بعض البرك لمدة سبعة شهور ، وهكذا فقد كان يمكن الحصول على المال سواء

بالطريق القانونى أو غير القانونى عن طريق صفقات السمك ، ونعلم من خلال الوثائق التى لها صلة بالأسماك أنه كان يؤكل طازجا أو يحفظ لاستخدامه فيما بعد عن طريق التجفيف أو التمليح ، وفى النهاية فإن الشراب الذى اعتادوا على تناوله كان مصنوعا إما من نبيذ العنب أو البيرة المصنوعة من الشعير . (٦)

أما عن كمية الطعام التى اعتادوا تناولها ، فنحن نقرأ فى سجل إحدى المزارع أنه تم دفع رغيفين يوميا كأجرة لكل عامل منهم ، أى حوالى نصف كيلو جرام لكل فرد . وتشير دراسة أخرى تعتمد على مثل هذه البيانات ، أن حاجة الشخص من السعرات الحرارية كانت تختلف من شخص لآخر وتتراوح بين ٢٠٠ر١ الى ٥٠٠٠ سعراً فى اليوم طبقا للعمر والمستوى الاجتماعى ، والمعروف اليوم أن الرجل الذى يبلغ وزنه خمسون كيلو جراماً ويقوم بعمل عضلى عنيف فى المزرعة يحتاج إلى ٢٠٠ر٢ سعر حرارى كحد أدنى ليظل فى صحة جيدة ، ويبدو أن كثيرا من الفلاحين المصريين كانوا يصلون إلى وزن خمسين كيلو جراماً ، ولكننا لانعرف على وجه اليقين ما إذا كانوا قد تمكنوا من الحصول على الحد الأدنى الذى يبلغ ٢٠٠ر٢ من السعرات الحرارية يوميا وبطريقة متوازنة أم لا (٧) ، والآن ماهى الملابس التى كان يرتديها القرويون ؟ لقد كانوا مثل أغلب السكان من الفلاحين يوجد بينهم أولئك الذين يستطيعون دفع ثمن طقم جيد من الملابس لارتدائه فى المناسبات والاحتفالات ، أما فى أثناء العمل اليومى فقد كانوا يرتدون القمصان والعباءات وكانت تشبه تلك التى يرتديها سكان المدن ، ولكنهم كانوا على عكس سكان المدن يسيرون حفاة الأقدام فى أغلب الأحيان ، ولذا وقعت نتيجة لذلك علل كثيرة من أمراض القدم .

كانت قرية تيبتونيس Tebtynis الواقعة على الحافة الجنوبية لإقليم الفيوم هى أكثر المناطق خصوبة فى إمدادنا بأوراق البردى اليونانى ، وقد تم العثور على مجموعة وثائق توجد الآن فى جامعة ميلانو - يبلغ عددها ٦٩ وثيقة تخص شخصاً يدعى كرونيون Kronion وأسرته فى الفترة الواقعة بين عام ١٠٧/١٥٣م . وهناك وثيقة أخرى فى مجموعة جامعة ميتشجان ترجع لعام ٣٥م ، خاصة بوالد كرونيون ، إن هذه المجموعة من الوثائق تمثل أفضل مالدينا عن أسرة قروية ذات إمكانيات محدودة ، لذلك فالأمر يستحق أن نلقى نظرة على أرشيف كرونيون لنستقى منه بعض التفاصيل .

ونبدأ أولا بذكر شجرة العائلة :



كانت والدة خيؤس Cheos تدعى ثائيسيس ابنة بسوسنيوس Thaesis d. of Psosneus وقد ولدت فى عام ٥ ق.م وأنجبت خيؤس عندما كانت فى الخامسة عشر من عمرها ، (ولانعرف إذا كان قد سبق لها أن أنجبت أطفالا قبله أم لا) وكان خيؤس Cheos فى الثالثة والخمسين من عمره عندما أنجب ابنه كرونيون Kronion ، ولم تكن هذه ظاهرة غريبة فى مصر فهناك حالة أخرى بلغ فيها عمر الزوج ٦٩ عاما وبلغ عمر زوجته الثانية ٥٢ عاما وذكرو أن لهما ابن فى الثالثة من عمره، وتزوج كرونيون من ثينابينخيس Thenapynchis وأنجبا خمسة أطفال- خمسة فقط هم الذين ظلوا على قيد الحياة وسجلوا فى الأرشيف - ثلاثة من الذكور وابنتين . ولقد ولد الإبن الأول عندما كان كرونيون فى التاسعة عشر من عمره وزوجته فى الخامسة عشرَ من العمر ، ثم أنجبا الأطفال الأربعة الآخرين فى فترة بلغت أكثر من عشرين عاما . ولم يكن ذلك أمراً غير عادى ، فقد تم نشر مجموعة حديثة من أوراق البردى خاصة بشخص مصرى يدعى سوتيريخوس Soterichos وكان يقيم فى قرية ثيادلفيا Theadelphia فى القرن الأول وقدم لنا نموذجا مشابها . إذ أنجبت زوجته ابنهما الأول عندما كانت فى الخامسة عشر من عمرها ، وأنجبت ابنها الأخير عندما كانت فى الثالثة والأربعين من عمرها ، ولما كان مجتمعهم لايوجد لديه الحافز كما كان لايعرف وسائل التحكم فى النسل ، لذلك فمن نافلة القول أن نستنتج أن الفترة الزمنية التى بلغت ثمانية وعشرين عاما هى الفترة التى كان يتم فيها عادة إنجاب الأطفال الذين يقدر لبعضهم الحياة ولبعضهم الموت بعد فترة من ميلاده . وقد ظهر من وثائق تعداد عام ١٩٨م أن سيدة أخرى قد ولدت طفلا بعد فترة بلغت ثمانية وعشرين عاما . (٨)

ولنعد مرة أخرى إلى كرونيون وأسرته ، فقد تزوج ابنه الأكبر من ابنته الكبرى وفقا للنمط السائد وهو زواج الإخوة ، ومن هذا الزواج ولد كرونيون الأصغر أولا وتزوج عندما شب عن الطوق من أخته تاوورسينوفيس Taorsenouphis التى كانت تصغره بأربع سنوات ، وليس هناك أية معلومات فى الأرشيف توضح كيف كانت تعيش الأسرة ولانعرف إلا أنها كانت تعيش فى تيبتونيس أو فى الأنحاء القريبة منها ، ولدينا إيصال من عام ١١٤م قام فيه كرونيون بدفع مبلغ ٢٨ دراخمة نظير إيجار منزل ، ومن هنا يتضح لنا أنه عندما كان كرونيون يبلغ حوالى الخمسين من العمر لم يكن قد امتلك منزلا ليقيم به وتشير وثائق أخرى من نفس الفترة إلى أنه كان يتم دفع ٢٨ دراخمة كإيجار سنوى ، وإذا كان هذا صحيحا فهو يعنى أن المنزل لم يكن كبيرا ، ومن الواضح أنه كان المنزل الذى تعيش فيه الأسرة جميعها ، ومعنى هذا أنهم كانوا يعيشون فى جيوب بعضهم البعض ، ولكن مثل هذا الازدحام لم يكن كما سبق ورأينا فى الفصل الثالث شيئا غريباً .

لقد كان كرونيون وأسرته يتملكون مساحة من الأراضى ، ومع مضى السنوات تمكنت تاوورسينوفيس Taorsenouphis من خلال "تدبيرها لمبلغ من النقود أن تنمى الأرورات الأربع ليصبح مجموع مساحة الأراضى التى تملكها الأسرة سبعة عشرة أرورا (= ١/٢ ٧ فدان انجليزى أو ٥ر٤ هكتار) ، ولكن هذه المساحة من الأرض لم تستطع أن تكفى حاجة الأسرة ولذلك قامت بتأجير أراضى أخرى لزراعتها .

وقد تمثل عماد معيشة الأسرة فى مزرعة بلغت مساحتها خمس وعشرين أرورا كانوا يستأجرونها لمدة أربعين عاما بصفة متصلة من ملاكها الذين كانوا يعيشون بعيدا عنها ، وحتى يتمكنوا من إدارة العمل فى هذه المزرعة كان عليهم أن يسافروا يوميا مسافة عشرة كيلو مترات أو أكثر من ثيبتونيس وإليها مرة ثانية ، ويبدو أن هذه الأرض كانت شديدة الخصوبة أو ربما كانت هناك شروط جيدة أو أسباب أخرى تدفعهم لتأجيرها عاما بعد عام بصفة مستمرة على الرغم من بعد المسافة بينها وبين مكان إقامتهم . وبالإضافة إلى الأراضى السابقة قاموا بتأجير مساحات أخرى صغيرة تراوحت بين ١/٢ ٢ إلى ١٢ أرورا .

لقد ارتبطت الحياة الاقتصادية فى القرية المصرية فى جوهرها - باستثناء عدد قليل من الموسرين فيها - بممارسة الطرق التقليدية أى بالمقايضة ، وفيما عدا الضرائب وبعض الالتزامات الأخرى التى كان يتم دفعها نقدا فقد عانى كرونيون وأمثاله كثيرا من السيولة النقدية ، ولذلك كان يقترض قروضا مالية قصيرة الأجل . ولذلك فليس من قبيل المصادفة أن

تسع عشرة وثيقة من بين مجموع وثائق أرشيفه التى تبلغ ٦٩ وثيقة تتعلق بقروض مالية اقترضها من فرد أو آخر من القادرين فى القرية ، وتراوحت قيمة القروض بين ٥٤ إلى ٣٧٣ دراخمة . وكذلك اقترض قروضا عينية أخرى مقدارها عشرون ، أو أربعون ، أو خمسون إردبا من الغلال ، وجرت العادة على أن يتم تسديد هذه القروض بعد حصاد المحصول بفائدة بلغت ٥٠٪ من قيمتها. (٩)

وبالرغم من كل هذا النشاط السابق ذكره والتدابير الاقتصادية المحكمة فقد استطاعت أسرة كرونيون أن تعيش فى مستوى متوسط بين الفقر المدقع ورغد العيش ، وقد ترتب على هذا الحد من مستوى المعيشة أن يشغل رجال الأسرة على سبيل المثال بعض الوظائف الدنيا من الخدمات العامة فى القرية ، من تلك الوظائف التى لاتتطلب نفقات مالية كبيرة ، وذلك لأن مثل هذه الوظائف لم تكن تفرض على الطبقة الأكثر فقراً فى المجتمع (فصل ٨) .

ويقدم لنا الأرشيف كما توقعنا بعض لمحات من حياة الأسرة الخاصة فقد اكتشفنا أنه بعد زواج دام أكثر من ثلاثين عاما وإنجاب ثلاثة أطفال أن الطلاق قد تم بين كرونيون الأصغر وأخته تاوور سينوفيس Taorsenouphis. وقد ورد فى عقد الطلاق (المذكور فيما بعد) أن الارتباط قد تم بينها دون كتابة عقد رسمى ، وهى عادة مصرية أكثر من كونها قاعدة للزواج مثل تلك القواعد التى توجد لدينا اليوم . ومن السهل أن نفهم أن الزواج بين الأقارب ربما كان يخفف من الشروط المعتادة لعقود الزواج فيما يخص الدوطه البائنة وغيرها ، ولكن الواقع أن الزواج حتى بين الإخوة كان يتم الاحتفال به بنفس أسلوب الزواج العادى .

ولقد قام كرونيون فى ١٣ يونيو عام ١٣٨م بتقسيم ممتلكاته على النحو التالى : "(التاريخ) يعلن كرونيون بن خيؤس بن هارميثيسيس Kronion S. of Cheos S. of Har-miysis ووالدته تاوور سينوفيس Taorsenouphis من قرية نيبتونيس التابعه لقسم بوليمون Polemon فى إقليم الفيوم وهو يبلغ من العمر ٧٧ عاما ولديه علامة مميزة على يده اليمنى ، يعلن الآتى (لكى يوضع موضع التنفيذ) : تؤول أملاكه بعد وفاته إلى أبنائه من زوجته الأخيرة ثينابنخيس بنت باتينيس Thenapynchis d. of Patynis أى إلى أبنائه هارميسيس Harmiysis وهارفائيسيس Harphaesis وأيضا إلى حفيدته الصغيرة تيفور سائيس Te-phorsais من إبنه كرونيون الأصغر وإبنته وتاوورسينوفيس للثلاثة معا كورثة لكل مايتركه كرونيون من بعده من أى شىء مثل الأثاث ، الأدوات ، والممتلكات المنزلية الأخرى ، وأية قروض مستحقة الدفع له أو أى شىء آخر ، لكل منهم نصيب الثلث ، وإلى أبناء كرونيون الآخرين وهم كرونيون (الأصغر) وتاوورسينوفيس وتيفور سائيس Tephorsai على النحو

التالى : حددت لكرونيون الأصغر مبلغ أربعين دراخمة فضية وذلك لأن الأب كرونيون - كما أعلن - قد لقى كثيراً من الإساءات على يديه أثناء حياته ، وللابنتين تاوورسينوفيس وتيفورسائيس بالإضافة إلى المشغولات الذهبية والفضية والملابس التى سبق وأكد منحها لهم (وامتلاكها) فقد قام الأب بمنح كل منهن مبلغ مائة (؟) دراخمة فضية ، وعلى الوارثات الثلاث هارميثسيس Harmiysis وهارفايثسيس Harphaesis وحفيدته تيفورسائيس Te-phorsais الصغرى أن يقمن بتشييع جنازة كرونيون ودفنه وأن يقمن بتسديد أية ديون خاصة أو عامة قد تظهر على كرونيون فيما بعد . ولكن طالما بقى كرونيون صاحب الوصية على قيد الحياة فإن له الحق الكامل فى إدارة كل أملاكه بالطريقة التى يراها . (توقيع وختم كرونيون الذى قام شخص آخر بالكتابة له لأنه لايعرف القراءة والكتابة) وسته من الشهود . وتأشيرة من دار التسجيل فى تيبتونيس . (١٠)

ونجد فى الوثيقة السابقة شيئا مؤثراً أو ربما عنيفاً ويتجلى ذلك فى الإشارة إلى الأخطاء التى ارتكبها كرونيون الأصغر ، لقد لمحوا إليها فى تبريرهم بإعطائه هذا المبلغ الضئيل ، ولكنهم كانوا حذرين فى عدم ذكر التفاصيل وذلك حتى لاينشر غسيل الأسرة علانية ، لقد قام بكتابة الوصية أحد الكتبة العموميين فى حضور ستة من الشهود ، ثم سجلت فى دار السجلات المحيطة فيما بعد ، أما هذه الأخطاء التى ارتكبها كرونيون الأصغر فسوف تظهر قريبا والتى كانت هى السبب الجذرى فى الطلاق الذى تم بينه وبين أخته تاوورسينوفيس Taorsenouphis وهو الطلاق الذى سجل بعد أحد عشر أسبوعا من الوصية فى الثلاثين من شهر أغسطس .

"نسخة من الاتفاق (التاريخ) الذى تم فى تيبتونيس التابعة لقسم بوليمون فى إقليم الفيوم بين كرونيون بن كرونيون ويبلغ من العمر حوالى ٥٤ عاما ، وله ندبة مميزة على ساعده الأيسر، وزوجته حتى الآن - التى هى فى الوقت نفسه أخته المولودة من نفس الأب ونفس الأم - تاوورسينوفيس Taorsenouphis والتى تبلغ من العمر حوالى خمسين عاما ، ويمثلها قانونيا والدهما معا كرونيون بن خيؤس Kronion S: of Cheos الذى يبلغ من العمر حوالى ٧٦ عاما ، والذى له ندبة مميزة على يده اليمنى ، فقد تم الاتفاق بموافقة الطرفين على فسخ الزواج الذى كان بينهما بدون عقد مكتوب وأصبح لكل منهم مطلق الحرية فى إدارة شئون حياته بالطريقة التى يختارها ، ومن حق تاوورسينوفيس أن تتزوج من رجل آخر دون الاعتراض عليها بأية طريقة ، أما مجوهراتها والتى تبلغ قيمتها واحد مينا Mina وعشرة أرباع مثقال من الذهب و ٢٨ وزنة من الفضة فقد شهد جميع الأطراف أن كرونيون قد أخذها وحولها إلى

مبالغ نقدية لاستخدامه الشخصى ، فعلى كرونيون أن يعيدها لأخته فى صورة حلى بنفس القيمة خلال ستين يوما ابتداء من اليوم وإلا سيكون من حق تاوورسينوفيس أن تتخذ ضد أخيها كرونيون وجميع ممتلكاته الإجراء القانونى اللازم ، وبالنسبة للمتعلقات الأخرى التى ارتبطت بزواجهما فليس من حق أى واحد منهما أن يشكو الطرف الآخر بأية طريقة ، وليس من حق كرونيون على وجه الخصوص أن يتقدم بشكوى ضد تاوورسينوفيس بخصوص أية ممتلكات أخرى كانت قد أحضرتها للمنزل طالما كانت قد دفعت ثمنها من أموالها الخاصة ، كذلك بخصوص أية ممتلكات مكتوبة أو غير مكتوبة حتى يومنا هذا . أما الأبناء الذين أنجباهما سويا فهما ولدان ساسوبيس Sasopis وباكيبكيس Pakebkis وابنة تدعى تيفورسياسى Te-phorsias " (١١)

وقد علمنا من وثيقة أخرى مؤرخة بعد شهرين من الطلاق الذى تم بين تاوورسينوفيس وأخيها كرونيون أنه كان يعمل وكيلا لدى سيدة تملك أملاكا لها حجمها فى إحدى الضواحى القريبة ، ونقرأ بين السطور السبب فى الطلاق الذى تم والذى يتمثل فى العلاقة الغرامية التى ربطت بين كرونيون عندما كان فى الرابعة والخمسين من العمر ومخدومته التى كانت فى الخامسة والأربعين من العمر ، تلك العلاقة التى يرجع إليها السبب فى النكبة العاطفية التى أصابت الأسرة .

ولنترك الآن أسرة كرونيون بأفراحها وأتراحها وننتقل الى الحديث عن بعض العناصر الأخرى فى حياة القرية ، لقد كان هناك أفراد مثل الذين قام كرونيون بتأجير أراضى منهم لزراعتها يمتلكون جميعا قطعة أرض صغيرة المساحة من الأرض الصالحة للزراعة فى القرية ، أما المعابد فقد استمرت فى ملكيتها لمساحات من الأراضى ، بعد أن قام أغسطس بتقليص ملكياتهم الواسعة ، أما أكبر أقسام الأراضى مساحة وأعلاها خصوبة فقد تمثلت فى تلك التى كانت تمتلكها الدولة أو التى يمتلكها الإمبراطور اسميا . ففى خلال حقبة المائة سنة الأولى من الحكم الرومانى امتلك عدد قليل من أفراد الأسرة الإمبراطورية وبعض رجال الدولة وبعض رجال المال السكندريين ضياعا واسعة فى مصر كنوع من أنواع الاستثمار المربح ، ولكن قبل نهاية القرن الأول الميلادى آلت ملكية جميع هذه الضياع إلى أملاك الإمبراطور بطريقة أو بأخرى . وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت على مدى قرن آخر من الزمان تحمل أسماء ملاكها السابقين مثل ميكانياس Maecenas وأنطونيا Antonia وسينكا Seneca وهكذا ، ولذلك فقد تحكمت أراضى الدولة والضياع الإمبراطورية فى حياة القرويين .

أما أراضى الدولة التى كان يشار إليها رسميا باسم أراضى الدولة Public أو الأراضى الملكية Royal والاصطلاح الأخير ظل سائداً مثل غيره من العصر البطلمى حتى العصر الرومانى) فقد وضعت تحت إشراف مجموعة من الموظفين الرسميين فى عواصم الأقاليم وفى المناطق المحلية ، وكانوا يقومون بتأجيرها سنويا لأعلى سعر يقدمه المؤجرون وأطلق على الذين يقومون بتأجيرها اسم "مزارعو الدولة " وقد جرت العادة على أن يقوموا بزراعتها بأنفسهم كما كان يمكنهم أن يقوموا بتأجيرها من الباطن إذا رغبوا فى ذلك ، وقبل التعاقد مع الدولة كانوا يقدمون لها الضمانات التى تضمن قيامهم بهذا العمل ، وكان يمكنهم أن يقدموا الضمانات المالية لذلك ولكن حيث أن عددا قليلا من المزارعين هم الذين توافرت لديهم السيولة النقدية فيبدوا أن الإجراء المعتاد كان يتمثل فى ذكر قائمة بأسماء بعض أصدقائهم كضامنين لهم .

وقد تم تعيين نظار للإشراف على إدارة الضياع الإمبراطورية ، وكان فى إمكانهم فى بعض الأحيان أن يقوموا بتأجير مساحات من الضيعة أو حق استغلال بعض مصادرها لبعض المزارعين الذين كان يشار إليهم باسم "مزارعو الضيعة" أو "مزارعو الإمبراطور" وفى بعض الأحيان فضل هؤلاء المشرفين أن يستخدموا الطريقة التى كانت منتشرة بكثرة لإدارة الضياع الإمبراطورية وخصوصا فى شمال أفريقيا حيث كانت تقسم الضياع إلى حصص كبيرة تعطى لعدد قليل من الوسطاء وكان لدى هؤلاء الملتزمون الإمكانيات التى يقدمونها للإدارة لتضمن بها قيامهم بأداة التزامات العقود العينية والنقدية ، أما العائد الذى كان يعود على الملتزمين فقد كان يأتى من تقسيم هذه المساحات إلى حصص صغيرة يقومون بتأجيرها من الباطن لمزارعى الضياع ، ولدينا نموذج لعقد إيجار من الباطن دون فى ١٠ أكتوبر سنة ١٢٠ وهو على النحو التالى :

"من بيتيخون بن هاريؤس Petechon S. of Hareos إلى هرمياس بن سابوريون Hermias S. of Sabourion تحياتى . لقد قمت بمقتضى ذلك العقد بتأجير مساحة ثلاثة أرورات لهذا العام السنة الخامسة من حكم مولانا هادريانوس قيصر لبذرها بحبوب الخضروات من أراضى الضياع الإمبراطورية التى تلتزمها والتى سبق وكان يلتزمها أبو للونيوس بن أجاثيونوس Apollonios S. of Agathionos وذلك نظير إيجار عينى يبلغ ثلاثة أرادب يتم كيلها بميزان الزيت لكل أرورا موجودة على خريطة مسح الأراضى الخاصة بالمشرف الإمبراطورى ، وأعنى تلك المساحة من الأراضى التى كان يقوم بزراعتها من قبل فى السنة الرابعة من حكم مولانا هادريانوس قيصر ، فينيون بن توثيس (توت) Phinion S. of Tothes . وسوف أقوم بوزن عائدها فى شهر أبيب Epeiph ، وعندما تقوم بحملها من الجرن

ستكون جميعها حبوباً جديدة غير فاسدة ونظيفة ويتم وزنها بمكيال أثينا للأرادب ذى السعة السباعية والذى يجرى استخدامه فى المزرعة ، وتقع عليك مسئولية دفع عوائدها العينية للدولة . (التاريخ) قمت أنا ديوسكوروس بن ديديموس Dioskoros S. of Didymos بالكتابة له لأنه أمى . (١٢)

وفضلا عن ذلك فقد تمتعت الدولة والإمبراطور بوصفهم ملاكا للأراضى ببعض المميزات الواضحة التى لم تكن تتوافر لملاك الأراضى الخاصة ، فقد كانت أية شكوى يقومون بتقديمها ضد أى ملتزم من ملتزمى هذه الأراضى بخصوص تقصيره أو تأخره فى دفع عوائد الأرض يصبح لها الأولوية الأولى على كل أنواع الشكاوى الأخرى التى تقدم من الأفراد العاديين ، وفى كل سنة كانت توجد مساحات من الأراضى تظل لسبب أو لآخر (لعدم خصوبتها أو لبعد المسافة) دون أن يتقدم أحد لاستئجارها لزراعتها فى الموسم التالى ، وهنا كان مالك الأراضى الخاصة يحاول أن يستأجر شخصا لزراعة الأرض له ، أو يحاول أن يجد من يقوم بالتزام تأجيرها نظير إيجار منخفض ، وفى حالة فشله فى اتخاذ أى من التدابير السابقة فقد كان يتقدم بطلب للدولة يذكر فيها أن هذه المساحة تعتبر أرضا بور فى هذه السنة . وكانت كل من أراضى الدولة والأراضى الإمبراطورية محصنة ضد هذه الحالات ، لأنه فى مثل هذه الحالات تقوم الدولة بفرض زراعتها على الأراضى الخاصة التى تقع فى نفس المنطقة والتى لم تكن تجد مزارعين لها وذلك بنسبة معينة على الأراضى الخاصة ولذلك كان يتم التأكيد على هذا الإجراء فى عقود تأجير الأراضى الخاصة بذكرهم بأنها لم تلحق بها زراعة أراضى للدولة ، أما فى حالة المساحات الكبيرة من الأراضى - وتراوحت المساحات لدينا بين ٢١٠ ألف ٨٥٩ أرورا - (= ٥٨٤ فدان انجليزى أو ٢٣٦ هكتار) - فقد كانت الدولة تقوم بفرض زراعتها كاملة أو مجزأة فى بعض الأحيان على القرية أو القرى المجاورة # ، وهناك يقوم الموظفون المحليون بتحديد عدد الأيدى العاملة التى تحتاجها ، ولكن ماذا كان يحدث عندما تكون الأراضى المطلوب زراعتها تقع على مسافة بعيدة ، أو تكون ضخمة المساحة بحيث لايستطيع الفلاحون الذين فرضت عليهم زراعتها أن يقوموا بأداء العمل فيها مع استمرار إقامتهم فى منازلهم ؟ يبدو أنه فى مثل هذه الحالة كان يتم ترحيل الفلاحين إلى مكان العمل ليقيموا هناك ولكن

عن نظام إلحاق الأراضى العامة على الأراضى الخاصة راجع : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص١٩٦ والحواشى .

ليست لدينا معلومات مؤكدة عن الطريقة التى كان يتم بها إسكانهم ، ولكن من المحتمل أنهم كانوا يقيمون فى مزرعة الدولة التى تقع فيها الأراضى التى يقومون بزراعتها ، أو كانت إقامتهم تفرض على فلاحى المنطقة القريبة منها .

ولكن فى جميع النماذج التى لدينا (وقد تم جمع خمسين منها فى دراسة حديثه) كانت المسافة بين القرية التى يقيم فيها المزارعون ومكان العمل الذى فرض عليهم زراعة أراضية لم تكن تتجاوز عشرة أو أثنى عشر كيلو مترا ، وهى مسافة سبق أن رأينا أن رجال أسرة كرونيون كانوا مستعدين لقطعها عاما بعد عام لفلاحة الأرض ، كما وجدنا مزارعين من قرية سكنوبا يونيسوس Soknopaiou Nesos يعملون فى قرية باخياس Bakchias التى تبعد عنها بحوالى ٣٢ كيلو مترا ، وبلغت المسافة فى حالتين أخرتين أربعين كيلو مترا ، وتقدم لنا بعض الوثائق معلومات عن عدد الرجال الذين فرضت عليهم زراعة أراضى على النحو التالى:

التاريخ	عدد الرجال	المسافة	المسافة بالكيلو مترات
عام ٧٠م	٣ مزارعين لأراضى الدولة	١٩ أرورا	٣ أو ٤ كيلومترات
عام ١٠٠/١٠١م	٢ من مزارعى الضياع	٥١ أرورا	٣ أو ٤ كيلومترات
عام ١٤١/١٤٢م	٢ من مزارعى الدولة	١٣أرورا	٦ أو ٧ كيلومترات
عام ١٥٣/١٥٤م	٣ من مزارعى الدولة ومزارعى الضياع	٣٧ أرورا مقسمة لأربعة أجزاء	٥ أو ٦ (؟) كيلومترا
عام ٢١٥م	٢١ من مزارعى أراضى الدولة	٩٣ أرورا	١ أو ١٢(؟) كيلومترا

وقد تم نشر حقائق كافية خاصة بموضوع ترحيل كل العاملين إلى مكان عملهم فى أراضى الدولة لكن الأرقام الإحصائية لذلك مازالت نادرة فى الوثائق . وتذكر لنا إحدى وثائق عام ٢١٣/٢١٤م عن ترحيل ستين رجلا إلى قرية منديس Mendes وحيث أن هذه الوثيقة غير كاملة لذلك فنحن لانعرف متى تم ترحيل هؤلاء الرجال . أما أوضح النماذج التى لدينا فقد عثر عليها فى ملف ضرائب يرجع لعام ١٦٧م ، وهو خاص بقطعة أرض ضخمة من الأراضى

تبلغ مساحتها ٢٫٤٥٩ أرورا (= ١٥٧٢ فدان انجليزى أو ٦٧٦ هكتار) من أراضى الدولة وأراضى الضياع فى قرية بطلمية الجديدة Ptolemais Nea ، حيث تم تخصيص مساحة بلغت ٨٥٩ أرورا - أى أكثر من ثلث المساحة الكلية - لقرية كرانيس لزراعتها بينما خصصت المساحة الباقية لملاك الأراضى فى قرية بطلمية الجديدة نفسها ، ولعاصمة الإقليم . وعلى الرغم من أن كرانيس وبطلمية كانتا متجاورتين ولاتتجاوز المسافة بينهما ٦ أو ٨ كيلو مترات إلا أنه قد تم ترحيل ٤٤ فردا من كرانيس للقيام بزراعة أراضى الدولة والضياع فى بطلمية ويبدو أن السبب فى هذا يرجع إلى ضخامة حجم العمل هناك .(١٣)

وإذا قمنا بحساب عدد الأفراد الذين يتم ترحيلهم من رجال القرية للعمل الجبرى بالإضافة إلى الغائبين عنها لأسباب أخرى فإن هذا يعنى أن حوالى ٢٠٪ أو ٣٠٪ من ذكور القرية البالغين كانوا يستنزفون منها ، أما بقية رجالها فغالبيتهم كانوا بعيدين عنها طوال اليوم فى العادة ، أغلبهم يؤدون عملهم فى الحقول وآخرين فى نقل البضائع والأفراد ، وإذا ، اقترب الزائر من القرية يخيل إليه أنها تغط فى نومها وتكتوى بنيران الشمس الحارقة ، وسرعان مايتنهى هذا الخاطر عند دخوله إليها حيث يرى كل من حوله مشغولا بنشاطه اليومى . الحرفيون يقومون بأداء عملهم ، أطفال القرية يلعبون أو يقومون بمساعدة أهل المنزل ، وربات المنازل منهمكات فى أداء أعمالهن أو واقفات يثرثرن ، مشاجرات فجائية تنشب لوقوع إساءات بعضها حقيقى وبعضها وهمى ، وفى خلفية الصورة نجد لصاً اعتاد دوماً أن يتستر تحت جنح الظلام ليقوم بسرقاته ، لكن انتهز فرصة الضجيج وانشغال الناس فى المشاجرة كى يقوم بالسرقة في وضح النهار ثم يلوذ بالفرار .

إن جرائم الاعتداء والعنف تعتبر ظاهرة واضحة فى أوراق البردى وكانت النساء والمسنون والضعاف هم أسهل ضحاياها . ولقد تكرر إظهار مشاعر الازدراء من جانب الرومان (وهناك أمثلة سيتكرر وجودها فى الفصول التالية) تجاه المصريين بزعم أنهم مجتمع غير متوازن ومتمرد على القانون . وقد قبل عدد من كتاب العصر الحديث هذا التحامل على المصريين لكن إذا نظرنا إلى هذا الموضوع نظرة متزنة فإننا لانجد سببا يجعلنا نفترض أن القرية المصرية كانت ترتكب فيها جرائم أكثر من أى مكان آخر ، ولو قدر لنا أن نعثر على أوراق بردية بأعداد ضخمة من الولايات الرومانية الأخرى فسوف نجد أن صورة الجريمة فيها مماثلة . لقد كان نصيب القرية المصرية من الطمع البشرى عادياً ، وكان يمكن للقواعد والنظم العامة العادلة أن تمنع وقوعها خصوصا إذا زادت حدتها نتيجة لضغوط الفقر والحاجة .

وتضم مكتبه جون ريلاندز John Rylands فى مانشستر Manchester مجموعة من ٢٨ شكوى لجرائم وقعت فى الفترة الزمنية بين الأعوام من ٢٨ إلى ٤٢م وكانت هذه الشكاوى فى حوزة رئيس البوليس فى قرية يوهيميريا Euhemeria فى إقليم الفيوم . وهى تتكون من ٧ شكاوى ضرب وتعدى جسدى ، ٣ شكاوى خاصة بكسر المنازل ودخولها ، ١٧ شكوى سطو وسرقه ، ٨ شكاوى إتلاف محاصيل زراعية عن طريق مواشى الآخرين . وبالإضافة إلى كون هذه الشكاوى ذات أهمية إنسانية فإنها مع السجلات الأخرى من المناطق المختلفة تقدم لنا صورة حية عن العلاقات الفردية والاجتماعية فى القرى إلى جانب الأحوال الاقتصادية . وقد قمت باختبار بعض نماذج من هذه المجموعة وهى على النحو التالى :-

- "إلى سرابيون رئيس البوليس من أورسينوفيس بن هاربائيسيسOrsenouphis S. of Harpaests رئيس قرية بوهيميريا Euhemeria الواقعة فى قسم ثيمستيس Themistes. خلال شهر مسرى فى السنة الرابعة عشر من حكم تيبريوس قيصر أغسطس (٢٨م) . كان عامل البغاء بيتوسوخوس بن بيتوسوخوس Petosouehos S. of Petosouchos بتكليف منى يقوم بهدم وإزالة جدران قديمة فى ملحقات بين منزلى ، وعندما تركت القريه لشراء بعض المواد التموينية وأثناء قيام بيتوسوخوس بعملية الهدم وجد كنزا كانت والدتى قد أخفته فى صندوق صغير فى السنة ١٦ من خكم (أغسطس) تيصر (١٥ ق.م) وهو يتكون من زوج من الأقراط الذهبية تزن ٤ أرباع ، وهلال ذهبى يزن ٣ أرباع ، وزوج من الأساور الفضية زنة ١٢ دراخمة ، وعقد مطعم بالفضة يبلغ ثمنه ٨٠ دراخمة ومبلغ ٦٠ دراخمة فضية نقدا . وقد غافل البناء مساعديه وأهلى (واستولى على الكنز) ، وقامت ابنته الصغيرة بحمل ماتم العثور عليه ونقله إلى منزله ، حيث قام بتفريغ محتوياته السابقة ؛ ثم ألقى بالصندوق فارغا فى منزلى ، ولذلك فإننى أرجوك إذا تفضلت أن تحضر المتهم للمثول أمامك لكى تتخذ ضده الإجراءات اللازمة علماً بأنه اعترف بالعثور على الصندوق ولكنه كما يقول وجده فارغاً ، مع تحياتى" .

- "إلى رئيس المائة Centurion من سوتيريخوس ابن (بن يثون) (S. of Theon).. Soterichos S. of من قرية تيبتونيس ، لقد اقتحم عدة أشخاص بيتى على طريقة اللصوص وكسروا باب منزلى الكائن فى القرية أثناء الليل فى الليلة السابقة على ٢٢ من شهر هاتور الحالى (أى اليوم) ، وقد انتهزوا فرصة غيابى عن المنزل أثناء الليل بسبب الحداد على زوج ابنتى . (وقد تمكنوا من الدخول) عن طريق خلع مسامير من الباب وحملوا معهم كل شىء كنت أمتلكه فى المنزل ، وسوف أقوم بكتابة قائمة تكشف ذلك عند الحاجة إليها ، ولذلك فقد قمت بتقديم هذه الشكوى وأطالب الجهات المسئولة بالبحث حتى يمكن أن يخففوا عنى ما ألاقيه من معاناة التاريخ ١٨ نوفمبر ١٧٦م .

- "إلى هيـيـراكس Hierax والذى يدعى أيضـا نيـمـسـيـون Nemesion ، مـدير قـسم هيراكليديس Herakleides فى إقليم الفيوم ، من جميللوس المدعو هوريون Gemllus also Known as Horion بـن جـايوس أبو ليناريوس S. of Gaius Apolinarius مـواطن من مـدينة أنطونيـة لقد تقدمت ياسيدى بالتمـاس إلى فخامة والى مصر أميليوس ساتورنينوس Aemilius Saturninus لكى أخبره بالاعتداء الذى وقع علىّ من قبل شخص يدعى سوتاس Sotas الذى ازدراتى بسبب ضعف بصرى وخطط لكى يحصل على ممتلكاتى عن طريق العنف والتطاول . ولقد قمت باستلام كتاب الوالى المعظم الذى أمرنى فيه باللجوء إلى فخامة المدير العـام. وفى خلال هذه الفترة توفى سوتاس ، ولكن أخاه يوليوس Julius الذى يتصف بنفس مظاهر العنف قام بالاعتداء على بعض حقولى التى قمت بزراعتها بنفسى وحمل معه كمية كبيرة من القش ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قام بقطع وسرقة براعم الزيتون المجففة وبعض نبات الخلنج من مزرعة زيتون أمتلكها بالقرب من قرية كيركيسوخا Kerkesoucha ، وقد علمت بما قام به من سلب ونهب عندما حضرت الى هنا أثناء موسم الحصاد ، ولم يكتف بما تقدم ولكنه بالإضافة إلى ذلك تجاسر على الخوض فى أرضى مصطحباً هذه المرة زوجته وشخص يدعى زيناس Zenas وأحضروا معهم رمز العين الشريرة لكى يقوموا بسحر أحد عمال الزراعة بالسحر الأسود حتى يهجر الرجل عمله الزراعى بعد حصاد جزء من محصول مزرعة أخرى امتلكها ثم قاموا بحصد المحصول لأنفسهم . ثم قمت بعد ذلك بمواجهة يوليوس بنفسى أمام بعض موظفى القرية الذين يمكن استخدامهم كشهود بعد ذلك ، وبنفس الطريقة قام أتباعه بإلقاء العين الشريرة على بعدف إحاطتى بالسحر الأسود ، فى حضور بيتوسوخوس Pet-esouchos وبتولأس Ptollas شيوخ قرية كرانيس وكتبتها السابقين وسوكراس Sokros ومساعديهم ، وعندما كان الموظفون مايزالون هناك أخذ بوليس رمز العين الشريرة مع ماتبقى من المحصول من الحقول وحملها إلى منزله ، ولقد قمت بتسجيل كل ما قام به من الاعتداءات أمام الموظفين السابق ذكرهم محصلى عوائد القمح فى القرية المذكورة ومن أجل ذلك فقد تقدمت بهذا الالتماس راجياً ضمه إلى الملف الخاص بى لحفظ ما أطالب به ضدهم أمام سعادة المدير العام للجرائم التى ارتكبوها ضدى ولكى يقوموا بدفع الضرائب لخزانة الدولة عن هذه الحقول لأنهم قاموا بنهب محصول حصادها عنوة (التوقيع والتاريخ ٢٢ مايو ١٩٨م)".

- "إلى أبولونيوس ، مدير إقليم الفيوم من ثوونيس بن أكوسيلاؤس Thounis S. of Akousilaos من قرية أريس Ares التابعة لقسم بوليمون ، لقد حدث أمس عندما كنت أقوم

بتصفية حسابات مع بنتيتيس بن بنتيتيس Bentetis S. of Bentetis راعى الأغنام من (قرية) البهنسا التابعة للقسم المذكور بخصوص دفع أموال ورواتب عينية وجرايات مستحقة لى عليه حيث امتنع عن دفع مستحقاتى وأراد أن يغشنى وعاملنى وزوجتى تانوريس ابنة هيروناس Tanouris d. of Heronas باحتقار فى قرية أريس التى سبق ذكرها . ولم يكتف بذلك فقط بل اندفع نحو زوجتى تانوريس وانهال عليها ضرباً بدون رحمة موجهاً ضرباته تجاه ما أمكنه الوصول إليه من جسدها - رغم أنها كانت حاملا مما ترتب عليه إجهاضها وموت جنينها وهى الآن ملازمة للفراش وهناك خطورة على حياتها - . ولذلك فإننى أرجو منك أن تكتب لشيوخ قرية البهنسا لكى يرسلوا المتهم للمثول أمامك لاتخاز التدابير اللازمة ضده (التاريخ ٢٤ نوفمبر عام ٤٧م . التوقيع). [١٤]

إنه لأمر مؤسف وغير عادل أن نختم هذه النظرة التى ألقيناها على حياة القرية بسكانها الكادحين والذين طالت معاناتهم بهذه الإشارة الكئيبة لقسوة الإنسان على أخيه الإنسان . إن الحقيقة الأولى لوجود المجتمع تتمثل فى أن نسلم جدلاً بحسن التعامل بين أفراده وعلى العكس من ذلك فإن المجتمع المثالى فى تنظيمه لاوجود له فى الحياة ، وإذا كانت السجلات الباقية لدينا تقدم لنا بسخاء نماذج من المعتدين والذين يرتكبون الإساءات أكثر مما تقدم لنا من النماذج المتآلفة والمتعاونة ، فلعل هذا يذكرنا بالحقيقة الهامة التالية وهى "أن الشر الذى يرتكبه هؤلاء الأفراد يعيش أطول منهم " ، ولكن روح المودة والإنسانية لم تكن لتنقطع بسبب صعوبة الحياة فى القرية المصرية لكى تنبع من جديد ، ويوضحها الخطاب التالى الذى كتب فى فترة ما من القرن الأول الميلادى يتوسل فيه صاحبه لوالده طالبا منه مساعدة زوجة صديق له على وشك الوضع أثناء غياب زوجها .

- "أن يأتى (بطريق النهر) حتى يستطيع أن يلتمس منك أن تهتم بأمرها ولكن لم يكن لديه الفرصة (للقيام بذلك) لأن منصب رئيس العربان Arabarch الذى يشغله قد أعاقة عن السفر وهو على وشك أن ينتهى من فترة شغله . وفى الواقع لقد كان على وشك أن يرسل أخاه بالزورق السريع لكى يلتمس منك ذلك ولكنى قلت له "دعنى أكتب لوالدى أولا عن أهمية ولادتها ثم عن غيابك القهرى" وعلى ذلك أرجو ياوالدى أن تذهب إليها فى حوالى نهاية شهر مسرى أو منتصف برمودة ، حتى تكون هناك قبل أن يحين الموعد .. إن كل شىء قد تم إعداده لنفاسها . . لذا أرجوك ياوالدى .. (فقد الجزء الباقى من الوثيقة) .

وبالمثل فإن الوثيقة التالية التى كتبت فى القرن الثانى تفيض بالمشاعر الحارة . - "من أبو للونيوس Apollonios وسارپياس Sarapias إلى ديونيسيا Dionysia أطيب تحياتنا ، لقد

سررنا غاية السرور بالأنباء السارة التى أخبرتينا بها بمناسبة زفاف ابنك سرابيون Sarapion ، وكنا نأمل أن نأتى إليك بسرعة فى ذلك اليوم الذى كثيرا ماتمنيناه لكى نقوم على خدمته ونشاركك سرورك ، ولكننا لن نتمكن من الحضور بسبب انعقاد المحكمة السنوية # كما أننا مازلنا فى فترة النقاهة من المرض إن الزهور لم يكتمل تفتحها الكامل هنا - وفى الواقع أنها نادرة - وقد استطعنا بصعوبة كبيرة جمع ألف زهرة من جميع المشاتل وجميع بائعى الزهور وإرسالها إليك مع سارابياس Sarapias وقد جمعنا فيها حتى تلك الزهور التى لم يكن من المفروض قطفها إلا غدا ، وجميعها من زهور النرجس التى طلبتها ، ولذلك أرسلنا إليك أربعة آلاف زهرة بدلا من الألفين التى طلبتها . ونرجو أن لاتقللى من شأننا أو تزدرينا بأن تكتبى أنك قد أرسلت لنا (ثمن الزهور) حيث إننا نعتبر أولادك أولادنا ولهم نفس التقدير والحب فى نفوسنا أكثر من أبنائنا ، ونحن مثلك ومثل والدهم سعداء بهم (التحيات المعتادة). [١٥]

وبعد أن قرأنا عن مشاعر الصداقة والمحبة ، فمن المثير للدهشة أنه من بين آلاف الخطابات الشخصية التى تم نشرها للآن فإنه لايوجد إلا عدد قليل من خطابات المواساة ، ولاتتعلق إلاقلة قليلة منها بوفاة الأطفال ، ويبدو أن موت البالغين سواء من الذين كانوا فى ريعان شبابهم أو الذين كانوا فى سن متقاربة كان شيئا معتاداً على المستوى الإنسانى بحيث لم يكن يحتاج لتعبير أو تعليق خاص ولو من الناحية الشكلية Pro Forma . إن خطابات المواساة التى عثر عليها قد تمت صياغتها بعبارات مؤثرة كما هو الحال اليوم ، وأهم مانشر بخصوص هذا الموضوع كان لوثيقة عثر عليها فى عاصمة إقليم ، ومما لاشك فيه أن هذه الوثيقة خاصة بمجتمع عاصمة الإقليم وذلك بسبب المكان الذى عثرت عليه فيه ، وقد أرسلت فى ١٤ ديسمبر عام ٢٣٥م إلى إحدى الشخصيات الكبيرة فى البهنسا (والحروف التى أسفلها خط تلفت النظر إلى العبارات المعتادة) .

- "من منيستيانوس Mnesthianus إلى أبوللونيانوس Apollonianos وسبارتياتى Spartiate (زوج وزوجة) تذرعا بأهداب الصبر والشجاعة ! تشهد الآلهة أننى عندما علمت

يبدو أن كل من أبوللونيوس ، وزوجته كان لهما قضية ينتظر عرضها أمام محكمة مدير الإقليم أو المدير العام أو والى مصر أثناء دورته القضائيه فى أنحاء الولاية . راجع انعقاد المحاكم القضائية فى نفس المؤلف .

بأمر سيدى ابنكم حزنت وبكيت كما لو كان ابنى ، إن ذكراه ستظل باقية فى نفسى أبداً . وعندما كنت أستعد للحضور إليكم منعنى بينوتيون Pinoution حيث قال إنكم ، ياسيدى أبوللونيانوس ، قد أرسلت له طالبا منى عدم الحضور لأنك سوف تذهب إلى إقليم الفيوم . على أى حال فتحملوا (الكارثة) بصبر لأنه سيظل مع الآلهة . (يمضى الخطاب بعد ذلك فى استعراض بعض شئون العمل ويختتم بالتالى) : لقد فقدت أنا الأخرى عبداً ولد فى المنزل ويبلغ ثمنه ٢ تالنت . أننى أصلى لأجل سلامتكم ياسيدى مع سيدى والدكم بأن تكونوا جميعاً فى رعاية الآلهة ".

سنقوم فى ختام هذا الفصل بإلقاء نظرة على المستوى الحضارى كما فعلنا فى ختام الفصل السابق . وكما سبق وذكرنا أنه من خلال ٦٠٠ وثيقة تشير للأميين ثم إحصاؤها من الوثائق البردية تبين أن من بينها ثلاثة فقط لمواطنى عواصم الأقاليم أما الباقى فقد كانوا لأشخاص من الحرفيين والفلاحين المصريين . وكان من بين هؤلاء كهنة ، ورؤساء القرية ، ومديرى ضياع ، وجندى مسرح من خدمة القوات العسكرية الذى لم تستطع مدة ٢٦ عاما قضاها فى الخدمة فى الجيش أن تمحو أميته . ومنذ حوالى ١٥ عاما نشرت مجموعة من الوثائق البردية كانت خاصة بكاتب إحدى القرى وكان "لايعرف القراءة أو الكتابة" ولما كانت هذه الحقيقة قد أشير إليها مراراً فعلينا هنا أن نضيف أن جميع هذه الإشارات كانت تعنى بالقراءة والكتابة قراءة وكتابة اللغة اليونانية ، فلقد كان بعض الذين يجهلون اليونانية وخصوصا من طبقة الكهنة بوسعهم أن يقرأوا ويكتبوا باللغة المصرية القديمة ، ونادرا ماكانت الإشارة إلى ذلك تتم بكلمات تفصيلية ، ولكن وجد فى عقد بيع منزل يرجع لعام ٥٥م على سبيل المثال أن أحد الموقعين ذكر أنه قام بالكتابة نيابة عنه " لأنه يجهل الحروف الإغريقية ، ولكنه كان يكتب بالمصرية" . إن ممارسة الكتابة بالديموطيقية كما كانت العامية المصرية تسمى ، بدأت فى الاختفاء منذ القرن الثانى الميلادى ، ويبدوا أنها انقرضت فى خلال قرنين من الزمان بعد ذلك .

"وكثيرا ماوصف بعض الأشخاص أنهم يكتبون ببطء " وهذا يعنى أنه كان يمكنه أن يكتب توقيعه ، وليس أكثر من ذلك بحروف غير متقنة يقلد فيها الحروف اليونانية ، ويمكننا أن نفترض ونحن فى مأمن أن بعض القرويين كان يمكنهم أن يوقعوا بأسمائهم أفضل من ذلك ، بل وربما كان هناك عدد يستطيع أن يقرأ ويتذوق مؤلفات الأدب الإغريقى ، ويعزز هذا الافتراض وجود شذرات متفرقة لأعمال الكتاب الإغريق بين أطلال القرى . وأخيرا فإنه كما سبق ورأينا فى بداية هذا الفصل أن ذلك العدد القليل من أثرياء القرى والذين كانوا يسعون لوضع

أقدامهم على سلم الترقى الاجتماعى (كما نقول بتعبير اليوم) قد جنحوا لتقليد حياة مواطنى عواصم الأقاليم والتى كان من ضمنها تعليم أولادهم تعليما إغريقيا . ولكن الأمية كانت هى السمة العامة للقرية المصرية خلال العصر الرومانى . لقد كان المثقفون قلة فى عددهم تحيط بهم كثرة من الأميين ، وكانت الكتابة منذ بدايتها فى العصر الفرعونى مقصورة على الكتبة بوجه خاص ، والطبقة العليا وأصحاب المهن التى تتطلب مهارات خاصة ، وقد استمر شيء من ذلك التقليد فى القرى حتى العصر الرومانى وربما حتى العصر الذى تلاه أيضا ، إننا مازلنا نرى فى منطقة الشرق الأدنى والأوسط الكتبة وهم يجلسون أمام موائد صغيرة على قارعة الطريق العام حيث يأتى المواطنون إليهم ويحضرون لهم خطاباتهم ليقوموا بالرد عليها ، ويكتبون لهم تظلماتهم ، ويسجلون لهم عقودهم ويوثقونها . لقد قام الكتبة فى العصور القديمة بنفس الدور، ويبدو أنهم كانوا يشبهونهم فى الشكل ، فيما عدا أنهم فى العصور القديمة كانوا يجلسون القرفصاء ويكتبون على حجرهم ، هنا "فى الشارع" كما ذكرت بعض العقود ، تمت أغلب مكاتبات القرويين . ولقد تفاوت المستوى الثقافى من كاتب لآخر ، ولكن أغلبهم يترك لدينا الإحساس بأنهم كانوا غير أميين أكثر من كونهم متعلمين تعليما عاليا . كان أغلبهم يكتبون مجرد صيغ رسمية وإكليشيهات ، ونرى هذه الحقيقة من خلال العقود العديدة التى قاموا بكتابتها ، ولكن أكثر مايثير دهشتنا استخدامهم لهذه الطريقة الرسمية فى الخطابات الخاصة التى كان الجزء الأكبر منها عبارة عن مجموعة إصطلاحية من كلمات التحية والتمنيات الطيبة .

ولاشك أن القارئ قد لاحظ أن هذا الفصل موجز عن الفصل السابق عليه ، ويرجع ذلك "لاقتضاب وبساطة حوليات الفقراء" . على أى حال فإن سكان القرى الذين كانوا يمثلون الغالبية العظمى من سكان الولاية سيلعبون الدور القيادى فى أغلب الفصول التالية .

الفصل الخامس

"المعتقدات والخرافات ووسائل اللهو"أعمال وأيام الأرباب والشياطين

Superstitione et Lascivia

لم يعبر أحد بحماس عن احتقار الرومان للشعب المصرى وطريقة حياته مثلما عبر الشاعر جوفينال ، وكان الهدف الذى اتخذه لسخريته هو كرسبينوس Crispinus محدث الثراء المصرى الذى وصل لمركز له أهميته فى روما . ولكن كراهية جوفينال وازدراءه لم تقتصر على كرسبينوس بل ضمت كل أفراد الشعب ، فسخر فى قصيدته الهجائية الخامسة عشرة من ديوانه تلك البلاد المجنونة التى تقدس الحيوانات . وأدعى أنه شاهد أثناء زيارته لمصر ماحدث عندما أدت العصبية المحلية إلى أن تقوم مدينة بغزو أخرى أثناء احتفالها بمعبودها المحلى : لقد بدأت بالكلمات التى تحولت إلى الاشتباك بالأيدى الذى قاد إلى ثورة كاملة شحنت بكل بشاعة آكلى لحوم البشر # .

نحن لا نستطيع أن نعرف ما إذا كان جوفينال جاداً فيما ذكر أم أنه كان يتحدث بلسان بذىء ، لقد ناقش الباحثون كلا الرأيين بدون الوصول إلى رأى محدد من أى طرف ، حقيقة لقد وصف كل من بلوتار خوس وديون كاسيوس Dio Cassius غيرة المصريين على عباداتهم المحلية ، ولكن هناك فرق شاسع بين هذا وبين تلك القصة المرعبة التى يحدثنا عنها جوفينال أو التى كانت من وحى خياله ، ومن المؤكد أن حقائق الحياة اليومية التى نقابلها من خلال النقوش والوثائق البردية عن القرون الثلاثة الأولى من الحكم الرومانى تحمل ملامح مختلفة تماما . فنحن نرى بلادا تلتقى فيها الآلهة من ثلاث حضارات : الحضارة الوطنية المصرية ، وحضارة الإغريق الذين أصبحت مصر الآن موطنهم بعد ثلاثة قرون من التكيف تحت حكم الإغريق ، والرومان الذين وصلوا إليها حديثا ، لقد كان هناك احتكاك فيما بينها لاشك فى ذلك ولكن

راجع عن قصيدة جوفينال التى هاجم فيها مصر والمصريين وترجمتها : عبد اللطيف أحمد على ، مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ١٥٦ ومابعدها .

بدون أية إهانة ظاهرة ، وأحيانا كانت كل حضارة من الحضارات الثلاث تحافظ على شخصيتها منفصلة ، ولكن كثيرا ماتم التوفيق بين العقائد الثلاث أو المزج بينها .

إذ سرعان ما وفق الرومان الذين اتخذوا من مصر قطرا لهم بين عبادتهم والعبادة الإغريقية والمصرية التى وجدوها هناك ، ولدينا نموذج جيد فى هذا الصدد مدون على نقش مؤرخ بعام ١١م وقد تم كشفه منذ ثلاثين عاماً فى الصحراء الشرقية على الطريق القديم الذى كان يربط فقط وادى النيل وأحد موانى البحر الأحمر ونقرأ فيه مايلى :

"باسم ربة الحظ الحسن عندما كان بوبليوس جوفنيتوس روفوس Publius Juventius Rufus التريبون العسكرى للفرقة الثالثة الرومانية سابقا ومدير (مناجم) جبل برنيس ، الذى كان أيضا المدير المسئول عن مناجم الزمرد وإنتاج التوباز واللؤلؤ وجميع مناجم مصر ، ولقد قام أجاثا بوروس Agathapous عبده المعتق بإهداء هذا المزار المقدس للإله بان الأكبر باسم بوبيليوس جوفنتيوس روفوس ولى نعمته فى إقليم أوفياتى Ophiate".[(١)]

إن المزج بين الحضارات الثلاث فى هذا النقش أمر جدير بالملاحظة تفصيلا : فالشخص الذى قام بالإهداء عبد محرر يحمل إسما إغريقيا ، وقد قام بتكريم ولى نعمته وسيده السابق الذى كان رومانيا صاحب مكانة رفيعة . والنقش نفسه مدون باللغه اليونانية على نصب مصرى الشكل والزخرفة ، أما الإله بان ، روح الصحراء البرية الموحشة التى تسبب الهلع للمسافرين فقد ذكر باسمه الإغريقى ، ولكنه صور على النصب على الصورة المستقبلية للإلـه المصـرى مين Min .

وكذلك نقرأ فى أحد الخطابات من القرن الثالث ما يأتى : "ماركوس أوريليوس أبو للونيوس Marcus Aurelius Apollonios الكاهن إلى حامل سلة الكتب المقدسة (لقريه) نسمينميس Nesmeimis تحياتى ، أرجو أن تذهب لمعبد الربه ديمتر فى قرية سينكيفا Sin-kepha لكى تخبرهم بتقديم الأضاحى لسادتنا الأباطرة وانتصاراتهم الظافرة ، من أجل أن يرتفع النيل ويتضاعف المحصول ، وتصبح ظروف المناخ مناسبة إننى أصلى من أجل أن تكون فى خير حال .

وهكذا نجد هنا خلطا حضاريا متنوعا ، فالكاهن مواطن رومانى ، ولكن العبارة ليست رومانية ، وقد ذكرت الإلهة باسمها الإغريقى ديمتر Demeter وكانت ترمز للربة إيزيس فى القرى المصرية (وقد قام هيرودوت بعقد أوجه الشبه بين الإلهتين منذ فترة مبكرة فى القرن

الخامس ق.م) حيث كان يجرى فى معبدها إقامة شعائرعبادة الحكام الأباطرة وعبادة النيل ، والآلهة التى تتحكم فى المناخ . (٢)

لم تكن القرى الصغيرة فقط مثل قرية سينكيفا هى التى ليس لديها الإمكانيات سواء البشرية أو المادية لبناء معابد مستقلة لكل إله من الآلهة بدلاً من معبد واحد يعبد فيه جميع الآلهة multi Service temples ، ولكن يتضح نفس هذا الامتزاج بين العبادات فى المعابد التى خصصت للعبادات الإغريقية والرومانية فى عواصم الأقاليم . أما فى عمق مصر فإن مواطنى المدن وأولئك الذين حرصوا على تقاليدهم فقد كانوا متمسكين من الناحية الشكلية فقط بتقديس آلهة الإغريق كنوع من أنواع الاعتزاز بأصولهم الهلينستية ، ولكن كثيرا منهم وجدوا أنفسهم محصورين فى دائرة الثقافة الوطنية ، لقد حاولوا قدر استطاعتهم الإفلات منها ، ولكنهم لم يستطيعوا تجاهلها طوال الوقت ، لقد استمرت آلهة جبل أوليمبوس Olym-pus كأسماء فقط ولكنها إختفت كعقائد .

إن عملية التوفيق التى تمت بين الآلهة كانت فى أغلبها بين الآلهة المصرية والإغريقية بالإضافة إلى خليط آخر من آلهة المناطق الأخرى وخصوصا الآلهة الوافدة من منطقة الهلال الخصيب وآسيا الصغرى . فقد تمت فى مصر مضاهاة الربة أثينا فى البداية بالإلهة المصرية ثويريس Thoëris والإله زيوس بالإله آمون ، وهرميس بالإله توت Thoth . وهكذا بالنسبة لآلهة أخرى ، وقد اشترك أغلب الآلهة فى أكثر من صفة من الصفات المشتركة بينهما ، وقد أخذت هذه الصفات أشكالا مختلفة فى المناطق المحلية . وعندما يطلق قرويون يحملون أسماء مصرية على أنفسهم كهنة هيرميس وأفروديت فنحن نكاد نكون متأكدين أنهم أسقطوا اسما من أسمائهم واستخدموا الاسم الإغريقى الدال على الطبقة الإغريقية المتميزة وأشاروا به لآلهتهم الوطنية . لقد انتشرت سياسة المضاهاة بين الآلهة وأصبحت فى الواقع أداة سياسية منذ أن أسس بطليموس الأول عبادة سيرابيس Sarapis أو Sarapis وهى مزيج غامض من العقيدة الإغريقية والمصرية كان الهدف منها أن تكون رمزا للوحدة والمساواة بين الحضارتين - وهى فكرة يمكنها أن تحقق الولاء الشكلى فى الحاضر ويمكن أن تتحقق فى شكل طوباى فى المستقبل - . لقد كانت عبادة سيرابيس هامة وواكبها النجاح مع المصريين لما كانت تقدمه من حياة أخرى أفضل ، أما بالنسبة للإغريق وسلالتهم فلأنها كانت تسمح لهم بالتمتع بالرخاء الذى تضمنته فكرة المساواة مع العلم التام بأن الحكومة كانت متمسكة فى سياستها بترتيب

الطبقات ، وبعد أن أصبح لسيرابيس وجود مستقل فقد تداخل مع عبادات أخرى إضافية قد شبه في أحد الأماكن بزيوس وفي مكان آخر بإله النيل وهكذا.*

أما أكثر العبادات المصرية انتشارا على الإطلاق فقد كانت عبادة الربة إيزيس ، السخية في عطائها ، مانحة الحياة ، والتي انتشرت عبادتها في أنحاء عالم البحر المتوسط ، وكان لها مركز كبير في روما نفسها ، وقد ذكر في أحد أجزاء كتاب ديني عثر عليه في البهنسا قائمة بأشكالها ، وألقابها وصفاتها ونسبها وتشبيهاتها التي عرفت بها بوصفها "صاحبة الأسماء العديدة" في المناطق المختلفة سواء في مصر أو خارجها ؛ وإن ذكر بعض أسمائها هنا سيكون كافيا لمعرفة بقية أسمائها وألقابها المائة والخمسين التي عرفت بها في أكثر من مائة مكان : "في مدينة أفروديتي Aphroditopolis في إقليم بروسوبوى Prosopite : (سميت باسم) قائدة الأسطول ، صاحبة الأشكال المتعددة ، أفروديتي . وفي نقراطيس ، عذرية التوالد ، المرحة ، المنقذة ، فائقة القدرة ، المعظمة . وفي هرموبوليس : أفروديتي ، الملكة ، المقدسة ، وفي تانيس Tanis الربة الفاتنة ، هيرا . وفي كانوب Canopos قائدة ربات الفنون ، وفي روما الشجاعة . وفي إيطاليا حب جميع الآلهة" .

لقد رفض الزوار الإغريق والرومان عادة هذا الإفراط في الألقاب والصفات لافتقاره إلى العقلانية ويسبب ما يسببه من لبس . وقد لاحظ ديودورس الصقلي - حيث نتبين صدى ضجره في كلماته - أن نفس الربة تسمى لدى البعض - بإيزيس ولدى آخرين ديمتر ولدى غيرهم واهبة القوانين ، أو سيليني أو هيرا ، وأن آخرين يطلقون عليها جميع هذه الألقاب . وقد أطلق البعض على أوزوريس ديونيسوس Dionysus أوبلوتو Pluto كما سماه آخرون آمون وقليلون زيوس وكثيرون بان Pan . (٣)

---

* وعن سياسة بطليموس الدينية راجع الدراسة الحديثة العميقة عن هذا الموضوع والتي قامت بها إحدى المتخصصات في هذا الفرع في جامعة كمبردج Cambridge البريطانية والتي كان لي خط التتلمذ على يديها عندما كنت أقوم بدراسة الدكتوراه هناك ، وهي الأستاذه دروثي تومسون Dorothy Thompson, Memphis under The Ptolemies, Princeton (1988).

وعن سيرابيون الإسكندرية راجع الصفحات الآتية : pp. 70, 116, 148, 234

وعن سيرابيون منف راجع الصفحات الآتية : pp. 10, 11,12, 22-23, 27-30, 139, 204, 212.

المترجمة

ونستطيع أن نتعرف على عدد لابأس به من معابد البهنسا حيث تتكامل معلوماتنا بشكل أفضل ، وأكبرها حجماً تلك المعابد الخاصة بسيرابيس وأثينا ثويريس Thoëris (ونعلم أن الأخيرة قد شيد لها نصب تذكارى بأربعة طرز معمارية) وقد أطلقت أسماء هذه الآلهة على الضواحى التى شيدت فيها تلك المعابد . وفى ضاحية ثويريس كان يوجد أيضا معبد لديونيسوس Dionysus ، وفى الضاحية الجنوبية الشرقية كان يوجد معبد لأبوللون" الإله العظيم والروح الطيبة" وآخر لنيوتيرا Neotera (أعنى أفروديتى - هاتور Hathor) وفى الجهة الجنوبية كان يوجد معبد لديميتر Demetrion كما أقيمت مزارات مقدسة فى ثلاثة أحياء أخرى لكل من زيوس وهيرا وأتارجاتيس Atargatis (وهى الربة السورية عشتر التى شبهت أحيانا بالربة إيزيس) وبير سيفونى Persephone معا . كما ورد ذكر لوجود معابد لإيزيس وللقياصرة فى أماكن أخرى . ومما هو جدير بالملاحظة أنه حيثما يظهر كهنة وكاهنات لهذه الربة فإنهم كانوا جميعاً يحملون أسماء مصرية .

وبالإضافة إلى العبادات المصرية والإغريقية التى كانت موجودة فقد أضاف الحكم الرومانى لمصر عنصراً جديداً يتمثل فى ثالوث الكابيتول المقدس (جوبتر - جونو - منيرفا) وبعض الآلهة الإيطالية الأخرى ، لكن أكثر خاصية يمكن أن نلاحظها بوضوح فى ممارسة طقوس العقائد الدينية فى الولاية - بالرغم من أنها كانت طقوسا رسمية أكثر من كونها طقوسا روحية - هى ما كان خاصاً بممارسة عبادة الأباطرة الرومان ، حيث إنها لم تقتصر كما كان الحال فى أوربا على عبادة الأموات من الأباطرة فقط ، ولكنها شملت الأحياء أيضا على اعتبار أن القداسة قد شملتهم أيضا ، وتلك كانت العادة المألوفة فى البلاد التى تقع فى ما وراء الجانب الشرقى من البحر المتوسط .بل إن هذه العبادة كثيرا ما شملت أفراد الأسرة الإمبراطورية ، ولذلك فعندما زار مصر الأمير جرمانيكوس Germanicus ابن شقيق الإمبراطور تيبريوس وابنه فى الوقت نفسه بالتبنى فى عام ١٩م فقد اعتبرت زيارته لمصر ذات طابع مقدس ، على أى حال فقد رفض جرمانيكوس مغالاتهم فى الترحيب به بطريقة دبلوماسية فى منشوره التالى :

"من جرمانيكوس قيصر بن (تيبريوس) أغسطس وحفيد المؤله أغسطس نائب القنصل ، يعلن الآتى ، إننى أرحب بمشاعركم الطيبة التى تبدونها دائمانحوى كلما شاهدتمونى ، غير أننى استنكر استنكارا تاما مناداتكم إياى بألقاب تثير على البغضاء لأنها كألقاب الآلهة ، ولاتليق إلا بأبى المنقذ الحقيقى للجنس البشرى بأكمله ، ومانح الخير له ، وبأبى وبأمه أيضا

التى هى جدتى ، أما أنا فلست إلا أثراً ضئيلا من آثار ألوهيتهما ، وإذا لم تمتثلوا لأمرى فسوف ترغموننى على أن لا أظهر بينكم كثيرا" . (٤)

ولدينا لفافة بردية يبلغ طولها أكثر من مترين ، وهى عبارة عن سجلات معبد جوبيتر الكابتولينى فى الفيوم لمدة ستة أشهر من عام ٢١٥م وقد أقيم فى ذلك المعبد الذى شيد لكبير آلهة الرومان تمثال للإمبراطور الحاكم (كارا كالا) ، وفيه كان يتم الاحتفال بالأعياد الرومانية، وبكثير من أعياد ميلاد أفراد الأسرة الإمبراطورية ، هذا الى جانب عبادة التمساح الوطنية ، وكانت كل هذه المناسبات تتم فى احتفالات على الطريقة اليونانية - المصرية . ويكفى أن نذكر هنا فى هذا المقام بعض مما تم تدوينه بهذا الخصوص ليوضح ما جاء فيه :

أول أمشير (=٢٦ يناير) عطلة بمناسبة الاحتفال بالعيد العاشر لتنصيب مولانا الإمبراطور سيفيروس أنطونيوس (كارا كالا) : تزين بعقود الزهور جميع تماثيل الآلهة والدروع وتماثيل الرجال .

١٩ أمشير (=١٣ فبراير) عطلة بمناسبة الاحتفال بتولى سيفيروس المؤله والدمولانا الإمبراطور سيفيروس أنطونينوس : تزين بعقود الزهور كل التماثيل (كما فى الحالة السابقة) فى المعبد .

١٨ برمهات (=١٤ مارس) عطلة بمناسبة الاحتفال بالأعياد فى ذكرى إقامة تمثال لمولانا الإمبراطور سيفيروس أنطونينوس ، يزين المعبد بعقود الزهور كما فى الحالة السابقة .

٥ برمودة (=٣٠ مارس) عطلة بمناسبة الاحتفال بانتصار وسلامة مولانا الإمبراطور سيفيروس أنطونّينوس : تزين بعقود الزهور كل الدروع وتماثيل الآلهة والرجال فى المعبد .

٩ برمودة (=٤ أبريل) عيد ميلاد مولانا الإمبراطور سيفيروس أنطونينوس : يزين بعقود الزهور كل شىء قائم فى المعبد (قائمة بنفقات العطور) .

١٩ برمودة (=٤ أبريل) عطلة بمناسبة الاحتفال بإطلاق لقب والدة الجيوش التى لاتقهر على سيدتنا جوليا دومينا Julia Domina يزين بعقود الزهور كل ماهو موجود فى المعبد كما فى الحالة السابقة .

٢٦ برمودة (=٢١ أبريل) عيد تأسيس روما ، يزين بعقود الزهور كل ماهو موجود فى المعبد كما فى الحالة السابقة .

(فقد التاريخ) الاعتراف بفضل جدنا الكبير (التمساح) الإله سوخوس (=سبك) -Sou chos الجليل المعظم : يزين بعقود الزهور الدروع وتماثيل الآلهة والرجال الموجودة فى المعبد.[٥]

لقد سجلت عطلات الشهور الأخرى فى هذه الوثيقة وفى وثائق أخرى ، وقد تضمنت أعياد ميلاد جميع الأباطرة ، ومناسبات توليهم الحكم منذ عصر أغسطس كما شملت أعياد ميلاد كبار الأباطرة المؤلهين مثل هادريان أنطونيوس فى (٣٠ نوفمبر) وماركيانا وماتيديا Matidia و Marciana شقيقة تراجان وابنة أخته (أو أخيه) فى (٢٦ أغسطس ، ٤ يوليو) وجرمانيكوس قيصر فى (٢٤ مايو) ، ويوليوس قيصر بطبيعة الحال فى (١٢ يوليو) .

وعندما كانت تصل الأنباء بارتقاء إمبراطور جديد العرش كان جميع سكان الولاية يقومون بحلف يمين الولاء فى احتفال كبير للحاكم الجديد ثم يضم يوم توليه المنصب إلى قائمة عطلات الأباطرة ليتم الاحتفال به سنويا بطريقة لائقة ، ولدينا مرسومان أصدرهما والى مصر فى هاتين المناسبتين فى عام ٥٤م ، وعام ١٩٣م .

- "لقد رحل (عن دنيانا) الإمبراطور كلوديوس ليلحق بأسلافه أصحاب الفضل ، وقد شاءت إرادة الله أن يكون الإمبراطور الجديد الذى يتوقعه العالم أجمع ويتمنى تعيينه ، عبقرى العالم ومصدر الخير له ، نيرون قيصر . لذلك فإنه ينبغى علينا جميعاً أن نحمل الأكاليل وأن نضحى بالثيران لنقوم بواجب الشكر للأرباب (التاريخ)" .

- "من مانتينيوس سابينوس Mantinius Sabinus إلى مديرى إقليمى هيبتاكوميا -Hep takomia والفيوم تحياتى .. لقد أمرت بأن يلحق (بخطابى هذا) نسخة من المنشور الذى أصدرته إلى مدينة الإسكندرية المجيدة ، وذلك حتى تحاطوا جميعا علما بإقامة الاحتفال فى نفس الأيام المحددة ولتصحبكم السلامة (التاريخ)" .

- "نسخة من المنشور : أنه لما يليق بكم ، ياشعب الإسكندرية ، أن تقيموا الاحتفال بتولى مولانا الإمبراطور بوبليوس هيلفيوس برتيناكس أغسطس -Publius Helvius Per tenax Augustus ذى الطالع الميمون ، ورئيس مجلس الشيوخ الإمبراطورى ، أبى الوطن ، وبابنه بوبليوس هيلفيوس بيرتناكس Publius Helvius Pertenax ، وبزوجته فلافيا تيتيانا أوجستا Flavia Titiana Augusta ، وذلك عن طريق تقديم القرابين والصلوات لدوام حكمه وبقاء أفراد أسرته ، وأن تقوموا بارتداء عقود الزهور لمدة خمسة عشر يوما ابتداء من اليوم".[٦]

وفى الجانب المواجه لهذه الاحتفالات الرسمية المنظمة ، كانت هناك الاحتفالات التقليدية للمعتقدات الشعبية ، والتى تمتد جذور غالبيتها فى أعماق الحياة اليومية . وأكثر الملامح التى كانت تميز المعتقدات الشعبية والتى لاحظها الأجانب وقابلوها حينا بالسخرية والاستهزاء وحينا بالاستمتاع من طرافتها ، فهى عبادتهم للحيوانات وعندما كان أوكتافيوس يتعرف بنفسه على مصر التى فتحها حديثا رفض زيارة (معبد العجل) أبيس ، وقال إنه "اعتاد أن يقدس آلهة لا حيوانات " . أما الشاعر جوفينال فقد قال صارخا بعنف واحتقار كما نتوقع منه" : من ذا الذى لايعلم أى مخلوقات غريبة تقدسها مصر المخبولة ؟ فهذه المنطقة تعبد التمساح ، وتلك يمتلأ قلبها رهبة من أبى منجل ملتهم الثعابين . . هناك يعبدون القطط، وهنا السمك ، وهناك مدينة بأكملها تعبد الكلب" وقد أدرك بعض الكتاب الإغريق أن أصول هذه العقائد ربما كان سببها الرغبة فى استئناس المخلوقات البرية التى كان لها نفعها أو لاتقاء شر هذه التى تهدد وجود الحياة البشرية فى وادى النيل ، لقد كان يسعد الزاور الإغريق والرومان ، الذين كانوا يفدون إلى مصر لزيارة الأهرامات وقصر التيه Labyrinth ، أن يقوموا بزيارة قصيرة لكى يشاهدوا الكهنة وهم يطعمون التماسيح فى البحيرة المقدسة لمعبده فى الفيوم ، لقد كان الأمر بالنسبة لهم شىء يجذب السائح ، أما بالنسبة لسكان إقليم الفيوم فقد كان يمثل إلاههم الحارس سبك Sobok (وقد ترجم الإغريق اسمه إلى سوخوس Souchos) وكانت كل قرية من قرى الفيوم تقيم له إذا أمكنها معبدا ، كما قام الناس باستشارة نبوءته المحلية فى أمورهم .(٧)

وتنعكس أوجه الخلاف الجوهرى بصدق بين الشعب المصرى والسادة المسيطرين على مجتمعهم فى طريقة إدراتهم للمعابد ، فقد نمت فى مصر منذ وقت مبكر طبقة للكهنة ، وكونت طائفة خاصة لها مميزاتها ، وهو شىء لم يفعله الإغريق ، فقد كان منصب الكاهن مفتوحا أمام أى شخص منهم كما ذكر الخطيب الأثينى ايسوقراطيس Isocrates فى خطابه إلى نيكوكليس Nikokles ملك قبرص . لذلك لم تجد الحكومة الرومانية أى داع للتدخل فى أمور هذه الجماعة ذات التقاليد الخاصة ، بل على العكس فقد أيدت هذه الجماعة لأن فى هذا مايعضد سياستها فى التمييز بين الطبقات ، وقد ذكر فى المادة رقم ٢٨٦ من لائحة مدير الحساب الخاص وهو رئيس الإدارة التى أشرفت على الشئون الدينية فى مصر " أنه يسمح للأفراد الذين تم تعيينهم فى المعابد أن يقوموا بخدمة الشعائر الدينية فى المعابد الإغريقية" .

وتبعا لذلك فلم يكن هناك هيئة كهنوتية لمعابد الآلهة الإغريق فى المدن وعواصم الأقاليم المصرية ، بل كان لديهم موظفون وإداريون يتم اختيارهم سنويا من بين مواطنى عواصم الأقاليم للإشراف على الاحتياجات المادية للشعائر والهياكل المقدسة ، ويشبه هؤلاء الموظفين الشماسة ووكلاء الكنائس اليوم ، أما ذلك الشخص الذى كان يحمل ذلك اللقب الفخم" رئيس الكهنة" فكان فى واقع الأمر أحد موظفى عواصم الأقاليم ، وكان بعد انتهاء مدة شغله لوظيفته السنوية ، كان مثله مثل الآخرين -كمدير معهد التربية السابق وغيره - يظل يحمل اللقب طوال حياته. لقد كان هذا اللقب يمثل وصفا اجتماعيا أكثر من كونه يحوى مغزى دينيا معيناً.

وعلى العكس من ذلك فقد كان لمعابد آلهة المصريين سواء سميت بأسمائها الوطنية أو بأسمائهاالإغريقية هيئة وراثية من الكهنة تقوم على خدمتها يساعدهم عدد من الشماسة بدرجات ومراتب متعددة . ولقد أدت زيادة عدد الاحتفالات الدينية المصرية وتنوعها إلى زيادة عدد العاملين فى هذه المهنة ، وكان هذا أمراً لامفر منه ، لقد تعجب هيرودت من أن المصريين لايحتفلون بالعيد مرة واحدة فى العام" كما يفعل الإغريق" ولكن كان لديهم احتفالات عديدة" لنفس الإله ، وقد أمكن من خلال ترميم عدة برديات عشر عليها لتقويم خاص بعبادة الإله التمساح فى قرية سوكنو بايونيسوس Soknopaiou Nesos (جزيرة الإله التمساح) فى الفيوم أن نعرف أن كل احتفال فيها له كان يتضمن الآتى : عيد ميلاد الإله التمساح ، عيد زواجه من إيزيس ، الاحتفال بذكرى إقامة هيكله . . الخ . وكان كل احتفال من هذه الاحتفالات يستغرق بين سبعة وتسعة أيام وهذا يعنى أن العدد الكلى للاحتفالات كان يصل إلى ١٥٠ يوما فى السنة . ولايوجد أى مجتمع زراعى مهما بلغت درجة خصوبة أراضية التى تعتمد أساسا على فيضان النيل يمكنه أن يستوعب كل هذه العطلات فى دورة عمله الزراعى ، إن هذه الاحتفالات كانت بمثابة الواجب الدائم لكهنتها ، وكان يمكن للفلاحين أن يشاركوا فى بعض منها وأن يقيم الكهنة بقية الاحتفالات باسمهم . (٨)

ويتميز التاريخ المصرى عبر امتداده لآلاف السنين بتأرجح السلطة بين الملكية ورجال الكهنة، وبعد أن أضاف أغسطس مصر للإمبراطورية الرومانية قام بوضع سياسة تهدف إلى الحد من ثروة رجال الدين الضخمة وكبح جماح نفوذهم السياسى الذى تمكنوا من انتزاعه لأنفسهم خلال فترة ضعف سلطة البطالمة الأواخر . وقد نتج عن ذلك تقلص عدد المعابد وممتلكاتها ، وخضوع سجلات رجال الدين الشخصية وحسابات المعابد المالية لفحص دورى من قبل ممثلى مدير الحساب الخاص ، ومنع الكهنة منعا باتا من التدخل فى أى نوع من أنواع

الأنشطة فيما عدا مايتعلق بالخدمة الدينية وإلا عرضوا أنفسهم لأشد أنواع العقاب (وينطبق هذا الإجراء الأخير على المناصب العليا فى عدة معابد ، أما المناصب الدنيا فيها فقد شغلها أفراد عاديون لبعض الوقت) . ولذلك فقد شلت قدرة رجال الدين فى القيام بإشعال الثورات ضد الحكومة الرومانية، وعلى أى حال فقد حدثت ثورات فى بعض الأحيان (مثل تلك التى وقعت أحداثها فى الإسكندرية عام ١٥٣م وكلفت حاكم الولاية حياته) ، وبخلاف هذه الثورة الكبيرة لم تحدث سوى ثورات محلية كان محكوما عليها بالفشل (الفصل العاشر) .

ويتضح لنا بجلاء ذلك التغيير الذى حدث لهيئة الكهنة من المنشور الذى أصدره الوالى جايوس تورانيوس Gaius Turranius عام ٤ ق.م وفيه يقول :

"لقد أمرت أن تقوم (المعابد) بتسجيل أسماء كهنتها الوراثيين وشمامستها وجميع من ينتمون الى المعابد وأبنائهم ، لكى يتضح بجلاء مايقومون به من أعمال . وعندئذ سأقوم بفحص قائمة العام الحالى ، السادس والعشرين من حكم أغسطس قيصر وسأقوم صراحة بطرد أولئك الذين لاينتمون إلى طبقة الكهنة الوراثية ." (٩)

وحتى هؤلاء الذين تأكد انتمائهم إلى طبقة الكهنة الوراثية لم يتم إعفاؤهم من الضرائب أو تأدية الخدمات العامة والإلزامية ، هذا على الرغم من فتح إمتيازات لعدد محدود منهم فيما بعد . أما عدد الكهنة فقد اختلف بطبيعة الحال من معبد لآخر طبقا لحجم السكان وأهمية الهيكل المقدس فقد وصل عدد الكهنة فى معبد الإله التمساح فى إحدى قرى الفيوم الصغيرة إلى : ثلاثة كهنة وشماس واحد ، بينما بلغ العدد الكلى للكهنة فى قرية تيبتونس Tebtynis ثمانين ، وفى كرانيس وصل عددهم إلى ١٠٤ فرداً من رجال الكهنوت .

وقد تميز رجال الدين المصريون من الناحية المظهرية والمادية عن بقية السكان فقد كانوا ذوى رؤوس محلوقة (وبلغت عقوبة من يترك شعره مرسلا ألف دراخمة) كما لم يكن يسمح لهم بارتداء الملابس الصوفيه ، وسمح لهم فقط بارتداء الملابس الكتانية ، وكانوا هم الفئة الوحيدة من غير اليهود التى يتم ختان أفرادها كما تم الإشراف عليهم طبقا للقواعد السابقة وغيرها من قبل مندوبى الحكومة . ولدينا مثال واضح على الإجراءات التى كانت تتبع للحصول على الإذن بالختان .

وتتمثل أولى خطوات هذا الإجراء فى استيفاء طلب ترفق به شهادة مثل تلك التى قدمت الى مديرى الأقاليم فى عام ١٨٧م . قدمها أربعة من الكهنة الذين تميزوا بإعفائهم من الضرائب فى معبد (قرية) تيبتونس .

"بالإشارة إلى الطلب المقدم له من قبل ماريمبسيميس بن مارسيسوخوس بن هاربوقراطيون Marempsemis S. of Marsisouchos S. of Harpokration كاهن المعبد المذكور ، الذى يطلب فيه إجراء الختان لابنه بانيسيس Panesis ووالدته ثينباكيسيس ابنة بانيسيس Then-pakebkis d. of Panesis ورداً على استعلامكم عما اذا كان هذا الابن ينحدر من نسل الكهنة وبالتالى أحقيته فى إجراء عملية الختان ، نقسم بالروح الحارسة لمولانا الإمبراطور السعيد ماركوس أوريليوس كومودوس أنطونينوس أغسطس أنه ينحدر من نسل الكهنة ، وأن الأدلة المقدمة منه والتى تثبت صحة نسبه صحيحة ، وأنه يتعين عليه إجراء عملية الختان لأنه بدونها لايستطيع أن يتولى أحد المناصب الدينية . أما إذا لم يثبت (صحة ماذكرنا) فإننا نتحمل تبعات الحنث بقسمنا (التوقيعات) .

لقد كان الوالى يريد أن يتأكد من نقطة معينة وهى أن الصبى ليس ابنا بالتبنى أو لقيطا ، وذلك لأن المادة رقم ٩٢ من لائحة مدير الحساب الخاص حرمت على مثل هؤلاء أن يصبحوا كهنة ، أما إذا اقتنع مدير الإقليم بصحة تأصيل سلالة الصبى فكان يكتب بذلك إلى الكاهن الأكبر لكل مصر وهو أحد مساعدى حاكم الولاية ، الذى كان يقوم بدوره بالموافقة أو الرفض على الطلب المقدم ، وطبقا لما ورد فى محضر اجتماع جلسة الاستماع الخاصة بالكاهن الأعظم فى عام ١٧١ نجد مايلى :

"بخصوص استعلام القادة ومساعديهم ، وكتبة (وحفظة) السجلات عما إذا كان لدى الصبى أى تشوه فى جسده فنحن نقر أنه خال من أى تشويه فى جسده وبتوقيع أولبيوس ، سيرنيانوس Ulpius Serenianus الكاهن الأعظم ووزير إدارة المعابد على خطاب المدير فقد أعطى الإذن للصبى بأن يتم ختانه طبقاً لما جرت عليه العادة".

ولكننا نعلم أنه فى حالة واحدة على الأقل سمح لصبى لديه ندبة على جسده بأن تجرى له عملية الختان وكان قد إدعى كذبا بأن المرشح خال من العيوب الجسدية ، وفى حالة أخرى لمرشح كان لديه عيب جسدى أقرت لجنة الاستماع أمام الكاهن الأعظم بالاستغناء عنه ، وفيما عدا هاتين الحالتين السابقتين فإن النتائج الإيجابية كانت مشكوك فيها ، وذلك لأن مثل هذه الطلبات كانت ترتكز على أو تستند إلى نفوذ سياسى أو مالى أو على كليهما .

أما اذا خلا أحد مناصب المعبد لعدم وجود من يرثه فإن الدوله تقوم ببيعه لأعلى سعر يقدمه المتزايدون ، ولاشك أن القارىء الحديث سيصدم من هذا الإجراء الذى يمثل انتهاكا لحرمة المعابد بالنسبة لعالم الكنائس ولكن الموقف كان مختلفاً بالنسبة لمصر وأجزاء أخرى من شرقى

البحر المتوسط حيث كان هذا الإجراء إجراءاً جوهريا : لقد كانت المناصب الكهنوتية ومايتعلق بها من اختصاصات إضافية لها قيمتها الواضحة التى تترجم إلى لغة الأرقام (النقود) . إذ بدت فيها روح المزايدة خصوصا للمناصب المربحة ، وكان فرض الغرامات المالية على المخالفين التى أتبعت بفرض غرامات مالية على الدعاوى المضادة أمراً مألوفاً .

ولقد استمر تشييد المعابد المصرية والإغريقية وفقاً للطراز المعمارى التقليدى الخاص بكل منها وذلك من الناحية المادية ، ولم يدر بخلد الإغريق أن يشيدوا طرزاً تختلف عن طرز بلادهم الأم الروحية ، وبالرغم من ذلك فقد حدثت بعض التغيرات الفنية فيها نتيجة لاستخدامهم مواد بناء وأساليب محلية ، أما فى باقى أنحاء الولاية - إذا ما استثنينا عدداً قليلاً من المعابد الأغريقية فى عواصم الأقاليم التى شيدت لتكون بمثابة مظهر من مظاهر اعتزازهم بالهللينية - فقد كان الطراز المعمارى المصرى الذى انتشر يتفاوت فيه حجم المعابد من معبد على شكل منزل صغير وهو الشكل الذى عثر عليه فى كثير من القرى ، إلى المبانى الضخمة ذات البوابات ذات المصاريع والتى يجد الفرد عندما يقترب منها على طول الطريق تماثيل على هيئة أبو الهول أو على هيئة أشكال لحيوانات أخرى . وفى إدفو - وهى مدينة أبو للونوبوليس ماجنا Apollin - opolis Magna القديمة - نشاهد أفضل البوابات التى حفظت حتى اليوم ، مع صور للأباطرة الرومان ورسمت على جدران المعبد وهم يرتدون نفس الملابس وبنفس الأوضاع التقليدية للفراعنة القدماء . أما قرية تبيتونس التى كانت إحدى القرى الكبيرة فلم يتبقى شىء من معبدها ، غير أن طريق هذا المعبد التذكارى المزين بتماثيل أبو الهول فلم يتم الكشف عنه أثناء حفائر الخمسين عاما الماضية . وإلى جانب المعابد المصرية الكبرى وبالقرب منها كانت توجد أماكن خصصت لعبادة الحيوانات المقدسة مثل أبيس Apis الثور المقدس فى منف ، سوبك التمساح المقدس فى الفيوم ، وأنوبيس الكلب فى كينوبوليس Kynopolis (مدينة الكلب) وهكذا كان كل حيوان يعبد فى المدينة التى كان يعتبر الإله الرئيس فيها .

ومن ناحية أخرى فقد قدس نهر النيل وكانت عبادته تعتبر العبادة الأولى فى كل مكان فى الدولة . فبدون مياهه لايمكن أن تقوم للحياة قائمة فى مصر ، وفى استطاعتنا أن نتتبع الأناشيد والصلوات التى وضعت له منذ آلاف السنين ، وأقدمها نص هيروغليفى يرجع لعام ١٢٠٠ ق.م وبعد حوالى ألفى عام عثرنا على ترجمتين بيزنطيين إحداهما مسيحية مرسلة إلى القديس سينوثيوس St. Senuthius ؛ كما تم العثور على ترجمة سيريانية مدونة على إحدى

مخطوطات القرن الثانى عشر الميلادى . وإليك النص الذى كان موجودا خلال العصر الرومانى:

"سيتم الاحتفال ببدء فيضان نيلينا المقدس ، بإقامة الشعائر المقدسة لجلب الخير والبركة . لقد وصل الماء فتحية للينابيع عندما ترتفع فى نهر إيزيس ذى المياه الجارية ، فلتسيطر على ينابيعك يانيل الفيضانات العديدة ، وصاحب الاسم العظيم إنبع من مروى لتصل إلينا سخيا متدفقاً ، ولتنتشر الغرين المخصب فى فيضانك . فهل لك أن تمنح عذوبتك لمصر كلها ، مخصبا إياها كل عام ، مثل هذا الفصل . انظروا كيف أن الفيضان كالذهب لكل شىء ولكل فرد ، أما أنتم أيها المنشدين فرددوا الأناشيد ثلاث مرات فى احتفالكم بتدفق المياه فى مجاريه ، ارتفع أيها النيل وواصل الارتفاع بنشوة حتى تصل إلى ستة عشر ذراعاً (وهو الارتفاع الأمثل لمستوى الفيضان)". (١١)

لقد كانت الربة إيزيس مانحة الحياة ، تفوق الجميع مكانة بلا استثناء فى مجمع الآلهة المصرية ومن السهل علينا أن نفهم سبب ارتباطها بالنيل ومياهه التى تعتبر مصدر الحياة . وفى الموكب البهيج الذى كان يتم فيه الاحتفال بارتفاع مياه الفيضان السنوى ، كان يتم ملء قارورة من المياة الجديدة توضع فى آنية ذهبية ، وترفع إلى أعلى وتقدم إلى إيزيس . وفى أحد الأناشيد التى وضعت لمدحها والثناء عليها نقرأ مايلى "لقد امتلأت كل قنوات النيل بفضل قوتك" ، وأيضا : لقد قمت بدفع المياه المتدفقة فى مجارى النهر الذهبى فى الفصل المناسب ودفعت به إلى جميع أراضى مصر من أجل سعادة البشرية" . وكان يحتفل بارتفاع النيل فى كل أنحاء الوادى صعودا وهبوطا يوم ١٢ بؤونه (٦ يونيو فى ذلك الوقت = ١٩ يونيو فى التقويم الجديد) فى احتفال مهيب ، وقد حفر هذا اليوم فى الضمير الشعبى ، وانتقل بطريق غير محسوس إلى التقويم المسيحى (ثم العربى بعد ذلك) للأعياد ، فقد نسب المسيحيون ارتفاع النهر نهر النيل المبارك المخصب " إلى قوة المسيح" وجعلوا من رئيس "الحواريين ميخائيل" قديسه ومايزال يحتفل حتى الآن بفيضان النيل فى الكنيسة القبطية يوم ١٩ يونيو، وهو يوم الاحتفال بعيد القديس ميخائيل .

ولم تكن كل العبادات تحتاج إلى معابد وكهنة ، فقد كان كثير منها يمارس على انفراد فى المنازل ، وفى كوات المنازل ، أو معابد صغيرة فى الطرقات ، وفى الخارج فى الحقول ولاشك فى أنه كان يوجد فى مصر فى العصر الرومانى دور عبادة صغيرة تشبه تلك الموجودة فى البلدان الكاثوليكية اليوم .

وفى داخل المنزل أو خارجه على المستوى الجماعى أو على المستوى الفردى ، فقد صبغت العقائد المصرية بالسرية والسحر والروحانية ، لدرجة جعلت العالم القديم ينظر إلى مصر على أعتبار أنها هى منبع وأصل Fons et origo السحر والغيبيات وطرق الوصول إلى أسرارها . كما أن ذلك الحشد الهائل من فنون السحر وآخر إبداعاته فى العصور الوسطى والتى تعرف باسم الهرمزيات Hermetica كانت فى أساسها تلك التعاليم التى كانت تنسب إلى الإله المصرى توت الذى كان مثيلا للإله هرميس الإغريق . وقد تمت ممارسة السحر بطرق عديدة فى مصر ، مثل الصلوات ، والأعمال السحرية أو استدعاء الإله بس وطلب المساعدة منه، وكان الإله بس أحد صغار المعبودات فى مصر ، وكان قزما قبيح الشكل ، صور على الأوانى الفخارية ببطن منتفخة ولم يقم له معبد ، ولكنهم تصوروا وجوده فى الأوقات ، كما اعتقد المصريون اعتقادا راسخا فى الأحجبة والتمائم التى عثر على كثير منها مدونا على أوراق البردى ، وكان يتم ربطها بخيط رفيع أو كانت توضع فى غلاف ليقوم الفرد بارتدائها ، وقد نقشت على مختلف المواد التى يمكن الكتابة عليها بما فيها الأحجار الكريمة وشبه الكريمة .

كما تم العثور على تمائم ذات رموز مصرية فى جميع أنحاء عالم البحر المتوسط وهذا يدل دلالة بالغة على الانتشار العالمى للمعتقدات المصرية عن الجن والشياطين . ولايخفى على أحد أن استخدام التمائم والتعاويذ كان وسيلة من الوسائل التى استخدمها الوثنيون ليتمكنوا من أن يعيشوا فى الوسط المسيحى . وهناك نموذج هام منها يرجع للقرن السادس الميلادى ولانستطيع لطوله أن نقدمه كاملا ، ويدور مضمونه حول ابتهالات للسيد المسيح ، ووالدته ، ولجميع القديسيين ، بأن يحافظوا على يوانينا التى تحملها (فى أحشائها) أنستاسيا Anas-tasia من جميع الأرواح الشريرة ، وأن يحفظوها من كل أنواع الحمى ، وكل أنواع نزلات البرد اليومية والثلاثية ، والرباعية ، ومن كل شر . (١٣)

وكان من بين مواضيع السحر تلك الخاصة بصيغ وتعويذات الحب والعاطفة ، وهو شيء شائع فى كل الحضارات ويوجد دائما من الذكور إلى الإناث اللاتى يرغبن فيهن ، وهناك أيضا تعاويذ سحرية فى مجالات أخرى عثر عليها بأعداد كبيرة على لفافات بردية ، وبعضها بالغ الطول ، يتضمن فيما يبدو سيلا بلا نهاية من الوصايا والأدعية ، وهناك نصوص قائمة بذاتها سجلت على البردى كما دونت على صفائح الرصاص الرقيقة التى كان يفضل استخدامها فى مثل هذه الأمور ، وقد عثر على إحدى تعاويذ الحب مدونة على البردى وملفوفة حول خصلة من شعر المحبوب التى تم الحصول عليها بطريقة شريفة أو غير شريفة من رأس المحبوب ، أما

الطريقة الشائعة فقد كانت تتم بربط قطعة من الصلصال تمثل وجه الحبيب حول البردية التى كتبت التعويذة من أجله . كما استخدمت طريقة أخرى تتمثل فى وضع تعويذة الحب على مومياء أو فى إحدى المقابر ، لأنهم كانوا يتوقعون أن قوة السحر سوف تجبر روح الميت على أن تؤدى مايطلبه منها سحر الساحر . (١٤)

ولقد امتلأت لفافات كاملة من أوراق البردى - وحتى بعد انتشار المسيحية بفترة طويلة - بكل أنواع التعليمات والإرشادات التى يقوم الفرد بأدائها ، بنفسه لكى يحصل على نتائج سحرية . وسنقدم الآن نموذجين منها تم الحصول عليهما من إحدى اللفافات الموجودة فى المكتبة البريطانية .

"أثناء تناول الطعام أو الشراب ينبغى أن تأخذ اللقمة أو الرشفة الأولى وأن تضعها فى إناء صغير فى المحراب بينما تقول يافلان ابن فلان هلم لمساعدتى وتنفيذ تعليمات الإله ثم تذكر اسمك وتبتهل إلى إياؤه وسباؤوث وزابارباثياؤه وأدوناى . Iao, Sabaoth, Za-barbathiao, Adonai بأن يغرسوا عاطفة الحب فى قلب فلانه الفانية تجاه فلان الفلانى ، عاطفة متأججة لاتخبو جذوتها ، وهناك أسلوب آخر وهو أن تدعو الإله العظيم الجبار بأن يجعل فلانه الفلانية تقع فى حبك من أول نظرة وبخضوع تام وأن لاتستطيع المقاومة وبعد ذلك عندما تراها تأخذ ثلاثة أنفاس عميقة بينما تنظر إليها بإمعان وفى هذه اللحظة سوف تبتسم لك وهى علامة على أنها وقعت فى غرامك .

وهناك تميمة أخرى تقيد بها الأرواح الشريرة ، وتعمل ضد جميع الأعداء واللائمين واللصوص والمخاوف والهلوسة فى الأحلام : خذ طبقاً من الذهب أو الفضة وارسم عليه هذه الشخصيات وهذه الكلمات السحرية وبذلك يصبح لها القدرة على تنفيذ رغباتك واحملها معك بقلب صاف .

وقد كان سكان مصر بصفة عامة - وفى بعض الأحيان كانوا ذوى عاطفة شديدة - مثلهم مثل بقية شعوب العالم القديم يعتقدون أنه إذا تم التقرب إلى المعبودات بطريقة صحيحة فإنه يمكنها أن تتكهن بالمستقبل . فقد كان كل إله خالداً فى نظرهم وبناء على ذلك فهو أزلى ، ولذلك فلديه قوة تنبؤية ، وقد تمتع بعض الآلهة بشهرة أكثر من غيرهم كما كانت لديهم لنبؤاتهم وقد ذكر ديون فم الذهب Dio Chrysostom مخاطبا شعب الإسكندرية فى أوائل القرن الثانى الميلادى قائلاً : "إن الإله سيرابيس يتمتع بينكم بخاصية مميزة ، فهو يمارس قوته فى النبؤات والأحلام كل يوم" ، كذلك اشتهرت نبوة أخرى وهى نبوءة الإله آمون فى واحة

سيوة وقد اكتسبت هذه النبوة شهرة غير محدودة عندما عرج عليها الإسكندر الأكبر ليزورها في صحراء مصر الشرقية ويسألها عن مستقبله وتنبأت له بإكتساح الإمبراطورية الفارسية ، ثم امتدت شهرة هذه النبوءة إلى الآفاق العالمية أثناء الحكم الروماني . (١٦)

وفى الواقع لقد انتشرت شعبية النبوءات فى كل مكان أثناء القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد ، وترجع جذور هذا الانتشار إلى أن معظم المعتقدات الدينية فى ذلك الوقت مالت إلى تنامي صيغها الشكلية ، تلك الصيغ التى كان الأفراد يجدون فيها بهجة ووسيلة من وسائل التسلية ، ولكنها لم تكن تشبع حاجاتهم الروحية . وكنوع من أنواع التعويض عن ذلك الذى اشترك فيه الأغنياء والفقراء على قدم المساواة – وربما الأباطرة أيضا مثلهم فى ذلك مثل أدنى المزارعين – بدأوا يجدون راحة متزايدة فى نظرتهم الروحية إلى عديد من العبادات التى لم تكن تتضمن طقوساً روحية ، وكدليل على هذا الاتجاه فقد لاحظنا تقلصاً فى عدد كهنة المعابد فى مصر ، تلك المعابد التى كانت تعتمد فى مواردها على ماتقدمه لها الجماهير بصفة أساسية ، كما أصبحت المناصب الكهنوتية أقل إغراءً ، وتحولت ممارسة الشعائر الدينية من الشكل الجماعى إلى الصورة الفردية . هذا على الرغم من أنه إذا استطلعنا بعض الوثائق البردية نلاحظ أن عدداً كبيراً من خرائط البروج المدونة على البرديات كانت تتمتع بشعبية كبيرة ، ولكن حتى فى هذا الميدان كان الشعب محتاجاً لخدمات الطوائف الدينية المدربة للكشف عن جوانبها الفلكية التنبؤية . ومن هنا جاءت شعبية النبؤات التى كان يمكن فيها للرجل العادى أن يتحدث بنفسه ومباشرة مع الإله الذى يختاره ويتعامل معه وجها لوجه ، وقد كتبت إحدى السيدات إلى ابنها قائلة : "هل تظن أننى قصرت فى حقك ؛ إننى أقوم باستشارة النبوءة كل عشرة أيام من أجلك بصفة منتظمة" ، ويبدو أن السؤال المطروح للنبوءة كان يتمثل فى هل يظل الإبن فى مصر أم يتحرك للذهاب إلى روما لإنجاز بعض الأعمال هناك ، وتقدم رجل آخر بسؤال إلى لإله التمساح يستوضحه فيه هل سيتم شفاؤه من المرض الذى ألم به . وسؤال آخر تقدمت به إمرأة تدعى نيكى Nike إلى "الإله زيوس وإله الشمس والإله سيرابيس العظيم فى معبدهم المشترك ، تستفسرهم" ما إذا كان من الأفضل لها أن تشترى العبد الذى تمتلكه تاسارابيون Tasarapionوالذى كان يسمى سرابيون ويعرف أيضا باسم جايون Gaion. وتقدم آخر يدعى مناندروس بسؤال ، لنفس الآلهة السابقة فحواه "ما إذا كان يصرح له بالزواج" هذه هى نماذج للأسئلة قبل أن يتم تقنينها وتنساب عباراتها لكى تتلائم مع تضخم أعداد الأسئلة المطروحة لتسهيل إجراءاتها . وقد تم العثور على جزء من سجل الأسئلة التى كانت تطرح فى البهنسا وقد تمت صياغة كل سؤال منها بطريقة عامة ، وتم ترقيم كل سؤال

برقم ، وذلك حتى يتمكن كل فرد يتقدم ليسأل سؤالا أن يشير إلى الرقم فى قائمة الأسئلة على النحو التالى :

٧٢ ، هل سأحصل على مخصصاتى ؟

٧٣ ، هل سأستقر فى المكان الذى سأذهب إليه ؟

٧٤ ، هل سيتم بيعى ؟

٧٥ ، هل سيقوم صديقى بمساعدتى ؟

٧٦ ، هل سأقوم بالتعاقد مع شخص آخر ؟

٧٧ ، هل سأتصالح مع ابنى ؟

٧٨ ، هل سأحصل على إجازة ؟

٧٩ ، هل سأتسلم المال ؟

٨٠ ، هل مازال الغائب على قيد الحياة ؟

٨١ ، هل سأستفيد من الصفقة ؟

٨٢ ، هل ستتم مصادرة ممتلكاتى ؟

٨٣ ، هل سأجد طريقة للبيع ؟

٨٤ ، هل يمكننى أن أنتزع مايدور فى رأسى ؟

٨٥ ، هل سيكتب لى النجاح ؟.(١٧)

٨٦ ، هل سأصبح طريدا ؟

٨٧ ، هل سأذهب فى سفارة ؟

٨٨ ، هل سأصبح عضوا بالمجلس ؟

٨٩ ، هل سيصبح فرارى بغير جدوى ؟

٩٠ ، هل سيتم طلاقى من زوجتى ؟

٩١ ، هل تناولت سما ؟

٩٢ ، هل سأسترد مالى من ممتلكات ؟

كما أعتقدوا أعضا فى الأحلام التى كانت مثلها مثل النبوءات تعتبر ذات مظهر مقدس وطبيعة تنبؤية . وأدت الحاجة إلى تفسير محتوياتها المجازية أو الرمزية إلى ظهور وازدهار مهمة مفسرى الأحلام الذين تسلحوا بالتوسع فى جمع المعلومات التاريخية ، وكانوا يقومون بشرح معانيها الخفية سواء فى الأحلام اليومية أو الرؤيا الليلية ، أو التهيؤات العصبية والكوابيس نظير رسوم معينة ، وكان يوجد نوع واحد من أنواع الأحلام التى تشبه النبوءات ، كان يمكن لصاحبها أن يتعامل به مع الإله بطريقة مباشرة ، واعتقد سكان مصر مثلهم فى ذلك مثل بقية شعوب العالم القديم بقدرة أرباب معينين على شفاء الأمراض ، وكانت أفضل وسيلة للتوسل إلى هذه الآلهة يتم بقضاء المريض ليلة فى محراب الإله ، يصلى فيها له ويتوسل إليه أن يشفيه بظهوره له فى الحلم . وكان مركز إله الطب أسكليبيوس Asklepios فى منطقة ابيداوروس Epidauros هو أكثر المناطق شهرة فى بلاد اليونان حيث كان يفد إليه المريدون من مختلف الأنحاء من خارج بلاد اليونان . وقد شبه الإغريق فى مصر الإله المصرى إمحتب Im-hotep بالإله الإغريقى أسكليبيوس Asklepios (وحرفوا اسمه إلى الشكل الإغريقى أموثيس Imouthes) وكان معبده يقع على حافة الصحراء بالقرب من ممفيس ، ولقد راجت قصة ذائعة عن المعجزات الهائلة التى قام بها الإله ووجد بعضها مدوناً على بعض أوراق بردى البهنسا.(١٨)

وثمة ظاهرة أخرى انتشرت خلال القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد وهى ظاهرة تتمثل فى نمو عقيدة جديدة للتوحيد ، وقد سبق وصف المجتمع اليهودى فى الفصل الثانى من هذا الكتاب حقيقة لقد لعب بعض اليهود دورا هاما فى نشاط مصر الاقتصادى وخصوصا فى مدينة الإسكندرية ، ولكن عقيدتهم التوحيدية لم تجد أتباعاً أو تغرى عباداً فيما خلا قلة من الذين تحولوا إليها ، وعلى أى حال فقد ظهرت الآن إلى الوجود طائفة منهم فى موطنهم يهوذا Ju-daea تطلعت خلال عدة مئات من السنين إلى السيطرة على جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية ثم بالتدريج على الجانب الغربى من العالم أجمع (ونعنى بها المسيحية) .

إذ وصلت المسيحية منذ فترة مبكرة إلى مصر ، وصلت أولا إلي اليهود فى الإسكندرية ، وهو المجتمع الذى كان أكثر قربا إلى يهوذا من الناحية الجغرافية ومن ناحية المعاملات ، ثم انتشرت المسيحية قبل مضى فترة طويلة بين المجتمعات غير اليهودية فى الداخل ، ومما ساعد على سرعة انتشارها أوجه التشابه فى بعض عناصرها مع العقيدة المصرية ، مثل عقيدة البعث بعد الموت والتى كانت مرتبطة من بين عوامل أخرى Inter alia بالاحتفالات العاطفية السنوية

للربه إيزيس عندما كانت تقوم بجمع أوصال زوجها أوزوريس (وهى الدورة السنوية للموت ثم معجزة عودة ميلاد النبات والتى كان لها نظيرها فى أساطير الشعوب البدائية) .

ويعتبر مرقص Mark الذى قام بتجميع الإنجيل فى عام ٦٥م هو المؤسس التقليدى لكنيسة الإسكندرية ، ويأتى على رأس قائمة بطارقتها الطويلة وهو الاسم الذى كان يسمى به أساقفتها . وعند منتصف القرن الثالث كانت توجد أسقفيتان أخريان على الأقل فى اثنتين من عواصم الأقاليم المصرية ، وعند نهاية هذا القرن وجدت كنيستان فى البهنسا من بين أماكن العبادة فيها ، ويرجع تاريخ أقدم شذرة لبردية من الأناجيل والكتب المسيحية الأخرى إلى حوالى عام ١٠٠م ، أو ما لايبعد كثيراً عن ذلك التاريخ ، وأقدم النصوص التى عثر عليها والتى تعتبر كتابة مسيحية واضحة عبارة عن خطاب (يوجد الآن فى مكتبة كلية وود بروك برمنجهام Birmingham) يتفق العلماء على (أن تاريخه لابد وأن يرجع إلى أوائل القرن الثالث الميلادى ، وهذا الخطاب يعكس المذهب الغنوسى Gnostic الذى قدر له الانتشار بين المجتمعات المسيحية المبكرة فى مصر ، وأهم ما يلاحظ فى عقيدة هذه الجماعات هو تعديل التثليث إلى الثنائية وذلك بحذف الابن (هذا على الرغم من أن قلة من الدراسين يرون أن كلمة الحق Truth المذكورة فيها تشير مجازا الى السيد المسيح). (١٩)

لقد نظر العالم الخارجى إلى المسيحيين وهم الذين لم يكن هناك ثمة إهتمام بهم لمدة بلغت قرنا أو يزيد من الزمان على أنهم غير مختلفين عن اليهود وأنهم طائفة من المجاذيب من ذلك الشعب الغريب غير المتجانس . وقد كتب سويتونيوس Suetonius مؤلف السير بعد حوالى مائة عام من صلب المسيح : "أن الإمبراطور كلوديوس Claudius قام فى عام ٤٩ بطرد اليهود من روما وذلك بسبب الاضطرابات التى أثاروها نتيجة تحريض (شخص يدعى) كريستوس Chrestos لهم". وهناك حقائق تكشفها كتابة حروف اسم خريستوس ، فالمعروف أن كلمة خريستوس Christos اليونانية تعنى المسوح بالزيت ، وقد انتقل معناها المرتبط بالمسيح فى أذهان الوثنيين وحتى المثقفين الرومان من أمثال سويتونيوس على أنها خاصة بالقائد الذى يحمل الاسم الإغريقى الشائع كريستوس والذى يخضع اليهود لأوامره .وقد افترض أغلب المعاصرين مما سمعوه أو رأوه من المجتمعات المسيحية الأولى أن السبب فى الربط بينهما يرجع إلى ممارسة نوع من أنواع الشعوذة ، وبالإضافة إلى ذلك فإن نصوص السحر تقدم لنا بعض الطقوس التى تتطابق مع المسيحية فى بعض الطقوس واللغة ، ومن بينها رطانة الحديث.

وفى خلال المائتى سنة التالية وعندما كانت أعداد المسيحيين تتزايد بسرعة كبيرة ، وجدت فيهم مجتمعات كثيرة من العالم الرومانى كبش فداء يلقى عليه اللوم عند حدوث أى نوع من المشاكل أو الأحداث التى تقع بينهم ، وحتى هؤلاء الذين وجهت إليهم الاتهامات بأنهم هم الذين دفعوا الحكام أو الأباطرة بأن يكيلوا العقوبات للمسيحيين فإن أصولهم كانت ترجع إلى المناطق المحلية لا للحكومة المركزية الرومانية ولم نسمع خلال هذه الفترة عن اضطهاد المسيحيين فى مصر وحتى إذا وجد ذلك فإنه كان يمثل حالات نادرة ، مما يدل على موائمتها للاتجاه العام لسكان الإمبراطورية بالنسبة للأمور الخاصة بالعقيدة الدينية . [٢١]

ولم تكن أجهزة الحكومة فى مصر تستطيع بطبيعة الحال أن تتوانى فى تنفيذ أوامر الاضطهاد إذا صدرت إليها هذه الأوامر من قبل الإمبراطور ، ولكن لايوجد لدينا دليل على صدور أى قانون إمبراطورى أو منشور عام ضد المسيحية قبل عام ٢٤٩م ، وقد غض العلماء والمحدثون اليوم النظر عن ذلك الطابع الخيالى الذى دونت به سجلات الأدب الوطنى والذى يصور شدة الانتقام من المسيحيين واستشهادهم أثناء حكم الأباطرة الأوائل وعلى وجه التحديد أثناء حكم أكثر الأباطرة تديناً واعتدالاً وإنصافاً ، وهم أباطرة آل سيفروس فى الثلث الأول من القرن الثالث الميلادى . لقد ظهر إتجاه الحكومة الرومانية المعادى للمسيحية عندما كان القرن الثالث الميلادى يقترب من نقطة انتصافه ، ولكن هذه العداوة لم تتحرك دائما بسبب عناد وإصرار طوائف المسيحيين الجدد على عدم الاعتراف بألوهية حكامهم الأباطرة ، بل نتيجة لتفشى ظهورها كنوع من الخيانة المدمرة - أو هكذا يبدو أنها ظهرت للأباطرة - فى صفوف القوات المسلحة التى كان يتم فيها ردة دينية من قبل ضباطها ورجالها وفى بداية الاضطهاد الذى يؤرخ بالمرسوم الإمبراطورى الصادر عام ٢٤٩م والذى يرجع فى أساسه إلى فترة الحكم القصيرة التى تولى فيها الإمبراطور ديكيوس Decius فقد كان كل شخص سواء أكان رجلا كان أم إمرأة ، صغيرا كان أم كبيرا مطالباً بالمشاركة فى الطقوس الوثنية فى حضور لجنة خاصة خصصت لذلك في كل منطقة ، وكانت هذه اللجنة تشهد على امتثاله لهذا الأمر ، أما هؤلاء الذين كانوا يرفضون الإذعان لتنفيذه فيتم معاقبتهم لأنهم يكشفون بذلك عن اعتناقهم للمسيحية . وكان الذين يذعنون لذلك الإجراء يحصلون على شهادات بذلك ، وقد عثر على العديد منها فى مصر ، وفى مصر وحدها . وقد دونت جميعها بخط رفيع على شريحة رفيعة من ورق البردى ، ولايدهشنا ذلك لأن صاحبها كان من المفروض عليه أن يحملها معه ويبرزها عندما تطلب منه السلطات الاطلاع عليها ، ولقد تمت صياغة هذه الشهادات وفقا للنموذج التالى مع بعض التغييرات الطفيفة :

"إلى المشرفين على القرابين فى قرية ثيادلفيا Theadelphia من أوريليا بلياس Aurelia Bellias ابنه بيتريس Peteres وابنتها كابينيس Kapinis : لقد قمنا بتقديم القرابين للآلهة الآن فى حضورك وطبقا للأمر فإننى أقوم بسكب القربان وتقديم الضحية وتذوق ماقدم من قرابين ، ونرجو تسجيل ذلك لنا . (خط يد ثانية) نشهد نحن أوريليوس سيرنيوس Ayrelius Sernus وأوريليوس هيرماس Aurelius Hermas أننا شاهدناك تقومين بتقديم القرابين (التاريخ) ٢١ يونيو سنة ٢٥٠م)" . (٢٢)

ولقد نتج عن مطاردة ديكيوس للمسيحيين موت العديد منهم ، وكان من بينهم عالم اللاهوت أوريجين Origen المواطن السكندرى ، واستمر الاضطهاد لعام آخر حتى وفاة ديكيوس فى إحدى المعارك ضد القوط Goths أثناء غزوهم لحدود الإمبراطورية . وقد انتهى ذلك الاضطهاد بعد حقبة زمنية أخرى على يد الإمبراطور جالينوس Gallienos الذى كان مشغولا بمنافسيه على العرش من جهة وبالبرابرة على حدود الإمبراطورية من جهة أخرى . وعادت مصر مرة أخرى إلى ممارسة معتقداتها الدينية المتعددة ، وأصبح المسيحيون أحرارا فى تعقب الذين اضطهدوهم فى الداخل ، وكثيرا ماتطور الخلاف العقائدى بعد ذلك أثناء المناقشة إلى الاشتباك الدموى فيما بينهم . (٢٣)

وانفردت أوراق البردى بتقديم موضوع آخر يتمثل فى طريقة إقامة الاحتفالات ، ويتضح لنا كما كنا نتوقع وجود عادات مختلفة ، ودرجات متفاوته من المشاركة ، فكانت أجهزة الحكومة تقوم كما سبق ورأينا سالفا فى هذا الكتاب بإصدار الأوامر والإشراف على الاحتفالات الرسمية الخاصة بالدولة مثل : أعياد ميلاد الأباطرة وذكرى توليهم العرش وذكرى الانتصارات وذلك بإقامة احتفالات كبيرة ومناسبة فى الولاية . أما المناسبات الأخرى ذات الطابع المحلى فكان الحكام المحليون يقومون بالإشراف عليها ، وقد سجل فى لفافة بردية يرجع تاريخها لعام ٢٣٢م قيام مدير الإقليم Strategos أثناء الاحتفالات بالسنة المصرية (فى الأول من شهر توت الموافق ٢٩ أغسطس) بتنصيب مدير معهد التربية ، والإشراف على تقديم الأضاحى فى كل من معهد التربية ومعبد القياصرة وانتقاله بعد ذلك من العاصمة للتجول فى "بقية أنحاء الإقليم لحضور الاحتفالات الدينية المقدسة". (٢٤)

كما واصل الإغريق فى المدن إقامة الاحتفالات بالمباريات الرياضية والأدبية والموسيقية والتمثيلية ، وتمثل وجه الاختلاف الأساسى بين هذه الاحتفالات وتلك التى كانت تجرى فى العصر الكلاسيكى أن أبطال الجرى والملاكمة والمصارعة وغيرهم من المتبارين فى أنواع

الألعاب الرياضية الأخرى أصبحوا اليوم محترفين ، وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر للدخول في المنافسات الرياضية عاما بعد عام ، وحصل الفائزون منهم على شهرة عالمية وجوائز نقدية، ومكانة اجتماعية مرموقة عن طريق الحصول على شرف المواطنة والإعفاء من الضرائب .

ولقد حذت المدن فى احتفالاتها مثل باقى مظاهر حياتها الأخرى ، حذو التقاليد التى كانت تسير عليها عواصم المدن الهلينية فى هذا المضمار ، وقد سبق وأن ذكرنا فى ص ٣٩ من هذا الكتاب تبرع أحد مواطنى البهنسا بمبلغ نقدى ، كبيرا لإقامة مباريات للشبيبة ephebi على غط تلك التى كانت تجرى فى مدينة أنتينوبوليس ولدينا قائمة تضم أسماء أفراد من البهنسا فى الفترة الواقعة بين ٢٦١/٢٦٨م نجد فيها أن جميع الأسماء لإغريق أو إغريق رومان استثناء اسم واسمين منهم ، وهى تضم : شعراء ، ونافخى أبواق ، ولاعبين بالدروع يبدو أنهم كانوا من مدينة نقراطيس ، وقد بلغ عمر اثنين من الفائزين فى ألعاب الدروع خمسة عشر وستة عشر عاما ، كما بلغ عمر أحد الشعراء خمسة عشر عاما ، ومايؤسف له أنه لايوجد لدينا نموذج من إنتاجه الشعرى ، وكذلك الأمر بالنسبة لذلك الشاعر الفائز الذى كان يبلغ من العمر تسعة عشر عاما والذى أشير إليه فى نفس القائمة بأنه "يدرس الأدب" . ويبدو أن مثل هذه المباريات كانت تقام فى إحدى مراحلها لإستعراض مواهب شباب مواطنى عواصم الأقاليم أمام المشاهدين وأمام آبائهم الذين كانوا يفخرون بهم ، وقد عثر فى البهنسا أيضا على سجل لنفقات المدينة على عدد من احتفالاتها ، فقد أنفق فى الاحتفالات الخاصة بالإله ديونيسوس (أغلب الظن) أموالا على لاعبى الدروع ، ونافخى الأبواق وعلى (الممثل) الكوميدى (ويبدو أن هذه الكلمة كانت تشير إلى قيام أحد الرجال بالغناء والرقص فى آن واحد معا ، (ويبدو أنه كان يكتب النصّ بنفسه) ثم جاء ذكر أسماء عدة أشخاص آخرين ، بالإضافة إلى ثمن عجل صغير قدم للتضحية له ، كما سجل دفع مبلغ من المال لراقص جيد ، واثنين من الرياضيين فى كل من ألعاب الملاكمة والمصارعة ولشخص كان يقوم بعمل المساج (التدليك) ولممثل كوميدى. ولاعب الدروع ، ومصممى الرقصات ، وأحد قراء النصوص الدينية ولأحد المنشدين ، كما تم دفع أموال لطعام الكلب (الإله أنوبيس Anoubis) كما دفع مبلغ آخر لعدة أشياء لم يرد ذكرها ودفع مبلغ ٤٩٦ دراخمة للتمثيل الصامت ، ٤٤٨ دراخمة للمنشد ، ومبلغ يتراوح بين مائة ومائتين دراخمة لأحد الراقصين ، ومبلغ فقد رقمه للموسيقيين ، ٧٦ دراخمة للرجال الذين يحملون تمثال إله النيل المقدس والآلهة الأخرى فى الاحتفالات ، ٨ دراخمات للاعب دروع ، ٤ دراخمة لنافخ البوق ، وهناك عدد آخر من المبالغ التى تم إنفاقها ولكننا لانستطيع تحديد معناها ، وقد حرص سكان عواصم الأقاليم على إصلاح المسرح مرارا كمظهر من مظاهر

حرصهم على المحافظة على التقاليد الهلينية ، حيث كانوا يشاهدون عليه المسرحيات الإغريقية القديمة (وكانت المسرحيات التراجيدية المفضلة لديهم هى مسرحيات يوربيديس Euripides كما كانوا يفضلون مسرحيات ماناندروس فى مجال الكوميديا) ، كما تمتعوا أيضا بمشاهدة انتاج الفنانين المعاصرين ، ولدينا أثر قائم يبدو أنه كان صالة للموسيقى أو صالة للرقص والتمثيل الارتجالى الضاحك الذى كان يدوم عشر دقائق أو أقل ولانستطيع أن نحكم على مدى البذخ فى الإنفاق على الإنتاج المسرحى ، ولكننا نعرف من خلال إحدى الشذرات الخاصة بنفقات أحد المسارح أنها بلغت فى فترة شهرين ٦٠٠٠ دراخمة ، وهو مبلغ كان يكفى لشراء عدد كاف من التالنتات حتى فى هذه الفترة من التضخم الاقتصادى فى القرن الثالث .

ويتم اختيار نجوم الرياضة كأعضاء فى نقابة أبطال الرياضة المتنقلين الفائزين والمتوجين تحت رعاية الإله هيراكليس ، وهى هيئة إمبراطورية واسعة الانتشار يقع مركزها الرئيسى فى مدينة روما . كما كان يتم اختيار أمهر الشعراء والممثلين والموسيقيين لعضوية نقابة الفنانين الفائزين والمتوجين من جميع أنحاء العالم الرومانى تحت رعاية الإله ديونيسوس ، ولدينا فرصة أكبر للحديث عن هاتين المؤسستين فى الفصل السابع من هذا الكتاب .

وكثيرا ماتم الاحتفال بالأعياد فى مصر أثناء العام كما سبق القول وكان كل احتفال منها يستغرق عدة أيام . وعلى أية حال فقد كانت الأعياد والعطلات الكبيرة فقط هى التى كان يحتفل فيها بإقامة المهرجانات الكبيرة والألعاب الرياضية كتلك التى سبق تقديم تفصيلات عنها ، أما المناسبات الأقل أهمية فتجرى فيها الاحتفالات الموسيقية والرقصات ، إلى جانب ماكان يقيمه الأغنياء من احتفالات خاصة يمكن أن نصفها من خلال النموذج التالى :

(من أوريليوس أجاثوس Aurelius Agathos مدير معهد التربية والذى يشغل منصب عضو مجلس المدينة ، وهيرمانوبامون Hermano bammon المدرب والمشرف على الشبيبة exegetes ، وديديموس Didymos رئيس الكهنة وكوبرياس Koprias المشرف على التموين فى إقليم الفيوم ، إلى أوريليوس يورباس Aurelii Euripas الممثل وإلى ساراباس Sarapas المنشد أطيب تحياتنا : إننا نرغب فى حضوركم على وجه السرعة ، كعادتكم فى مساعدتنا ولتشاركونا الاحتفال بعيد أسلافنا بمناسبة ذكرى ميلاد الإله كرونوس Kronos العظيم ، والتى سوف يبدأ الاحتفال بها ، ابتداء من الغد الموافق اليوم العاشر طبقا للتقويم المعتاد للأيام ، وسوف تحصلوا على أجوركم المعتادة بالإضافة إلى الهدايا (التوقيعات)" . [٢٦]

وعلى أية حال فقد كانت مظاهر الحفاوة فى الاحتفالات كبيرة ولافتة للأنظار من الناحية الظاهرية على الأقل - وكانت تتناسب مع طقوس المناسبات الدينية التى يتم الاحتفال بها ، كما كانت طقوس إقامة الشعائر الوطنية تتم وفقا للعادات المتبعة من حيث غناء ترانيم المديح والاحتفال بموكب التماثيل المقدسة وإطلاق البخور والعطور ، وتقديم الكعك والعسل، والنبيذ ، والمأكولات الأخرى ، (التى كان يلتهما رجال المعبد فيما بعد ، على اعتبار أنها من عائدات مناصبهم) ، وفيما يلى قائمة بأسماء الأشياء التى تم تجهيزها فى اثنتين من هذه المناسبات ، الأولى تم تسليمها إلى مدير الإقليم ، والثانية سلمت إلى الحامية الرومانية المحلية ، ومنها يتضح مدى إشراف الحكومة الذى وصل فى تغلغله إلى مثل هذه التفصيلات .

القائمة الأولى :

"الأشياء التى سوف تقدم كقرابين على شرف إله النيل المقدس فى ٣٠ بؤونة (٢٤ يونيو) : عجل صغير ، ٢ جرة من النبيذ الحلو ، ١٦ من رقائق الفطائر (رقاق) ، ١٦ باقة من الزهور ، ١٦ قمعاً من الأناناس ، ١٦ كعكة ، ١٦ فرعاً من سعف النخيل الأخضر ، ١٦ عوداً من البوص الأخضر ، زيت ، عسل نحل ، حليب ، وكل أنواع التوابل فيما عدا البخور" .

القائمة الثانية :

وهى التى جرت العادة على تقديها كقرابين شهر هاتور الجارى . ٤ دواجن ، خنزير صغير ، ٨ بيضات ، ١٨ قمعاً من الأناناس ، ٢ جرة من النبيذ ، مقادير قليلة من العسل واللبن ، وزيت الزيتون ، وزيت السمسم ، ٨ باقات من الزهور .

ويحمل كل صنف من الأصناف السابق ذكرها فى هاتين القائمتين أحد الأفراد ، وحتى القرى الصغيرة كانت تشارك فى مثل هذه الاحتفالات بحوالى مائة شخص من الذين كانوا يسيرون فى القرية ويطالبون مشاهديهم بالمشاركة فى موكبهم . (٢٧)

لم يكن هناك شيء أكثر جاذبية للسكان من هذه الاحتفالات وفرقها الموسيقية ومشاهديها والمشاركين فى مواكبها مما كان يؤدى إلى التزاحم عليها للفرجة ، وحيثما يوجد الازدحام تقع الحوادث مثل الحادثة التالية :

من هيراكس Hierax مدير إقليم البهنسا إلى مساعده كلوديوس سيرينيوس Claudius Serenius: لقد قام ليونيداس المعروف أيضا باسم سيرينوس Serenus بتسليم الإلتماس الذى سوف أرسل لك نسخة منه أدناه . ولذلك فيجب أن تذهب مع الطبيب لفحص الجثة موضوع

السؤال ، ثم تصرح بدفنها وتسلم رفيقك تقريراً مكتوباً عنها (التوقيع والتاريخ ٦ نوفمبر ١٨٢م)" .

نسخة الالتماس :

"إلى هيراكس Hierax المدير ، من ليونيداس المدعو سيرنيوس Serenus بخصوص المدعو ابن تاوريس Tauris من قرية سينيبتا Senepta لقد حدث فى نهاية يوم أمس أثناء الاحتفال الذى أقيم فى سينيبتا Senepta وعندما كان راقصوا الصناج يقدمون استعراضهم ، وعند اقترابهم من منزل بلوتيون Ploution إبن أخو زوجتى ، أراد عبده المدعو إبا فروديتوس Epaphroditos أن يتدلى من سطح المنزل المذكور لمشاهدة الراقصين فسقط مما أدى إلى مصرعه ، ولذلك فقد قمت بتقديم هذا الالتماس راجيا إذا تفضلتم أن ترسل أحد مساعديكم إلى قرية سينبتا Senepta حتى لا تتأخر إجراءات دفن جثة إبا فروديتوس (نفس التاريخ والتوقيع)".

لقد وصلت العطلة إلى نهايتها ، وانتهت مظاهر البهجة والسرور وجميع الحوادث غير السارة ، وكذا الشعائر والطقوس الدينية ، وأيضا مظاهر العربدة ، واستلم الراقصون والموسيقيون أجورهم ورحلوا من المكان ، وعاد المشاهدون إلى منازلهم وإلى استئناف حياتهم بطريقة عادية ، وقد تمثل عمل الغالبية العظمى منهم من أفراد الشعب المصرى فى مجال الزراعة ، وهو موضوع الفصل التالى من الكتاب .



الفصل السادس

وفرة الغلال أو الإنتاج الغذائي

Annonae Fecundam

نهر النيل :

"هبة النيل" تلك هى الصفة التى وصف بها هيرودوت (فى كتابه الثانى الفصل الخامس) طمى تربة الدلتا التى رسبها نهر النيل ، وهى العبارة التى كثيرا ما اقتبست كقول مأثور لوصف الحياة فى كل أنحاء مصر ، فمياه النيل تعتبر مصدرا للحياة فى ذلك الجزء الشمالى الشرقى من قارة أفريقيا ، وبدونها كان لايمكن أن تسكن هذه المنطقة أو تقوم فيها حياة .

إن مصر التى تقع ليبيا فى غربها ، والبحر الأحمر فى شرقها والسودان (النوبة قديما) فى جنوبها والتى تقع جنوبى البحر المتوسط الذى يقع فى شمالها عبارة عن منطقة صحراوية مترامية الأطراف . هذه المنطقة يقطعها شريط أخضر يمثل وادى نهر النيل وتربطها بالغرب عدة واحات منتشرة فيها ، ولايوجد بها إلا ثلاث مساحات واسعة ذات أحجام مختلفة تصلح للزراعة وهى تلك الخاصة بوادى النهر والتى تمتد فيما بين عشر وعشرين كيلو مترا فى اتساع عرضها ، ودلتا النهر الخصبة التى كانت تتكون من سبعة فروع حيث يقوم النهر من خلالها بتفريغ مياهه فى البحر المتوسط ، وهى عبارة عن مثلث متساوى الأضلاع يبلغ طول ضلعه مئتا كيلو متراً ، وعلى بعد مائة كيلو متر من الجنوب الغربى للقاهرة يقع منخفض طبيعى يصب النهر فيه كمية من مياهه مكونا بذلك بحيرة فى القاع ، وتسمى هذه المنطقة اليوم بالفيوم (وهو اسم مشتق من الاسم القبطى للبحيرة) وكانت تسمى فى العصر الهلينيستى والرومانى بإقليم أرسينوى ، وكانت مساحتها المسطحة تبلغ ١٦٠٠ر١ كيلو مترا مربعاً (٦٤٠ ميل مربعاً) وتتغذى على شبكة من قنوات الرى تشغل حوالى ١٠٪ من مساحة الأراضى الزراعية فيها . وتبلغ مساحة البحيرة اليوم ٢٨٠ كيلو مترا مربعا ، وهى تمثل نصف مساحتها القديمة حيث انخفض مستوى سطحها حوالى عشرة أمتار ، وعلى الرغم من تراكم الأراضى الغائرة إلا أن مساحتها الزراعية اليوم أقل مما كانت عليه فى العصر الرومانى . ويرجع السبب فى ذلك إلى سلسلة عوامل رد الفعل التى بدأت فى أواخر العصور القديمة . فقد ترتب على المشاكل الاقتصادية تشدد الدولة فى تحصيل مستحقاتها مما أدى إلى هجر الأراضى الزراعية

والزراعـة وكنتيـجة لما تقدم ، فـقد زادت الأعـبـاء على من تبـقى من السـكان ، ولذلك وجد السكان أنفسـهم في وضع سيىء وحرج للغاية ، لذلك هجرت قرى بأكملهـا من سكانهـا وخصوصا تلك الواقعة على حافة الصحراء ، فأصبحت أراضى قرى بأكملها بوراً ، والمعروف أن هذه الأراضى التى تركها سكانها والتى تقع على حافة الصحراء كانت نائية ومرتفعة عن سطح الأرض لذلك أصبح هناك عجزا فى توصيل مياه الرى إليها ، فأهملت مرافق الرى فيها ولم يعد يصلها مادة الغرين الخصبة ، لذلك تركت الأراضى التى هجرها أصحابها دون زراعة ، وهكذا فسدت جميع مراحل الدورة ، ولذا كان يجب أن تبدأ من جديد ، وسرعان ماطفت رمال الصحراء على تلك الأراضى . (١)

ويفيض نهر النيل على الجانبين فى فصل الصيف ، ويغطى جميع أنحاء الوادى الذى يتحول إلى بحيرة عريضة ، أما السبب فى حدوث هذه الظاهرة الطبيعية فقد كان موضوعا للبحث والتفكير طوال العصر القديم .

إذ ذكر هيرودوت فى القرن الخامس ق.م أن أى فرد لايستطيع أن يتحدث عن منابع النيل، لأن أفريقيا التى ينبع منها بلاد مقفرة وغير مأهولة بالسكان وعلى أى حال فقد سجل لنا النظريات الثلاثة ، التى كانت معروفة فى عصره عن الفيضان وأضاف إليها أخرى من تصوره، لقد رفض هيرودوت جميع النظريات السابقة عليه حتى تلك النظرية الصحيحة التى كانت من بينها والتى طرحها الفيلسوف أناكساجوراس Anaxagoras والتى ورد ذكرها أيضا فى إحدى شذرات عمل مفقود للكاتب المسرحى يوريبيديس Euripides ثم نقرأ لدى ديودور الصقلى Diodorus of Sicily بعد أربعة قرون من هيرودوت عدة تفسيرات أخرى كان من بينها التفسير السليم والذى كان مايزال مرفوضا حتى عصره ، وقد كتب بلينى الكبير Pliny فى منتصف القرن الأول الميلادى "أن النيل ينبع من مناطق لم يتم الكشف عنها بعد "ثم واصل وصفه للمناطق العليا التى يصلها بطريقة تتغلب فيها الأسطورة على الحقيقة". (٢)

إن ما كان يحدث ، كما أثبت المكتشفون فى العصر الحديث ، أنه عندما تذوب ثلوج جبال الحبشة فى فيصل الربيع ، ينتج عن ذلك انحدار بلايين من الجالونات من المياه التى تنحدر فى النيل ومنابعه # ، وتتلاحق المياة فى اندفاعها وتتجه من الجنوب إلى الشمال فى القارة

يذكر المؤلف هنا أن السبب فى فيضان نهر النيل يرجع إلى ذوبان الثلوج التى توجد فوق جبال الحبشة ، بينما المعروف علميا أن السبب فى الفيضان يرجع لسقوط الأمطار الغزيرة فوق هضبة الحبشة أثناء فصل الصيف .

الأفريقية وتدخل مصر فى شهر يونيو ، وقد تم الآن التحكم فى مياه النهر فى مصر عن طريق السد العالى فى أسوان ، أما خلال العصور القديمة فقد كان النهر يسير فى طريقة دون تحكم ، ويصل منف وإقليم الفيوم فى مدة تتراوح بين أسبوعين وثلاث أسابيع ، وفى خلال الشهر الأول من توغله فى الأراضى الزراعية كان يسميها المصريون اسما شاعريا وهو "حلوى أوزريس" وفى أثناء هذه العملية من الترشيح البطىء للمياه تمتلىء التربة بالتجاويف وتتكون المستنقعات ، وفى حوالى ٢٠ يونيو كان يحدث تغيير مثير يشار إليه بارتفاع النجم سيريوس Sirius نجم الشعرى اليمانية ، وكانت المياه عندئذ تحمل الطمى وتنقله مع ماسبق وأن جرفته قبلاً من منابع النهر البعيدة ، وهنا يتحول لون الأرض من الأخضر إلى اللون الأحمر الذى يميل الى البنى ، وفى نفس الوقت يبدأ النهر فى الارتفاع بسرعة حتى يفيض مجراه على سهل الوادى ، ثم يتباطىء فى ارتفاعه ويغطى مساحة عريضة لمدة تبلغ حوالى شهرين أو أكثر ويصبح شكل الوادى مثل البحيرة ولاتتوقف المياه إلا أمام المدن والقرى التى تقع على مستوى مرتفع من الأرض . وقد جذب هذا المنظر عددا كبيرا من الزوار من بينهم أباطرة الرومان الذين كانوا يقفون مندهشين من منظره الرائع ، وقسد سجل لنا سينيكا Seneca الفيلسوف والكاتب المسرحى الرومانى ، والذى كان يمتلك ضيعة ضخمة فى مصر فى القرن الأول الميلادى هذا المنظر قائلا : إن منظر الريف يصبح أكثر روعة عندما ينشر النهر نفسه عليه ، وكثيرا ما كان نهر النيل أثناء فترة الفيضان موضوعا تناوله الفن الرومانى ، سواء فى ميدان الرسم (كما يشاهد اليوم فى مدينة بومبيى Pompeii) أو فى الخزف ، وأشهر نماذج الخزف التى لدينا فى هذا المضمار ذلك الذى تم العثور عليه فى منطقة باليسترينا Palestrina على مقربة من روما (صورة رقم ٥) . (٣)

ويبدأ الفيضان فى التراجع منذ منتصف أغسطس عند إلفانتين ، ثم عن الفيوم منذ منتصف سبتمبر ، وتستغرق هذه العملية بين عشرين ومائة يوم منذ بدايتها ، بعدها يبدأ الفيضان فى الانحسار وينخفض منسوب المياه ببطىء فى البداية ثم يبدأ فى الإسراع بعد ذلك ومع نهاية شهر أكتوبر يبدأ النهر فى العودة إلى مجراه ويترك وراءه على الحقول كما كبيرا من الرواسب ويعادل هذا الكم بمكاييل اليوم حوالى عشرين طنا من المواد المخصبة على كل هكتار من الأراضى وبالإضافة إلى ذلك فإنه كان يجرف معه عددا كبيرا من فئران الحقول (الجرزان) مما يعتبر عملاً إضافياً مساعداً للفلاح . ثم تواصل المياه فى الشهور التالية انخفاضها فى النهر ببطىء حتى تصل إلى أدنى مستوياتها قبل موسم الفيضان فى السنة التالية ، تلك هى هيدوجرافية hydography (وصف المياه) النيل فى معدلها السنوى المتوسط .

ولقد أدرك سكان مصر منذ عصور ماقبل التاريخ أن حجم المحصول الزراعى الذى سيتم الحصول عليه يرتبط ارتباطا مباشرا بمستوى ارتفاع منسوب فيضان النيل . وقد ذكر لنا بلينى Pliny الكبير فى تاريخه الطبيعى : "أن ارتفاع منسوب المياه الستة عشر ذراعا يعتبر معدلاً ملائما " أما إذا انخفض منسوب المياه عن ذلك فليست هناك إمكانية لرى جميع الأراضى الزراعية ، أما إذا زاد عن ذلك فإنه فيؤدى إلى تأخر انحسار المياه من الأراضى ، مما ينتج عنه تأخر فترة بذر الحبوب نتيجة لتشرب التربة بالمياه ، أما إذا حدث العكس فإن ذلك يؤدى إلى عدم التمكن من بذر الحبوب فى موسمها نتيجة لجفاف التربة ، وقد تم تقدير المقاييس على النحو التالى :

- منسوب ١٢ ذراعا يؤدى إلى حدوث مجاعة ، منسوب ١٣ ذراعا تظل المجاعة قائمة ، منسوب ١٤ ذراعا يجلب السعادة ، منسوب ١٥ ذراعاً يبعد القلق ، منسوب ستة عشر ذراعا يجلب البهجة والسرور . وقد أضاف بلينى الذى توفى نتيجة لثورة بركان فيزوف Vesuvius عام ٧٩م أن أدنى معدل لمنسوب مياه الفيضان فى عهده قد سجل فى عام ٤٨ ق.م حيث بلغ ارتفاع الفيضان خمس ذراعاً ، أما أعلى منسوب له فقد سجل فى عام ٤٥ م حيث بلغ ١٨ ذراعاً . وقد كشفت إحدى البرديات التى نشرت حديثا بطريقة غير مباشرة تلك الكارثة التى وقعت عام ٩٩م نتيجة لانخفاض منسوب مياه الفيضان ، مما أدى لانتشار المجاعة الأمر الذى دفع الإمبراطور تراجان ، إذا جاز لنا أن نصدق بلينى الصغير ، الذى أطنب فى الثناء عليه، لأن يصدر أوامره إلى السفن التى كانت تحمل قمح مصر أن تعود إليها بحمولتها الثمينة مرة أخرى .(٤)

ويتضح مما تقدم أن منسوب المياه أثناء الفيضان كان يساعد مقدما على معرفة المحصول الزراعى المتوقع .. ومن هنا جاء اختراع مقياس النيل ، ومقياس النيل فى شكله البدائى وببساطة عبارة عن صخرة من حجم مناسب يضعها أحد الرجال فى النهر أو فى إحدى البحيرات، وتوضع عليها علامات أفقية لقراءة ارتفاع منسوب المياه فى السنوات المتعاقبة . ثم قام المصريون خلال العصر التاريخى بتشييد وإقامة مبنى كبير ، يحمل نفس الفكرة الأساسية السابقة ، وكان فى العادة عبارة عن حائط صخرى دونت عليه علامات المنسوب ويقام فى مكان يمكن النزول إليه فى النهر عن طريق عدة درجات فى مستوى واحد مائل . وتوضح العلامات الأفقية على الجدار الداخلى معدل ارتفاع منسوب المياه ، والتى يتم قياسها بالذراع (الذراع $\frac{١}{٤}$ ٥ متر) وأجزائه ، والواقع أنه لم يكن هناك اختراع مماثل لهذا فى أى

نهر فى العالم القديم ، لذلك كان الزوار فى العصر القديم والسواح فى العصر الحديث يبهرون عند رؤيتهم لما يزال قائماً من آثار هذا الاختراع . وقد أقيمت المقاييس فى أماكن عديدة فى النهر لإرشاد الجهات المحلية ، وارتبطت هذه المقاييس المحلية فى كثير من الأحيان بمعبد النيل (وقد رأينا فى الفصل الخامس أن النيل عبد كإله). وكان يوجد فى البهنسا مقياسان أحدهما كبير والآخر صغير ، وعلى بعد حوالى ٤٠ كيلو مترا جنوبها حيث كانت تقع قرية أكوريس Akoris نجد أحدها (مايزال قائما حتى اليوم ويمكن أن نقرأ عليه سلسلة من النقوش التى توضح قمة ارتفاع منسوب المياه فى النيل لعدة سنوات فى أواخر القرن الثالث الميلادى ، أما مفتاح مقاييس النيل جميعها فيتمثل فى المقياسين الواقعين على جزيرة إلفانتين لأنهما كانا أول جهاز لقياس منسوب مياه الفيضان عند دخولها مصر ، وعندما كان الفيضان يصل إلى ذروته كانت أنباؤه تصل بسرعة بالغة عن طريق الرسل المنتشرين على طول الطريق حتى تبلغ الإسكندرية ، حيث تقوم الحكومة المركزية بتقدير حجم المحصول الزراعى والضرائب المتوقعة عليه . ومازلنا نستطيع قراءة ماتم تسجيله على مقياس إلفانتين عن معدلات منسوب المياه وحتى الآن وهى على النحو التالى :

* عام ٢٥ من حكم أغسطس قيصر ، ٢٤ذراعا ، ٤ أكف ، وإصبع واحد {عام ٥ ق.م} .
* عام ١٣ من حكم نيرون قيصر ، ٢٤ ذراعا ، ٦ أكف ، وإصبع واحد {عام ٦٧م} .
* عام ١٠ من حكم دومتيان قيصر ، ٢٤ ذراعا ، ٤ أكف {سنة ٩١م} .
* عام ١٤ من حكم تراجان قيصر ، ٢٥ ذراعاً {سنة ١١١م} .

"من أجل ذلك "كتب هيرودوت : "أنه لايوجد رجال فى العالم أجمع يمكن أن يحصلوا على المحصول الزراعى من التربة بهذا القدر الضئيل من العمل ، فهم لايكدون لحرث الأرض بالمحراث ، كما أنهم لايقلبون التربة ولا يقومون بأى نوع من العمل الذى يقوم به الآخرون للحصول على المحصول الزراعى ، فالنهر يرتفع تلقائيا ليروى الحقول ، ثم تنحسر المياه بعد ذلك ، ليقوم كل فرد ببذر الحبوب فى حقله ثم يترك الخنازير التى يستخدمها لتسير على البذور لتدكها فى الأرض ثم ينتظر حتى جنى المحصول [٦] " ويمكننا أن نفهم سبب دهشة هيرودوت حيث إنه إغريقى وفد من ذلك الجزء من العالم حيث يقوم الرجال بتقليب وتشقيق الأرض بأدواتهم التى لاحصر لها ، كما يستخدمون مهاراتهم من أجل الحصول على محصول من تلك التربة الصخرية ذات السمك الضئيل من الغرين فلم تكن الزراعة المصرية فى نظر

هيرودت سوى الحصول على مكافأة بدون عمل . لكن الحقيقة أن الفلاحين المصريين كانوا بالفعل يقومون بحرث الأرض خصوصا أثناء تطهير الأرض أو إصلاحها واستصلاحها لإعدادها للإنتاج بعد أن تكون قد تركت لفترة من الزمن . كما أنهم كانوا فى الحقيقة يقومون بتقليب التربة وزراعتها بانتظام ، بالإضافة إلى استخدام المخصبات عند الحاجة إليها ، وخصوصا فى الأراضى التى تزرع بالخضروات وأشجار الزيتون .

وكانت مياه الفيضان تستغل فى المقام الأول فى رى الأراضى التى كانت فى حاجة أكثر إليها ، أو لتلك الأراضى التى لم يمكن من السهل وصول المياه إليها دون مساعدة بشرية ، ولتحقيق هذه النتيجة وضع الفراعنة لأول مرة هندسة نظام الرى التى تم التوسع فيها أثناء فترة الحكم البطلمى ، وقد شهد هذا النظام أضخم توسع له فى حوض إقليم الفيوم المتسع ، بعد أن كانت قد انهارت أغلب أجزاء هذا النظام أثناء فترة الضعف وعجز الحكومة المالى فى أواخر العصر الفرعونى لعدم تمكنها من إجراء الصيانة اللازمة لقنواته . وبعد فتح مصر قرر أوكتافيا نوس أن يجعل من ولايته الجديدة مصدرا أساسيا يعتمد عليه فى إنتاج القمح لكى يساهم فى إطعام مدينة روما . لذلك فقد أصدر الأوامر لجنوده وللمكلفين بالعمل من أطقم العمال المحليين بإعادة بناء الجسور المنهارة ، وتطهير ماتراكم فى القنوات من رواسب على وجه السرعة ، كما أمر بصيانتها بطريقة منتظمة عن طريق فرض نظام السخرة ، وقد فرضت السخرة على كل ذكر بالغ وعلى عبيده فى حالة وجودهم للقيام بأداء العمل فى الترع والجسور كل عام بدون أجر أو بلا مقابل ، لمدة خمسة أيام فى الظروف العادية ، ويمكن إطالتها لأيام أخرى إذا ما استجدت ظروف استثنائية طارئة . وقد كان كم السخرة فى مصر العليا وفى بعض المناطق الأخرى يقاس بالكميات التى تم رفعها من تراب أرض أكثر من قياسه بزمن العمل .

وتتضح لنا الدرجة التى كان يتقرر بها العمل ويدار عن طريق سلسلة من الأوامر التى تصدر من مقر الحكومة فى الإسكندرية لتصل إلى أصغر وحدة محلية فى مصر، من خلال ذلك الخطاب الدورى الذى كان يوجه من مديرى الأقاليم إلى محصلى الضرائب الغلال فيه وقد صدر من الإسكندرية خطاب فى أول أبريل عام ٢٧٨م ، وهى الفترة التى تصل فيها مياه النيل إلى أدنى انخفاض لها فى أثناء الدورة السنوية للنهر . ومما لاشك فيه أن مثل هذا الخطاب الروتينى كان يصدر كل عام ، وهو على النحو التالى :

"لقد وصلنا الآن إلى موسم إصلاح الجسور وتنظيف القنوات ، لذلك فقد ارتأيت أنه من الأفضل أن أذكر بخطابى هذا كل فلاحى منطقتكم أن يبدأوا العمل المكلفين به بكل حماس وبدون ملل من أجل المصلحة العامة ، ولمصلحة كل منهم شخصيا كذلك ، وإننى لعلى يقين من أن كل فرد يدرك تماما مدى الفائدة التى ستعود عليه نتيجة للقيام بهذا العمل ، ولذلك ينبغى النظر إليه بهذا المفهوم طبقا لما هو مذكور فى اللوائح ، وعلى المراقبين الذين يتم اختيارهم من بين الموظفين والمواطنين العاديين أن يلزموا دون تعنت أو تحيز كل فرد وأن يدفعوه شخصيا إلى القيام بالعمل المكلف به ، حتى يمكن أن تصل الجسور فى ارتفاعها وعرضها إلى الحد المطلوب، وحتى يمكن إتمام رأب التشققات فيها ، ويتم التأكد من أنها قادرة على أن تقاوم المقدم السعيد لفيضان نهر النيل المقدس ، وأن يتم كذلك تطهير الترع حتى يتم تخليصها من "معوقات التطهير" كما تسمى ، وذلك كى تحتوى بسهولة ويسر تدفق المياه وتوجهها لرى الحقول وكى يعم الخير على الجميع ، ويحظر على أى فرد قطعيا أن يدفع أى مبلغ من المال مقابل تأدية العمل . وأى شخص يجرؤ على القيام بأية محاولة لإهمال هذه الأوامر عليه أن يدرك أنه بهذه المغامرة لايعرض أملاكه فقط بل حياته شخصيا للعقاب حيث سيتم محاكمته لتعطيله الإجراءات التى وضعت لحماية جميع أنحاء مصر" .

وتمثل الجملتين الأخيرتين من هذا الخطاب المشكلة المزمنة التى كان يثيرها نظام السخرة ، حيث كانت هناك فرصة للمحاباة ، والرشوة ، والمحسوبية ، وقد اتهم اثنان من موظفى إحدى القرى قبل مائتى سنة المشرف على الجسور : "بتقاضى مبلغ أربع دراخمات من كل فرد من الرجال الذين بلغ عددهم تسعة وخمسين رجلا نظير عدم قيامهم بأداء العمل فى الجسور العامة .. كما قام بحماية تسعةرجال آخرين والتستر عليهم على نحو مشابه" .(٧)

وفى الواقع فقد كان العمل يجرى طوال العام طبقا للحاجة ، ولكن حتى بعد تلك الاستعدادات التى ورد ذكرها فى الخطاب السابق ، فإن أكبركم من العمل كان يتم فى أثناء شهور الفيضان ، حيث يصبح من الضرورى توجيه المياه الثمينة إلى المناطق التى تحتاج إليها ، وقد جرت العادة على أن يقوم الرجال بأداء السخرة فى قراهم أو على مقربة منها. وبالرغم من ذلك فلدينا ثلاث حالات على الأقل تم فيها أداء السخرة لمدة خمسة أيام على بعد عشرين كيلومترا من مكان إقامتهم وعندما تم ترحيل ١٨٠ رجلا من قرية تيبتونس Tebtynis لمسافة ١٢ كيلومترا فى أوائل شهر فبراير ، وهو الوقت الذى يبدأ فيه النهر فى العودة إلى مجراه،

حيث يبدأ فى الهبوط التدريجى ، فلا ريب أن السبب فى ترحيلهم كان يرجع إلى ظرف طارىء ، حيث إن حدوث انهيار كبير فى أحد الجسور الرئيسية كان يحتاج إلى عدد كبير من الأيدى العاملة . (٨)

وبعد أن يؤدى العامل العمل المكلف به ، كان يحصل على مخالصة تفيد أداءه العمل وهى مدونة على شريحة من البردى أو على الأوستراكا # ، وإليك الآن نموذجا منها وهو واحد من أكثر من أربعمائه إيصال مخالصة ماتزال موجودة لدينا :

"السنة الثانية عشر من حكم الإمبراطور تيبريوس كلوديوس قيصر أغسطس جرمانيكوس (عام ٥٢م) لقد أتم بسينامونيس هارباجاثوس Psenamounis S. of Harpagathos من قرية سكنوبا يونيسوس Soknopaiou Nesos العمل فى قناة بورسيرى Porsiere الملاحية لمدة الأيام الخمسة المنصوص عليها لإنجاز بناء الجسر فى السنة المذكورة . ولقد قمت أنا كوراكس Korax بالتوقيع ، وأنا سوخاس Souchas موظف الكاتب الملكى فى الإقليم بالتوقيع معه" . (٩)

وكان على نظام الرى أن يتواءم فى عدة أماكن مع الصعوبات التى يواجهها ، فليس من الممكن أن تصل المياه إلى المناطق المرتفعة . وحتى إذا ما أمكن أن تنساب المياه بسهولة عبر القنوات فإنه كان يجب أن يتم رفع المياه الى الأراضى المرتفعة بالوسائل الصناعية عند انخفاض منسوب المياه فى النهر . وقد استخدم "لولب" ارشيميديس Archimedes (= الطنبور) الذى أطلق عليه الإغريق اسم كوخلياس Kochlias (أى اللولب) إلى حد ما . وقد أشار ديودورس إلى استخدامه فى الدلتا ، كما أخبرنا استرابون بأنه كان يتم رفع المياه إلى المعسكر الحربى الكبير بالقرب من ممفيس بواسطة ١٥٠ سجيناً كانوا يديرون الطنابير وعجلات المياه . ولما كان الطنبور مرتفعا فى ثمنه لذلك لم يكن فى استطاعة الفلاح الذى يحتاج إلى استخدامه أن يقوم بشرائه ، لذلك قاموا باختراع وسيلة أو وسيلتين أكثر بساطة ورخصا منه ، وهذه الوسائل ترجع فى أصولها إلى العصر المبكر ، ومازالت تميز المنظر العام للأراضى الزراعية فى مصر الحديثة (لوحه ٦، ٧) وكانت تسمى كيلون Kêlôn (أى الأرجوحة ذات الذراع) فى العصر الرومانى ، أما اليوم فتسمى بالشادوف . وهو عبارة عن عمود خشبى

راجع عن نظام السخرة : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص ٢١٤/٢١٥ .

مركب على نقطة ارتكاز ويعمل بتأرجح ، ويتدلى من أحد جانبيه سطل ينغمس فى المياه ليتملىء ، ويستخدم ثقل فى الجانب المعاكس من السطل ليسهل رفع السطل عند ملئه بالمياه، أما الوسيلة الأخرى فتسمى الآن بالساقية ، وكانت آنذاك تسمى بالآلة mechenê وأحيانا نختصر إلى العجلة Trachos ، وهى عبارة عن ونش بكرة (= عجلة) مثبت جيدا فوق بئر ، ويقوم ثور أو حيوانات للجر بالسير دائريا حول العجلة الأفقية التى يسير تحت نيرها ، وتبدأ سنون الإطار الخارجى للعجلة تتداخل فى بعضها من الزاوية اليمنى لمحور مدار العجلة الذى ينتهى بسلسلة من الأسطال ، التى تملأ عندما تغمس فى المياه السفلى ، ثم يقومون بسكب محتوياتها عندما تكون فى وضع منكس حتى يحصلوا على أقصى ارتفاع لقوس دائرتهم#.(٩)

وبالرغم من جهود الرجال ومهارتهم إلا أنه لم يكن بالإمكان الحصول على المحصول العادى من الأرضى فى السنة التى تنخفض فيها مياه نهر النيل عن الحد الأدنى الذى تحتاج إليه الزراعة ، وتتضح لنا تقلبات فيضان نهر النيل من مجموعتين من وثائق عصر هادريان (١١٧/١٣٨م) فلدينا عدة طلبات لتخفيض ضرائب الأراضى عن الشهور التى تلت مباشرة ارتقاءه العرش ، وقد اعتمد فيها مقدموها كما جاء فى صيغتها الجارية : "بالإضافة إلى المساعدات التى قدمها مولانا الإمبراطور هادريان قيصروالتى أمر فيها بأن يتم ربط الضرائب على الأراضى الملكية والعامة والضياع الإمبراطورية طبقا لحالتها الفعلية وليس طبقا لحالتها القديمة" والطلب التالى يمثل أفضل الطلبات التى وصلت إلينا :

"إلى أبو لونيوس مدير إقليم أبو للونوبوليس Apollonopolis ذى القرى السبع من باقيس بن هونيس Paphıs S. of Hones وإخوته من قرية تريثيس Terythis (نفيدكم) بأن الأراضى الملكية المسجلة باسم والدنا هونيس والتى تقع بالقرب من القرية المذكرة على النحو التالى :

مساحة $\frac{١}{١٢}$ ٣ أروا ، $\frac{١}{٢}$ ١ أروا أخرى بمعدل ضرائب. $\frac{١}{٢}$ ٣ أردباً على الأرورا .

ومساحة $\frac{٤٣}{}$ أروا ، ضرائبها ٢ أردباً .

ومساحة $\frac{١}{١٦}$ ٦٤ أرورا ضرائبها $\frac{١}{١٢}$ ٥ أردباً .

عن أدوات الرى فى مصر فى عصر الرومان راجع : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان جدة ، ١٩٨٤ ، ص ٢١٧ ومايليها ؛ هرموبوليس ماجنا رسالة ماجستير جامعة القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٩٤ - ٩٧ .

مساحة أروا واحدة ضرائبها $\frac{١}{١٢}$ ٤ أردباً .

المساحة الإجمالية $\frac{٤٧}{٦٤}$ ٦ أروا (ست أرورات + $\frac{٤٧}{٦٤}$ من الأرورا) .

وحيث إن هذه المساحات لاتنتج الآن إنتاجا كافيا لفرض مثل هذه الضرائب العالية ، والتى تئن تحت وطأة أعبائها ، فإننى أتقدم ملتمسا طبقا لأوامر مولانا وسيدنا هادريان قيصر مسدى الخير لجميع سكان العالم بأن تعامل الأرض مستقبلاً بمعدل ضرائب قدرة — ١ أردباً من الغلال عن كل أرورا ، وأن تقيد لحسابى ويسمح لى بإبقاء الأراضى التى $\frac{١}{٤}$ لم يصلها الفيضان ، ونصف مساحة الأرض التى تروى عن طريق ضخ المياه كما جرت عليه العادة ، وذلك حتى يمكننى أن أشارك فى عمل الخير والسلام . (التاريخ ٢٨ ديسمبر ١١٧م)" .

ثم رأى الإمبراطور هادريان فى أواخر عصره ضرورة إجراء تخفيض آخر للضرائب لفلاحى مصر ، ففى منشوره المؤرخ فى ٣مايو ١٣٦م والذى حفظت لنا أجزاء منه فى شذرات بردى القاهرة وأوسلو نجد إشارة إلى أن فيضان النيل "لم يكن كافيا أو كاملاً لمدة سنتين متتابعتين، وتبعا لذلك فقد منح حق تأجيل الضرائب لمدة تتراوح بين سنتين إلى خمس سنوات. (١١)

التقويم الزراعى (تقويم الفلاح) :

حيث إننا سنقوم الآن باستعراض المحاصيل الزراعية الرئيسية فى مصر الرومانية وطريقة إنتاجها ، فمن الأفضل أن نلقى نظرة على التقويم الزراعى ومقابلتة بالتقويم القبطى والذى كانت السنة فيه تبدأ بشهر توت Thot (٢٨ أغسطس) وفيما يلى خطة النشاط السنوى الرئيسى فى منطقة ممفيس وإقليم الفيوم ، والتى كانت تبدأ مبكرة عن فترة النشاط السنوى فى طيبة بمدة تتراوح بين أسبوعين إلى أربعة أسابيع :

يونيو (بوؤنة Poyni)* : بداية ارتفاع النيل ، ونهاية فترة حصاد محاصيل الغلال واستمرار درسها .

يوليو (أبيب Epiph) : استمرار ارتفاع فيضان النيل ، والوصول لمرحلة الفيضان . انتهاء موسم دراسة المحاصيل .

* عن شهور السنة القبطية المصرية راجع : آمال الروبى ، اجهزة الحكم فى روما جدة ١٩٨٧ ، ص ١٠٩ .

أغسطس (مرح Mesore) : الاقتراب من مرحلة الفيضان الكاملة ، بداية جمع محصول الكروم .

سبتمبر (توت Thot) : قمة فيضان النيل ، ثم بداية الانخفاض ، الانتهاء من جمع الكروم، جنى البلح .

اكتوبر (بابة Phaophi) : انتهاء الفيضان ، بداية بذر محاصيل الغلال ، جمع محصول الزيتون ، جمع محصول البلح فى ذروة إنتاجه .

نوفمبر (هاتور Hathyr) : استمرار بذر الغلال وبداية الزراعة وجمع الزيتون وبعض البلح .

ديسمبر (كهيك Choiak) : استمرار الزراعة ، استمرار جمع الزيتون .

يناير (طوبة Tybi) : انتهاء موسم حصاد الزيتون ، بداية موسم ثمار زراعة العنب والزيتون .

فبراير (أمشير Mechir) : بداية الاستعداد لموسم جنى القمح .

مارس (برمهات Pharmouoth) : استمرار الاستعدادات .

ابريل (برموده Pharmouthi) : بداية جنى محصول القمح .

مايو (بشنص Pachon) : استمرار جنى المحاصيل وبداية درسها .

محاصيل الغلال : #

كان القمح والشعير هما المحصولين الرئيسيين فى الزراعة المصرية ، واستخدم المحصول الأول فى صناعة الخبز ، واستخدم الثانى فى صناعة البيرة بصفة رئيسية (والتى اكتشفت عملية تخميرها منذ آلاف السنين السابقة) أما محصول الغلال الثالث فهو ذلك الذى كان يسمى بالإغريقية أوليرا Olyra ، ويبدو أنه كان نوعا قديما من أنواع البرسيم ، وكان يعتبر محصولا قليل القيمة ولذلك كان يوزع فى مساحات أقل ، وكان يقدم فى بعض الأحيان كطعام للحيوانات .

عن المحاصيل الزراعية راجع : المؤلفه ، مصر فى عصر الرومان ، ص٢١٨ ومايليها .

يرى المؤلف أنه لم يكن هناك أى دور للعبيد فى الحياة الزراعية فى مصر ، بينما تثبت بعض الوثائق أنهم استخدموا فى الملكيات الزراعية الكبيرة ، فقد كان لدى أسرة إبيماخوس Epimachos مالايقل عن ستة من العبيد ، وكانوا يقومون بأعمال مختلفة فى ضيعته ، وفى حالة عدم وجود عمل لهم فى المزرعة كان يمكن =

ولما كان الفلاح هو الذى يقوم بكل أنواع العمل الزراعى تقريباً ، كما هو الحال اليوم ، فقد كان باستطاعته أن يؤدى أى نوع من أنواع العمل الذى يحتاجه الموسم الزراعى وتتطلبه الظروف . وقبل قيام الثورة الصناعية كان نوع العمل الذى يتاح للفلاح هو ذلك الخاص بأرضه أو ذلك الخاص بالآخرين أو المتعلق بالحيوانات المنزلية : فقد كان الفلاح يعمل بمساعدة بعض الآلات البسيطة والأدوات ، ومما لاشك فيه أنه كان يوجد عدد من الأنشطة الزراعية التى كانت تحتاج إلى نوع من التخصص أو الخبرة ، فنحن عندما نقرأ على سبيل المثال عن تأجير عمال لجمع محصول العنب فنحن نفترض على الفور أنهم ليسوا مجرد عمال عاديين ، ولكنهم كانوا أشخاصا تتوافر لديهم مهارة فى هذا النوع الخاص من العمل ، وبالرغم من ذلك فقد كان فى استطاعة هؤلاء العمال أن يقوموا بتأدية أعمال أخرى فى باقى فصول السنة من أجل تغطية احتياجاتهم المادية والمعنوية . وفى الواقع لقد كانت الفئة الوحيدة فى المسرح الزراعى التى كان لديها عملها الدائم طوال العام تتمثل فى المشرفين على الضياع ، وملاحظى العمال ، وبعض هؤلاء الأفراد الذين كانوا يقومون بعمل يرتبط بالحيوانات الأليفة مثل رعاة الأغنام ورعاة الأبقار ، وسائقو حيوانات الركوب ، وحتى هؤلاء الذين يأتون فى آخر القائمة فنحن متأكدين من أنه كان يمكن تحويلهم إلى أداء واجبات أخرى عندما تكون هناك حاجة ماسة إلى أيدى عاملة إضافية .

ولم يكن للعبيد كما سبق وذكرنا فى الفصل الرابع أى دور تقريباً فى الحياة الزراعية # ، وكانت زراعة القسم الأكبر من كل أقسام الأراضى سواء الأراضى الملكية أو العامة (بما فيها من ضياع) والأراضى الخاصة ، والضياع الإمبراطورية ، وأراضى المعابد ، تتم عن طريق تأجيرها ، أو تأجيرها من الباطن لملتزميها من الفلاحين سواء أكانت هذه العقود فردية أم جماعية ، كما كان جزء من أراضى الضياع يدار عن طريق تأجير عمال كان بعضهم موظفين دائمين بها وكان العدد الأكبر منهم يأتى عن طريق تأجيرهم طبقا للاحتياجات الموسمية - أما

= إرسالهم إلى أماكن أخرى للعمل بها ، لذلك لم يظهر سائق الحمير باوس Paos إلا قليلا ، كذلك لم نرى عامل البناء إلا مرة واحدة ولم يذكر أن أيا منهم قد حصل على أجر له . وكان لدى أسرة سيرابيون مالايقل عن خمسة عبيد وجرت العادة على أن يشرف على سير العمل فى الملكيات الكبيرة ناظر الزراعة الذى كان غالبا من العبيد المعتقين ، راجع :

A. Swiderek, op. Cit. pp. 58, 62, 72-3, 103 ; p. Sarapion, p. 307.

وأيضا آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص ١٧٣ .

صغار الفلاحين الذين شاء حسن حظهم أن يتملكوا مساحة من الأرض ، فقد كانوا يقومون بالعمل فى أراضيهم كمشروع أسرى ، كما فضل آخرون أن يعهدوا بأراضيهم للتزمين من الفلاحين ليقوموا بزراعتها . إذ كان يحدث فى بعض الأحيان أن يمتلك الفرد عدة مساحات من الأراضى المتفرقة ، لذلك كان يقوم بزراعة أقربها إلى محل إقامته ثم يقوم بتأجير تلك التى تقع فى الأماكن البعيدة ، ولم تعرف مصر الإنتاج الجماعى للمحاصيل الزراعية ، وكانت أغلب عقود الأراضى تبرم من أجل عوائدها المحددة سواء النقدية أو العينية أو كليهما معا .

واتبعت عقود تأجير الأراضى كما هو العادة فى العقود القانونية قواعد معينة حيث ذكرت فيها صيغ محددة كانت تعتبر أركانا أساسية فيها لتعطيها قوة قانونية وتلزم تنفيذ شروطها ، وكانت هناك أجزاء متغيرة فى العقود - فإلى جانب أسماء المتعاقدين بطبيعة الحال ، وتاريخ العقد ومكانه - كانت مدة سريان العقد بالإضافة إلى شروطه والالتزامات التى اتفق عليها الطرفان والتى ذكرت بالتفصيل ، وكانت طريقة اختتام عقد الإيجار تبدأ بعرض سعر شفوى أو مكتوب إلى المالك أو ممثله . لقد كان العقد بسيطاً فى شكله وكان عبارة عن عقد موقع ومرسل إلى المرسل إليه ، ولذلك فقد انتشرت عادة كتابة عقود منفصلة ، ويتم عقد هذه الاتفاقات فى فترة مبكرة قبل موسم بذر الحبوب ، وفى حالة ما إذا كان العقد يسرى لأكثر من سنة ، فقد جرت العادة على ذكر المحاصيل التى ستتم زراعتها بالتعاقب :

"إلى هيرون بن سرابيون ، القاصر ، Heron S. of Sarapion ومعه الوصى عليه إيسخريون بن هيرودوس Ischyrion S. of Herodos وفى حضور والدة القاصر هيروويس Herois - من أفرود يسيوس بن أكوسيلاؤس Aphrodisios S. of Akousilaos (من سكان) عاصمة الأقليم (أرسينوى) : إننىَ أرغب فى أن استأجر أراضى الكروم التى يتملكها هيرون والتى تقع بالقرب من قرية يوهيمير يا Euhemeria وتبلغ مساحتها (١١) أرورا - أو أيا كانت مساحتها - فى قطعة واحدة - لمدة سنتين تبدأ بالسنة الحالية الثالثة والعشرين من حكم مولانا أنطونيوس قيصر نظير إيجار سنوى قدره (٤٠) أردب غلال (وليس من ضمنها (التقاوى) حبوب البذر وتكال بالمكيال الخاص بالمعبد والذى يسع أربع خوينيكيس ، Four Choinix وذلك دون أى استقطاع أو غش يضر بالمستأجر وأتعهد بتأدية الأعمال السنوية - العمل فى الجسور والرى والحراسة وحرث الأرض وتقليبها وتطهير المجارى المائية وبذر الحبوب واستئصال الحشائش الضارة وأى عمل آخر تحتاجه الأرض - وذلك على نفقتى الخاصة وفى الوقت المناسب ، بحيث لاتحدث أضرار من أى نوع بالأرض ، وسوف أقوم فى السنة الأولى ببذر الأرض بالمحصول الذى اختاره فيما عدا "العُصفر" ، أما فى السنة الثانية فسوف أقوم

بزراعة نصف المساحة قمحا وأترك نصفها الآخر دون زراعة ، كذلك أتعهد أنا أفروديسيوس Aphrodisios بدفع نفقات نقل المحصول السنوى . وعلى هيرون أن يتحمل بقية الضرائب الأخرى ، وسوف أقوم بتسليم عوائد الأرض فى شهر بؤونه Payni (من القمح) الجديد النظيف غير المغشوش والخالى من الشعير فى قرية ثيادلفيا Theadelphia ، وبعد انتهاء مدة العقد ، سوف أقوم بعد تمام حصاد المحصول الذى قمت بزراعته بإعادة الأرض نظيفة من أية مخلفات ، أو أعواد للبوص ، والنجيل الصغير ، وأية مخلفات من أى نوع ، وذلك فى حالة الموافقة على العقد ، علما بأننى أبلغ - أنا أفروديسيوس Aphrodisios - من العمر حوالى أربعين عاماً ، ولدى ندبة فى وسط الجبهة "(التاريخ ١٩ نوفمبر ١٥٩م)" . (١٢)

وتذكرنا البذور (= التقاوى) التى ورد ذكرها فى الوثيقة السابقة بالمشكلة السنوية التى تواجه الملتزمين من الفلاحين ، فقد كانت هناك حاجة متكررة لاقتراضها لاستخدامها فى الزراعة أو اقتراض الأموال اللازمة لشرائها ، وبلغت فائدة القرض النقدى ١٪ شهريا والقرض العينى ٥٠ ٪ من قيمته . وفى بعض الأحيان كان يتم ترتيب (اقتراض) البذور مع المستأجر كجزء من شروط العقد ، وفى أحيانا أخرى يتم اقتراضها من طرف ثالث ، ولقد تمتع ملتزمى أراضى الدولة بميزة فى هذا الخصوص ، فقد كان من حقهم الحصول على قرض من الحبوب من صومعة الدولة ، دون مقابل ، ولكنهم نظير هذه الميزة كانوا يقومون بدفع جزء كبير من محصولهم كعائد للأرض أكبر من ذلك الذى كان يدفعه ملاك الأراضى الخاصة وعندما يقومون بالاقتراض من مخزون حبوب الدولة" كان مثل هذا الإجراء مقروناً بقدر هائل من الروتين الرسمى العقيم والذى كان هدف الدولة منه منعهم أو على الأقل عدم تشجيعهم على التلاعب، وحتى القروض الصغيرة التى لاتزيد قيمتها على $\frac{1}{4}$ ١ أردب غلال كان يحتاج لمثل هذه الإجراءات الطويلة كما يتضح لنا من الوثيقة التالية :

"من أسكليبياديس Asklepiades مدير إقليم البهنسا إلى هيراكلاس Heraklas الذى يسمى أيضا هيراكليديس Herakleides رئيس صومعة الغلال الواقعه فى منطقة باكركى Pa-kerké فى المركز الشرقى ، تحياتى عليك أن تقوم على مسئوليتى ومسئولية هيراكس Hier-ax الكاتب الملكى (للإقليم) بكيل غلال من أجود الأصناف من إنتاج السنة السابقة ، وهى السنة الثالثة عشر من حكم مولانا هادريانوس قيصر من أجل (تقاوى) السنة الرابعة عشر للمدعو أبو للونيوس ابن هليدوروس Apollonion S. of Heliodoros الذى تدعى والدته ثائيس ابنة خاريمون Thais d. of Chairemon من مدينة البهنسا والذى يبلغ من العمر ٧٨ عاما ، وله ندبة على حاجبه الأيمن وعليك أن تتعرف عليه على مسئوليتك الشخصية - وهى

البذور التى طلبها لبذر مساحة ١ $\frac{١}{\ }$ أرورا من الأرض التى يزرعها (وصف القطعة الأرض بالتفصيل) بالقرب من قرية أوفّيس Ophis على أن يكون القمح نظيفا غير مغشوش وخالياً من الشوائب والشعير وأيضا مغربلاً ، وعليك أن تكيل المقدار المذكور كاملا وهو ١ $\frac{١}{٤}$ أردب بالمكيال القانونى وبالطريقة المنصوص عليها ودون استقطاع أى جزء منه وفاء لدين أو لأى سبب آخر أيا كان ، وذلك حتى يتمكن من أن يقوم ببذرها فى الأرض كما يجب تحت إشراف الموظفين العاديين ، وسوف يقوم بإعادة نفس المقدار من المحصول الجديد مضافاً إليه ضرائب الدولة على الأرض ، كما أنك سوف تتسلم منه نسختين من إيصال الاستلام القانونى ، وعليك أن ترسل نسخة منها إلى (التاريخ ١٤ نوفمبر ١٢٩ ، التوقيع لإثبات صحة توقيع هيراكس Hierax)" . (١٣)

وبالرغم من ذلك الحرص فى المراجعة وتلك الشهادات ، فقد كان البعض يتمكن من إختفاء كميات من غلال الدولة . ففى خطاب لم ينشر بعد من بين بردى جامعة ميشجان أرسله والى مصر فى القرن الثالث إلى مديرى إقليم الفيوم هيبتاكوميا Heptakomia يؤنبهم فيه لتسامحهم لما بدر من موظفى الصومعة من إهمال ويأمرهم بالتأكيد من أن البذور المعدة للزراعة لم تسلم لغير المستحقين .

وقد أشار المراقبون الذين تم اختيارهم طبقا لأوامر المدير فى خطابه والذين كانت مناصبهم تعتبر جزءاً من الخدمة العامة التى لاتدفع الدولة أجراً لها أثناء موسم الفيضان ، إلى أن جميع البذور قد استخدمت بالفعل ولم يقم أحد بسرقتها ، بل زرعت أيضاً فى موسمها المناسب وقد قامت مجموعة من أمثال هؤلاء المراقبين بتقديم التقرير التالي فى ١١ سبتمبر سنة ١١٧م ، أى فى ذلك الوقت من السنة الذى كان يعهد فيه إليهم بالعمل بعد أن تكون مياه فيضان النيل قد بدأت فى تراجعها إلى مجرى النهر .

"إلى ابوللونيوس Apollonios مدير القرى السبعة فى أقليم أبو للونوبوليس Apol- lonopolis من بخيريس بن بؤوريس Pcheris S. of Pouoris وأورسينوفيس بن بتمينيس Orsenouphis S. of Peteminis مراقبى الفيضان فى قرية نابو Naboo. نقسم بحياة مولانا الإمبراطور قيصر تراجان هادريان المعظم أغسطس جرمانيكوس داكيكوس بارثيكوس أننا سنراعى أن يتم جرث جميع المساحات فى الأراضى المذكورة فى القائمة وأن تصبح معدة لبذر الحبوب فى خلال ثلاثة أيام ، وإذا حدث عكس ذلك فسنعرض أنفسنا للعقاب نتيجة

للحنث بقسمنا . (أسماء التسعة من القرويين بينهم إغريقى واحد) وتراوحت المساحة بين أقل من أروا إلى ست أرورات التاريخ . التوقيع ، وقد قام بخريس Pcheris بكتابة التقرير لأن أورسينوفيس كان أميا . (١٤)

وكان من الضرورى فى الشهور التى تعقب بذر الحبوب أن يقوم الفلاح برعاية زراعته وتأدية العمل المنوط به ، وقد تضمنت بعض عقود الإيجار كما رأينا سابقا تفصيلات العمل الزراعى بالتحديد ، كما قدمت عقود أخرى - مثل النموذج التالى - تفصيلات مماثلة عن الأدوات التى تستخدم فى هذه الأملاك الزراعية .

"قام أوريليوس ديونيسثيون ، Aurelius Dionysotheon أو أيا كان لقبه ، المدير السابق لمعهد التربية وعضو مجلس شورى مدينة البهنسا بالتعاقد مع هاريؤونيس بن فناس وتانخوتيس Haryotes S. of phnas and Tanchotis من قرية (كفر) مونيموس Mo-nimos لمدة أربع سنوات تبدأ من السنة الثالثة الجارية لتأجير مساحة من الأرض التى يملكها (الأول) والتى تقع بالقرب من كفر سكو Sko وكفر مونيموس Monimos وتبلغ مساحتها (٢٢) أرورا والتى كان يزرعها نفس المستأجر من قبل ، والتى توجد فيها عجلة أن يقوم المستأجر بزراعتها بالقمح والحشائش التى يختارها فيما عدا ورد النيل والعصفر ، وذلك نظير إيجار سنوى محدد يبلغ (٤٥) أردباً من القمح وعشرة أرادب من بذور (تقاوى) الخضروات بالإضافة إلى ٣٠٠ دراخمة إيجار الماكينة ، على أن يقوم المستأجر باستخدام عجلة المياه المذكورة سابقاً فى رى الأراضى وأن يتكفل بإحضار الحيوانات التى تقوم بتشغيلها والعامل الذى يشرف عليها وكل مايحتاجه ، كما يتحمل المستأجر نفقات إصلاح العجلة وأجور النجارين وتكاليف حراستها وذلك بدون تحايل ، أما فى حالة عدم وصول مياه الفيضان إلى أى جزء من الأرض بعد العام الحالى فيجب أن تتم تسوية (الإيجار) والاتفاق على دفعه مع المستأجر ، ويقع على عاتق مالك الأرض دفع ضرائبها ، كما أنه يعتبر مالك المحصول الزراعى حتى يتم استلامه لمستحقاته السنوية ، وحيث إن المالك يضمن تنفيذ العقد فإنه يقع على المستأجر أن يسلم الإيجار كل عام فى شهر بؤونة Payni من المحصول أثناء وجوده فى صومعة غلال كفر مونيموس Monimos على أن يكون القمح غير مغشوش وخالى من الشوائب وأن يستخدم فى كيله المكيال المستخدم فى الصومعة العامة وهو نفسه المكيال الرسمى لمالك الأرض ، وتكال بذور (تقاوى) الخضروات بمكيال معصرة الزيت . وعند انتهاء مدة العقد على

المستأجر أن يعيد ماكينة الرى فى حالة طيبة ، غير بالية أو مهشمة ، كما أنه ملزم بدفع ثمن أى شيء لايعيده ويقع التعويض القانونى عليه وعلى كل أملاكه ، هذا العقد واجب النفاذ (التاريخ ٢٢٣م)" . (١٥)

وعندما يمضى الوقت ويدفع المستأجر إيجاره ، كان يحتاج بطبيعة الحال أن يحصل على إيصال مكتوب ولدينا نموذج (للعديد من هذه الإيصالات) .

"من ديميتريا التى تدعى أيضا تاسيوس ابنة أبو للونوديس Taseus d. of Apolonides ومعى إبنى أريوس بن نيارخوس Areios S. of Nearchos والذى يدعى أيضا منخيس Menches الممثل القانونى لى ، إلى أنوبيون بن سيرابيون Anoubion S. of Serapion المزارع المستأجر ، تحياتى . لقد قمت باستلام ما تم كيله لى من محصول السنة السابقة التاسعة من حكم مولانا هادريان قيصر كإيجار للأرض التى تقوم بزراعتها ، ولن أطالب بأية مستحقات أخرى من أى نوع ، ويتعين على أنا المالكة القيام بدفع ضرائبها (التاريخ ١٠ سبتمبر ١٢٥م) أنا آريوس بن نيارخوس Areios S. of Nearchos فقد تم تسجيلى كوكيل قانونى لوالدتى وقد قمت بكتابة هذا الإيصال نيابة عنها لعدم معرفتها بالكتابة.(١٦)

وقد ذكر العقد الذى سبق تقديمه قبل الإيصال السابق حاجة الفلاح لاستئجار حراس # ، فطوال فترة نمو المحصول وخلال مواسم الحصاد كان يجب حراسة جميع المحاصيل والمعدات الزراعية ليس فقط ضد سرقتها ولكن أيضاً ضد اعتداء الماشية التى ترعى فى المناطق القريبة منها عليها ، فقد كانت الماشية تسارع - لو تركت - فى اقتحام حقول القمح وتلتهم مافيها أو تطأ بأقدامها المزروعات ، لذلك فنحن نسمع مر الشكوى من رعاة الحيوانات الذين يتركون قطعانهم متعمدين لترعى فى حقول الآخرين . وفى النموذج الآتى نرى التخريب الذى أحدثته القطعان فى قلب محصول الحصاد .

"إلى جايوس يوليوس فولوس Gaius Julius Pholos رئيس البوليس من بطلوليمايوس بن ديديموس Ptolemaios S. of Didymos موثق عقود قرية بوهيميريا Euhemeria التابعة لقسم ثيمستيس Themistes : أنه فى يوم أول بؤونه الحالى من السنة الثالثة من حكم

عن عقود تأجير الأرض وأجور عمال الزراعة راجع : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص١٧٢ ومايليها .

جـايوس قـيـصـر أغـسطس جرمـانيكوس (٢٦ مـايو عـام ٣٩م) قـام كل من داريس بن بطوليمايوس Dares S. of Ptolemaios وسيراس بن بائيس Seras S. of Paes وأورسيوس (المسمى أيضا فيلكيس = العكارة) بن هيراكليوس S. of Herakleus (Phelkis, Lees) ، وهم رعاة للأغنام ، بترك أغنامهم لتمرح طليقة وترعى فى مساحة أملكها من الأرض بالقرب من الجانب الغربى من القرية مزروعة بالشعير الذى كان مايزال قائما فى الحقل بالإضافة إلى ما كـان قد تم ضمه في حزم والذى يبلغ حوالى ١٢ طناً من الشعير ، ولذلك فإننى أطالب باصدار أوامرك بإلقاء القبض على المتهمين وإحضارهم أمامك واتخاذ العقوبة اللازمة ضدهم". (١٧)

ومما لاشك فيه أن مثل هذه المخالفات كانت كثيرا ماتحدث على مدار السنة سواء كانت تحدث بطريقة عارضة أو متعمدة عندما يقل الكلأ فى المراعى . ولذا يبدو أن الفلاحين كانوا يلجأون إلى حراسة زراعاتهم بأنفسهم أو تعيين الحراس عليها ولاشك أن مثل هذه الإجراءات كانت تحقق قدرا من النتائج الطيبة ولكنه من الصعوبة بمكان أن تؤمنها تأمينا كاملا . فاعتداء الحيوانات على الأراضى الزراعية يعتبر ظاهر مرتبطة بالزراعة ، كما أن جهود السلطات المتكررة لمنع هذه الظاهرة لم يؤد إلى القضاء عليها ، ولذلك أصدر والى مصر فى أواخر القرن الثالث منشورا يهدد فيه رعاة الأغنام الذين يتركون حيواناتهم ترعى بين المحاصيل .. بمصادرة هذه الحيوانات ، بالإضافة إلى تعرض راعى الأغنام نفسه لعقوبة شديدة"(١٨)

ومن المشكوك فيه أن يكون هذا المنشور قد حقق قدرا من النجاح أكثر من كونه نوعا من التحذير المبكر . لأن جميع الدلائل تشير إلى استمرار الوضع على ما كان عليه من قبل .

وتمر الشهور ، وتبذر المحاصيل وتتم المحافظة عليها وتعهدها بالرعاية والحماية ، وتبدأ دورة نموها تصل إلى فصلها الختامى . لقد بدأ الآن أفضل المواسم للجميع ، موسم حصاد القمح ، وإذا كان محصول العام متوسطا فماذا كان يتبقى للفلاح من المحصول نتيجة جهده طوال العام؟ من الصعوبة بمكان أن نتمكن من إجابة هذا السؤال على الرغم من هراء معلوماتنا عن تفاصيل النشاط الزراعى ، لأنه السؤال الذى لم يقدم لنا البردى عنه أية إجابة شافية ، لقد كانت أرض مصر فى نظر الإغريق والرومان ذات خصوبة أسطورية ، ولقد تحدث هيرودوت كما سبق ورأينا عن روعة خصوبتها ، كما اعتمدت عليها مدينة روما فى سد ثلث احتياجات

شعبها من الغلال سنويا ، وبالرغم من ذلك لايوجد مصدر واحد يحدثنا من بين تلك الكلمات العديدة عن المحصول المتوقع والذى يتم الحصول عليه سنويا من كل أرورا ، لذلك ينبغى علينا أن نحاول أن نصل إلى هذه الإجابة من خلال الأدلة غير المباشرة والتى يمكن أن نضعها جنباً إلى جنب حتى يمكن التعرف على تلك الإجابة ، إننا نعلم أن متوسط إنتاج الأرورا فى كل إيطاليا وصقلية كان يبلغ خمسة أو ستة أضعاف (البذور)# ، وأنه كان يتراوح فى الأراضى المرتفعة الخصوبة بين عشرة إلى خمسة عشر ضعفاً ، وحيث أن الرومان كانوا مندهشين من خصوبة الأراضى المصرية فمن المحتمل أن ما كانوا يحصلون عليه من غلتها الزراعية يفوق ذلك العائد الذى كانوا يحصلون عليه من إيطاليا وصقلية ، ولدينا معلومات قليلة من مناطق أخرى تفيد فى هذا المجال . فقد سجل فى أحد الوثائق مايبدو أنه خمسة عشر ضعفاً من الشعير لمدة خمس سنوات فى منطقة مارماريكا Marmarica التى تقع على ساحل البحر المتوسط على بعد عدة مئات من الكيلو مترات غربى دلتا النيل ، أما الدليل الآخر فهو من القرن السادس الميلادى وخاص بمنطقة حرس الحدود التى تقع اليوم فى صحراء النقب فى إسرائيل ، حيث يتضح أن الحقول التى تم ريها فى هذه المنطقة الصحراوية غلت محصولا من القمح بلغ حوالى سبعة أضعاف وثمانية أضعاف أو أكثر من الشعير ، ومرة أخرى فنحن نتوقع أن يكون محصول مصر ذات الخصوبة الخرافية أكبر من تلك المحاصيل . وأخيرا لدينا فى مصر نوعان من المصادر تقدم لنا معلومات لها ارتباط بهذا الموضوع :

كان يتم فى بعض الأحيان إبرام العقود بين ملاك الأراضى وعمال الزراعة الذين تم استئجارهم للعمل الزراعى وخصوصا فى الملكيات الكبيرة . وتعكس الوثائق الثلاث الخاصة بعمال الحصاد الذين قاموا بالعمل فى أراضى أسرة سرابيون Sarapion (من إقليم هرموبوليس ماجنا) خصائص معينة : منها أن العمال وقعوا على العقد توقيعا جماعيا ، وقد تم ذلك قبل بداية فصل الحصاد ، وحصل كل منهم على مبلغ ٤ دراخمات مقدما ، واشترط صاحب الأرض على العمال أن يقوموا بعملهم دون توقف ولم يكن من الممكن استبدالهم بآخرين ضعفاء . واشترط المالك أن يقوم بتسليمهم بقية أجرهم النقدى فى نهاية موسم الحصاد وقبل درس القمح . وجرت العادة على أن يقدم صاحب العمل للعمال أثناء العمل الجعة والنبيذ . وكان يشترط فى بعض الأحيان تقديم أشياء معينه كمكافأة لهم فى نهاية موسم الحصاد مثل أردب من العدس أو كمية من التمر أو القش .

ولقد تباينت أجور عمال الزراعة من فصل لآخر ، وتبعا لسن العامل ونوع العمل الذى كان يقوم به وكانت أجور العمال المتخصصين أزيد من غيرهم ، وتراوحت أجرة العامل خلال فترة الفيضان عندما يقل العمل بين ٣ . ٤ أوبل يومياً ، والصبى بين ٢ ، $\frac{١}{٢}$ ٢ أوبل ، وبلغت أثناء بذر الحبوب فى شهر هاتور بين ٤ . ٥ =

وتتمثل الأولى فى الضرائب التى تبلغ قيمتها من ثمانية إلى أربعة عشر أردباً على الأرورا . (الفصل الثامن) ، وهذا يوضح بجلاء مدى ارتفاع كمية المحصول ، وتتمثل الثانية فى تلك الوثائق التى سبق تقديمها فى هذا الفصل - والوثائق الأخرى المماثلة لها - والتى تكشف لنا أن العادة قد جرت على أن يبذر فى الأرورا الواحدة أردب واحد من البذور (التقاوى) ، وأن العوائد العينية تراوحت بين ٦ إلى ٩ أردب على الأرورا الواحدة بصفة عامة وقد سجل فى مثال واحد فقط إيجارا عينيا بلغ ستة أضعاف (البذور) . واذا كانت الأدلة التى لدينا والخاصة بالاتفاق المقترح فى اشتراك المالك والزارع فى غلة الأرض ، وكانت قيمة الإيجار تتراوح بين ثلث وثلثى المحصول المتوقع فإن العقود المذكورة آنفاً تقدم متوسط لمحصول يتراوح بين (٩) الى (٢٧) ضعفاً لكمية البذور التى زرعت ، وهذا المتوسط يتفق تماما مع ماتشير إليه البيانات التى وردت من خارج مصر ، بالإضافة إلى التفاوت فى الخصوبة بين الأراضى الهامشية وتلك التى كانت على درجة مرتفعه من الجودة . (١٩)

وفى أثناء فترة الحصاد تصبح هناك حاجة ماسة إلى الأيدى العاملة الإضافية ، فالبعض يقوم (كما رأينا منذ فترة قليلة) بحراسة المحاصيل التى لم يتم حصادها وكذلك ماتم حصاده من المحصول خوفا من أن يقوم اللصوص بسرقتها ، أو تقوم الحيوانات بالاعتداء عليها على حين يقوم بقية العمال بعملية الحصاد نفسها ، ويتم تأجير عمال بالأجر اليومى، من أى مكان يتواجدون فيه ، وكان يتم تأجير بعضهم فى بعض الأحيان من أماكن بعيدة ، مما أدى الى منحهم أجراً إضافيا يعادل نصف أجرهم العادى نظير رحلتهم الطويلة من وإلى مكان العمل#.

= أوبل وخلال شهر طوبة وأمشير ، أى فتره قص وتهذيب الأشجار بين ٣ . ٦ أوبل ، وبين ٦ . ٧ أوبل لعامل ضخ المياه وبين ٤ . ٦ أوبل لمن يقوم بتسميد الأرض . أما الصبى الذى يقوم بتنظيف الأرض من الأعشاب الضارة فقد تراوحت أجرته اليوميه بين ٢ ، ١/٢ ٢ أوبل . وقد تفاوتت أجرة العامل الذى يقوم بجمع العيدان الجافة من الحقل بعد الحصاد بين ٢ ، ٣ أوبل ، وعامل درس القمح بين ٣ ، ٤ أوبل وجامع محصول الكروم ٥ أوبلات يوميا.

راجع : P. Sarapion, 49 (A.D. 123) ; 50 (A.D. 124) ;

P. Lond. 131 R (A.D.78) = Johnson, Roman Egypt, p. 104;

J. Schwartz "La terre d. Egypte au temps de Trajan et d' Hadrien: Archive de Sarapion", Chronique d' Eypte, xxxiv, 1959, P. 349.

وأيضا : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص١٧٢ ومايليها .

وبعد أن يتم جمع حزم القش ، يتم ربطها وتحمل على الحمير أو الجمال لنقلها لأجران غلال القرية . وكانت الضياع الكبيرة تمتلك الأجران الخاصة بها ، وقد ذكر أحد الأفراد فى دفتر حساباته النفقات التى أنفقها على هذا العمل لمدة أربعة أيام فى شهر بشنص Pachon (مايو) حيث قام باستئجار الحطابين ، ودفع لكل منهم أجراً بلغ ثلاث دراخمات ونصف يومياً ، ولما كانت هناك حاجة لمثل هذا العمل فى هذا الموسم فقد كان الحطاب يحصل على أجر يعادل أجر العامل الفنى . كما كان يتم دفع مبلغ دراخمتين نظير تأجير الحمار يوميا ، وكان سائقه يحصل – وهو عمل كان يمكن أن يقوم به أى فرد حتى الصبية – على مبلغ يقل أويل عن المبلغ السابق . وكان كل حمار يحمل عادة ثمان حزم ترص معا فى ثمان أو تسع رحلات يوميا من الحقل إلى جرن صومعة الغلال ، ولاشك أن هذا العدد كان يختلف من فلاح لآخر طبقا للمسافة التى يقطعها .[٢٠]

ولانعرف كيف كان يتم تنظيم العمل فى جرن الغلال # ، يبدو أن الذى كان يصل أولا يقوم بالتحميل أولا ، ويفترض أن يكون الفلاح عند هذه المرحلة قد أخلى مسئوليته الكاملة عن المحصول ، إذ يكون قد تم دفع ضرائب الأرض من قبل ملاكها ومستأجريها ويكون محصول القمح فى حوزة مالكه حتى يتم دفع الضريبة المطلوبة من قبل الدولة . لقد كانت القرى فى حاجة إلى بعض الحراس لحماية الغلال الموجودة فى الأجران من خطر سرقتها ، كما كان على المراقبين أن يقوموا بمراجعة القمح خوفا من أن يكون مغشوشاً أو ناقصاً . وكان على رجال كل منطقة أن يقوموا بأداء هذا العمل دوريا دون تقاضى أجر مقابل ذلك (الفصل ٨) ونقرأ فى إحدى الوثائق البردية على سبيل المثال تعيين قرويين لأداء الواجبات التالية : "واجب مراقبة الأجران ؛ واجب مراقبة المحصول ؛ التأكد من أن القمح الذى تم كيله كضريبة نظيف وليس مغشوشاً ؛ مساعدة محصل ضرائب القمح فى حراسة الصوامع العامة ، وختمها جيداً .[٢١]

هذه الواجبات التى سبق ذكرها تذكرنا بأن مسئولية الفلاحين عن المحصول لا تنتهى بوصوله إلى جرن الغلال ، فقد كان عليهم أن يسلموا جزءا من القمح للصومعة المحلية حيث يخزن فيها ليسلم كضرائب للدولة ، كما كان يتم تسليم جزء آخر لدفع الحسابات الخاصة لملاك

راجع عن صوامع الغلال ونظامها المرجع التالى : المؤلفة ، مصر فى عصر الرومان ، ص ٢٢٩ – ٢٣٢ . والوثائق المذكورة فى الحواشى .

الأراضى بطبيعة الحال ، فقد سبق أن رأينا أن بعض المؤجرين قد اشترطوا على المستأجرين استلام إيجار أراضيهم العينى فى الأجران حيث يقومون بعد ذلك بنقلها منها ، بينما فضل آخرون وهم الغالبية استلام إيجارهم العينى فى الصومعة المحلية ، وجرت العادة على أن يذكر فى عقود تأجير الأراضى نص يلزم المؤجر بدفع نفقات نقل إيجاره من المحصول بينما يقوم المستأجر بدفع نفقات ذلك الجزء الخاص بضرائب الدولة . وكان يحرر عن تسليم القمح للصومعة إيصال مكتوب ، ولدينا مئات من هذه الإيصالات المدونه على الأوستراكا وأوراق البردى . وإليك نموذجاً لطريقة كتابتها وهى مؤرخه بعام ١٨٠م :

"لقد تم كيل الغلال فى الصومعة العامة من محصول العام الماضى ١٩ من حكم مولانا أوريليوس أنطونينوس Aurelius Antoninus ومولانا كومودوس قيصر Commodus Caesar على يد محصلى ضرائب القمح فى المركز الغربى لحساب سيرابيون بن خاريسويس Sarapion S. of Charisios من منطقة إبيسيموس ، وبلغ مقداره (٤) أرادب غلال (كتابة بيد أخرى) قمت أنا ديوجنيس Diogenes محصل ضرائب الغلال بالتوقيع وأشهد على استلام أربعة أرادب من القمح" . (٢٢)

وحتى عندما يقوم الفلاح بتسليم ضرائب القمح للصومعة العامه لم يكن معنى ذلك انتهاء التزاماته - فعليه بعد ذلك أن يساعد فى نقل القمح من الصومعة الى أقرب ميناء نهرى لكى تحملهاالمركب وتتجه به إلى الإسكندرية (حيث يتم شحنه من هناك لروما) . وسوف نقوم بإلقاء نظرة تفصيلية على هذا الموضوع الخاص بتحصيل الضرائب فى الفصل الثامن من هذا الكتاب.

وأخيرا ماذا عن القش الذى يتخلف من درس القمح ؟ هل كان يترك فى جرن الغلال لتذروه الرياح ؟ من الصعب أن يكون الأمر كذلك والمعروف فى الاقتصاد الزراعى أنه تتم الاستفادة من كل عنصر من عناصر المنتج الزراعى . لذلك فقد استخدمت عيدان القش التى تم فصلها عن القمح فى مصر الرومانية كوقود - على سبيل المثال - لتدفئة المياه فى الحمامات العامة وفى معسكرات الجيش .

المحاصيل النقدية :

تعتبر محاصيل الغلال هى القاعدة العريضة لإنتاج مصر الزراعى ، ولكنها لم تكن المحصول الوحيد الذى ينتجه المزارعون المصريون حيث كان إنتاج مصر فى العصر الرومانى متنوعا .

لقد خصصت مساحات من الأراضى ، كبيرة وصغيرة ، لزراعة أشجار الكروم وقد اعتبر المصريون فى أساطيرهم واحتفالاتهم مثلهم فى ذلك مثل الإغريق والرومان أن الكروم هدية من الإله ، وكان هذا الإله هو أزوريس بالنسبة للمصريين . وهناك ما يؤكد وجود زراعة الكروم فى مصر منذ عصور ماقبل التاريخ ، وقد استمر انتاجه فى مصر حتى منعها العرب بعد فتح مصر تمشيا مع العقيدة الإسلامية ، وجاء ذكر أكثر من اثنى عشر نوعا من أنواع الكروم فى مصر فى العصر الرومانى ، كما تمت أقلمة أو تهجين بعض الأنواع التى تم استيرادها من أنحاء متفرقة من العالم الإغريقى (مثل جزيرة خيوس Chios أو كيليكيا Cilicia إلخ) .

وكانت مزارع الكروم على عكس مزارع الغلال، تتم إحاطتها بالأسوار لحمايتها من اعتداء الحيوان أو الإنسان عليها ، وكثيرا مازرعت أشجار الكروم مع أشجار النخيل لتلقى هذه بظلالها العريضة على أشجار الكروم وتحميها من أشعة شمس مصر الحارقة . وكانت مواسم الكروم تتبادل مع موسم محاصيل الغلال ، ففى خلال شهرى يناير وفبراير بعد أن يتم بذر محاصيل الغلال كان يأتى وقت تشذيب أشجار الكروم القديمة ، وحرث الأرض لزراعة أشجار كروم جديدة ، ووضع أو غرس العقل الجديدة . ويبدأ محصول الكروم فى النضوج فى شهرى أغسطس وسبتمبر بعد تمام جنى محصول القمح ، ويتم جمع العنب الناضج فى سلال ويحمل إلى طوالات مصنوعة من الخشب أو الحجر ، ليهرس بالأقدام واستخدم عازف على المزمار فى بعض الأحيان لكى يخفف من رتابة العمل ، وكان المزيج الذى ينتج من هذا العمل يحمل إلى المعصرة لعصره ثم يصفى العصير ويوضع فى أوانى خزفية تغلق بإحكام (وقد عالج القدماء الأوانى الفخارية ذات المسام بوضع طبقة من القار لتبطين جدارها الداخلى ومن أجل تلك الطريقة اشتهرت بلاد الإغريق ومازالت بصمغ العنب) ثم تعرض الأوانى بعد ذلك لأشعة الشمس سواء بعد ذلك مباشرة أو بعد عدة شهور ، وينتج عن حرارة الشمس تخثر النبيذ الذى يصبح قوامه سميكا ويصبح حلو المذاق على الاقل بالنسبة للذوق المحلى . ثم يتم بعد ذلك تصفيته ووضعه فى أوانى أخرى جديدة ، وهكذا يصبح معدا للاستهلاك . أما النبيذ الذى لم يكن يستهلك مباشرة فكان يحفظ فى مستودعات فى مكان بعيد ثم توضع على الأوانى البيانات الخاصة به وسنة إنتاجه .

وقد جاء وصف مفصل للعمل فى حدائق الكروم واستغلالها فى المناقصة التالية التى تقدم بها ثلاثة أشخاص والمؤرخة فى ٢١ ديسمبر ٢٦٠م والمقدمة إلى أوريليوس سيرينوس Aurelius Serenus المعروف أيضاً باسم سرابيون Sarapion وكان من كبار الملاك الذين يقيمون فى البهنسا :

"إننا نتقدم ونحن فى كامل إرادتنا أن نؤجر منك جميع عمليات العناية بضيعة الكروم لمدة عام واحد ابتداء من أول هاتور للسنة السادسة الحالية وذلك فى مزرعتك للكروم والأرض المزروعة بالبوص الملحقة بها فى الأراضى التى تملكها بالقرب من قرية تانيس Tanis أيا كانت مساحتها ، بحيث سيكون لى أنا أوربليوس كتيتور ولابنى الحق فى العمل فى نصف المساحة ولبيلويس Peloios وللآخرين حق العمل فى نصفها الآخر . وسيتم العمل فيها على النحو التالى : فى حدائق الكروم ، نزع كل البوص وإزالته وإلقائه خارج أسوار الجدار الطينى ؛ العمل على تكاثر أكبر عدد من أشجار الكروم عن طريق ترقيدها (تحت الأرض) ؛ تقليب الأرض وتجريفها ، حفر الجور # حول أشجار الكروم ، وعلى المالك أن يمدنا بقوائم خشبية لتقوية أشجار الكروم ، أما القيام بوضع هذه القوائم الخشبية فيقع على عاتقنا ، وكذلك يقع علينا أداء بقية العمل الذى ورد سابقا وهو بالتحديد ، غرس الشتلات ، انتزاع البراعم الزائدة عن الحاجة ، تغذية النبات ، إبعاد الأغصان عن بعضها ، وربطها (إلى القوائم) ، تخفيف ورق الشجر طبقا للحاجة . أما فيما يختص بنبات البوص . فعملنا هو القيام بتهذيب الشجيرات مرتين ، وريها واستئصال الحشائش الضارة ، وسوف نقوم بهذا العمل معك جنباً إلى جنب فى حدائق الكروم وزراعة البوص . وعلينا إحضار الحمير المحملة بالطمى لتحصل الأرض على حاجتها من السماد ، كما أننا سنقوم باختيار الأوانى التى سوف تستخدم فى حفظ النبيذ ونتأكد من أنها جيدة ، وعندما يتم ملؤها بالنبيذ سنقوم بتخزينها فى مكان مشمس ، وأن نبقى على سيولة العصير وأن نعمل على دوام تحريكه ، ثم نقوم بعد ذلك بنقل النبيذ إلى أوانى نظيفة ونقوم بحراستها أثناء تعريضها للشمس ، ويبلغ أجرنا عن كل العمليات السابقة (٤٥٠٠) دراخمة فضية ، (١٠) أرادب من القمح ، ٤ جرار من النبيذ المحفوظة فى براميل ، وسيتم دفع الأجر على دفعات أثناء مراحل القيام بالعمل ، كما أننا نرغب فى أن نؤجر منك لمدة عام إنتاج محصول النخيل ، وجميع أشجار الفاكهة القائمة فى حدائق الكروم القديمة ، وسنقوم بدفع إيجارها على حدة ، ويبلغ هذا الايجار (١ $\frac{١}{٢}$). أردب من البلح الطازج ، (١ $\frac{١}{٢}$) أردب من البلح المكبوس (العجوة) ، (١ $\frac{١}{٢}$) أردب من البلح المحشو بالجوز ، و (١ $\frac{١}{٢}$) أردب من الزيتون الأسود[٢٣] ، ٥٠٠ ثمرة خوخ

الجور : اصطلاح يعنى فى الزراعة المصرية إعداد حلقة من الطمى مرتفعة حوافها نوعا ما لمنع المياه التى تم بها رى الشجيرة من التسرب وكذلك لمنع تسرب مكونات السماد إلا للمساحة التى تتواجد بها جذور النبيتة .

منتقاة ، (١٥) ثمرة نارنج و(٤٠٠) ثمرة تين صيفى (مقطوفة) قبل فيضان النيل ، (٥٠٠) ثمرة من التين الشتوى[٢٤] ، ٤ شمامات بيضاء كبيرة ، وبالإضافة إلى ماتقدم سنقوم بحرث حديقة الفاكهة التى تقع جنوب حديقة الكروم ، ونرويها ، وننظفها من الأعشاب الضارة، كما أننا نتعهد بالقيام بكل الأعمال الموسمية المطلوبة أما وضع السنادات الخشبية وفرش الطمى فيقع على المالك .

{يتبع ذلك التعهد المعتاد بالقيام بكل الأعمال على نحو جيد وإعادة الأرض بعد انتهاء مدة العقد فى حالة جيدة ، وخالية من النباتات الضارة ، والتاريخ} .[٢٥]

ويعتبر الزيتون أحد المحاصيل الرئيسية ، وهو ينمو فى مصر منذ تاريخ غير معروف ، ويتفق تشذيب شجره وزراعته مع سير العمل فى حدائق الكروم ، ويتم جنى محصوله فى الفترة بين أواخر أكتوبر حتى نهاية يناير - كما كان سائداً فى أراضى حوض البحر المتوسط - وذلك عقب جنى ثمار العنب وقبل أن يبدأ الفلاح بالانشغال فى حصاد القمح . وتقرأ فى إحدى وثائق عام ١٧٧عن بستان زيتون به ٣٦ شجرة زيتون فى مساحة أرورا ، وهذا يعنى أنه ممكن زراعة حوالى (١٠٠) شجرة زيتون فى كل هتكار . وهذه النسبة لاتختلف عن نظيرتها الموجودة الآن فى بلاد اليونان ، وكانت أشجار النخيل - كما كان الحال فى حدائق الكروم - تنتشر فى حدائق الزيتون ، كذلك أحيطت حدائقه بالأسوار لحمايتها من هجوم الحيوانات الموجودة فى المراعى القريبة . وتحدثنا شكوى قدمت إلى البّوليس عام ٣٤م عن قيام المواشى بتدمير (٢٠٠) شجرة صغيرة عندما قامت بقضم عصارة رؤوسها ، ويبدو أن الحديقة لم تكن مسورة .[٢٦]

ولقد سبق أن رأينا أنه فى عملية إنتاج كل من محصولى الغلال والكروم كان يمكن للمزارعين مع من يتم استئجارهم للمساعدة فى العمل عند الحاجة أن يقوموا بالحصاد والعمليات الأخرى المتعلقة به ، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للزيتون ، فقد كان يتم استخدام كميات قليلة من محصوله سواء أكانت طازجة أو مملحة فى الطعام ، أما الجزء الأكبر منه فيخصص للحصول على زيت الزيتون ، لذلك كانت هناك حاجة لمعصرة الزيت ، ولما كانت إقامة مايشبه المصنع بطبيعة الحال أمراً يفوق إمكانيات الفلاح المتوسط الحال لذلك كان على زارع الزيتون أن يحمل محصوله إلى المعصرة : وكان عليه إما أن يقوم ببيعه لها أو أن يدفع أجرة عصره (نقداً أو عيناً) .

كما نمت في مصر بوفرة نباتات زيتية أخرى مثل نبات الخروع ، ونبات الكتان (للحصول على زيت بذر الكتان) والعصفر ، والسمسم . وكانت الحاجة ماسة إلى الزيتون خلال العصور القديمة حيث كانت تؤدى ثلاثة أغراض رئيسية فى الحياة اليومية ، فقد استخدمت أفضل الأنواع، خصوصا من زيت الزيتون ، لتدليك الجسم خاصة بعد التدريبات الرياضية والحمام وكذلك فى الأغراض الطبية ، كما استخدم الزيت متوسط الجودة فى الطعام ، سواء فى الطهى (للاستخدام كالزبد فى العالم القديم ، أما أقل درجاته جودة فقد استخدمت لاشعال الفتيل فى مصابيح الإضاءة .

ولقد وجدت أشجار النخيل دائما فى مصر منذ أقدم العصور وحتى الآن ، وهى تنمو تلقائياً (من تلقاء نفسها بغير زراعة) فى المناطق الصحراوية ، أو كما لاحظنا سابقا تنتشر فى حدائق الكروم والزيتون ، ومن خوصها كانت تصنع المكانس والسلال المضفورة ، أما ثمرتها فتؤكل طازجة أو مجففة ، ويتم نضج البلح فى الفترة من سبتمبر حتى ديسمبر ، أما ذروة حصاده فكانت فى شهر أكتوبر ، بعد ما يكون قد تم جنى محصول الكروم ، ويبدأ الزيتون مرحلة النضوج ، ومن بين الأنواع العديدة التى كانت لها شهرتها يأتى البلح السورى الذى كانت له قيمة كبيرة وسعر مرتفع .

ومن بين أنواع الفاكهة الهامة الأخرى التى كانت تنمو فى مصر يأتى اللارنج والخوخ والكمثرى . وكذلك يمكننا أن نضع من بينها التفاح والخروب والمكسرات والرمان .

أما أهم محاصيل الخضروات فهى الفول والثوم والعدس ، والبازلاء ، والحمص والبيقة (عشب) . لقد كان إنتاج البقول متنوعا ، ولكن حيث إنها تحتوى على الكربوهايدرات بصفة أساسية فلم تكن من شأنها أن تثرى الغذاء المعتمد على الغلال اعتمادا رئيسيا .

وكان لابد من إطعام الحيوانات الأليفة التى كان غذاؤها الرئيسى يعتمد على الحشائش ، التى تنمو بصفة دائمة فى المراعى وفى الحقول الصالحة للزراعة فى السنوات التى تستريح فيها الأرض من زراعة الغلال ، ولذلك كان الحصول على الحشائش الخضراء متوافراً طوال العام ، وبالرغم من ذلك فقد تم قطع جزء منها وتجفيفة وتخزينة كقش لاستخدامه عند الحاجة ، وفى بعض الأحيان كان يتم خلط البيقة (عشب) والشعير أو البرسيم لتقدم للحيوانات كغذاء إضافى .

وأخيرا فلقد كانت هناك عدة محاصيل زراعية هامة أخرى لم يكن القصد من زراعتها استخدامها كغذاء مثل الصوف الذى كان يجز من الخراف والذى سوف نتحدث عنه أثناء

تعرضنا لموضوع الحيوانات الأليفة . كذلك كان لنبات الكتان فائدة مزدوجة : حيث يستخرج الزيت من حبوبه ، كما كان يصنع منه نسيج الكتان . كما تم إنتاج كميات صغيرة من نبات القطن والذى كان يسمى كما يطلق عليه الألمان اليوم "شجر الصوف" . وقد اشتهرت مصر بنوع ممتاز من النسيج الناعم يسمى بيسوس Byssos ، ويبدو أنه (وقد اختلف الباحثون فيه) إما أن يكون ممتازا من القطن الصاف ، أو أنه كان نوعامن الكتان الشفاف ، والأمر الثانى أكثر احتمالا .

ويعتبر نبات البردى من أهم المحاصيل النقدية ، وهو نبات مائى دوار ، ينمو بكثرة فى المستنقعات المنخفضة فى مستنقعات الدلتا التى كانت تغمرها مياه الفيضان، ومنذ فترة مبكرة حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م اكتشف المصريون كيف يمكنهم صناعة الورق منه عن طريق كبس شرائحه المقطوعة من طبقات ساق النبات ، وليس لدينا معلومات يمكننا أن نعرف منها زراعته فى أنحاء العالم القديم ، ولكن يمكننا أن نقول إنه كان ينمو فى مصر فقط بصورة تجارية ، حيث كان يتم تصديره من الإسكندرية إلى بقية أنحاء حوض البحر المتوسط حتى أوائل العصور الوسطى ، وذلك عندما جلب العرب معهم أثناء فتوحاتهم استخدام الورق المصنوع من الأسمال البالية ، والذى كان يتم تصنيعة بالطريقة التى تعلمها العرب من الصينيين . #

واستخدم البردى فى مصر فى أغراض متعددة ، فقد تم ربط سيقان النبات مع بعضها ربطا جيدا فى شكل حزم صنعت منها زوارق خفيفة ولكنها متينة ذات غاطس سطحى وكان لها صارى يبدو بارزا بين الأحراش وهى تشبه زوارق اليوم ، واستخدمها الملوك وحكام المقاطعات فى الرياضة ، وكذلك صائدو الأسماك والطيور فى كسب قوت يومهم ، (وقد انتشر حديثا استخدام وتعويم زوارق البردى بطريقة استعراضية منذ أن قام المكتشف ثورها يردال ببناء سفينة من البردى وأبحر بها عابرا المحيط الأطلنطى) .[٢٧] كذلك صنعت من تاج نبات البردى الأكاليل الرشيقة التى كانت على شكل الريش وشكلت فى ضفائر وزينت بها تماثيل الآلهة والملوك ، أما ساق النبات فكان يؤكل إذا كان صغيرا ولينا ، حيث كان يتم مضغ عصارته لامتصاصها ثم يلقى باللباب بعد ذلك ، أو كان يسلق أو يشوى فى النار ، واستخدم الجزء الصلب من الجذر كوقود أو لصناعة الأثاث أو الأدوات ، أما الألياف التى كانت تتخلف من

عن صناعة الورق من نبات البردى راجع ، عبد اللطيف أحمد على ، مصادر التاريخ الرومانى ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٥١-١٦٣ . المترجمة .

لحاء النبات بعد إزالته أثناء عملية صناعة الورق فقد استخدمت فى أغراض متعددة بعد حياكتها فى صناعة السلال ، وفى المراتب والوسائد والأغطية وأشرعة السفن والحبال ، وفتيل مصابيح الإضاءة وأيضا فى صناعة الثياب والنعال (الصنادل) وخاصة تلك(الصنادل) الأنيقة التى تم العثور عليها فى المقابر المصرية .

ويبدو أن جنى محصول البردى كان ممكناً طوال العام ، فقد منح فى إحدى الوثائق حق جمعه فى الفترة من يناير حتى أغسطس ، وفى وثيقة أخرى من الفيوم سجل دفع مبلغ (٢٠٠٠٠ر٢٠) دراخمة فى (٩) نوفمبر عام ١٧٤م نظير جنى نبات البردى ، وهناك عقد يرجع لعهد أغسطس تم فيه تأجير جنى نبات البردى فى منطقة الدلتا وحصادها يوميا لمدة ستة شهور ابتداء من أواخر يونيو حتى أواخر نوفمبر ، ويعطينا هذا العقد صورة عن عدد أعواد النبات التى كان يمكن الحصول عليها من زرعة واحدة وهذا الرقم يذهل خيالنا إذا أدركنا أن مصر كانت تمد جميع أنحاء عالم البحر المتوسط فى العصور القديمة بمادة الكتابة . وقد قام مستأجرو الزراعة بإقتراض مبلغ ٢٠٠ دراخمة ، وهو مبلغ كانت فائدته تصل إلى (٢) دراخمة فى الشهر ، وفى نظير الفائدة وافق المستدينون على أن يقوموا ببيع كمية من المحصول اليومى تصل فى إجمالها إلى ٠٠٠ر٢٠ حمولة ذراع واحدة و٣٠٠ر٣ حمولة ستة أذرع من سيقان البردى للدائن بسعر أقل من سعر السوق نظير عدم دفع فائدة عن قرضهم . (٢٨)

وفى عام ٥ ق.م تم تأجير مساحة من الأرض فى منطقة الدلتا لتزرع بنبات البردى لمدة سنتين وفى هذه الوثيقة ظهر أن ذروة فترة حصاد البردى كانت تبدأ منذ شهر مارس حتى نهاية شهر أغسطس ؛ وقد بلغ الإيجار الذى دفع عن هذه الفترة أكثر من ضعف الإيجار لما تم دفعه فى الشهور الستة الأخرى ، وقد وافق المستأجرون على أول شرط من شروط العقد العديدة وهو أنهم يتعهدون بدفع أجور لليد العاملة أكثر من مستوى الأجور المعروفة فى المنطقة مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه كان يوجد اتحاد لمنتجى زراعة البردى للمحافظة على أرباحهم المرتفعة عن طريق عدم الدخول فى مزايدات للحصول على العمال الذين يحتاجون إليهم . (٢٩)

الحيوانات الأليفة :

لقد قام المصريون بتربية بعض الحيوانات للحصول على قوة محركة للعمليات الزراعية ، وتربية حيوانات أخرى لتمدهم بمصدر غذائى ، وذلك للحصول على قدر أو كمية من البروتين والدهن للغذاء الذى كان يعتمد فى أساسة على الكربوهيدرات . وقد أدت بعض الحيوانات

الهدفين السابقين معا ، كما استخدم روث الحيوانات كسماد عضوى له قيمته بالإضافة إلى غرين النيل فى تخصيب الأراضى الزراعية .

ويعتبر الحمار حيوان الحمل الرئيسى فى مصر القديمة ، ويليه فى الأهمية الجمل ، فقد حملت هذه الحيوانات على ظهورها كل ما يحتاجه العمل فى الأرض أو كل ماتنتجه : مثل آلات الفلاحة والطمى ، وأجولة البذور والمحاصيل ، وجرار النبيذ والزيت بالإضافة إلى حملها للأفراد أثناء ذهابهم وإيابهم من وإلى أماكن عملهم .

ولدينا مايقرب من ستين وثيقة عن الحمير فى القرون الثلاثة الأولى من العصر الرومانى وحوالى نصف عددها عن الجمال ، ومنها نعلم أن ثمن الحمار فى القرن الثانى (الذى ترجع إليه أغلب الوثائق التى لدينا)كان يتفاوت حسب عمره ونوعه وحالته العامة - من (٥٠٠) إلى (٣٥٠) دراخمة ، كما تراوح ثمن الجمل بين (٢٠٠) إلى أكثر من (٨٠٠) دراخمة ، وأقل سعر من الأسعار السابقة كان يمثل أجر العامل الزراعى عن فترة تتراوح بين شهرين إلى أربعة أشهر ، أو ثمن (٦-٧) أرادب قمح ، وهى كمية كانت تكفى لاطعام عائلة لفترة تتراوح بين شهرين إلى أربعة شهور . وعلى الرغم من ذلك فقد كان وجود حيوانات الحمل أمرا ضروريا للفلاح حتى لزراعة مساحة صغيرة من الأرض . وقام صغار الفلاحين بتدبير المال من القليل الذى يمتلكوه حتى يمكنهم امتلاك حيوان واحد على الأقل أو اثنين ، أما المعدمين من المزارعين من الذين كانوا لايستطيعون توفير ثمن شرائه ، فكانوا يقومون باستئجار الحيوانات التى يحتاجون إليها من الاصطبلات التجارية أو يتفقون مع بعض ملاك الحمير لتأجيرها لهم ولم يكن من بين هؤلاء ملاك الأراضى التى يعملون بها .

أما الخيول فجاء استخدامها الرئيسى فى امتطاء الفرسان لها ، ولم يكن يمتلكها سوى قلة قليلة من كبار الملاك كنوع من أنواع الترف الذى كان يمارسه الأثرياء والذى يتمثل فى التمتع برياضتها .

كذلك استخدمت حيوانات الحمل لأغراض الجر ، وحملت الثيران أثقل الأحمال سواء كانت فردية أم زوجية ، فالثور يجر المحراث ويدير عجلة المياه (الساقية) وينقل مواد البناء .

وإلى جانب الثيران وجد من الماشية الضخمة الأبقار والجاموس واستخدمت الأخيرة كدواب للحمل والجر ، ومثل هذه الحيوانات كانت تحتاج بطبيعة الحال إلى اصطبل ، واستخدمت هذه الحيوانات مع الأبقار والعجول الصغيرة كى تقدم كأضاحى تنحر للذبح فى الأعياد الكبيرة ، (أما الأعياد الصغيرة فاستخدمت الحيوانات الصغيرة فى أضاحيها) وجرت العادة على أن

يحرق جزء صغير من الذبيحة لتقديمه إلى الآلهة ، أما الجزء الباقى فكان يستهلك حيث يتناوله الأفراد بعد الاحتفال . واستخدم لبن الأبقار فى أغلب الأحيان طازجا ، وكان ينظر إليه على أنه أدنى درجة من لبن الماعز والأغنام فى صناعة الجبن ، وهى نفس نظرة الإغريق إليه كما نقرأ فى كتب أرسطو ، ولكن الرومان هم الذين صنعوا الجبن من لبن الأبقار وجعلوا أهميته الغذائية تفوق سائر الأنواع .(٣٠)

أما الحيوانات الصغيرة فقد تمثلت فى الخراف والماعز والخنازير ، وفى البداية استخدمت الخنازير للسير على بذور الحبوب بعد بذرها لغرسها فى التربة ، وكذلك استخدمت للسير على الحبوب فى الأجران ، أما تناول لحوم الخنازير فى الطعام فقد كان ممنوعا أو محرماً طبقا للعقيدة المصرية واليهودية ، وحتى أواخر القرن الثالث الميلادى كان محظورا استخدام الخنازير فى الأضاحى الدينية ، ولكن لحمها كان هو المفضل لدى كل من الإغريق والرومان ، ومن أجل ذلك عندما أصدر الإمبراطور كاراكالا مرسومه سنة ٢١٥م بطرد المصريين غير المقيمن أصلا فى الإسكندرية ، كان تجار الخنازير من بين الطوائف التى تم استثناؤهامن المطرودين (فصل ١٠) . ومع مرور الوقت كما توقعنا ظهر أثر وجود الرومان على المصريين الذين بدأوا فى تناول لحم الخنزير بالتدريج ، وكما هو الحال بالنسبة لموضوع الأبقار فليست لدينا بيانات عن عدد الخنازير التى كانت تربى أو عن أهميتها فى مجال الطعام ، وعلى أية حال فإن كل مانعرفه أنه خلال القرن الثالث والرابع أصبح للحوم أهميتها الواضحة فى الطعام وخصوصا بالنسبة لقوات الجيش الرومانى .

ولدينا بعض الأرقام التى تم تسجيلها فى سجلات الضياع عن الخراف والماعز وكذلك فى التقارير الخاصة التى كان أصحابها يقومون بملئها سنويا لدفع الضرائب عنها ولاشك أن بعض النماذج القليلة منها تكفى لكى تعطينا صورة عامة عنها ، ففى عام ٨ ق.م قدم أحد الرجال تقريرا عن ملكيته لعدد ٥٦٦ رأساً من الأغنام ، ٢٥ رأساً من الماعز وكانوا مقسمين إلى خمسة قطعان ، لكل منها راعيها ، وفى عام ١١٨م امتلك أحد الأشخاص عدد (٥٥٩) رأساً من الخراف و(٢٠٩) شاة ، (١٠) ماعز وكبشاً واحداً ، وقد قسمت إلى عدد من القطعان ، ولقد تم فصل ذكور الحيوانات على حده تحت إشراف أحد الرعاة . وقد امتلك سيرابيون الثرى (وقد تعرفنا عليه سابقاً) عدة آلاف من رؤوس الخراف والماعز . ومن إحصاء لإحدى القرى يتضح لنا أنه كان يوجد بها (٤٢٤١) رأسا من الخراف ، (٣٣٦) رأسا من الماعز ؛ وفى إحصاء آخر بلغ العدد (٨٢٩) رأسا من الأغنام ، (٢٨) رأسا من الماعز .(٣١)

وذكرت الوثائق أنه كان يوجد فى مصر عدة سلالات من الأغنام ذكرت بأسمائها مثل : المصرية ، العربية ، الحبشية ، اليوبية Euboean والميليسية Milesian واكسويتيك Xoitic. كما عرف لديهم نوع مميز كان يسمى (المغطى بالجلد)وهو لم يكن سلالة بذاتها ، ولكنه كان نوعا مختارا تتم تغطيته بجلود الحيوانات فى أثناء فترة نمو صوفه ، ويرجع أصل هذه الطريقة إلى آسيا الصغرى ، ثم استخدمت هذه الطريقة فى كل من بلاد اليونان وإيطاليا . وكانوا يعتقدون أن هذه الطريقة تحافظ على أن يظل صوف الأغنام لينا وناعما ؛ وتنتج هذه الأغنام صوفاً مرتين فى العام فى يناير أو فبراير ، والمرة الثانية فى سبتمبر ، وكان الطلب كبيراً على الصوف فى فترة الصيف ولانستطيع أن نحدد بالتأكيد ما إذا كان ذلك يرجع إلى ارتفاع جودته وصغر الكمية المنتجة منه ، أم لوجود الحاجة لإعداد الصوف لفترة الشتاء . وقد سبق الحديث عن أهمية لبن الخراف والماعز فى صناعة الجبن ، ونقرأ فى عدد من الوثائق البردية عن "الجبن الكبير" وهذا يدل بطبيعة الحال على وجود "الجبن الصغير" وكذلك عن "الجبن الجاف" وهو يعنى الذى يحتوى على قليل من الماء ، ولكن أغلب الإشارات التى لدينا تشير إلى الجبن دون توصيف .

وتؤدى الحيوانات الصغيرة خدمة أخيرة بعد ذبحها ، حيث كان يتم دبغ جلودها لتستخدم فى عدة صناعات ، وجاء أشهرها فى صناعة أوعية السوائل بحياكة قطعتين من قطع الجلود أو أكثر ، ويفضل فى ذلك جلود الماعز ، كما استخدم فيها أيضا جلود الأغنام والخنازير .

وتوافر الدجاج بأعداد وفيرة فى مصر ، فقد ورد ذكر الفراخ والبط والحمام ولكن لم يذكر منها سوى تفصيلات قليلة ، ويتضح لنا مما نشاهده من رسوم المقابر المصرية فى العصر الفرعونى أن الأوز كان طعاما مفضلا لدى المصريين . وقد قاموا بإطعامه لتسمينه طوال العصور القديمة ، وقد ظهر مربو الأوز بكثرة من خلال البردى فى العصر الرومانى ؛ وفى إقليمين على الأقل من الأقاليم المصرية سمى أحد الأحياء فى كل منها باسم "حى مربى الأوز"، أما فيما يختص بالدجاج والديوك فكل مانستطيع أن نقوله إنها كانت منتشرة كما هو الحال اليوم فى كل مكان .

واشتهرت السلالة المصرية من الحمام فى العصور القديمة لأنها كانت سلالة منتجة وخصبة ، وقد عثر فى بعض الأحيان على أبراج للحمام فى الحظائر الأثرية كما ورد ذكرها فى عددمن وثائق القرون الثلاثة الأولى للميلاد . وقد حققت بعض أبراج الحمام دخلا له وزنه ، أما الأبراج

الصغيرة فقد شيدت داخل المنازل ويعتبر سماد الحمام من أجود أنواع المخصبات ، واستخدم في تسميد حدائق الفاكهة وقد اشترطت بعض عقود تأجير أراضى الكروم أن يتم تخصيبها بمخلفات الحمام .

وهكذا فقد كانت الزراعة هى قاعدة النشاط الاقتصادى المصرى ، والمصدر الرئيسى لحياة الغالبية العظمى من السكان ، ولكن إلى جانبها مارس المصريون أعمالا أخرى ، وهذا هو موضوع الفصل التالى .

الفصل السابع
التجارة والحرف أو إنتاج البضائع والخدمات

سنتناول فى هذا الفصل الحديث عن الحرف التى تحتاج إلى تخصص والتى كان لها أهميتها الكبرى فى الحياة اليومية فى مصر الرومانية .

وكما لاحظنا فى الفصل السابق فإن إنتاج الغذاء كان لايحتاج إلا إلى قليل من التخصص، وعلى أية حال فإن أى مجتمع زراعى بدائى سرعان ماتنمو احتياجاته ويصبح فى حاجة إلى الخدمات الإضافية . وفي خلال حقبة ماقبل التاريخ كانت بعض الحضارات (إن لم تكن جميعها) فى حاجة إلى صناعة الفخار والسلال - لمدها بما تحتاج إليه فى تخزين وحمل المحاصيل - وهى صناعة تحتاج إلى العمال المتخصصين لقيامها . وكانت الخطوة التالية بعد ذلك سريعة وسهلة نسبياً حينما تم التطور من جدل السلال إلى غزل النسيج لصناعة الملابس وكل أنواع الأغطية .

وقد لاحظنا أيضاً خلال الفصل السابق أن مصر قد اشتهرت بصناعتين هامتين هما الكتان وأوراق البردى . وفى أثناء القرن الثالث واستجابة للطلبات الخارجية توسعت مصر فى إنتاج الزجاج وأصبحت هى وسوريا مصدرا كبيرا لتصدير هذه الصناعة .

ولكن لاتوجد لدينا إلا معلومات قليلة عن العاملين فى صناعتى الزجاج والبردى ويرجع ذلك إلى أن منطقة الدلتا التى كانت تعتبر قاعدة هاتين الصناعتين لم يبق من سجلاتها إلاّ القليل بسبب رطوبة تربتها ، ولكن من ناحية أخرى نجد أن لدينا مصادر عديدة عن صناعة النسيج(*) ، لأنها بالرغم من وجود عدد كبير من المصانع ذات الإنتاج الكبير ، إلا أنها ظلت فى أساسها "صناعة منزلية" تمارس فى طول البلاد وعرضها . وتمدنا آلاف الوثائق البردية التى عثر عليها بين خرائب مدن وقرى مصر العليا بمعلومات وافرة عنها .

---

* عن صناعة النسيج وأهميتها فى مصر خلال عصر الرومان راجع ، آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان، ص ٢٢٥ ومايليها ؛ وكذلك المرجع الهام التالى

Wipszycha (Ewa); L' Industrie textile dans L'Egypte Romaine, Wraclaw, 1965.

المترجمة .

وكان العاملون فى ميدان نسيج الكتان الممتاز يمثلون أرستقراطية صناعية ، حيث كانوا يتوارثون المهنة جيلا بعد جيل ، وقد تعاون النساجون فى تدريب أبناء بعضهم البعض ، وكذلك قاموا بتدريب الصبية والفتيات من الأسر الأخرى ، الأحرار منهم والعبيد على تلك الصناعة . وكان سن التدريب يبدأ فى الفترة بين العاشرة والثالثة عشر من العمر ، وقد تراوحت فترة التدريب بين سنة إلى ثلاثة سنوات ، يمكن أن تطول الفترة لسنة أو سنتين إضافيتين . والعقد التالى المؤرخ بأواخر القرن الثانى الميلادى يعتبر نموذجا للعديد من العقود التى وصلت إلينا :

"اتفقت بلا تونيس Platonis المعروفة باسم أوفيليا Ophelia ابنة هوريون Horion من البهنسا ومعها أخيها بلاتون Platon الممثل القانونى مع لوكيوس بن إسيون Lucius S. of Ision وتيسايس Tisais النساجين من أفروديسيون Aphrodiseion فى الواحة الصغيرة على أن تعهد بلاتونيس المعروفة باسم أوفيليا Ophelia بأمتها ثيرموثيون Thermouthion، القاصرة ، إلى لوكيوس لمدة أربع سنوات ابتداء من أول الشهر التالى (طوبة) من السنة الحالية لكى تتعلم حرفة النسيج طبقا للشروط التالية : أنها سوف تقوم بإطعام الفتاة وكسائها ، وأن تتعهد بإبقائها تحت تصرف معلمها منذ شروق الشمس إلى غروبها وعليها أن تطيع أوامر معلمها فى هذه الحرفة ، نظير أجرة تبلغ ثمان دراخمات شهريا فى السنة الأولى و(١٢) دراخمة شهريا عن السنة الثانية ، وست عشرة دراخمه شهريا عن السنة الثالثة وعشرين دراخمة شهريا عن السنة الرابعة . ومن حق الأمة أن تحصل على اجازة قدرها (١٨) يوما كل عام للاحتفال بالأعياد ، أما إذا تغيبت الفتاة فى أى يوم عن العمل أو إذا أصابها المرض فعليها أن تعوض الأيام التى تغيبتها بعد انتهاء فترة العقد . ويقع على عاتق المعلم دفع ضرائب الحرفة والتدريب ، وعلى لوكيوس ....." .

لقد فقد الجزء الأخير من النص ، ولكننا نعرف من مثل هذه العقود بأن العقد كان يلزم لوكيوس بأن يقوم بأداء مهمة التدريب "طبقا لما يعرفه عن الحرفة " كما كان يتم وضع عقوبة على كل من الطرفين فى حالة عدم التزامهم بتنفيذ شروط العقد"(١) .

ولقد حفظت لنا الأوراق البردية عقوداً لتدريب عمال البناء ، وصناعة النحاس وصناعة الحصير والمسامير والمزامير ،وتمشيط الصوف ، وجزه . ولكن بالإضافة إلى هذه النماذج الباقية فقد كان يتم تعلم أى حرفة أو مهارة من خلال التدريب . فمن بين الأعداد الكبيرة من العبيد الذين كان يمتلكهم أحد كبار أثرياء مدينة الإسكندرية ، كان يوجد لديه ستة من العبيد

المدربين على الاختزال ، واثنان على النسخ أو السكرتارية ، وكاتب ، وطاه ، وحلاق ، ومرمم.
ولدينا عقد عن تدريب أحد العبيد على الاختزال على النحو التالى :

"من بانيخوتيس Phanechotes المعروف باسم باناريس Panares المشرف السابق على التعليم فى الجمانيزيوم ex-kosmetes لمدينة البهنسا ، والذى يمثله صديقه جميللوس Ge-mellus إلى أبولونيوس Apollonius كاتب الاختزال ، تحياتى - لقد عهدت إليك بعبدى خيرامون Chairammon لكى تقوم بتعليمه العلامات التى يعرفها ابنك ديونيسيوس Dio-nysios لمدة سنتين ، مع عدم حساب الأعياد ، ابتداء من شهر برمهات Phamenoth الحالى للسنة الثامنة عشر من حكم مولانا أنطونينيوس قيصر Antoninius Caeser نظير الأجر الذى تم الاتفاق عليه بيننا وهو (١٢٠) دراخمة ، ولقد استلمت بالفعل مبلغ أربعين دراخمة منها قيمة القسط الأول ، أما القسط الثانى والذى يبلغ أربعين دراخمة فيتم تسليمها عندما يتمكن الصبى من اتقان كل رموز المقاطع ، أما القسط الأخير الذى تبلغ قيمته أربعين دراخمة أيضا فسوف تتسلمه فى نهاية المدة ، عندما يتمكن الصبى من قراءة أى نص من النصوص المختزلة دون الوقوع فى أخطاء . أما إذا استطعت أن تجعله يجيد ذلك فى فترة أقل من التى تم الاتفاق عليها فسوف أعطيها لك دون انتظار انتهاء مدة العقد . كما أنه ليس من حقى أن آخذ الصبى فى أثناء فترة العقد ، كما أنه سيظل معك مدة العقد لأى عدد من الأيام أو الأشهر إذا ماتغيب أو انقطع عن التدريب (التاريخ ١ مارس ١٥٥م) [٢] .

أما الصناع الذين كثيرا ماظهروا على أوراق البردى المؤرخة بالعصر الرومانى فهم البناؤون، وقاطعو الأحجار ، وصانعو الطوب والنجارون ، وصانعو الفخار والأدوات المعدنية ، والخبازون ، والجزارون والحلاقون ، وصانعو الأحذية ، والصاغون ، والقصارون ، والمطرزون الذين كانوا يرفعون من أسعار إنتاج النسيج . ويأتى بعد ذلك التجار والمشرفون على المخازن وكان أغلبهم يتعامل مع نوع واحد من الإنتاج فهذا يبيع الزيتون وآخر الخضروات وغيره يبيع الصوف ورابع الفاكهة وهكذا . وبالإضافة إلى ذلك يمكننا أن نضع هنا وهناك الأسواق الجامعة (أو كما يسميها الإغريق اليوم Pantopoleion) - وهى تلك التى تسمى فى الولايات المتحدة وكندا بالمخازن الكبرى . وقد تضمنت قائمة مبيعات يوم واحد فى أحد هذه المخازن البضائع الأتية : السمك المدخن (وكان أكثرها شهوة) الحبال ، الحشيات ، الدقيق ، الحديد المصنع ، أرجل الأسرة ، الصبغة الأرجوانية ، سلال للسمك ، فتيل المصابيح [٣].

وقد غطى رجال هذه الصناعات والحرف أهم الاحتياجات الضرورية لاستمرار الحياة اليومية.
ومن الحرف التى لم تكن تبور تجارتها نجد الحانوتية ومحنطى الجثث وحفارى القبور .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولنقم الآن بإلقاء نظرة عن قرب لحرفة البناء . فقد شيدت المبانى العادية كما سبق ورأينا فى الفصل الثالث والرابع من الطوب اللَّبِن المجفف . وقد أنتج الطوب المحروق لسد احتياجات معينة ، لكى يستخدم على سبيل المثال كبطانة حتى لاينفذ الماء من البناء . أما المبانى العامة الفاخرة ، مثل المعابد والمسارح فقد شيدت كلها أو واجهاتها (فى العادة) من الحجر وكان إنتاج كل هذه المواد فى حاجة إلى المتخصصين فى صناعتها وبنائها .

والاصطلاح الإغريقى الذى يدل على صناعة الآجر من الناحية اللغوية يعنى : "سحب الطوب" (وهو نفس المعنى فى اللغة الألمانية Ziegelstreicher) ، وهى كلمة كافية لوصف العملية الرئيسية لصناعة الطوب المجفف فى الشمس ، والذى كان يتم خلطه بالقش أو مايشبهه ليجعله أكثر صلابة . ويعتبر الوصول إلى درجة الخلط الصحيحة خطوة هامة تحتاج إلى مهارة وخبرة ، أما عملية صب وكبس الخليط فى قوالب فلم تكن بحاجة إلى خبرة كبيرة . ونقرأ فى أحد الوثائق أن "المساحة التى كانت تمتد بين القرية والطريق المؤدى إلى عاصمة الإقليم "كانت منطقة مخصصة لصناعة الطوب بلغت مساحتها $\frac{1}{4}$ ٢ أرورا ، وهذا يعنى أن مساحتها بلغت ٦٫٠٠٠ متر مربع . أما عن ثمن الطوب وحمله وإنزاله فقد كانت تحسب بوحدة العشرة آلاف . وفى حساب خاص بأحد البنائين بلغ متوسط ما استخدمه فى اليوم ٢٢٠٠ قطعة آجر ثم تسليمها وإنزالها - ولكننا لانعرف لسوء الحظ كم كان عدد الرجال الذين قاموا بهذه العملية [٤] .

لقد وفر النيل الطمى فى كل مكان لصناعة الطوب اللبن أو المحروق ، أما الأحجار فكان يجب قطعها من المحاجر التى كان يقع أغلبها فى مصر العليا والوسطى وفى الصحراء فى المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر . فلقد كافأت الطبيعة هذه المنطقة المهجورة من الأرض بوجود المعادن والأحجار الكريمة ونصف الكريمة والجرانيت (الأحمر والرمادى والأسود) والرخام. وبعد عدة قرون من استخدام محاجر الرخام بطريقة اقتصادية معقولة فإنهاظلت حتى أواخر العصور القديمة مصدرا للرخام الأرجوانى الإمبراطورى ، الذى كان يفضل فى إقامة الأعمدة والتماثيل وفى أغراض التزيين الأخرى . أما المرمر فقد كان وجوده قليلا نسبياً فى مصر ، ومع كمه القليل فقد كان مختلفا فى نوعه إذا ماقمنا بمقارنته بالمرمر الإغريقى الذى نحت منه الإغريق روائع العالم الإيجى . ولكن إغريق المدن المصرية ومقلدوهم من إغريق عواصم الأقاليم لم يأسفوا أسفا كبيرا لعدم وجود مصدر محلى للمرمر لأنه كان باستطاعتهم أن يقوموا

باستيراده عندما يحتاجون إليه مما يعطيهم الإحساس بوجود الروابط بينهم وبين وطنهم الأم . ولقد استخدم السكندريون فيما يتعلق بالاستخدام العادى للأحجار مثل رصف الشوارع أحجار الزلط من محاجر أكوريس Akoris جنوبى البهنسا . وينبغى أن نضيف أن هذه المحاجر كانت تعتبر من أملاك الدولة .

ولقد كانت عملية الحفر فى محاجر الصخور ومناجم الذهب والحق يقال عملا غير مرغوبا فيه ، حيث كانت الشمس المتوهجة فى الصحراء تلسع العاملين أثناء النهار وسرعان مايعقبها جو قارس البرودة أثناء الليل خاصة فى فصل الشتاء وعلاوة على ذلك فقد كانت المحاجر فى مناطق معزولة على الحدود بعيدة عن "العمران" ، وكان الحصول على العاملين الذين يعملون تحت هذه الظروف يتم عن طريقين : إما أن تقوم الحكومة بتأجير العمل لمتعهدين يقومون بإغراء العمال للعمل معهم نظير أجور مجزية ، أو عن طريق استخدام المذنبين الذين صدرت عليهم أحكام قانونية ، وقد استثنيت الطبقة الأرستقراطية من أن يحكم على أحد من أفرادها بالعمل فى المناجم والمحاجر ، فقد كان الإذلال والعقوبة القاسية من نصيب الطبقات الدنيا والعبيد فقط ، مع ملاحظة أنه كان يعمل فى المناجم والمحاجر بعض الأسرى من ثوار اليهود ثم المسيحيين فيما بعد . ويقوم بحراسة كل منجم أو محجر وحدة من الجنود تحت قيادة ضابط يحمل فى العادة رتبة قائد مائة Centurion".

"من سوباتيانوس اكويللا Subatianus Aquilla (والى مصر) إلى ثيون Theon مدير إقليم الفيوم تحياتى . حيث إن العبد بابيريوس Papirius قد أنهى مدة عقوبته التى بلغت خمس سنوات والتى قضاها فى العمل فى منجم الرخام (الألبستر) ، وهى العقوبة التى أصدرها ضده مولاه كلوديوس جوليانوس Claudius Julianus لذلك فقد أطلقت سراحه . وإلى اللقاء (ملحوظة على الإيصال ، التاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ٢٠٩م) (٥)" .

ولقد عثر على بقايا معمارية وسجلات دون أغلبها على قطع الأوستراكا فى عدد من المراكز الصحراوية . وهى تعطينا لمحة واضحة عن ظروف الحياة التى كانت تعيش فيها قوات هذه المراكز والرجال المدنيون الذين كانوا يمرون عليها لقضاء أعمالهم ولدينا خطاب لجندى مملوء بالشجن ، حيث نجده يتطلع للحصول على تصريح للقيام بأجازة قبل أن يواصل الإقامة فى نفس المكان الموحش والمنعزل لمدة ثمانية عشر شهراً أخرى . إنها حقاً رسالة ضئيلة ولكن لها قيمتها الكبيرة :

"أى أموناس ، لقد حصلت على تصريح بأجازة لمدة عشرة أيام . كما حصلت على يومين إضافيين للعودة" [٦].

ولكن اهتمامنا فى هذا الفصل لاينصب على العمل فى المحاجر بقدر ما ينصب على إنتاجها .

لقد كان يتم حمل الصخور التى تم تقطيعها براً حتى النيل ، حيث توضع فى مراكب صنعت خصيصا لحمل الأحجار أو تم اختيارها لذلك . وبعد أن تحمل فى النيل يتم إنزالها مرة أخرى فى أقرب ميناء فى النهر لمكان العمل . وكانت المسلات والقطع الحجرية الكبيرة الضخمة - والتى لم يكن تنتج كل يوم لحسن الحظ - تمثل مشكلة عند القيام بنقلها . وقد كتب بلينى عن واحدة بلغ طولها ٨٠ ذراعا (الذراع ٤٢ بوصة)" وتمثلت مشكلتها الرئيسة فى نقلها وتركيبها فى المكان المخصص لها وليس فى قطعها من المحجر" [٧].

لقد قدمت لنا الوثائق تفصيلات كثيرة عن العاملين فى مجال الأحجار وعن الأغراض التى استخدمت فيها ، ومن بينها حسابات عن الإصلاحات التى تم إجراؤها فى بعض المعابدوتأتى أهمية هذه الحسابات من التفاصيل الكبيرة التى ذكرت فيها . ولاشك أن بعض النماذج منها تكفى لإعطاء صورة عنها لتوضيحها :

- أجرة عامل البناء ، لتجهيز الأحجار وتركيبها فى الركن الذى فوق الأساس .

(٦ دراخمات)

- أجرة قاطع الأحجار ، لقطع ١٠٠ قطعة حجرية لوضعها فى أركان مدخل الأعمدة .

(١٠) دراخمات ، (٣) أوبل .

- أجرة خمس حمير لحمل الجير من ميناء أبو صير إلى المدينة (؟ دراخمة)

- ثمن الحصى ، وحمله من الميناء إلى القمينة . (؟ دراخمة)

- أجرة وقاد القمينة ، لإعداد النيران ثم تنظيف القيمنة من بقايا الملاط والحصى .

(٦ دراخمات)

- أجرة نقل الحصى المشتعل من القمينة إلى مكان العمل (؟ دراخمة)

- أجرة شحن الزورق الذى حمل الرمال لخلطها مع الجير (٢ دراخمة)

- أجرة نقل الرمل من الميناء إلى مكان العمل . (٢ دراخمة)
- أجرة المبيضين وثمن المصيص . (١٦ دراخمة)
- ثمن الخشب الذى أحضرته الحكومة ، لصناعة أبواب معبد الربة إزيس .

(٥٠ دراخمة)

- ثمن الغراء الذى استخدمه النجار فى تصنيع باب المدخل والذى بلغ وزنه $\frac{1}{4}$ ٣ مينا Mina . (١٩) دراخمة ، (٤) أويل [٨] .

أما الأخشاب فكانت نادرة فى مصر ، ويبدو هذا جليا من ارتفاع ثمنها فى النص السابق . وقد استخدمت الأخشاب المحلية المأخوذة من شجر الأجَمَة - الدغَلُ - Chaparrals والسنط والجميز والتين وشجر النَبل" الطرفاء" Tamarisk فى صناعة الزوارق ، كما كانت صالحة لصناعة الأبواب والنوافذ ، وكذلك أخشاب أشجار الفاكهة التى جفت أو ماتت ثمارها. أما جذوع أشجار النخيل فيتم نشرها إلى ألواح لتستخدم فى صناعة أسقف المنازل بوجه خاص، حيث اعتبرت خفة وزنها ميزة لها . أما الكتل الخشبية الثقيلة فكان يتم استيرادهامن الخارج . ويبدوا أن المحاولة التى قام بها البطالمة الأوائل لزراعة شجر الشربين (الموسكى) فى مصر لم يقدر لهاالنجاح فى خلق مصدر محلى للأخشاب . أماكتل خشب الصنوبر والشربينى التى استخدمت فى إعادة بناء جمنازيون مدينة أنتينوبوليس سنة ٢٦٣م فقد تم استيرادها دون شك من سوريا أو آسيا الصغرى .[٩]

ونعود الآن للحديث عن النقل وطرقه : فلقد اعتبرت الحمير والجمال بمثابة "عربات" للنقل البرى ، وعلى الرغم من أن سائقيها لم يكونوا من ذوى المهارة الكبيرة إلا أنهم لعبوا دورا هاما فى المجال الاقتصادى . والحمال المثالى هو الذى يمتلك الحيوان الذى يقوده أو الحيوانات التى يربطها معا ويقودها . وقد عمل بعضهم لدى أصحاب الحظائر الكبيرة ، وتركز الطلب على خدماتهم لعدة شهور كل عام لنقل محاصيل الحصاد من الحقول إلى الأجران ، ثم من الحقول والأجران الى الموانى النهرية ليتم نقلها بالمراكب . أما بقية العام فكان يمكن تأجير الحيوانات للاستخدام الخاص . أما العربات ذات العجلات فكانت تحمل عليها الأثقال التى كان من الصعب أن تحملها ظهور الحيوانات .

وقد فرضت المكوس على مرور البضائع فى كل الاتجاهات ، كما تم تسجيل دفع الضريبة على شذرات من ورق البردى ، ولدينا نماذج عديدة تبلغ ثلاثمائه إيصال من أكثر من اثنى عشر

مركزا من التى نعرفها . وقد تم إصدار الإيصالين التاليين من قرى الفيوم التى كان يبدأ منها الطريق الصحراوى إلى ممفيس :

- "لقد تم الدفع فى بوابة المكوس فى قرية سكنوبايونيسوس Soknopaiou Nesos نظير المكوس التى بلغت ١٪ ، بالإضافة إلى ١/٢ ٪ (كضريبة على البضائع) : وقد قام سرابيون Sarapion بتصدير حبوب الخضروات على جمل واحد ، وبلغت الحمولة ستة أرادب ، ودفع عنها (٥) دراخمات ، وحمولة (١٢) أردب قمح على جمل واحد وحمارين ودفع عنها ثلاث دراخمات (التاريخ ٢٦ نوفمبر ١٦٢م)".

- "لقد قام ديوجينيس Diogenes بتصدير بلح طازج حمولة حمار واحد ، وحمولة حمار واحد من القمح ، ودفع عنها ضريبة خفر الصحراء فى مركز المكوس فى فيلادلفيا Phil-adelphia (التاريخ ١٦ سبتمبر ١٤٧م)" (١٠).

وكانت بعض الطرق الصحراوية تمثل شرايين رئيسية للمواصلات ، وخصوصا تلك التى كانت تصل بين قفط Copotus فى مصر العليا وميناء ميوس هرموس Myos Hormos (ومعناها ميناء الفأر) وبرنيقى Berenike (الذى سمى باسم الملكة البطلمية الشهيرة) على البحر الأحمر حيث كانت تعبر تجارة الهند وبلاد العرب وشرق افريقيا . وقد بلغ طول الطريق الأول ١٥٠كم ، أما الثانى فبلغ أكثر من ضعف هذه المسافة . وقد زودت الطرق بمحطات للمياه وخانات لنزول القوافل على مسافات مناسبة ، ومن حسن الحظ أن الصحراء كانت مزودة بمصدر للمياه العذبة عن طريق آبار من المياه الجوفية على مسافة غير بعيدة من سطح الأرض . وقد سجل افتتاح أحد هذه الطرق على نقش يؤرخ بعام ١١٧م .

"لقد قام الإمبراطور قيصر تراجان هادريان أغسطس (مع ذكر لعدد من ألقابه الأخرى) بافتتاح طريق هادريان الجديد الطولى الآمن والممهد من برنيس (= برنيقى) إلى أنتينوبوليس Antinopolis وقد زود الطريق بمحطات المياه الوفيرة ، والاستراحات ، ومراكز الأمن على طوله" (١١) .

ومما لاشك فيه أن جزءا من المكوس التى كان يتم تحصيلها كان ينفق على الأقل - على الخدمات ، وأهمها حرس الصحراء على وجه الخصوص ، حيث كانوا يقومون بحماية المسافرين والقوافل التجارية من عصابات اللصوص . ولدينا هنا تعريفة لبعض الرسوم فى مركز مكوس بوابة قفط عام ٩٠م :

- (ضريبة المرور) لربان السفينة فى البحر الأحمر (٨) دراخمات .
- للحارس (١٠) دراخمات .
- للبحار (٥) دراخمات .
- لصاحب المهنة (الحرفى) (٨) دراخمات .
- لبائعات الهوى (١٠٨) دراخمة .
- لنساء البحار (٢٠) دراخمة .
- لنساء الجندى (٢٠) دراخمة .
- إذن مرور الجمل (١) أوبل .
- للختم على التصريح (٢) أوبل .
- للحمار (٢) أوبل .
- للعربة المغطاة (٤) دراخمات .
- للعربة الجنائزية (رحلة دائرية) (١) دراخمة (٤) أوبل [١٢] .

أما البضائع التى كان يتم حملها بالزوارق فقد فرضت عليها مكوس فى عدة نقاط على طول النهر أو فى مراسى المراكب فى النهر . وكان من حق محصلى المكوس والضرائب أن يقوموا بالتفتيش على البضائع الممنوعة وعلى أى حال فهو عمل كان يمكن انتهاكه وخصوصا فى الأماكن النائية . وقد قام والى مصر الذى فقد اسمه فى المنشور بملاحظة هذه المشكلة وأصدر مرسومة التالى :

"لقد بلغنى أن محصلى الضرائب قد استخدموا حيلا ماكرة ضد المسافرين عبر البلاد ، وبالإضافة إلى ذلك فقد قاموا بالاحتيال على المسافرين وطالبوهم بدفع رسوم غير مستحقه عليهم ، كما أنهم تعمدوا تعطيل المسافرين الذين كانوا على عجلة من أمرهم حتى يضطروا للحصول عن طريق الشراء على تصاريح بزعم أنها تتيح لهم سرعة الرحيل . ولذلك أمرتهم بأن يتوقفوا عن جشعهم" . (فقد باقى البردية) .

وعن التفتيش على البضائع ، لدينا هذا الجزء من إحدى الوثائق حيث جاء فيها :

"إذا طلب محصل الضرائب تفريغ حمولة السفينة ، فعلى التاجر أن يقوم بذلك ، وإذا تم العثور على شىء لم يثبته التاجر فى الإقرار ، يتم مصادرته ، أما إذا لم يعثر على شىء ،

فإن على محصل الضرائب أن يعيد للتاجر أجرة تفريغ البضاعة ، ثم يحصل على شهادة مكتوبة من محصل الضرائب حتى لا يقوم أحد بإزعاجه مرة أخرى". (فقد باقى الوثيقة) .

ولدينا وثيقة أخرى لم يعثر عليها فى مصر ولكنها كانت تطبق فى دائرة الإمبراطورية" من حق محصل الضرائب أن يقوم بالتفتيش . وتصادر البضائع التى لم تدون فى الإقرار . وليس من حق أحد أن يقوم بتفتيش أى فود يخضع لحماية سيد رومانى"[١٣] .

لقد كان النقل البرى مرحلة يتبعها النقل المائى . وقد تضمنت التجارة المنقولة على الماء فى مصر كل من النقل النهرى والبحرى ، وحيث إن النقل البحرى فى كل من البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر يتعلق بعدد محدود من السكان لذلك سينصب حديثنا على النقل النهرى الذى ينعكس انعكاسا مباشرا على حياة جميع السكان فى مصر .

لقد كانت حركة السفن النهرية التى تفوق سواها فى الغالب الأعم تتجه إلى الإسكندرية حيث تحمل إليها القمح (الذى يتم تصدير أغلبه لروما) وكذلك المواد الغذائية والوقود لتغطية احتياجات جيش الاحتلال . وقد امتلكت الدولة أسطولا للشحن يعمل فيه ملاحون تم تأجيرهم أو جنود تم إلحاقهم بالخدمة العسكرية فيه . وكان هذا الأسطول يمثل نواة أسطول الغلال على نهر النيل . ولكن الجانب الأكبر من حمولة هذه المواد كان يتم عن طريق السفن الخاصة بأفراد ، حيث كان مديرى الأقاليم يطلبون من أصحابهم القيام بهذا العمل عندما تحتاج الدولة لخدماتهم.

وكان المرور النهرى نتيجة لطبيعة النهر أكثر تعقيدا من المرور البرى . فحقيقة كان يمكن أن تحمل السفن عشرات الأحمال التى تحملها مئات الحمير والجمال ، ولكن حتى الزوارق الصغيرة منها كانت تحتاج إلى تدريب ومهارة لتشغيلها . يضاف إلى ذلك وجود سلسلة من محطات التوقف البرية ، كذلك كان لابد من إجراء بعض التسهيلات لتأمين سلامة المرور النهرى . ويتراوح حجم السفن النهرية من قارب طويل ضيق مسطح القاع مربع الطرفين يسير عادة بمجداف يضرب به قاع النهر مصنوع من جذور نبات البردى التى تم ربطها معا (ص) إلى المراكب التى تصل حمولتها إلى (١٨٫٠٠٠) أردب من الغلال أو (حوالى ٥٠٠ طن) . وكان للسفن الكبيرة منها أشرعة مربعة لكى تساعدها أثناء قيامها بشق طريقها عبر النهر ، كما استخدمت فيها أيضا مجاديف لسحبها ضد التيار ، وحتى تتمكن السفينة من أن تنطلق بسرعة فى رحلتها البحرية . وطبقا لأحد المصادر فإن الرياح الموسمية التى تهب من الشمال

كانت تمكن السفينة المحملة من أن تقطع فى رحلتها ٤٠ كيلو مترا يوميا فى اتجاه الجنوب ضد التيار . وكانت القاعدة فى صناعة السفن أن جهاز تشغيل التروس فى السفن الصغيرة يماثل نظيره فى السفن الكبيرة فى ذلك الوقت . وفى أحد العقود التى أبرمت عام ٢١٢م قام المالك بتأجير سفينته لمدة طويلة وكانت على النحو التالى :

إن السفينة التى يمتلكها ذات طراز إغريقى ، وتبلغ حمولتها حوالى ٤٠٠ أردب أقل أو أكثر ، لها سقف كامل ، ومزودة بمراتب ، ولها فناء كامل ، وشراع من الكتان ، وحبال وصهريج ، وأجراس ، ومجموعة من البكر ، ومجدافين لهما قضيب على ذراع الدفة ، وسنارة مثلثة الشكل ، وأربعة مجاديف وخمسة أعمدة صوارى لها طرف من الحديد ، وسلم يصل ظهر السفينة بالحجرات ، ولوح خشبى للإنزال ، ورافعة ، وعدد ٢ مرساة من الحديد بكتلة معدنية، ولكل واحد منهما مرساة ذات خطاف ، وحبال من الليف ، حبل مزدوج ، حبل مرساة ، وثلاثة أنابيب لتفريغ الحمولة ، مكيال ، ميزان ، قماش للأشرعة وزورق صغير له مجدافين . وجميع التروس المعتادة ، ومسامير حديدية " (١٤).

ومن الواضح أنه يجب أن يكون الفرد صاحب ثروة طائلة حتى يمكن أن يمتلك سفينة تقل للبضائع ، حتى ولو كانت صغيرة الحجم بدلا من أن يكون مالكا لحمار أو لجمل . ولهذا السبب فإن عدد الربابنة الذين كانوا يمتلكون سفنا ويقومون بتشغيلها كان قليلا . وجرت العادة على أن يمتلك مثل هذه السفينة أحد الأثرياء ، وكان دائما أحد مواطنى عواصم الأقاليم من الإغريق أو الرومان ، وكان يقوم بشرائها كنوع من أنواع الاستثمار ، ثم يقوم بتأجير ربان لها ليقوم بتشغيلها وأن يجد فى العثور على الشحنات لينقلها عليها كما كان يقوم باختيار الطاقم الذى يعمل عليها ويحتاج إليه . وفى المثال التالى المؤرخ بعام ٢٢١م امتلك السفينة وقام بتشغيلها اثنان من سكان البهنسا ، وفيما يلى عقد اشتراكهما فى تأجيرها :

"إن سفينة الشحن التى يملكانها يبلغ طولها ١٥ ذراعا ومجهزة بكل الأدوات ويعمل عليها عدد كافى للقيام برحلة نهرية إلى تيبينوتيس Tebennouthis ومنها إلى البهنسا . ويبلغ سعر الشحنة ذهابا وإيابا ٥٠٠ دراخمة فضية ، ومكيال واحد من النبيذ وعشرة صناديق(؟) من لحم البتلو ، وعشرة مكاييل من زيت الزيتون ، وثلاثة مكاييل من زيت الفجل وقد أقر الملاك بأنهم استلموا منها مبلغ (١٠٠) دراخمة فى التو ، وأنهم سوف يتسلمون باقى الثمن عند تفريغ الشحنة فى البهنسا فى طريق عودتهم من تيبونوتيس Tebennouthis . وعلى

أصحاب السفينة أن يقوموا بتجهيزها لتحميلها فى الثانى من شهر بابه Phaophi .. وأن يسيروا بها بكل حذر وأن لا يبحروا بها أثناء الليل أو أثناء العواصف وأن يقوموا بانزال المرساة كل يوم فى أكثر المناطق أمانا ... وعلى الملاك أن يقوموا بتسليم الشحنة دون خسائر أو أية تلفيات تحدث لها أثناء الرحلة . وسوف يقوم الملاك المذكورون بالانتظار فى تيبوتوتيس لمدة عشرة أيام طبقا للعقد حتى العاشر من شهر بابه Phaophi الحالى ، ثم يقومون بالإبحار بعد ذلك كما سبق وذكر سالفا . ويعتبر هذا الصك قانونيا (اتفاق مشترك التاريخ) (ويقوم الملاك بدفع أجرة أربعة من المسافرين) (التوقيع)" (١٥) .

ولم يرد ذكر الجسور فى مصر إلا مرات قليلة على الرغم من أن الرومان قد قاموا بلا شك ببناء بعضها أو أعادوا بناءها لتسهيل حركة قواتهم العسكرية . أما انتقال الأفراد والبضائع فقد كان يتم عبر النيل وفى قنوات الرى الكبيرة عن طريق الزوارق بصفة رئيسية وكذلك براً فى الوادى خلال وقت الفيضان . وليس لدينا تفاصيل عن القوارب التى كانت تستخدم لتأدية هذا الغرض ، ولكن يبدو أنها كانت صغيرة الحجم وذات قاع ضحل ، وفى أغلب الظن أن ملاكها هم الذين كانوا يقومون بتشغيلها وكانوا يحصلون على تصريح يسمح لهم بالتردد على الطرق النهرية عن طريق دفع رسم للرخصة أو ضريبة إيراد .

وكان العاملون فى بعض الحرف ينضمون لنقابات كانت تشبه الاتحادات وتحدثنا الوثائق البردية عن وجود نقابات لسائقى الحمير ، وقصارى الأقمشة وصباغيها ، والنساجين ، وصانعى الفخار ، وصانعى الزجاج ونقاشى الخط الهيروغليفى ، وبحارة النهر ، وملاحى البحر، وصانعى الأحذية وتجار الملح وآخرين ممن لم تذكر الوثائق المهن التى يعملون فيها فى الوثائق المرتبطة بهذا الموضوع . وقد جاء ذكر لنقابات الخبازين ، ولحامى البرونز وتجار البيرة ، وتجار الزيت وغيرهم فى وثائق القرن الرابع الميلادى والفترة التى تليه .

ومما لاشك فيه أن بعض هذه النقابات لم تكن جديدة فى نشأتها فى القرن الرابع (أثناء فترة سياسة الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى) ، ومما لاشك فيه أيضا أن بعض هذه النقابات قد أنشئت قبل ذلك . ولدينا عدد من أوراق البردى يرجع تاريخها إلى القرن الأول وتوضح لنا بعض نظم هذه النقابات ولوائحها . فقد كانت لها لائحة مكتوبة ، وهى تشبة بصفة عامة النقابات الخاصة بالحرفيين العاملين فى جماعات دفن الموتى (Collegia) التى انتشرت فى كافة أرجاء الإمبراطورية الرومانية . وحددت اللائحة واجبات الأعضاء ووضعت تقويماً لأيام

المآدب ، وحددت الغرامة التى يدفعها العضو عن أنواع المخالفات التى يرتكبها ، ومن بينها عدم حضور الاجتماعات المحددة للنقابة . وقد حرصت بعض النقابات على مصلحة أفرادها الاقتصادية فحددت أسعار السلع التى يقومون بإنتاجها ، وكذلك المواد الأولية التى تساعدهم فى حرفتهم . وكان للنقابة مهام أخرى قامت بها لمساعدة أعضائها عند الحاجة ومنها إجراءات الطقوس الجنائزية عند وفاة أحد أعضائها ، كذلك قامت بعض النقابات إن لم تكن جميعها بالاحتفال بانضمام الفرد لعضوية النقابة ، وكان العضو يحتفل بهذه المناسبة احتفالا كبيرا مثل احتفاله بزواجه أو عيد ميلاد أحد أبنائه ولذلك كانت النقابة تشاركه فى النفقات من ميزانيتها (١٦).

وعلى أى حال فقد اختلفت نقابات العصر الرومانى عن نقابات العصور الوسطى التى تجمع أفرادها معا برغبتهم الخاصة لحماية مصالحهم ، أما نقابات مصر فى العصر الرومانى فقد تم إنشاؤها لخدمة مصلحة إدارة الولاية فى التعامل مع الأفراد الذين يعملون فى مختلف المهن والأعمال . وعلى سبيل المثال فعندما ترغب الحكومة فى إعداد ملابس وأغطية للجنود ، فقد كانت تحتاج فقط إلى أن تتصل بنقيب النساجين فى المنطقة بدلا من أن تتصل بعشرات النساجين كل على حدة . كما أدى إنشاء النقابات إلى تسهيل مهمة إدارة الولاية لكى تحمل أفراد النقابة المسئولية المشتركة لتنفيذ أوامرها ، كما أنهم يكونون متضامنين فى حالة وقوع وقوع أى تقصير (١٧) .

وهناك نوعان من العمل يرتبطان بالجنس : المرضعات وبائعات الهوى وقد ورد ذكر الأخيرات مرتين فى الخطابات الخاصة ، وكانت المرة الأولى خاصة بتعريفة الضرائب فى قفط (ص ١٤١) أما المرة الثانية فسوف تظهر فى فقرة تالية . كما أننا سنتحدث عنهن فى الفصل (٨) من هذا الكتاب . وعندما تم اكتشاف نقش وردت فيه معلومات عن تقنين أجورهن عام ١٨٩٤ تعجل البعض واستنتجوا أن فرض ضرائب بهذا المعدل العالى على العاهرات إنما يرجع إلى رغبة الحكومة فى القضاء على هذه الحرفة التى تعتبر من أقدم الحرف فى العالم . ولكن مع هذه الفكرة الأخلاقية نجد أن هناك فكرة أخرى مؤداها أن القاعدة الأساسية لسياسة الحكومة الضرائبية المرهقة لم يكن يتوافر لها مثل هذا الجانب الأخلاقى . إذن إلى ماذا تشير هذه الضريبة ؟ والحق أن هذه الضريبة التى كانت تفرض على بائعات الهوى اللآتى كن يعبرن بوابة قفط كانت مرتفعة ارتفاعا كبيرا ، ولكنها تعكس أن هذا العمل كان مربحا فى مثل تلك المنطقة التى ينكب فيها الرجال على العمل وحراسة الطرق الصحراوية وكان عددا قليلا منهم هو الذى يصطحب زوجته معه ، ولذلك تعطش بعضهم لصحبة الأنثى .

وحتى هؤلاء المغلوبات على أمرهن كان يجب أن يكن فاتنات فالمعروف أن المرأة لاتدخل فى هذا المجال إلا إذا كان لديها ظروف قاهرة ساقتها إلى هذا النوع من الحياة . وقد سجلت حادثة من القرن الرابع تعطينا صورة عن هذا الموضوع وهى تمثل ما كان يحدث فى كل العصور. فقد قدم أحد السكندريين وكان يدعى ديوديموس Diodemos للمحاكمة بتهمة قتله لإحدى بائعات الهوى والتى كثيرا ما كان يتردد عليها . وقبل أن تعلن المحكمة حكمها بإدانته أو إطلاق سراحه : "قامت ثيودورا Theodora المرأة الضعيفة ووالدة العاهرة وطالبت ديوديموس بأن يحدد لها مصدراً تتعيش عليه ليكون بمثابة تعزية بسيطة عن فقدها لابنتها حيث قالت : "إنه من أجل هذا السبب وافقت على إعطاء ابنتى للمسئول عن الماخورة ، حتى يكون لدى مصدر للرزق أتعيش منه . والآن وقد فقدت مصدر إعاشتى بعد وفاة ابنتى ، ولذلك فإننى أطالب بأن يخصص لى وأنا المرأة الفقيرة مصدر بسيط أتعيش عليه" . (١٨)

أما العمل الثانى المرتبط بنوع الجنس فيتمثل فى المرضعات فرغم انتشار وفيات الأطفال لم يكن هناك نقص فى السيدات اللائى لديهن لبن لإرضاع الأطفال ولكنهن فى غير حاجة إليه . وتقوم المرضع بإرضاع أطفال الرومان والسكندريين حيث كانت أمهاتهن يخشين أن تهدد الرضاعة قوامهن أو مكانتهن الاجتماعية ، وأيضا لإرضاع من توفيت أمه ، أو التى جف لبنها . وقد قدمت الوثائق بعض نماذج لقيام المرضعات بإرضاع لقطاء ليصبحوا بعد ذلك عبيداً لمن عثر عليهم . وسواء أكانت المرضع أمة أم حرة فيبدو أن هذا الموضوع لم يكن بذى أهمية . لقد كانت المصلحة هى التى لها الاعتبار الأول . وقد وجدنا مرضعات من الإماء قمن بإرضاع أبناء أحرار ، كما قامت سيدات أحرار بإرضاع عبيد . وقد تراوحت المدة التى يتم فيها تأجير مرضع للطفل بين ستة أشهر إلى ثلاث سنوات وفى العادة بلغت سنتان (وهى فترة طويلة بمقاييسنا الحالية ، ولكنها لازالت شائعة فى بعض أجزاء العالم الثالث) وعلى أية حال فإن كتابة العقود كانت لها صياغة موحدة خاصة بها مع بعض الاختلافات الفردية . وكانت المرضع تأخذ الطفل لمنزلها فى أثناء مدة العقد ، وتتعهد بتقديم الغذاء والكساء له وكل ماهو ضرورى لكى ينمو فى صحة جيدة . أما إذا مات الطفل قبل انتهاء مدة العقد فتأخذ بدلا منه طفلا آخر حتى انتهاء مدة العقد الأصلى . وفى بعض الأحيان كان هناك بعض الأشياء التى تلتزم بها المرضعة أثناء فترة العقد " فحتى لايفسد لبنها" كان ينبغى عليها أن لاتقيم علاقة جنسية مع أى رجل ، أو تحمل ، أو تقوم بإرضاع طفلا آخر . وكانت أجرتها تساوى أجرة العامل غير الماهر . ويدفع لها جزءاً من أجرتها نقدا (وجزءاً صغيراً منه مقدما) ، أما الباقى فيدفع على أقساط نقدية شهرية ، كما كانت تحصل على زيت الزيتون (لحماية الطفل على مايبدو من أى قرح أو طفح جلدى) .

وفى مجال أوجه النشاط الاقتصادى المختلفة كان يتم تداول المبالغ النقدية الصغيرة" من يد ليد" وهو اصطلاح كثيرا ماتم تداوله فى العقود والمعاملات . أما المبالغ الكبيرة فقد كانت تصب فى البنوك التى كان يوجد العديد والمتنوع منها فى المدن الكبرى وعواصم الأقاليم وفى القرى المأهولة بالسكان كما هو متوقع . ويتمثل عمل "البنوك العامة" بداية فى إيداعات وتحويلات ضرائب الدخل ، أما من الناحية العملية فقد كانت كل المعاملات الخاصة وبعض الأعمال العامة تتم من خلال البنوك الخاصة التى يمتلكها الأفراد . وعلى الرغم من أن معاملات البنوك لم تتطور فى أساليبها كنظيراتها فى العصر الحديث فإنها كانت تقوم بالإضافة إلى إيداع الودائع الصغيرة وسحبها مثل القيام بالدفع كطرف ثالث وبالتحويلات النقدية لمبالغ لها حجمها لبنوك وحسابات أخرى استنادا إلى أمر كتابى بسيط . وإذا سميت هذه الأعمال "تحويل عملة" أو "خدمة بنكية" أو تسجيلات بنكية" ، فهى تشير إلى الأنشطة التى يقوم البنك بها ولكنها لاتمنع من القيام بأنواع المعاملات الأخرى . وعلى ذلك فإذا قام فرد باستئجار أرض لمدة خمس سنوات ، وقام بدفع إيجار مدة العقد بأكملها عن طريق أحد بنوك الصرافة ، فإن هذا العمل يشبه إلى حد كبير مانسميه اليوم "الخصم والتخفيض البنكى". وفى مثال آخر قام أحد البنوك بتأدية خدمة مصرفية لحفظ سجل فى عملية شراء منزل . (١٩)

إن هذه المعلومات التى كشفها لنا هذا الموضوع لاتثير الدهشة بالتأكيد حيث كان رجال البنوك بصفة عامة من الأثرياء ، ويمثلون الطبقة العليا فى المجتمع . وقد حمل أغلبهم أسماء إغريقية مع وجود رومانى هنا أو هناك فى بعض الأحيان ، وحمل قليل منهم أسماء مصرية فى بنوك القرى . وكان أغلبهم يمثلون ارستقراطية مواطنهم المحلية وقليل منهم كانوا رجالا لهم وضع مميز مثل تيبريوس كلوديوس ديمتريوس ابن بيون Tiberius Claudius Demetrius S. of Bion ، الذى تم انتخابه مديرا لمعهد تربية مدينته ، وكوفئ بالحصول على الجنسية الرومانية ، وحصل على منصب رئيس الكهنة ، وتشرف بالحصول على عضوية المجمع العلمى القديم (الموسيون) Museum بالإسكندرية . وقد عرفنا بأمره من الحوالة التى أصدرها عام ٥٠م ومعه أخيه ازيدوروس Isidoros لإعادة دفع مبلغ كبير بلغ ثلاثة عشر تالنت Talent * (٧٨,٠٠٠ دراخمة) وهو مبلغ كان خايريمون Chairemon قد قام بدفعها بنفسها ومع آخرين

---

* التالنت يساوى حوالى ٢٤٠ جنيها مصريا .

بواسطة حوالة سابقة أصدرها على بنك صرافة ناركيسوس بن أرخياس Narcissus S. of Ar-chias ثم حولت بعد ذلك عن طريق حوالة على بنك صرافة ديمتريوس وازيدوروس أنفسهم ، وعن طريق الحوالة الأخيرة يتم دفع المبلغ لبنك صرافة ناركيسوس Narcissus المذكور سالفا[٢٠]. لقد كانت صرافة البنوك نوعاً من أنواع الأعمال التجارية التى يبدأ فيها الفرد ثريا وينتهى أكثر ثراء .

لقد كان الثراء والتمتع بالامتيازات من نصيب الفنانين وأبطال الرياضة الفائزين بالجوائز والذين كانت لهم شهرتهم فى مدن وعواصم مصر ، وحق لنجومهم أن يتجولوا فى أكبر مدن العالم الرومانى ، حيث كانوا يستقبلون استقبالا حافلا .

وكان ممثلوا المسرح أو كما كانوا يسمون "فنانى ديونيسوس" عندما يصبحون مرموقين فى عملهم ، يتم انتخابهم فى عضوية نقاباتهم المحلية ، وهى عبارة عن فروع من الجمعية المقدسة للسفر حول العالم للأبطال الفائزين فى الألعاب المقدمة المخصصة للإله ديونيسوس صاحب التاج الذهبى وراعى الفنانين ومولانا (اسم الإمبراطور الحاكم) وقد كانت هذه الجمعية - وهى الاسم الأنيق الذى كتب بطرق متعددة كما يظهر الآن - تحظى بمركز رئيس ومقر للعبادة فى روما. وهناك ثلاث وثائق من القرن الثالث : الأولى فى برلين ، والاثنتان الأخريان فى أكسفورد ذكرت فيها الامتيازات الهائلة التى منحها أغسطس وباقى الأباطرة لأعضاء الجمعية، ولقد أصدر الإمبراطور هادريان على سبيل المثال مرسوما يؤكدها وهو على النحو التالى :

"لاينبغى على أى فرد أن يمس الامتيازات التى منحت للجمعية وتتمثل فى حصانة أعضائها ، والجلوس فى المقاعد الأمامية (فى المسارح وغيرها) ، والإعفاء من الخدمة العسكرية ، والاستثناء من الخدمات العامة الإلزامية (فصل ٨) ، وعدم تحصيل ضرائب عن كل دخل يحصلون عليه من الألعاب والعروض الأخرى ، كما أنهم فى حل من تقديم الضمانات لإعفائهم من ضرائب الأضاحى العامة ، ولهم الحق فى أن لايرغموا على إيواء الغرباء ، أو أن يتم حبسهم والضغط عليهم تحت أى ظرف .. وإلا يتعرض من يخالف ذلك لعقوبة الموت" .

وقد أكد كل من الإمبراطور سبتميوس سفروس Septimius Severus والإمبراطور كاراكالا هذه الامتيازات وكذلك صدر تأكيد آخر لها فى عهد الإمبراطور سيفروس الإسكندر Sevevus Alexander وبعد تلاوة المنحة الإمبراطورية تقوم الجمعية بمنح شهادة عضويتها . وعلى العكس من عبارات الأباطرة الموجزة والروتينية فى مراسلاتهم كان أسلوب الجمعية حافلا بالرياء ومسهبا والمثال التالى يحمل التاريخ المصرى الذى يعادل ١٠ فبراير من عام ٢٦٤م :

"من جمعية الفنانين العالمية المكرسة للإله ديونيسوس والإمبراطور قيصر بوبليوس ليكينيوس جالينوس ماكسيموس التقى ذو الحظ السعيد أغسطس ديونيسوس الجديد إلى أعضائها من الفنانين المكرسين للإله ديونيسوس ، والفائزين فى الألعاب المقدسة والمتوجين بيتجان الذهب ، وإلى (غير الأعضاء) من المتنافسين ، تحية وسلاماً . ليكن معروفا أن ماركوس أوريليوس سيرينوس ابن سيرينوس Marcus Aurelius Serenus S. of Serenus من البهنسا قد انضم لعضوية جمعية الفنانين العالمية المقدسة للتجول حول العالم لعشيرة جالينوس العظيم ، ككاهن أعظم فى الاحتفال الحالى رقم ١٣٥ وهو الاحتفال الأولمبى المقدس العالمى للألعاب فى المهرجان العظيم الذى أقيم تكريما لأنتينوس ، كما أنه قام بدفع رسوم التسجيل طبقا للقانون ومقدارها ٢٥٠ دراخمة أتيكية ، وكل الرسوم المقررة لعبادة الأباطرة . وقد قمنا بكتابة ذلك لكى نحيطك علما به وإلى اللقاء" .

ثم يقوم كل موظف فى النقابة بالتوقيع على التقرير ، وغالبا مايكرر كل فرد نفس أسلوب الخطاب الذى يوقع عليه ثم يقومون أخيرا بإرسال رسالة الجمعية إلى مجلس مدينة البهنسا لإخطاره بأن ماركوس أوريليوس سيرينوس أصبح عضوا فى الجمعية وله الحق فى التمتع بالامتيازات المذكورة [٢١] .

أما فيما يخص أبطال الرياضة فكان لهم تنظيم مماثل ، وهى جمعية هادريان أنطونينوس سبتيميوس لأبطال الرياضة المتجولين والمخصصة لهيراكليس . وقد تأكدت امتيازات هذه الجمعية فى عهد الأباطرة كلوديوس وفسباسيان وسبتيميوس سيفروس وهم الأباطرة الذين حملت الجمعية أسماءهم فيما يبدو . وكانت مهنة الرياضة يمكن أن تؤدى كما هو الحال اليوم إلى تحقيق شهرة أكبر وثروة أضخم من التى تحققها مهنة الفن . وقد كوفئ الفائزون من الرياضيين بجوائز مالية كبيرة ، وتمتعوا بحقوق المواطنة الشرفية ، ودخل لمدى الحياة ، بالإضافة إلى امتيازات أخرى لها قيمتها مثل الإعفاء من الضرائب والخدمات الإلزامية . ولدينا من خارج مصرنموذج فريد لأحد أبطال سباق المركبات وكان يبلغ من العمر ٢٤ عاما حيث حصل على جائزة نقدية بلغت مليون ونصف دراخمة ، وهناك بطل ملاكمة آخر لم يهزم بعد أكثر من مائة مباراة اشترك فيها ، وبناء عليه منح عضوية أكثر من (١٤) مدينة مختلفة من أنحاء العالم الرومانى كانت الإسكندرية وأنتينوبوليس من بينها [٢٢] .

ويمدنا البردى كما هو العادة بتفاصيل عديدة عن مصر . فلدينا وثيقة مؤرخة بعام ١٩٤م تشبه تلك التى سبق تقديمها عن فنانى ديونيسوس وتتضمن مذكرة إلى أعضاء الجمعية بأن

"هيرمينوس Herminus المدعو موروس Moros بطل الملاكمة قد أصبح عضوا فى جمعيتنا ، وقام بدفع الرسوم المذكورة كاملة وهى (١٠٠) دينار (= ٤٠٠ دراخمة) ولدينا أيضاً طلب من هرموبوليس قدمه أحد أبطال الرياضة الفائزين لمدينته فى موطنه بخصوص مبلغ (١٨٠) دراخمة شهريا ، وهو المبلغ الذى منح له لفوزه مرتين "الأولى فى ألعاب النصر المقدسة (فى هرموبوليس) .. والأخرى لفوزه بالتاج فى بطولة ألعاب النصر العالمية وهى من نفس مرتبة الألعاب الأولمبية التى عقدت فى بلدية صور" [٢٣] وينبغى أن نلاحظ أننا إذا قمنا بمقارنة هذه المكافآت بمرتب العامل الماهر فى منتصف القرن الثالث ، والجندى العامل فى الفرقة الرومانية، حتى بعد الزيادة التى بلغت ٥٠٪ والتى منحها لهم الإمبراطوركاراكالا نجد أن كل من العامل والجندى السابق ذكرهم لم يكونوا يحصلون إلا على حوالى ستين دراخمة فقط شهريا .

وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الامتيازات لم تكن تمنح للفائز لمدى الحياة فقط بل نجد أنه لم يوضع لها حد زمنى ، إذ امتدت فى بعض الأحيان إلى ورثته بعد وفاته .

وأخيرا فإن الحاصلين على الامتيازات من أبطال الرياضة كان مثلهم مثل أصحاب المناصب الكهنوتية والمناصب الأخرى التى كان يمكن شراؤها وبيعها فمما لاشك فيه أن الأبطال الرياضيين الذين أغرقوا بالحوافز والأموال لتكرار انتصاراتهم قد وجدوا أنه من الأفضل لهم أن يستبدلوا بعض امتيازاتهم المكررة بالمال كما هو الحال فى المثال الآتى والمؤرخ فى ١٨ ابريل سنة ٢١٢م :

"برجاء تحويل مبلغ ألف دراخمة فضية من حساب يودايمون Eudaemon المدعو نيلوس ، وهيراكيون المدعو أنوبيون .

(التاريخ) عن طريق سجل بنك أنوبيون بن أمونيوس Anoubion S. of Ammonios (المواطن) من قبيلة ماتيديا Matidian tribe فى حى كالليتيكنون Kalliteknon فى مدينة أنتينوبوليس .. إلى (حساب) توربون بن أبوللونيوس بن أمونيوس Tourbon S. of Apol-lonios S. of Ammonios من قبيلة أغسطس حى ديوسكوروس Dioskoros الفائز فى الألعاب المقدسة والمعفى من الضرائب .

ولقد أقر توربون Tourbon أنه استلم من هيراكيون Hierakon المدعو أثينادوروس Athenadoros نظير حقوقه التى حصل عليها ، وأولها حق تناول الطعام على نفقة الدولة ، وهو الحق الذى قام ببيعه لأبناء هيراكيون السابق ذكره ، وثانيها الحق الذى حصل عليه بفوزه فى ملاكمة الرجال التى جرت فى أنتينوبوليس فى العام الواحد والثلاثين من حكم المؤلهَ

كومودوس والسنة الثانية والثلاثين فى المباريات الكبرى المقدسة التى أقيمت على شرف ذكرى أنتينوس . وتبلغ قيمة الجائزة النقدية التى حصل عليهاوالتى تم الاتفاق بشأنها ألف دراخمة فضية (١٠٠٠ دراخمة فضية) مع كل الحقوق المترتبة على ذلك فى السجل الرسمى للسجلات العامة ، ومع كل الحقوق التى ترتبت على ذلك (تمت قراءة هذا الإيصال بصوت مرتفع لتوربون Tourbon ، حيث دونت موافقته بتسلم الإيصال نيابة عنه لأنه لايعرف الكتابة (توقيع ثلاثة من الشهود ثم يتبع ذلك توقيع المشترى) .

ولكى نختتم هذا الفصل فسوف نتناول أصحاب المهن من المتعلمين . وأول الفئات التى تكرر ذكرها فى أوراق البردى هى فئة الأطباء ، ولكننا قلما نقابلهم أثناء ممارستهم لمهنتهم . ففى أغلب الحالات التى لدينا جاء ذكرهم فى النصوص الخاصة بامتلاكهم لأملاك ، أو دفع أموال ، وهكذا . وبالرغم من ذلك مازالت لدينا عدة لمحات عن أعمالهم .

ففى نهاية الفصل الخامس قدمنا مثال لطبيب قام بتقديم تقرير رسمى عن حادثة وفاة . أما المثال الثانى« فهو خاص بقيام طبيب رومانى الجنسية مقيم فى إحدى القرى بكتابة تقرير عن حادثة هجوم على أحد الأفراد - ومما لاشك أن هذا الطبيب كان فى الأصل من قدامى المحاربين وأنه كان يعمل فى الوحدات الطبية طوال سنوات خدمته العسكرية :

"نسخة من تقرير إلى بروتارخوس Protarchos مدير إقليم الفيوم ، قسم هيراكليديس ، من جايوس مينيكيوس ڤاليريانوس Gaius Minicius Valerianus الذى يمارس الطب فى قرية كرانيس ، ومن فائيسيس بن زيناس Phaësis S. of Zenas ومن إسوريس بن كاستور Esouris S. of Castor شيوخ القرية (فبالإشارة إلى) حالة ميسثاريون بن كاميس Mys-tharions S. of Kames ، (أحيطكم علما بأننى) قمت بزيارته فى حضور أخيه بيتوسوخوس Petesouchos وأقدم لك عنه التقرير التالى : نقسم بحياة مولانا الإمبراطور قيصر تراجان هادريان أغسطس أنه فى اليوم الخامس بعد أن تم ضربه فوق صدغه الأيسر من جانب الرأس قمت أنا جايوس مينيكيوس ڤاليريانوس بعلاج ميسثاريون من جرح نافذ ، حيث وجدت فى الجرح قطعة صغيرة من الحجر . وقد قمنا نحن إيسوريس وفائيسيس بمشاهدة الجرح المذكور ، وإذا ثبت عدم صدقنا نكون معرضين للعقاب للحنث بالقسم (التوقيع ، التاريخ ١٣ أغسطس عام ١٣٠م) ".

وفى خطاب يرجع تاريخه إلى ٢٩ أغسطس عام ٥٨م ومرسل من أحد الأشخاص إلى صديقه الطبيب ، ويذكر فيه مرسله بعد الافتتاحية العادية الخاصة بأطيب الأمنيات ، الآتى :

"لقد قمت بإرسال وصفتين لى ، الأولى خاصة بتذكرة أرخاجاثوس Archagathos والثانية خاصة بالضمادة الكاوية . والوصفة الأولى جيدة ، ولكن الضمادة (اللزقة) الكاوية تفقد مفعولها مع الراتنج إن ما أريده منك أن تذكر لى (وصفة) لمادة كاوية قوية يمكن استخدامها دون خطورة على المسام إننى فى أشد الحاجة إليها حيث إن الضمادة الجافة التى كتبت لى عنها نوعان . أرجو أن ترسل لى وصفة من النوع الذى يؤدى للشعور بالراحة .." (٢٦) .

وعلى الرغم من أن القابلة لم تذكر إلا مرة واحدة فى آلاف الوثائق البردية التى تم نشرها حتى الآن ، إلا أن ذكرها يدلنا على أن الفلاحين المصريين مثلهم مثل سكان كل المجتمعات الزراعية فى كل زمان ومكان، كانوا يدبرون أمورهم لسد احتياجاتهم الصحية بأنفسهم ، حيث كانت الرعاية الصحية فى المقام الأول من نصيب المدن والعواصم . أما القرويين فقد اعتمدوا فى حياتهم العادية على دستور الأدوية المحلية البسيطة والمجهولة الهوية ، والذى تطور من خلال التجربة والخطأ عبر القرون . وقد عثر على أكثر من مائة وصفة طبية مسجلة على برديات من العصر الرومانى ، وكانت تعالج كل شىء ابتداء من أمراض الجوف إلى الأمراض المعدية عن طريق الأعشاب ، وهو أمر متوقع من مجتمع زراعى حيث يمكن الحصول عليها من مملكة النبات فيه ؛ وقد بلغ عدد هذه الأنواع من الأدوية أكثر من ثلاثة أمثال عدد الأدوية المستمدة من الحيوان أو ذات الأصل المعدنى . وهى تتفاوت فى نوعها من المنتجات اليومية مثل النبيذ إلى الأعشاب النادرة مثل الأسفنتين absinthe والبرواق Asphodel . وقد تم خلط بعض الوصفات بطريقة غامضة أو بطريقة السحرة الأفارقة ، وذلك فى الإرشادات الخاصة باستخدامها . ولكن أغلبها جاء بطريقة مباشرة ليس فيها التواء . وبعضها وهو القليل منها كان يعكس معلومات طبية صحيحة من التى عرفها العصر فعلاج سقوط سقوط الشعر على سبيل المثال الذى وصف فى أكثر من نسخة ، تم نشر واحدة منها منذ أكثر من خمسين عاما ، بدأ ينظر إليها الآن على أنها نفس الوصفة التى وجدت فى أعمال جالينوس Galen أكبر أطباء الإمبراطورية الرومانية ، حيث نقرأ فيها الآتى :

"لوقف سقوط الشعر" :

"بعد وضع صبغة الأفيون Laudandum فى النبيذ غير المخمر ، أضف زيت الريحان الشامى بالتعاقب مع النبيذ حتى يصبح الخليط فى قوام العسل ، ثم امسح بها الرأس قبل الحمام وبعده . ومن الأفضل إضافة بعض من سرخس "كسبرة البئر" والذى يسميه البعض

أدیانتوم Adiantum وتستخدم نصف كمية صبغة الأفيون ، بالتعاقب مع الزيت أو مع زيت الريحان الشامى أو مع الناردين" (٢٧) .

كذلك وردت كلمة طبيب بيطرى Veterinary بيطرى (= طبيب للخيول فى اللغة الإغريقية) مرتين أو ثلاث مرات ، وأيضا اصطلاح "طبيب الفرقة" ولكن هذه الإشارات وردت كتعبير عادى فى النصوص لا علاقة له بعمل أصحاب هذه المهنة . كما أنه ليست لدينا أية معلومات عن تدريب الأطباء ، ونحن نعرف أنه لم يكن هناك فى أى فترة من العصور القديمة امتحان رسمى لإجازة الطب ، أو شهادة رسمية يحصل عليها الطبيب قبل أن يقوم بممارسة مهنة الطب، ولاشك أن الخبرة المبدئية فى العلاج كانت تتم أثناء فترة التدريب التى يحتاج إليها العمل الطبى ، ولم يتوافر التدريب الطبى فى المدن الكبرى والمراكز الطبية الشهيرة فقط، لكنه توافر أيضا حيثما وجد طبيب محلى (مشهور) لديه الرغبه فى أن يعلم طريقته الخاصة فى العلاج لصغار المزاولين للطب . ويتضح لنا مدى انتشار الكتب الطبية من خلال أوراق البردى التى تم العثور عليها . ففى مصر الوسطى عثر بين خرائب مدينة أنتينوبوليس وفى عاصمة هرموبوليس والبهنسا ، وأيضا فى بعض القرى ، على أوراق بردية تضم من بينها تعليقات على مقالة جالينوس فى الطب ، وعشرات الشذرات من أعمال هيبوقراطيس Hip- pocrates ، وأكثر من خمسين قطعة بردية صغيرة لأعمال طبية غير معروفة لنا حتى الآن كما نجد صدى أعمال كُتاب الطب الإغريق فى كثير من الوصفات الطبية التى تم العثور عليها مثل النموذج الذى سبق تقديمه توا . وبالإضافة إلى ماتقدم فقد كان لدى المصريين تقاليد طبية مثيرة خاصة بهم ، سجلت فى البردى الهيروغليفى والتى ترجع إلى الألف الثالث والثانى قبل الميلاد . وكان أمام ممارسى مهنة الطب فى مصر الرومانية مدرستين لكى يقوموا بوصف أدويتهم منهما ، لذلك فقد كان لابد من الترجمة عن كليهما . ولدينا مثال جيد على هذا المزج بين الطريقتين يمكننا أن نراه فى وثيقة نشرت حديثا عن لفافة بردية من فيينا ، وهى عبارة عن كتاب طبى مكتوب بالديموطيقية ويرجع لأواخر القرن الثانى الميلادى ، وكان أحد المراجع فى مكتبة معبد سوخوس Souchos الإله التمساح فى الفيوم . وقد تم تأليف نص هذا الكتاب من مصدر خارجى ، وتحمل بعض ملامحه خصائص الكتابات الطبية المصرية فى العصر الفرعونى ، كما يتضح من بعض وصفاته أنها ذات أصل إغريقى . أما الشىء الذى أثار دهشة الجميع فهو أن أغلب الوصفات فيه تتكون من كلمات إغريقية تمت ترجمتها للغة المصرية (٢٨) .

ولدينا وثيقة أخرى مثيرة تعطينا لمحة جانبية عن إعداد طبيب القرية وهى تثير انتباهنا لأول وهلة على الرغم من أن الضوء الذى تلقيه يكتنفه الغموض بعض الشىء نتيجة لعدم تأكدنا منه . والوثيقة عبارة عن إعلان عن تعداد عام ١١٨م حيث سجل أحد القرويين ابنه الذى يبلغ السابعة عشر من العمر ، وذكر إلى جانبه أن يعمل فى مهنة اختصارها يتفق مع الكلمة الإغريقية التى تعنى "متعلق بالطب "وهى" Physi ". فهل لدينا الآن شاب يبلغ السابعة عشر من العمر ويزاول الطب؟ (وهو ما أمكن استنتاجه عندما نشرت هذه الوثيقة منذ سبعين عاما) . ففى ميدان الحرف اليدوية ، كما سبق وشاهدنا فى بداية هذا الفصل ، كانت فترة التدريب تنتهى عادة فى سن أقل من السن المذكور فى هذه الوثيقة ؛ فهل هذا ينطبق أيضا على التدريب فى مجال الطب ؟ حقيقة أن الشباب فى المناطق الحارة يصلون لمرحلة النضوج أسرع من نظائرهم لدينا(*) ولكن هل هذه الحقيقة يمكن أن تكون أساسا كافيا لكى نفترض أن القرويين كان يمكن أن يلجأوا بشكواهم الطبية إلى شخص صغير السن ؟ لاشك أن مثل هذا الشاب سيكون هو الوحيد الذى يمارس مهنة الطب فى هذه المنطقة أو ربما يكون قد حاز شهرة واسعة فى مجال العلاج تناقلتها الألسنة أو أن يكون متمتعا بموهبة خاصة وقدرة ربانية. لقد انتشرت مثل هذه الممارسات وتلك المعتقدات فى الشرق القديم . لقد قام والده بكتابة الإقرار (وذكر أنه كان يعمل كاتبا) فهل قصد والده بأن الشاب الصغير كان يعمل مساعد طبيب ، أو طبيب تحت التمرين ، أو كان طبيبا للعلاج الطبيعى؟ والآن ونحن نتطلع إلى الكيفية التى سيتم بها حل هذا اللغز فربما تظهر قريباً معلومات أخرى جديدة عن هذا الموضوع (٢٩) .

وليس لدينا معلومات عن ما إذا كانت رسوم الأطباء مرتفعة أم منخفضة . حيث لم تذكر لنا أى حالة منها وينطبق نفس الشىء على المحامين ، الذين لانعرف عنهم إلا معلومات أقل مما نعرفه عن الأطباء . فهم يظهرون عادة كثيرا أثناء وجودهم فى قاعة المحكمة ، عندما يتحدثون عن وكلائهم ، ولكن ليست لدينا معلومات عن طريقة إعدادهم إعدادا قانونيا أو للوقوف أمام المحكمة . وما أمكن أن توضحه لنا أوراق البردى المتزايدة التى تم العثور عليها هو أن القانون الذى كانوا يمارسونه لم يكن رومانيا ولا إغريقيا ولامصريا ، بل كان فى أساسه خليطا من القانون الإغريقى والمصرى . كما كان للقواعد القانونية الرومانية وإجراءاتها أثر ملموس على ممارسة القانون ، ذلك الأثر الذى يبدوا أنه أخذ يتزايد خلال الحكم الرومانى . وقد نما هذا التطور بوضوح بعد عام ٢١٢م عندما منح الإمبراطور كاراكالا الجنسية الرومانية لجميع

(*) يقصد المؤلف لديهم فى أوربا . المترجمة .

سكان الإمبراطورية الرومانية . والمثالان التاليان كافيان لتوضيح مدى انتشار القانون الرومان وأثره فى مجال القانون . فعندما يصل الشاب فى مصر لسن الرابعة عشر كان يخضع طبقا لقانون الولاية لدفع ضريبة الرأس ، ولكن منذ منتصف القرن الثالث ارتفع السن إلى الخامسة والعشرين بالنسبة للرومان . وهناك بردية أخرى نشرت حديثا ترجع لعام ٢٦٠/٢٦١ وهى خاصة بإعادة الدوطة بعد فسخ عقد الزواج . ويتضح من هذه الحالة أنها كانت تسير وفقا للإجراءات القانونية الرومانية . وهى حالة لم يوجد لها نظير فى إجراءات الولاية فى الوثائق المشابهة بفترات أسبق منها زمنيا .

وعلى عكس المدونات الرومانية نجد أنه لاتوجد فى مصر مدونة للقوانين المحلية فى الولايات لكن القوانين المحلية كانت تنمو كنتيجة لتراكم التشريعات والقواعد القانونية . ولذلك فقد كان تدريب المحامين تحت هذه الظروف أمرا يتطلب دراسة واسعة للقضايا وسوابقها كما كان الحال فى التقاليد الإنجليزية الأمريكية .



الفصل الثامن

التعداد ، الضرائب ، الخدمات الإلزامية

أو "أعط القيصر ما لقيصر"

Rendering unto Caeser

تعداد السكان ومسح الأراضى الزراعية :

وقد حدث فى تلك الأيام أن أصدر قيصر أغسطس قرارا بخضوع جميع أنحاء العالم للضرائب .. وأن على كل فرد أن يقوم بدفع الضرائب فى مدينته" فالقصة الشهيرة الخاصة بميلاد المسيح والتى ذكرت فى الفصل الثانى من إنجيل لوقا تبدأ بالإشارة إلى التنظيم الشامل للحياة فى الإمبراطورية عن طريق التعداد . ويرجع الفضل لمصر التى تقدم لنا عن هذا النظام معلومات تفصيلية بفضل المعلومات التى حفظته لنا مئات من أوراق البردى ، والتى أمكننا من خلالها أن نعرف مراحله وخطواته ، وإجراءاته البيروقراطية ، والموظفين المسئولين عنه .

ففى أثناء العصر البلطمى كان يتم تسجيل جميع سكان مصر سنويا ؛ ولكن أغسطس ألغى هذا النظام واستبدله بالتعداد الذى كان يتم كل أربعة عشر عاما ، وهو السن الذى كان الصبى فيه فى مصر يصل إلى سن البلوغ ومن ثم يتم تسجيله لدفع ضريبة الرأس . وتبدأ عملية التعداد بالإعلان الرسمى عن ذلك كما هو الحال فى المثال التالى الذى رجع لعام ١٠٣م:

"يعلن جايوس ڤيبيوس ماكسيموس Gaìus Vibius Maximus والى مصر" أنه قد بدأ الآن تعداد السكان منزلاً منزلاً ، لذلك فمن الضرورى أن يبادر جميع الأفراد المتغيبون أو الموجودين خارج محل إقامتهم لأى سبب من الأسباب بالعودة إليه على جناح السرعة ، وذلك ليتمكنوا من استكمال الإجراءات الرسمية المعتادة للتسجيل ، وعليهم أن يقدموا أنفسهم للمسئولين عن التعداد . وإنى لأعلم على أية حال أن مدينتنا (الإسكندرية) تحتاج إلى بعض السكان القادمين إليها من الريف ، وعلى ذلك فإننى أطلب من جميع الأشخاص الذين لديهم أسباباً مقنعة للبقاء فى المدينة أن يقوموا بتسجيل أنفسهم مع فولوسيوس فيستوس Vo-lusius Festus القائد الإقليمى الذى عهدت إليه بالقيام بهذه المهمة ، وسوف يحصل هؤلاء الذين يبرهنون على أن وجودهم ضرورى على تصريح موقع منه بمقتضى هذا المرسوم ، وذلك فى مدة أقصاها الثلاثين من شهر أبيب Epiph الحالى . أما الآخرون فعليهم أن يعودوا إلى محل

إقـامـتـهـم خلال ثلاثين يوما . وفى حـالة ضـبط أى فرد منهم لايحـمل تصـريحـا فـسـوف يتم مـعـاقـبـتـه دون هـوادة . كـمـا أننى أعلم تمام العلم ... (فـقـدت الأسطر القليلة المتـبـقـيـة من الوثيـقـة). بعـد ذلك كـان يتم توزيع أوامـر مـشـابهـة فى جـمـيع أنـحـاء الولاية . وقـد فـرضت عقوبات شديدة على من يهمل القيام بالإحصاء كما هو واضح فى القواعد الإمبراطورية الخاصة بمدير الحساب الخاص للإمبراطور :

فقرة ٥٨ :

(يعـاقب) الأفـراد الذين لا يقـومـون بتـسـجـيل أنفـسـهم والأفـراد الذين يجب تسـجـيلهم فى تعداد السكان منزلاً منزلاً بمصادرة ربع أملاكهم . وإذا اكتشف أنهم لم يقوموا بالتسجيل على مدى تعدادين تتم مصادرة ربع آخر من أملاكهم .

فقرة ٦٠ :

فى حالة عدم تقديم إقرار عن العبيد تتم مصادرة العبيد فقط .

فقرة ٦٣ :

أماالأفراد الذين تقدموا بإخطار يعلنون فيه تعذر قيـامـهم بتـقديم البيـانات فى الإحصـاء السابق فيتم العفو عنهم إذا قاموا بتقديم البيانات المطلوبة خلال فترة ثلاث سنوات . [١]

ولانعرف بالضبط كم كان عدد المرات التى يمكن أن يتم فيها التجاوز عن الخطأ ومنح مهلة لفترة السنوات الثلاث لكننا نعرف أنه كان يمكن تقديم البيانات المطلوبة حتى نهاية العام الذى يلى عام التعداد ، وذلك فى الحالات العادية . والمعروف أنه كانت هناك خمس حالات من كل ست يتـمـهـل أصحابها حتى اقتراب الموعد النهائى قبل أن يقـومـوا بتـقديم مـاتحـتـاجه الجـهـات الرسمية من بيانات كما هو الحال فى عصرنا . وكان على شاغل كل منزل سواء أكان مالكا أو مستأجرا ، أو مقيماً فيه أن يعد تقريرا رسميا يذكر فيه اسمه وأسماء من يقيم معه (أو معها) أما إذا كان المنزل خاليا من السكان فيجب على المالك أن يقدم للدولة تقريرا عن ذلك ولقد بدأ تقديم بيانات "تعداد السكان منزلا منزلاً "، كما كان يسمى من الناحية الرسمية منذ تعداد عـام ٦٢/٦١م . أمـا قبـل ذلك فكانت تسمى باسم "تسـجـيل الهـويات" identity register ويقدم البيـان لمدير الإقـاليم أو الكاتب الملكى . وفى مكتب مدير الإقليم يعطى لكل بيـان رقم على أعـلاه ، ثم يصلق الطرف الشـمـالى منه على الطرف الأيمن للرقم السـابق ، وهكذا يصـبح

لدينا "ملفاً ملصقاً" كما كانوا يطلقون عليه ، وكان يعطى بدوره رقما فى الفهرس ، ثم يصف مع غيره من الملفات .

ولدينا حتى الآن ٣٠٠ بيان من بيانات التعداد ، ومما لاشك فيه أن مجموعات البردى العالمية تتضمن عددا آخر من بيانات التعداد التى لم يتم نشرها بعد . وأقدم البيانات التى لدينا ترجع لعام ١٩/٢٠م . ويرجع أحدثها لعام ٢٤٣/٢٤٤م . أما المثال التالى فهو يرجع لعام ١٧٣/١٧٤م وهو يعطينا صورة عن كيفية صياغتها :

"ص ٩٩ " (من اللفافة)

"إلى أبيون Apion السكرتير الملكى لأقليم بروسوبون Prosopite nome من بانتيپيوس بن بيتوس Pantbeus S. of Petes و (أخوته) تيثونيسيس Tithoennesis هارمونيسيس Harmonnesis وفلاكريس Phlakres وجميع الأخوة الأربعة (من قرية) ثيبوثون سيبثا Thebothon Sipphtha . لقد قمنا بالتسجيل امتثالاً لأوامر فخامة الوالى كالفيسيوس ستاتيانوس Calvisius Statiannus الخاصة بتعداد السكان منزلاً منزلاً والتى تبدأ منذ الآن ببركة الله . وتتكون أملاكنا فى القرية من منزل وأماكن أخرى شاغرة خاصة ببانتبيوس وتيثونيسيس وفالاكريس وهارونيسيس وجميعهم أبناء بيتوس بن بنيفيروس Petos S. of Pnepheros" . {يلى ذكر لشاغلى المنازل كل على حدة} .

إن السكان الذين ذكروا فى القائمة هم أربعة من الأخوة ، ولدوا فى فترة زمنية امتدت على مدى ٢٨ عاما ، وكان مع كل منهم زوجته ، بالإضافة إلى تسعة من الأطفال كانوا جميعاً يعيشون فى منزل واحد . كما كان هناك طفلان (من الأطفال التسعة) مولودان لاثنين من هؤلاء الإخوة من زواج سابق ، كما أن اثنين من هؤلاء الإخوة قد تزوجا من أختيهما وكان الأخ الأكبر يبلغ من العمر ٤٩ عاماً ، وكان له ثلاثة من الأبناء من زوجتة الثانية التى تبلغ آنذاك واحد وعشرين عاما ، وقد ذكرت أسماء ست من هؤلاء الأطفال سموا على أسماء أجدادهم كما هى عادة المصريين ، وكانت هناك طفلة حملت اسم عمتها التى يبدو أنهاماتت قبل فترة قصيرة من ميلاد الطفلة . كذلك ذكرت العلامات الخلقية أو المميزة للذكور الذين وصف أحدهم على سبيل المثال بأنه فاقد لإحدى عينيه (أعور) وكانت مثل هذه العلامات المميزة تستخدم فى التحقيق من شخصية الأفراد لدفع ضريبة الرأس ، ولما كانت النساء لايخضعن لدفع ضريبة الرأس ، لذلك فقد ذكرن بأسمائهن فقط ، مع ذكر صلة قرابتهن وأعمارهن [٢].

بعد ذلك كان مكتب مدير الإقليم أو الكاتب الملكى يقوم بإرسال نسخة من بيانات التعداد لكاتب التسجيل فى القرية ، أو المدينة ، أو أحياء المدينة . وكان يوجد فى هذه الإدارات المحلية سجلات فرعية منظمة ، واحد منها مخصص للخاضعين لدفع ضريبة الرأس عندما يصلون لسن الرابعة عشر (*) .

وعلى الرغم من أن أوراق البردى تكشف لنا عن تفصيلات كثيرة خاصة بالتعداد فى ست من الأقاليم المصرية ، الا أنها لاتعطينا بيانات كاملة عن تلك الأقاليم أو تلك المديريات أو عن الولاية بأكملها . وقد ذكر اثنان من الكتاب القدامى العدد الكلى لسكان مصر ، ولكن الأرقام التى ذكروها فى حاجة إلى مناقشة وتنفيذ لإثبات صحتها . فقد بلغ عدد سكان مصر فى أوائل العصر الرومانى طبقا لما أورده ديودوروس الصقلى سبعة ملايين نسمة . وبعد مائة عام ذكر الكاتب بوسيفوس أن عددهم - بدون سكان الاسكندرية - بلغ سبعة ملايين ونصف مليون نسمة ، علما بأن عدد سكان مدينة الاسكندرية آنذاك كان يبلغ تقريبا نصف مليون نسمة (الفصل الثانى) (٣) .

وكان تعداد السكان يعدل سنوياً ليضم أحدث الإحصاءات والبيانات وذلك على يد كاتب القرية . والمدينة ، وهو نفس الشيء الذى حدث بالنسبة لمسح الأراضى الزراعية حيث كانت بياناتها تمد الإدارة الرومانية بالمعلومات الضرورية لفرض الضرائب على الأراضى ومنتجاتها . وقد تم تنظيم مسح الأراضى على يد الجهات المحلية وإداراتها الفرعية ، فقد كان يتم تسجيل وإحصاء كل قطعة أرض قائمة بذاتها ، وتوضع فى قوائم مع ذكر بياناتها الطبوغرافية. ويتم مع ذكر كل مساحة من الأرض (مع بعض الاختلافات المحلية) تسجيل معدل الضرائب المستحقة عنها ، ودافعها سواء (أكان المالك أو المستأجر) ، ونوع المحصول الذى ينمو فيها ، وكيف ومتى تصل إليها مياه الفيضان (سواء بطريقة طبيعية أو عن طريق ضخ المياه إليها) ومساحة سطحها طبقا لسجلات مسح الأراضى الرسمية(**) . كما كان يتم ذكر أى تغيير

(*) عن إحصاء المنازل أو تعداد السكان راجع : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص ٢٤٧ ومايليها .

(**) عن مسح الأراضى وأهميتها فى مصر خلال هذه الفترة راجع : المترجمة ، مصر فى عصر الرومان ، ص ٢٢٠/٢٢١ ؛ وأيضا Deleage (A) "Les Cadastres Antiques Jusqua Diocletien, "Etud. Pap. z (1934), pp. 111-147 .

يحدث فى ملكيتها ، وكان يجب أن تذكر الحالة التى وجدت عليها الأراضى . وكان يحدث فى بعض الأحيان تغيير فى معدل ضرائبها من سنة لأخرى نتيجة لمستوى منسوب فيضان النيل (***) .

لذلك كان على المزارع الذى تتأثر محاصيله نتيجة لهذا أن يسلم تقريرا للدولة عن مدى الضرر الذى أصابه مطالبا بتخفيض الضرائب المقررة عليه . وعندما يصل هذا التقرير إلى الدولة يقوم فريق من المفتشين بالانتقال إلى مكان الأرض مصطحبين معهم أحد المساحين للقيام بقياس الأرض التى أصابها الضرر . وسواء تم تقديم هذا الطلب بعد الفيضان مباشرة أو

(***) كان فيضان النيل يغير فى بعض ذبذباته الجامحة من ملامح الأراضى الزراعية كل عام . إذ كان يطيح بالجسور التى تقع فى وسطه ، ويغرق أخرى ويغطيها تماما بالمياه فيحولها إلى أراضى غير صالحة للزراعة ، كما كان يضن على غيرها بالمياه فلا تصل إليها ويتركها عطشى طوال العام ، وأحيانا كان يعطى المياه ولكن بدون سخاء للأراضى مما يضعف إنتاجها الزراعى . لذلك كان لابد من إجراء مسح للأراضى لضبطها كل عام Anametresis ، حتى يمكن تقدير ضرائبها النقدية والعينية . واحتفظ موظفو الإدارة بسجلات كاملة عن حالة الأراضى كل عام .

ويختلف فحص الأرض episkepis عن مسحها حيث كان فى وسع أى فرد أن يتقدم للإدارة بطلب تخفيض الضرائب ، إما لعدم وصول الفيضان إلى أرضه أو لنقص أو لزيادته مما يؤدى إلى تغطية الأراضى بطبقة من الأملاح التى تقلل من خصوبتها أو تؤدى لتغطيتها بالرمال خصوصا تلك الأراضى الواقعة على الأطراف بالقرب من الصحراء . وبعد تقديم هذه الإقرارات يقوم كاتب القرية بعملية فحص أولية تراجعها اللجان التى تتكون بعد ذلك والتى لم يكن يشترك فيها بطبيعة الحال . وكان المدير يصدر تعليمات وأوامر فى حالات الفيضان الاستثنائية لكى يساعد لجان الفحص فى تأدية أعمالها .

ولضمان حياد لجان الفحص كان يتم اختيار أعضائها فى بعض الأحيان من قرى أخرى وكان يصاحبها مساحون ليقوموا بمسح الأراضى ، وكثيرا ما أثبت الفحص عدم صحة ماجاء فى الالتماس ، كأن تكون المعلومات التى وردت مبالغ فيها وخصوصا بالنسبة للأراضى المرتفعة الضرائب ، وليس معنى ذلك أن عمل هذه اللجان كان بالغ الدقة ، فلقد اتهم مرسوم الوالى تيبريوس يوليدوس الاسكندر القائمين على أمرها قبل توليه الحكم بأنهم فرضوا الضرائب دون مراعاة لحالة الفيضان . وبعد أن تنتهى هذه اللجان من تأدية أعمالها ترسل نسخا من نتائج فحصها لكاتب القرية ليصحح كشوفه فى ضوئها ونسخا أخرى لمدير الإقليم والكاتب الملكى ، كما ترسل ملخصا عنها إلى الإدارة المركزية فى الاسكندرية لتحديد الضرائب ، وكثيرا ما اعتمد كاتب القرية على مجهوده الشخصى فى استكمال كشوفه فيما يختص بتغيير الملكيات وحيازة الأرض . وكان يقوم بإحصاء المبانى المقامة على الأراضى الزراعية . وكان يخدم بهذا إجراءات التعداد المدنى ، كما كان يجرى من حين لآخر عملية فحص للمنشآت التى كانت تقام على الأراضى الزراعية .

بعد عدة شهور عند اقتراب موعد الحصاد فقد كان يمكن بسهولة للمفتشين أن يتأكدوا من أن الأرض قد عانت من فيضان مرتفع أو من العطش وقلة وصول المياه .

الضرائب والالتزامات العامة :

لم يكن لدى أى حكومة من حكومات العصر القديم ، وقليل من حكومات العصر الحديث جهاز ضرائبى يناظر فى تعقيده ذلك الذى كان لدى مصر فى العصر الرومانى ، حيث نواجه بكم مذهل من الضرائب والرسوم الإضافية التى فرضت على الفرد ، والأرض والوظائف والخدمات ، والمبيعات ، والنقل ، وحركة البضائع والأفراد ، والأملاك العينية والشخصية . ولقد كان هذا النظام مذهلا للأسس الضرائبية القديمة المتراكمة . وإذا أضفنا إلى ذلك الضرائب والمكوس : الدائمة والمتغيرة ، فبإمكاننا أن نقول أنه كان هناك مايربو على المائة ضريبة خلال العصر الرومانى .

وعلى الرغم من ذلك فإن الحكم الرومانى قد أظهر فى البداية للسكان أنه لايهدف لزيادة الضرائب التى كانت موجودة من قبل ، ولكنه يهدف فى المقام الأول إلى زيادة كفاءة تحصيلها بالمقارنة بالأوضاع المتراخية التى حدثت فى أواخر عصر البطالمة . وقد لوحظ هذا الاتجاه فى عهد الإمبراطور تيبريوس خليفة أغسطس فى الحكم عندما عنف والى مصر عندما أرسل إلى روما ضرائب أكثر من المقررة عليها بقوله : "لقد كان مرامى أن تجز صوف أغنامى لا أن تسلخها حية" . إن جشع حكام الولايات ومحصلى ضرائبها كان موضوعا لشكوى مزمنة من قبل أهالى الولايات فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، ولكن إصرار الإمبراطور تيبريوس على محاسبة موظفيه كان بمثابة فترة لالتقاط الأنفاس لشعوب الولايات . ففى خلال عصره فى عام ٢٢أو ٢٣م قامت إحدى القرى المصرية بتسجيل اعترافها بفضله فى هذا النقش التكريمى :-

(التاريخ) لقد قرر جميع سكان قرية بوزريس Bousiris فى إقليم ليتوبوليس Letopelis بالإجماع مايلى :-

حيث إن مدير إقليمنا جنايوس بومبيوس سابينوس Gnaeus Pompeius Sabinus لايغالى فى استخدام سلطته ويولى شعب الأقليم رعايته ، ويعمل دائما وبوجه خاص من أجل صالح سكان قريتنا هذه ، وينشر العدل دائما فى مجلة القضائى ، ويعمل بأمانه ودون رشوة ، وفقامع رغبة فخامة حاكم الولاية جايوس جاليريوس Gaius Galerius ويقوم بصيانة جسور الرى باهتمام شديد فى الوقت المناسب بالليل والنهار حتى يتم إنجاز العمل ، لذلك يتم رى

الحقول ريا كاملا ويصبح الإنتاج وفيرا ، كما أنه يعمل على حماية أولئك الذين يعملون فى جسور القرية من الغش والتلاعب حتى لاتهمل المحاصيل الزراعية ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه يقوم بالإشراف على بيع الأراضى العامة بلا محاباة ولا إجبار أو إساءة إلى أى فرد ، مما يعتبر ركيزة هامة فى ازدهار واستقرار القرى ، كما أنه يقوم بتسليم مستحقات القرية إلى الجهات الإدارية الأخرى بطريقة عادلة حامياً بذلك المزارعين من سوء المعاملة والتعرض لفرض العقوبات عليهم . من أجل ذلك لدينارغبة جارفة فى أن نسهم فى إسباغ الشرف عليه ، ومن ثم فقد قررنا أن نقوم بتكريم مدير إقليمنا ، جنايوس سابينوس ، السابق الذكر ، بتشييد نصب تذكارى حجرى يتضمن هذا القرار على أن يتم إقامته فى أهم منطقة فى القرية وسوف نقوم بإهدائه نسخة أصلية منه موقعة من أكبر عدد ممكن من الأفراد" . [٤]

ولقد إعتادت التصريحات الرسمية فى العصر الرومانى - كما كان الحال فى العصر البلطمى - أن تظهر مدى اهتمام الحاكم بمصلحة الخاضعين له ومدى الفضل الذى يسديه لهم (أنظر بوجه خاص الفصل العاشر)ولكن هذه التصريحات عن تلك الأريحية لم تكن تغير شيئا ذا بال ولم يكن ينتج عنها شيىء فى الواقع . فمن بين عوامل عديدة نجدأن نظام جباية الضرائب الذى يسمح بالرشوة والذى نما منذ فترة مبكرة ، ولم يقم الأباطرة بتعديله من الناحية العملية لمدة مائة عام على الأقل من بداية الحكم الرومانى ، بمثابة دعوة مفتوحة للفساد . فطالما قبلت الرشوة ، وتعاقد محصل الضرائب على أن يدفع مبلغا إجماليا مقدما ، فإن هدفه الأول وغايته الكبرى هو أن يحقق الربح لمشروعه . بل لم يقتنع أكثر من واحد من جامعى الضرائب بهذا الهدف المتواضع، بل كان شغلهم الشاغل هو الحصول على عقد التزام الضرائب لأنه فى رأيهم وسيلة شريفة للثراء وطالما ضمن الملتزم العقد فى يده ، فإنه لم يكن يتردد فى استخدام أى وسيلة قانونية أو غير قانونية ، لكى يضاعف من أرباحه عن طريق الإكراه وسلب أموال ضحاياه الذين لاحول لهم ولا قوة . ومما ساعد على ذلك الجبروت ودفع إلى تلك القسوة أن محصلى الضرائب كانوا كثيرا ما يصطحبون جنوداً مسلحين لحمايتهم وكان يمكنهم أن يستخدموهم فى إرهاب دافعى الضرائب أو إساءة معاملتهم . لقد أصبح محصلى الضرائب أو الملتزمين نموذجا للجشع وسوء المعاملة فى الولايات ، وقد صاحبتهم هذه السمعة السيئة خلال القرن الأول الميلادى حتى لقد ساوت الأناجيل بين ملتزمى الضرائب والمجرمين (إنجيل متى ٩/ ١٠ ، ومرقص ٢:١٦ ، لوقا ٥ : ٣٠ و ٧ : ٣٤ ؛ وفى القصة الواردة فى إنجيل لوقا ٣ : ١٢- ١٤) :

"وحتى عندما كان يأتى إليه محصلو الضرائب لتعميدهم كانوا يسألوه" ، ماذا يجب علينا ياسيدى أن نفعل ؟" ، فكان يرد عليهم قائلاً : "بالضبط ليس أكثر مما هو مطلوب منكم" ، وحتى الجنود كانوا يسألوه : "ماذا ينبغى علينا أن نفعله؟ "، فكان يجيبهم بأنه : "لاينبغى عليكم أن تقوموا بابتزاز الأموال عن طريق التخويف والإرهاب ، أو بإلقاء التهم الباطلة جزافاً ضد أى فرد ، وعليكم أن تقنعوا بأجوركم" .

ولقد قدم لنا فيلون اليهودى السكندرى والذى توفى فى وقت مابعد عام ٤٠م فى كتاباته تقريراً حيا عن إحدى هجمات محصلى الضرائب حيث قال :

"لقد تم حديثا تعيين أحد محصلى الضرائب فى منطقتنا . وكان هناك بعض الأفراد الذين تقاعسوا عن تسديد الضرائب نظرا لفقرهم ، ومن ثم فقد فروا خوفا من أن تنزل بهم عقوبة غير محتملة . وعلى ذلك فقد قام محصل الضرائب بوضع يده بقسوة على زوجاتهم وأطفالهم وآباءهم وأقاربهم ، حيث قام بضربهم وركلهم بالأقدام ومارس كل أنواع العنف والإساءة ضدهم حتى يرغمهم إما بالإبلاغ عن الأشخاص الفارين أو بالقيام بدفع متأخراتهم ، ولكنهم لم يستطيعوا الأولى لعدم علمهم بمكانهم ، ولا الثانية لأنهم كانوا لايقلون فقرا عن الفارين . ولكن محصل الضرائب لم يكن ليتركهم قبل أن يمزق أجسادهم بالضرب والتعذيب أو قتلهم بما تفتق عنه ذهنه من طرق حديثة للموت .. وعندما لم يبق أحد من أقاربهم كان يصب جام غضبه على جيرانهم وفى بعض الأحيان على كل سكان القرية أو المدينة ، التى كانت تصبح آنذاك مهجورة خالية من سكانها الذين يفرون من منازلهم وينتشرون فى الأماكن التى يظنون أنه يمكنهم أن يأمنوا على أنفسهم فيها . وهو أمر مثير للدهشة حيث أنه من أجل تحصيل الضرائب يقوم رجال قساة بطبيعتهم ، ليس لديهم أى قدر من التحضر بطاعة سادتهم وتنفيذ أوامرهم للحصول على الضرائب السنوية ليس فقط من دخل الأفراد ولكن أيضا من أجسادهم لدرجة الاستهتار بحياة أفراد وإهدارها وعقاب آخرين غيرهم" . (٥)

إن غضب فيلون وثورته التى يصرخ بها عالية وواضحة فى كل كلمة ذكرها فى تقريره قد قام بصياغتها فى قالب بلاغى فيه مبالغة ، ولكنه اعتمد على أساس من الحقيقة ، وقد تأكد لنا ذلك من خلال كثير من الوثائق التى ترجع لجميع فترات الحكم الرومانى لمصر . ولدينا هنا شكوى تقدم بها مزارع فى عام ١٩٣م يقول فيها :

"إلى أمونيوس باترينوس Ammonios Paternus قائد المائة ، من سيروس بن سيريون Syros S. of Syrion والمدعو بيتيكاس Petekas من عاصمة الأقليم (الفيوم) : لقد قمت

وأخى بتسليم تسعة أرادب من الغلال من عشر أرادب مستحقة على كضرائب مفروضة علينا فى قرية كرانيس وذلك فى شهر بؤونة . وعلى ذلك تبقى من حسابنا أردب غلال واحد يتعين علينا دفعه كضرائب ، وبالرغم من ذلك فقد قام محصلو ضرائب الغلال وهم بيتيسيوس بن تكيلو Petesios S. of Tkelo وسيرابيون بن مارون Sarapion S. of Maron ومعهم كاتبهم بطليموس Ptolemaios ومساعدهم أمونيوس Ammonios بمهاجمة منزلى أثناء وجودى فى الحقل ومزقوا عباءة والدتى وطرحوها أرضا . ونتيجة لذلك (العدوان) أصبحت طريحة الفراش غير قادرة (على الحركة) ولذلك فإننى أطالب أن تقوم باستدعائهم أمامك لكى يمكننى أن أحصل على حقى منهم على يديك (التوقيع والتاريخ) [٦] . "

ولتجنب هذا العنف لجأ من لاحول لهم ولا قوة إلى الرشوة والإكراميات التى وصلت فى بعض الأحيان إلى دفع مبالغ كبيرة . أما صلة القرابة فكانت تسمى - كما يعلق عليها الأمريكيون اليوم - عبارة "إسباغ" الحماية . وقد قام أحد الرجال بتسجيل ما قدمه من رشاوى وإكراميات فى عبارة مخففة أخفاها فى قصاصة خاصة عن آل منزله وبعيدا عن سجلاته الرسمية على النحو التالى :

- لرجال البوليس العسكريين	٢ دراخمة ، (١) اوبل .
- للهدايا	٢٤٠ دراخمة .
- ؟	٢٤ دراخمة .
- للحارس	٢٠ دراخمة .
- للابتزاز	٢٢٠٠ دراخمة .
- لاثنين من وكلاء البوليس	١٠٠ دراخمة .
- لهرمياس وكيل البوليس	١٠٠ دراخمة .

"عن النصف الثانى من السنة"

- لأحد الجنود بناء على طلبه	٥٠٠ دراخمة .
(تبع ذلك ذكر عدة مشتروات ودفع ضرائب عنها)	
- لأحد الجنود بناء على طلبه .	٤٠٠ دراخمة . [٧]

إن الصورة التى قدمها لنا فيلون عن انحراف محصلى الضرائب وتجاوزاتهم أدت إلى فرار الأفراد وبالتالى إلى نقص فى عدد السكان تأكد وجوده من خلال كثير من الوثائق . لقد كان الفرار هو آخر وسيلة يلجأ إليها المزارعون المصريون عندما تسوء أوضاعهم وتصبح الظروف أمامهم غير محتملة ، وجرت العادة قبل العصر الرومانى أن الفرار كان يتم باللجوء إلى المعابد ، حيث كان يتم دعوة الفارين للعودة إلى ديارهم وأعمالهم عندما تزول أو تخف الظروف التى أدت إلى فرارهم . ولكن حدث تغييران هامان خلال العصر الرومانى : الأول أن لجوء الأفراد إلى الفرار قد أدى إلى إشاعة اليأس بين أفراد المجتمع بوجه عام مما دفع مواطنين آخرين من غير المزارعين إلى الفرار والثانى أن غياب هؤلاء الفارين قد أصبح أطول مدى أو غدا بصفة دائمة . ومن بين الأسئلة التى كانت توجه لمراكز النبوءات نجد السؤال التالى : "هل سأصبح من الفارين ؟ (الفصل الخامس)" لقد لجأ بعض الفارين إلى المدن ، وخصوصا مدينة الإسكندرية التى كانوا يأملون أن يجدوا فيها كما يذكر فيلون مكانا للذوبان فى بوتقتها ويخفى فيه أمرهم على الناس . وقد أشار أمر الطرد الذى أصدره الإمبراطور كاركالا عام ٢١٥م " إلى : "أهالى القرى الذين فروا إلى الإسكندرية من المناطق الأخرى" . كما انضم بعض الفارين إلى العصابات أو كونوا من أنفسهم عصابات للسطو المسلح ، التى تكونت من الخارجين على القانون ليقوموا بمهاجمة القرى ونهب المسافرين ، ولقد أصبحت عمليات السطو التى كانوا يقومون بها تمثل شوكة دائمة فى جانب الإدارة الرومانية (راجع ملحوظة ٢٦ أدناه)- وقد جرت العادة على أن تقوم الإدارة الرومانية قبل بداية التعداد بإصدار عفو عن الضرائب كوسيلة لإعادة الفارين إلى ديارهم ، ولكن مثل هذه الوسائل لم تكن إلا علاجا مؤقتا لهذه المشكلة المزمنة .

وعندما يهرب أى فرد كان أقرب من يمت إليه بصلة القرابة أو من يهمه أمره يقوم بالإبلاغ عنه ، وعادة ما كان هؤلاء يؤكدون أنه لم يترك خلفه أية أملاك أملاً منهم فى إبعاد محصلى الضرائب عنهم ولدينا عدد كبير من هذه البلاغات منذ النصف الأول من القرن الأول الميلادى فى الوقت الذى كان فيه فيلون يكتب مؤلفه المشار إليه قبلاً مثل البلاغ التالى :

"إلى أبوللونيوس Apollonios وديديموس Didymos الكتبة الرسميين للقرى والضواحى بمدينة البهنسا من هيراس Hieras وميناندروس Menandros (وكلاهما) أبناء هاريخيس (نفيدكم بأن) أورسينوفيس بن منخيس Orsenouphis S. of Menches النحاس والذى

سجل فى التعداد على أنه يقيم فى المنزل الذى آلت إلينا ملكيته بالإرث عن طريق والدتنا والذى يقع فى زقاق مربى الأوز قد ترك منزلنا منذ فترة مضت ، ولم يخلف وراءه أية أملاك . ونقسم بحياة جلالة الإمبراطور تيبريوس كلوديوس قيصر أغسطس جرمانيكوس ، بأن أورسينوفيس قد لاذ بالفرار وأنه ليس لديه أية ممتلكات ، وأنه لم يلتحق بالجيش (ونقسم أنه إذا سمعنا أنه) التحق بالجيش (فسوف نقدم لكم إخطارا) بذلك وإذا كان قسمنا صادقا فسيكون الخير من نصيبنا والعكس صحيح إذا كان قسمنا زائفاً" (فقدت باقى الوثيقة) .

وكانت الإقرارات الأخرى المشابهة في العادة تختتم بالالتماس التالى الذى يقضى بأن يدرج الشخص الفار فى قائمة المعدمين ابتداء من العام الجارى وكان كتبة المدن والقرى يمدون محصلى الضرائب بالقوائم التى تضم " أسماء الأفراد الذين فروا إلى أماكن غير معروفة" وكان إعداد هذه القوائم يتم سنوياً ولكنها كانت تتزايد عندما يكون محصول العام ضعيفا والظروف الاقتصادية عسيرة . وتوضح لنا سجلات قرية فيلادلفيا فى الفيوم والتى مازالت موجودة لدينا ماحدث فى السنة الأولى من حكم الإمبراطور نيرون . ففى صيف عام "٥٥" كان لدينا ٤٣ رجلا فى قائمة " الفارين والذين لم يتركوا أملاكاً ، ثم بلغ عددهم بعد مضى اثنى عشر شهرا أكثر من مائة هارب . ويبدو أن العدد وصل إلى قمته عند رقم ١٥٢ فرداً . ورغم أن الإعفاء الضريبى الذى صدر قد نجح فى إغراء ٤٧ فرداً بالعودة إلى موطنهم ، إلا أن قائمة الأشخاص الفارين والمتهربين من دفع الضرائب حتى خريف عام ٥٧م كانت لاتزال تشمل عدداً يصل إلى ١٠٥ فرداً . وتشير هذه الأرقام المستقاة من بيانات تعداد القرية أنه من بين كل ثمان أو سبع رجال من فيلادلفيا كان يوجد أحد الفارين أثناء التعداد طوال هذه السنوات أو خلال بعض منها . لقد كان النقص حادا فى عدد السكان مما اضطر محصلى ضريبة الرأس فى فيلادلفيا وخمس قرى مجاورة على أن يقدموا طلباً إلى والى مصر يلتمسون فيه تعديل عقد التزامهم ، وقد ذكروا الآتى تبريرا لطلبهم :

"لقد انخفض عدد سكان القرى المذكورة سابقا إلى أدنى معدل له نسبة إلى ما كان موجودا من قبل ، حيث فر بعض الرجال دون ترك ثروة ورائهم ، ومات آخرون دون أن يخلفوا ذرية من بعدهم ، لذلك فنحن نواجه خطر العدول عن مهمة التحصيل بسبب نقص مصادر (التمويل) " .

ومما لاشك فيه أن هؤلاء المحصلين كانوا يبالغون فى وصف سوء الحالة فى محاولة منهم للتخفيف عن كاهلهم . وقد قام أحد كتبة القرى بعد قرن من الزمان من هذا التاريخ بتسجيل العدد الكلى لمن تهربوا من دفع ضريبة الرأس فى اثنين من الكفور على النحو التالى :

انخفض عدد المذكور من بين سكان الكفر الأول من ٢٧ فرداً إلى ثلاثة أفراد ، أما الكفر الثانى فقد تدنى معدل الذكور فيه من ٥٤ إلى أربعة فقط ثم وصل فى نهاية الأمر إلى نسبة صفر . [٨]

وعلى ذلك يكون حتى بدون وقوع معاملة غير قانونية أو حدوث ابتزاز فقد كان على المزارع أن يكافح كفاحا مستمرا لمواجهة التزاماته الضرائبية . وكما سجلت الوثائق متأخرات عن ضرائب لسنة أو لعدة سنوات فقد سجلت أيضا دفع مستحقات فى موعدها . والواقع أن السبب الذى كان يزيد من عبء الضرائب لم يكن يتمثل فى حجمهافقط ولكنه كان يكمن أيضا فى تعدد أنواعها . وليس هناك مجال هنا لأن نقوم بذكر كل مجموعة لتوضيح ذلك ، ولكن يكفى أن نقدم نموذج لبعض منها لنقرب للأذهان الطريقة التى كانت تتم بها .

إن الدور الذى حدده أغسطس لمصر بعد أن ألحقها بالإمبراطورية الرومانية هو أنه يقع على كاهلها إطعام مدينة روما ، ولذلك كان يبحر من مصر ثلث احتياجات مدينة روما من الغلال سنويا بمتوسط بلغ ستة ملايين من الأرادب أى حوالى ١٣٥,٠٠٠ طن. [٩] هذا بالإضافة إلى كمية أخرى إضافية لايعرف على وجه التحديد مقدارها كانت تظل فى الولاية لإطعام جيش الاحتلال الرومانى . ولاشك أن دافع الضريبة لم يكن يهتم إلا قليلا بهذه الأرقام الفلكية حتى ولو علم شيئاً عنها ، إذ تركز اهتمامه المباشر فى القمح الذى كان يلتزم بتسليمه للدولة ، والضرائب النقدية التى كان عليه أن يؤديها لها[*] .

---

* عن أراضى الامتلاك أو الملكية الخاصة راجع ، المترجمة : مصر فى عصر الرومان ص ١٦٧ - ١٧٢ والوثائق المذكورة فى الهوامش .

* عن قمح مصر وإطعام الشعب الرومانى ، راجع المقال الهام التالى :

استخدم اصطلاحى Epımevısmos و Epibolê للإشارة إلى فرض الزراعة بالإلزام وكان معروفا من قبل أن اصطلاح Epımerismos معناه أن ترغم قرية من القرى على زراعة الأراضى التى لم يتقدم أحد لاستنجارها فى قرى أخرى وتوزع مسئولية زراعتها بالقرعة بين السكان . أما إصطلاح Epibolê فهو يعنى أن تلحق قطعة من الأراضى التى تمتلكها الدولة بكافة شرائحها بالأراضى الخاصة ، ويرغم أصحاب الأخيرة على زراعة الأولى . وقد اثبتت المترجمة فى دراستها عن كرانيس أن وثائق القرية استخدمت الاصطلاح الثانى فى كلتا الحالتين . أما فى القرن الرابع فقد استخدمت وثائق ازيدوروس الاصطلاح الأول بدلا من الثانى. =

لقد حددت ضريبة محاصيل الغلال بأردب واحد على كل أرورا من الأراضى الملكية الخاصة، بصفة عامة ، ولكننا نعرف من خلال الوثائق التى لدينا أنها بلغت أكثر من ضعف هذا المقدار حيث إنها بلغت حوالى ثلث المحصول عند القيام بتسليمه (الفصل السادس) . أما المزارع الذى يقوم بزراعة أراضى تنتمى إلى الضياع الإمبراطورية ، والتى تمثل أجود أنواع الأراضى فى الولاية ، فقد كان يقوم بدفع عوائد تتراوح بين خمس وثمان أرادب عن كل أرورا . وفى أحد النماذج الفريدة التى لدينا وصلت العوائد إلى $\frac{1}{3}$ ١٤ أردب . وبين هذين الطرفين كانت تتراوح عوائد مختلف أنواع الأراضى ، وعلى سبيل المثال فقد بلغت ضرائب مساحة من الأراضى فى (ضيعة خاصة) مقدار $\frac{1}{2}$ ٣ أردب وكقاعدة عامة كانت الأراضى التى تعتمد على الرى الصناعى تدفع نصف معدل ضريبة الأراضى التى تروى بمياه الفيضان . هذا بالإضافة إلى عوائد أخرى إضافية فرضت على جميع أنواع الأراضى المزروعة بالغلال وكانت تتراوح بين ٥ إلى ١٠٪ من المحصول . وبالإضافة إلى ذلك هناك قروض الغلال التى سبق للمزارع اقتراضها من صومعة غلال الدولة حيث كان عليه أن يقوم بردها . فماذا كان يتبقى للمزارع بعد دفع جميع هذه العوائد من إنتاج محصول أرضه ؟ الواقع أنه ليست لدينا إجابة شافية على هذا السؤال ، ولكن كل مانستطيع أن نقوله أن ما كان يتبقى له كان يختلف اختلافاً متباينًا طبقا للظروف .

لقد كانت الحكومة تضع نصب عينها فى المقام الأول الحصول على أكبر قدر من إنتاج محصول الأراضى، أما الأراضى البور التى لاتغل محصولا فلم تكن بالتالى تقدم دخلا للدولة ولم تكن الدولة تنتظر غلة أو محصولاً من الأراضى التى لم تكن تصلها المياه لأنها كانت فى مستوى أعلى من أن تصلها مياه الرى عن طريق القنوات أو عن طريق الضخ بأدوات الرى.

= راجع : آمال الروبى ؛ كرانيس ، P. Cairo Isedoros, 12 (A.D. 313-4) .

ولدينا مثال جلى على زراعة الإلزام عندما قامت الدولة فى عام ١٦٧م بترحيل حوالى خمسين مزراعاً من مزارعى الدولة فى كرانيس للقيام بزراعة مامقداره ٨٥٩ أرورا من الأراضى فى قرية بطلمية الجديدة Pto-lemea Nea القريبة منها . وحدث نفس الشىء مع مزارعى الدولة فى قرية تيادلفيا Theadelphia حين قاموا بزراعة أراضى الدولة عام ١٦٦/١٦٧ فى قرية بوليديوكيا Polydeukia (حيالا) وقرية فيلارجريس Philargris .

راجع P. Bouriant, No. 42 (A. D. 167). Johnson (A. ch.), "The Epibolê of Land in Roman Egypt, " Aegyptus, 32 (1952), pp. 66 j.

ثم ماهى الفائدة التى كانت ترجى من الأراضى التى فر أصحابها أو تلك التى لم يتقدم أحد بطلب تأجيرها والعمل فيها ؟ لقد أجابت الحكومة ببساطة على هذا السؤال ، حيث كانت تقوم بفرض زراعتها ، إما بإلحاقها على ملاك الأراضى المجاورين لها أو بإضافتها على القرية كلها التى كانت تقع فى زمامها ، حيث يقوم الكتبة وشيوخ القرى بمهمة تقسيمها إلى أنصبة وتوزيعها على المزارعين المحليين لزراعتها . وهكذا قامت الدولة بجرة قلم بإيجاد دافعين لضرائب الأراضى التى لايرغب أحد فيها . ولما كانت هذه الأراضى غير خصبة أو كانت تكتنفها المشاكل ، لذلك يمكننا أن نتصور بسهولة تضرر الفلاحين الجدد من إضافتها عليهم . لذلك أصبح التأكيد على أن هذه الأراضى خالية من العوائق غير المرغوب فيها عنصرا متكررا فى عقود بيع وشراء الأراضى (*) .

ولم يكن الفلاح مطالباً بأن يقوم بدرس القمح وذره فقط ، ولكن كان عليه أن يقوم بتسليمه لصومعه الدولة فى منطقته أو يدفع لها فى مقابل ذلك(**) . وهناك يحصل على إيصال عن كل مقدار من الغلال سلمه لها ، ولما كان هذا الإيصال هو سنده على قيامه بتسليم الغلال فقد كان عليه أن يحافظ عليه . وقد تم العثور على مئات من هذه الإيصالات سجل أغلبها على أوراق البردى ، وقليل منها على قطع الفخار . ومن هذا المنطلق يمكننا أن نفترض أنه كان على دافع الضريبة أن يدفع ثمن المادة التى يسجل له الإيصال عليها ، وعلى الرغم من أن أسعار الورق كانت تعتبر فى متناول الجميع إلا أن بعض الأفراد من المقتصدين كانوا يقومون بتكسير أجزاء من بقايا الفخار الموجودة فى الأكوام ، حيث إنها كانت فى متناول الجميع وبأعداد كبيرة وبلا مقابل لاستخدامها فى هذا الغرض ، وهى حقيقة تذكرنا بها الأكوام التى عثر عليها فى منطقة جبل تستاشيو Monte Testaccio بروما . وكل عام كان يتم تعيين مجموعة من المحصلين لتحصيل ضرائب الغلال فى كل موسم حصاد لكل صومعة غلال من

= Hohlwein (N), "Le blé d'Egypte, Etude de Pap" Vol. 4. 1939 pp. 33-114.

(*) عن أرض الضياع الإمبراطورية راجع : آمال الروبى ، ص ١٥٦ - ١٦٦ .

(**) عن صوامع الغلال وتسليم محصول الدولة راجع المقال الهام التالى :

Husselman (Elinor M.) "The Granaries of Karanis, TAPA, 83 (1972), pp. 56-73.

وأيضا : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص ٢٢٩ - ٢٣٢ .

صوامع الدولة بطريقة دورية ، ولم يكن يستثنى من الخدمة فيها سوى أفقر سكان المنطقة . ولذلك كان هؤلاء يقومون بالانفاق على أنفسهم من مواردهم الخاصة وذلك طبقا لنظام الخدمات الإلزامية الذى سوف تقوم بوصفه فى الجزء التالى من هذا الفصل . ويعتبر محصلو الغلال مسئولين عن كم ونوع القمح منذ لحظة استلامه فى الصومعة إلى لحظة تسليمه لمخزن الغلال الكبير فى نيابوليس Neapolis خارج مدينة الاسكندرية ، أو تسليمه لمعسكرات الجيش المنتشرة على طول الطريق طبقا للأوامر الصادرة إليهم . وبعد وصول كميات الغلال إلى نيابوليس من جميع أنحاء مصر كانت توضع تحت إشراف المشرف المالى الرومانى Procurator الذى يقوم بدوره بمهمة الإشراف على شحنها لروما .

وكان محصلو الغلال Sitologoi يشرعون فى استلام الجزء الأكبر من مدفوعات الضرائب خلال الشهور القليلة التى تعقب موسم الحصاد مباشرة ، أما المتأخرات الضريبية فكثيرا ما كان يتم ترحيلها لسنتين أو أكثر" بعد ذلك كان شحن الغلال يتم من الإسكندرية ويستمر على مدار العام . حتى يتم الانتهاء من إرسال جميع الغلال التى تم جمعها . وكان يسمح بإبقاء كمية قليلة جدا من هذه الغلال لتعود مرة أخرى للصوامع لاستخدامها فى قروض الموسم التالى. وتبدأ المرحلة الأولى من شحن الغلال على يد محصلى الغلال ، بشحنه من الصومعة للميناء النهرى المخصص لذلك . وكان الشحن يتم عن طريق الزوارق المصفوفة أو المسحوبة على جانب قنوات الرى الكبيرة ، أما الجزء الأكبر منه فكان يحمل برا على ظهور الحمير والجمال ؛ وبلغ معدل حمولة كل حمار ثلاثة أرادب ، أماالجمل فيحمل ضعف أو ثلاثة أمثال هذه الكمية . وقد فرض العمل على سائقى هذه القوافل عن طريق الخدمة الإلزامية ويتضح من أحد سجلات حسابات التسليم الخاصة بالزوارق التى كانت ترسو فى ميناء البهنسا فى الفترة من ٦ إلى ١٤ ديسمبر لعام ١٢٧م ، وصول القمح للميناء فى قوافل تكونت من ستة إلى أربعين حماراً ، تراوحت حمولتها بين ٤٢٤ إلى ١٣١٤ أردباً من الغلال [١٠] .

وعندما كان القمح يفرغ فى الزورق الراسى فى الميناء النهرى يقوم ربانه بكتابة إيصال لمحصل الضرائب باستلامه القمح لشحنه :

"من أوريليوس أمونيوس بن أمونيوس Aurelius Ammonios S. of Ammonios الملاح فى ميناء نيابوليس Neapolis والمشرف على شحن حمولة مقدارها ١٥٫٠٠٠ أردبا من الغلال فى ثلاثة مراكب ، إلى أوريليوس سارابيون Aurelius Sarapion محصل الغلال فى

ناحية سكو Sko فى المنطقة العليا ، تحياتى . لقد استلمت منك وقمت بوزن كمية الغلال التى عهد إلى استلامها من أوريليوس هاربوكراتيون Aurelius Harpokration مدير الإقليم ومن أوريليوس نيميسيوس Aurelius Nemesion الذى يدعى ديونيسيوس Dionsios الكاتب الملكى ، وتحت إشراف مراقبى الشحن وبعض المسئولين الآخرين ، من الصومعة العامة للمنطقة التى سبق ذكرها ، من ميناء ساتيروس Satyros على النهر العظيم ، من غلال محصول حصاد السنة الثالثة المنصرفة قمحاً نظيفا غير مغشوش ، خاليا من التراب والشعير . وقد تم كيله بمكيال النصف أردب المخصص لذلك ، وقد بلغت الكمية ٧٧ أردباً متضمنة الكمية الإضافية (وقدارها ٧٧ أردباً) ، وسوف أقوم بشحنه للإسكندرية لإدارة ميناء نيابوليس Nea-polis بدون أية خسائر . ويعتبر هذا الإيصال إيصالا قانونيا ، وقد أصدرته من ثلاث نسخ ، واحدة لك أنت محصل الغلال واثنتان للمدير . وقمت بتوقيع الإيصال السابق لاستخدامه رسمياً . (التوقيع والتاريخ عام ٢٢١م) ".

وجرت العادة على أن يصاحب كل سفينة أو قافلة غلال مشرفا أو أكثر ، وتمثلت مهمتهم فى التأكد من الكمية المشحونة ، ومراقبة عدم التلاعب فيها على طول الطريق en route . وفى بادىء الأمر كان يعهد للجنود بهذه المهمة ، ثم تحولت أثناء القرن الثانى إلى نوع من أنواع الخدمة الإلزامية التى فرض أداءها على المواطنين المدنيين وكان المشرف على الشحنة يحمّل عينة أو عينات منها مختومة ليتم مقارنتها بالشحنة المرسلة على يد الموظفين الذين يقومون باستلامها فى ميناء نيابوليس . وإذا عثر فى الشحنة على قمح فاسد كانت المسئولية هنا تقع على محصلى الضرائب الذين جاءت الشحنة من عندهم كما حدث فى المثال التالى :

"من أنطونيوس أيليانوس Antonius Aelianus (مشرف الغلال فى نيابوليس) إلى مدير إقليم ديوسبوليس فى طيبة تحياتى . حيث إن الشحنة التى تم إرسالها مع باوؤسيس بن سيبوس Pausis S. of Sipos وبحارته من الإقليم المذكور سابقا ، الخ ، والتى تبلغ حمولتها ٢٫٠٠٠ أردباً من القمح ، قد اكتشف عند فحص عيناتها أنها مغشوشة . وعندما أمرت بفحص نصف أردب منها ثبت أنه يوجد بها شعير ونفايات بنسبة ٢٪ شعير ، $\frac{١}{٢}$ ٪ من النفايات . ولذلك فإن مسئولية تحصيل باقى الكمية التى نجمت عن تقصير محصلى الغلال الذين قاموا بإرسال الشحنة تقع على كاهلك ، وهى تبلغ $\frac{٣}{٤}$ ٥٠ أردب ، بالإضافة إلى الرسوم والنفقات الإضافية . وأرجو إخبارى عندما تقوم بتسديد هذه الكمية لإدارتى (التاريخ ٢٨ أكتوبر ١٨٨م) [١١١] .

ذلك كان نظام فرض وتحصيل وشحن ضريبة الغلال ، تلك الضريبة الأساسية والشاملة التى كانت تشحن لملأ البطون الجائعة فى روما . ولسنا فى حاجة إلى القول أنه طبقا لذلك قد فرضت الضرائب على جميع المنتجات الزراعية الأخرى ، وتأتى فى مقدمتها "ضرائب الكروم" (وهى تشمل الخل) ، والزيت ، والخضروات . ولما كانت روما تحصل على احتياجاتها من هذه المحاصيل من إنتاج إيطاليا والولايات القريبة منها ، فلذلك فرضت عليها ضرائب نقدية فيما عدا تلك الكميات النوعية التى كانت تسلم للقوات العسكرية الموجودة فى مصر . كذلك كانت ضريبة مسح الأراضى من بين الضرائب الأساسية الأخرى ، فقد سبق أن شاهدنا الدور الرئيسى الذى يلعبه المسح فى قياس مساحة الأراضى التى تنتج محاصيلا أو تلك التى لاتغل أى إنتاج . وقد فرضت هذه الضريبة بصورة واسعة على الكروم بمعدل ٤٠ دراخمة عن كل أرورا ، (وقد وصل معدلها فى بعض الحالات النادرة إلى ٣٥٠ دراخمة عن كل أرورا) وتراوح معدلها على حدائق النخيل والفاكهة بين ٢٠ إلى ٣٠ دراخمة عن كل أرورا) . وعلى أراضى الخضروات من ٢٠ إلى ٢٥ دراخمة عن كل أرورا . كما كان هناك ضريبة أخرى تسمى "بضريبة الدخل" وكانت تتراوح بين $\frac{١}{١٠}$ إلى $\frac{١}{٦}$ المحصول فى العصر البطلمى ، وعلى الرغم من أن الإدارة الرومانية قد أبقت على اسم الضريبة إلا أنها حصلتها نقدا ، وقد فرضتها فى البدايه بمعدل ٥ دراخمات على أراضى الخضروات ، ١٠ دراخمات على حدائق الكروم، ولكنها ارتفعت أثناء فترة التضخم الاقتصادى فى القرن الثالث الى $\frac{١}{٢}$ ١٢ دراخمة على الجميع . ومازالت لدينا فئة أخرى من الضرائب ، تمثلت فى الضرائب التى فرضت على حيوانات الفلاح الأليفة سواء على ملكيته لها أو نظير استخدامه للمراعى التى تمتلكها الدولة ، وذلك على كل رأس منها ، من أجل ذلك كان الفلاح يقوم كل عام بتقديم تقرير عما يمتلكه من قطعان ليثبت لمحصلى الضرائب ، بأن الضريبة الخاضع لها تشمل الزيادة السنوية فى عدد القطيع .

وبالإضافة إلى الضرائب التى فرضت على مختلف الأنشطة الزراعية ، فرضت ضرائب على الحرف الأخرى وعلى الفرد . وينتمى إلى هذه الفئة ضريبة" تسجيل السكان" Laographia ، أو ماعرف بضريبة الرأس التى كانت أكثر الضرائب انتشارا . وقد تم استثناء الفئات الممتازة منها وهى على وجه التحديد : الرومان ، ومواطنى المدن الإغريقية ، واليهود(*) ، وأعضاء

(*) عن خضوع اليهود فى مصر لدفع ضريبة الرأس من عدمه ، راجع الدراسة التفصيلية الآتية : مصطفى كمال عبد العليم ، اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٢٥٠ ومايليها والتى أثبتت فيها خضوعهم لدفع هذه الضريبة .

المرسيون السكندرى (= المعهد العلمى للإسكندرية) ، وبعض كهنة المعابد الكبيرة ، وبعض كبار الموظفين من غير الرومان أثناء شغلهم لمناصبهم . وقد خضع جميع الذكور من سكان مصر لهذه الضريبة منذ سن الرابعة عشر (وهى السن التى كان الصبى ينهى فيها فترة الصبا ويبدأ فى طور الشباب) ، وذلك حتى سن الستين . وكان كتبة المدن والقرى يعلمون من سجلات التعداد متى يصل الصبى لهذه السن فى مناطقهم ليصبح مكلفا بدفع الضريبة ، كما أنهم كانوا يقومون بإسقاط أسماء الموتى والذين وصلوا لسن الشيخوخة من سجلاتهم . ولذلك كانوا يقومون بإعداد بيانات جديدة عن دافعى الضرائب كل عام ، وفى أحد هذه البيانات قام الكاتب بعد أن ذكر قائمة بأسماء دافعى ضريبة الرأس الذين تضمنتهم قائمته فى نهاية العام ودونهم على النحو التالى :

"الذين سجلوا لدفع ضريبة (هذا) العام :

الرجال الخاضعون لدفع ضريبة الرأس Laographia	٦٢٩
والذين تجاوزوا السن (المحددة) وهى سن الواحد والستين فى (هذا) العام	٥
الذين توفوا (هذا العام)	٢
المجموع	٦٣٦ (١٢)

وقد اختلف معدل ضريبة الرأس من إقليم لإقليم ، وتمتع مواطنوا عواصم الأقاليم بدفعها بمعدل منخفض . ولقد توافرت لدينا مئات من الإيصالات- وكثيرا ماسجلت هذه الإيصالات على الاوستراكا أكثر من تسجيلها على أوراق البردى - التى صدرت لدافعيها ، وبالرغم من ذلك فإنه لايمكننا أن نقرر معدلها السنوى على نحو محدد ، لسبب بسيط يتمثل فى أن أغلب دافعيها كانوا يقومون بأدائها على أقساط بدلا من دفعها مرة واحدة فى العام . وحتى بالنسبة لأغلب النماذج الواردة من الأقاليم التى لدينا بيانات عنها فإننا لانستطيع أن نحصل منها على معدلها السنوى . ويبدو أن معدل ١٦ دراخمة سنويا كان هو المعدل الأكثر شيوعا حيث كان مواطنو عواصم الأقاليم يقومون بدفعها بمعدل ٨ أو ١٢ دراخمة سنويا . وكانت تبلغ فى بعض أجزاء طيبة مابين ٢٤ دراخمة و١٠ دراخمات . كما نعرف أن المعدل الذى دفعه مواطنو عواصم الأقاليم فى إقليمى هرموبوليس والبهنسا قد بلغ مابين ٨ ، ١٢ دراخمة ، ولذلك فنحن

نعتقد أن معدلها الكامل فى كلا الإقليمين قد بلغ مابين ١٢ ، ١٦ دراخمة . أما الإقليم الوحيد الذى لدينا منه دليل مؤكد عن كل المعدلين فهو إقليم الفيوم ، حيث بلغ معدلها الكامل "٤٠" دراخمة ، ودفعها مواطنو عواصم الأقاليم بمعدل ٢٠ دراخمة . لقد كان هذا المعدل هو أكبر المعدلات فى مصر كلها ، حيث بلغ أكثر من ضعف معدلها فى المناطق الأخرى ويمكننا أن نفترض أن السبب وراء ذلك يرجع لاستفادة الفيوم من جهود إصلاح نظام الرى فى الولاية . إن مثل هذا التفسير قد يكون جذاباً ولكنه لايعدو سوى استنتاج منطقى فى حاجة إلى تدعيمه بأدلة قاطعة .

وإلى جانب ضريبة الرأس فقد كان جميع الذكور البالغين فى مصر يدفعون ضريبة الجسور النقدية التى بلغت قيمتها $\frac{٢}{٣}$ ٦ دراخمة (وهى الضريبة النقدية الوحيدة التى تم توحيدها فى جميع أنحاء الولاية) (*) ومبلغ دراخمتين كضريبة للخنازير . وقد خصص دخل الضريبة الأولى من هذه الضرائب للإنفاق فيما يبدو على معدات وأدوات صيانة جسور نظام الرى ، والشىء الواضح من كل النماذج الخاصة بها أنه كان يتم دفعها بالإضافة إلى لا بديلاً عن عمل الفلاحين فى صيانه الجسور عند الحاجة (وكما سبق ورأينا فى الفصل السادس) . أما فيما يخص وضع ضريبة الخنازير فيمكننا أن نفترض أنها خصصت لإمداد المعابد الإغريقية والرومانية بحيوانات الأضاحى ، كذلك يبدو أن هذه الضريبة كانت حافزا للفلاحين المصريين لتربية هذا الحيوانات الذى كان محرما عليهم من الناحية الدينية .

لقد تعددت الضرائب النقدية الأخرى وتنوعت . وكان أكثرها انتشارا ضريبة الحرف اليدوية، التى فرضت على كل شخص من الذكور والإناث العاملين فى أية مهنة يحصلون على أجر أو دخل منها ، وقد شملت الذين يتدربون على الحرف ممن بلغوا سن الرابعة عشر وما فوقها . وكان يتم تحصيل ضريبة كل حرفة على حدة كما كان دفعها هى الأخرى يتم على أقساط شهرية فى العادة . ونتيجة للكم الهائل من الإيصالات التى لدينا ومن الكم الهائل من الأرقام المذكورة فيها يصبح من المستحيل أن نعرف المعدل السنوى الذى فرضت به

(*) يرى المؤلف أن هذه الضريبة كانت الضريبة النقدية الوحيدة التى تم توحيدها فى جميع أنحاء مصر ، وأنها وحدت بمعدل $\frac{٢}{٣}$ ٦ دراخمة سنويا ، ولكننا نرى أنه بالرغم من أنها فرضت على جميع الذكور البالغين إلا أنها لم تفرض بمعدل واحد حيث بلغ معدلها فى كرانيس ٧ دراخمات ، ٤أوبل ، ٢ خالكوى . راجع المؤلفة، المرجع السابق ، ص - ٢٣٣ .

الضريبه على الفرد فى كل مهنة .وبالإضافة إلى ذلك فقد اختلفت المعدلات باختلاف الأماكن، ولكن يتضح منها أن أعلى معدلاتها كان أيضا فى إقليم الفيوم .

وكان الحرفى مطالبا - وفى فترة التدريب كان على مدربه - بأن يطلع الجهات المسئولة عند قيامه باحتراف الحرفة ، لكى يدرج فى سجل الخاضعين لضريبة حرفته ، كما كان يجب عليه أن يخطرها عندما يقوم بتغيير حرفته أو عند تركه لها ، سواء أكان ذلك بصورة دائمة أم مؤقتة حتى يعفى من مسئولية دفع ضريبتها . وقد سنت هذه القاعدة بعد تلك القضية التى ظهرت فى منتصف القرن الثانى ، عندما رفض أحد الحرفيين دفع ضريبة حرفته فى المدة التى تحول فيها لنشاط آخر (الذى يبدو أنه كان أحد الأعمال الإلزامية) وقد عرضت قضيته أمام محكمة والى مصر الذى قرر "أنه فى حالة عدم ممارسة الحرفة ، فلا ينبغى رفع دعوى على الحرفى لعدم قيامه بدفع ضريبتها". (١٣)

وكان على الرحالة والعابرين والمسافرين الذين يرغبون فى التوقف والعمل لبعض الوقت فى أية قرية أو مدينة أن يحصلوا على تصاريح مؤقتة من محصل الضرائب المحلى من أجل ممارسة العمل . وقد بلغ من انتشار هذه القيود على هذه الأعمال المؤقتة أن وجدنا تصاريح عمل لمدة يوم واحد تسمح للعاهرات (وإحداهن تسمى أفروديتى) بمزاولة مهنتهن ، وقد أصدر التصاريح جابى الضرائب الخاص بهن ودون بها أنه "يسمح لهن بالنوم مع من يردن فى تاريخ هذا اليوم" وذلك كى تتم محاسبتهن على الضريبة التى لم يحدد مقدارها .

ومن بين الضرائب التى فرضت على الأفراد كان يوجد نوعان متميزان فرضا فيما يبدو كتعويض عن تقصير المعوزين والفارين فى دفع الضرائب . ولقد سبق أن شاهدنا فى هذا الفصل ظاهرة فرار دافعى الضرائب نتيجه لسوء أوضاعهم .

لقد ترك كل هارب خلفه فجوة فى تحصيل ضريبة الرأس ، كما لم يترك أغلبهم كما شاهدنا ورائهم شيئا يمكن أى يقدر بأى ثمن . فأى ضريبة إذن كان يمكن تحصيلها من مثل هؤلاء المعوزين .

كيف كان يمكن إذن تعويض العجز الذى حدث فى تحصيل ضريبة الرأس والضرائب الأخرى التى كانت ترتبط بها والتى كانت تفرض على الرأس أيضا ؟ لقد لجأت الحكومة إلى حل بسيط مثله فى ذلك مثل الحل الذى لجأت إليه بالنسبة للأراضى التى لم يتقدم أحد لاستئجارها ، حيث قامت بفرض المبالغ الناقصة على باقى الأفراد الخاضعين للضريبة . وقد اختلف حجم هذه الضريبه من سنة لأخرى ، كما اختلف عدد الأفراد الذين كانت تقسم فيما

بينهم ، وقد بلغ أقصى مبلغ فرض لضريبة الفارين فى القرن الثانى الذى تتوافر لدينا البيانات عنه مبلغ ثمان دراخمات ، أما أقل مبلغ فقد بلغ ثلاث أوبلات أو نصف دراخمة ؛ وقد جاء هذا المعدل المنخفض فى السنة التالية للتعداد حيث أغرى قرار العفو الذى أصدره الوالى فى منشور التعداد عددا كبيرا بالعودة إلى ديارهم .

كذلك خضعت ممارسة الأعمال لنوع آخر من الضرائب والرسوم تتمثل فى فرض رسوم على تسجيل الوثائق فى دار الوثائق العامة . مثل ضريبة ١٠٪ على بيع الأملاك العقارية والعبيد، وضريبة ٢٪ على رهن الأملاك ، كما فرضت مبالغ مختلفة على حيوانات الأضاحى الدينية ، وقد تم تحصيل الضريبة الأخيرة فى عدة مراكز لها . كذلك فرضت رسوم على تسجيل الحجج والوثائق الأخرى ، وحفظ الطلبات ، وجميع الأوراق الرسمية المشابهة نظير الخدمة التى تقدم لها .

وقد سبق أن ذكرنا ضمن ضرائب الدخل ماخصص منها للإنفاق على جيش الاحتلال الرومانى فى الولاية . وحيث إن هذه المخصصات كانت تمده بما يحتاج إليه من غذاء وعلف للحيوانات ، فقد كان من حق قوات الجيش أن تطالب بإمدادات إضافية من الطعام والخدمات إذا مادعت الحاجة . وقد تماثل الشرق والغرب من الناحية التاريخية فى أن مبرر إجبار الأهالى على تقديم لوازم الجيش كان بمثابة دعوة لإطلاق الشهوات والابتزاز من قبل أولئك الذين يفترض فيهم الدفاع عن الشعب وحمايته ، لقد كان من السهل أن ينزلق الجنود ويصبحون السادة الذين لايرد لهم طلبا . وقد تمثلت انتهاكاتهم فى مصر الرومانية فى طلباتهم للإيواء ووسائل الانتقال دون دفع مقابل لها وعلى الرغم من أن هذا الطلب غير شرعى إلا أنه أصبح حقاً راسخا لهم وتمسكوا به - ليس فقط فى مصر ولكن فى جميع أنحاء الإمبراطورية - على الرغم من تكرار "النهى عن القيام به" فى الأوامر الصادرة من حكام الولايات بل ومن الأباطرة أنفسهم . وأول المنشورات التى نعرفها من مصر ذلك الذى أصدره جرما نيكوس Ger-manicus الشهير ، ابن شقيق الإمبراطور تيبريوس وولى عهده فى عام ١٩م ، عندما كان فى الإسكندرية أثناء رحلته من روما لزيارة الولايات الشرقية :

"يصرح جرمانيكوس قيصر بن (تيبريوس) أغسطس ، وحفيد المؤله أغسطس نائب القنصل بالآتى : لقد علمت أنه أثناء القيام باتخاذ الترتيبات لزيارتى قد تم إرهاب الأهالى للحصول على السفن ودواب النقل . وإيواء الجنود بالقوة . ولذلك فقد قررت أو أوضح أننى لا أرغب أن تؤخذ من أى فرد سفينة أو دابة فيما عدا تلك المصرح بها من قبل صديقى وسكرتيرى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بايبيوس Baebius ، كما يجب عدم انتهاك المساكن ، أما إذا كانت هناك حاجة لذلك فسوف يقوم بايبيوس بتحديد المساكن التى يتم الإسكان فيها بالعدل والقسطاس . وفيما يخص طلب السفن ودواب النقل فقد أصدرت الأوامر بتأجيرها طبقا لبرنامجى . أما هؤلاء الذى يعترضون على رغبتى فسوف يتم إحضارهم إما للمثول أمام سكرتيرى الذى يقوم بنفسه بمنع الضرر عن المدنيين أو أن يقوم بتحويل الأمر إلى . وعلى ذلك فإنه يمنع جمع حيوانات النقل بالقهر والقوة أثناء عبورها المدينة ، وسوف يعتبر القيام بمثل هذا العمل من قبيل أعمال اللصوصية ".

وقام والى مصر فى عام ٤٢ بإصدار منشور مماثل لما تقدم ، كما أصدر الامبراطور كلوريوس عام ٤٩ منشورا آخر ، عاقب فيه هؤلاء "النفر من المستهترين" لاستمرارهم فى انتهاكهم لأوامره التى أصدرها وبالرغم من "التعويض الكافى" الذى قدم لهم .

أما دواب النقل الخاصة بالضياع الإمبراطورية فقد تمت حمايتها ضد انتهاكها وتسخيرها أو طلبها للخدمة عن طريق بطاقات تميزها كانت تربط حول رقبة كل منها ، وقد نقش على واحدة من هذه البطاقات البرونزية التى عثر عليها فى مصر الآتى :-

"ملك مزرعة أجريبا روتيليوس الخاصة بمولانا الإمبراطور ، وغير خاضع للضرائب أو للطلب" ولدينا بعد ذلك أمر إمبراطورى صدر عام ٩٠ وقد دون على أحد النقوش التى عثر عليها فى سوريا منذ خمسة وعشرين عاما مضت على النحو التالى :

"من أوامر الإمبراطور دوميتيانوس قيصر أغسطس بن فسباسيانوس أغسطس . إلى كلاوديوس أثينودوروس Claudius Athenedoros المشرف المالى Procurator : من بين المشاكل التى أعلم أنها تحتاج لجهد كبير لحلها والتى سبق وأن وجه إليها والدى فسباسيانوس قيصر المؤله عنايته من أجل صالح المدن ، والتى تهدف إلى عدم إرغام سكان أقاليم الولايات على تأجير دواب النقل ، أو إسكان الجنود بالقوة وحيث إنه تمت مخالفة هذا الأمر عمدا .. لذلك فقد أصدرت أمرى لك لتتأكد ما إذا كان قد أرغم أحد على تأجير دابة بالقوة إلا إذا كنت قد أصدرت إليه أمرا بذلك ، فمن الظلم أن يقوم أى موظف من أية درجة أو مكانة بإجبار الأهالى حيث إن أحدا غيرى لايملك هذا الحق . لذا فيجب أن لا يتم ارتكاب شىء مخالف لأوامرى أو يعوق تحقيق هدفى .. حتى يمكن مد يد العون للولايات المستنزفة ، والتى لاتكاد تكفى احتياجاتها اليومية الضرورية ، ولذا لايجب أن يتحدى أحدا رغبتى أو يجبر الأهالى ما لم يكن هناك تصريح منى بذلك ، حيث إنه إذا استمر سلب الفلاحين فلن تجد الأراضى من يقوم بزراعتها ". [فقد باقى النقش] .

وعن نفس هذا الموضوع لدينا منشور أصدره والى مصر عام ١٣٥م وآخر أصدره حاكم سوريا عام ١٨٥م . ولكن أنى لأى من هذه الإنذارات أو التهديدات كان يمكن معه إيقاف تلك المباراة غير المتكافئة بين السكان المدنيين الذين لاحول لهم ولاقوة ومن كان يتصدى لهم من الجند المتسامحين حينا أو المشاغبين مراراً . إن انتهاك الجنود لمساكن السكان ظل مرضاً متفشيا لايمكن استئصاله : ولقد ذكر لنا المؤرخ ديون كاسيوس أنه حدث عندما تم إيواء قوات الإمبراطور كاراكالا فى خريف عام ٢١٦/٢١٧م وكان إيواء شرعيا هذه المرة "أن استخدم الجنود جميع ممتلكات المضيفين كما لو كانت أملاكهم الخاصة". (١٥)

ولنرى الآن الوجه الآخر المناقض ، وكيف كان ينفذ الأمر الإجبارى عند صدوره وكمثال أول على هذا نجد أن الأمر يصدر لأحد البنوك بدفع أموال (مقدما) لعدد من الرجال الذين تم تعيينهم للقيام بالأعباء الإلزامية التى تتعلق بجمع الملابس والأغطية التى فرض على السكان منحها للدولة :

إدفع مقدماً المبالغ المذكورة لكل من هيراكليديس بن هوريجاس Herakleides S. of Horigas وهيرون Heron عبد معتق لبوبليوس مايفيوس Publicus Maevius وديوسكوروس Dioskoros عبد معتق للاله سيرابيس العظيم وهم نساجين من قرية فيلادلفيا Philadelphia ولعدد آخر من نساجى القرية السابقة يبلغ ٨١ نساجاً ، تحت مسئوليتهم المشتركة ، وذلك فى مقابل الأردية التى أصدر فخامة الوالى أفيديوس هليودوروس Avidius Heliodoros أوامره بصنعها ، وهى على النحو التالى :

(أ) لسد حاجة الجنود فى كابادوكيا Cappadocia : رداء واحد بحزام أبيض طوله ٣ أذرع ، وعرضه ٣ أذرع وأربع أصابع ، زنته $\frac{٣}{٤}$ ٣ مينا (وثمنه ٢٤ دراخمة)، ٤ عباءات سورية بيضاء اللون ، يبلغ طول كل منها ٦ أذرع وعرضها ٤ أذرع ، تزن $\frac{٣}{٤}$ ٣ مينا ، ويبلغ ثمن كل منها "٢٤" دراخمة = اجمالى قيمتها ٩٦ دراخمة . والمبلغ الإجمالى ١٢٠ دراخمة .

(ب) ملاءة بيضاء طولها ٦ أذرع ، ويبلغ عرضها ٤ أذرع وتزن ٤ مينا بمبلغ "٢٨" دراخمة لاستخدامها فى المستشفى العسكرى فى معسكر الإمبراطور، وهكذا يكون إجمالى المبلغ ١٤٨ دراخمة فضية ، يخصم من القطعة الأخيرة مبلغ "٦" دراخمات لصالح الخزانة .

(ج) يشترط أن تصنع الطلبات السابقة من الصوف الجيد السخى النقى غير المصبوغ ، وأن يتم نسجها بدقة ، وأن تكون حوافها جيدة الصنع ، جميلة فى منظرها دون أى عيوب ، وأن تتناسب مع الثمن الذى دفع فيها مقدما . وإذا رفضت أى قطعة منها عند تسليمها لكونها

أقل من الجودة المطلوبة فعليهم أن يقوموا برد ثمنها ، وكذلك القطعة التى ثبت أنها أقل من المستوى المطلوب ، وذلك على مسئوليتهم الخاصة (بالإضافة إلى الضرائب والنفقات) . كذلك يجب عليهم أن يسلموا القطع المطلوبة بدون تأخير طبقا للمقاييس والأوزان المطلوبة ، هذا بخلاف أية ملابس عامة أخرى مستحقة عليهم (التاريخ ٩ سبتمبر ١٣٨م) . (١٦)

وبالمثل طلب تقديم غلال للقوات العسكرية :

"إلى داماريون Damarion مدير إقليم هرموبوليس Hermopolis ، من أنطونيوس جستينوس الجندى ، الذى يتقاضى مرتبا مضاعفا ، ومبعوث فاليريوس فرونتينوس Valerius Frontinus قائد فرقة هرقل(المتمركزة) فى قفط Copotus . لقد استلمت من شيوخ قرية تيرتون إبا Terton Epa التى تقع فى مركز باتيميتى الأعلى Patemete الحصة المفروضة على هذه القرية من إجمالى كمية الغلال التى تبلغ ٢٠,٠٠٠ أردب من الشعير وهى الحصة التى أمر فخامة والى مصر لونجايوس روفوس Longaeus Rufus بشرائها من محصول السنة السابقة الرابعة والعشرين لسد احتياجات الفرقة التى سبق ذكرها ، الخ . وتبلغ هذه الحصة مائة أردب من الشعير تم وزنها عند الاستلام بالمكيال العمومى ومرفقا لإجراءات الكيل المقررة (= ١٠٠ أردب من الشعير) ، وذلك بموجب ماتم تقديره من قبل موظفى الإقليم . وقد أصدرت هذا الإيصال من أربع نسخ" (التاريخ يونيو عام ١٨٥م ، والتوقيع) . (١٧)

لقد ذكر فى هذا الطلب أنه قد تم شراء الغلال وفقا لسعر السوق ، وهناك من الأسباب مايدعونا إلى الاعتقاد بأن الحكومة كانت فى كثير من الأحيان أو فى كل الأحيان تقوم بشرائه بسعر أقل من سعر السوق الحقيقى . وحتى لو قامت الحكومة بدفع ثمنه كاملا إلا أن ذلك لم يكن يجد رضى عند الفلاحين ، ذلك لأنه على الرغم من أن الهدف الأساسى من تقنين الإلزام بالبيع كان يتمثل فى تخفيف العجز المؤقت ، إلا أن الإلزام مستمرا منذ منتصف القرن الثانى تقريبا . وقد ذكرت لنا الوثائق البردية أن إحدى الوحدات العسكرية قامت بجمع الغلال على أقساط شهرية طوال السنة ، وليس هناك ما يدعونا إلى الافتراض أن ما قامت به هذه الوحدة العسكرية كان شيئا فريدا ، بل أكثر من هذا فإن القرويين كان لايمكنهم بأى حال التأكد من معرفة ميعاد تأجيل الدفع أو حتى موعد إلغائه . ولم يكن هذا هو كل شيء . فقد فرضت عليهم من حين لآخر إمدادات إضافية من الغذاء والأدوات ووسائل النقل لمساعدة الإمبراطور فى حروبه الخارجية ، وكثيرا ما تم فرضها من أجل استضافة كبار الزوار والترحيب بهم

وبحاشيتهم . ويدخل فى نطاق الأخيرة زيارة الحاكم السنوية لعقد المحاكم والإشراف على الولاية ، وكذلك جولات الأباطرة وأفراد الأسرة الإمبراطورية فى مصر . وفى أحد التقارير التى ترجع لعام ٢١٦م يذكر لنا أحد سكان قرية سوكنوبايو نيسوس Soknopaiou Nesos أنه طلب منه خلال هذا العام أن يعير جملين بمناسبة زيارة الإمبراطور كاراكالا للبلاد ، وبعد أن أعادوا له الجملين ، تم طلبهم مرة أخرى ، ولكن المسئولين استبعدوا واحداً منهما لأنه لم يكن فى حالة جيدة أما الآخر فقد قاده أوريليوس كالفيوس مكسيموس Aurelius Calvius Maximus قائد المائة حيث أرسل فى مهمة وفقا للأمر الرسمى الذى أصدره والينا الشهير ڤاليريوس داتوس Valerius Datus للخدمة فى الجيش الإمبراطورى الجسور فى سوريا لاستخدامه فى حرب كاراكالا على الجبهه الشرقية". [١٨]

أما المعلومات الخاصة بجولات والى مصر للإشراف الإدارى فلدينا عنها كثير من التفصيلات[١٩]. وقد تم تحصيل الالتزامات التى فرضت على كل فرد من دافعى الضرائب نقدا ، وجرت العادة على أن يتم ذلك على يد مجموعة خاصة يتم اختيارها ، حيث كان يتم تعيين محصل لكل محصول (أو مجموعة من المحاصيل أو لخدمة يجب أداؤها). وتذكر لنا الوثائق الخاصة بهذا الموضوع أكثر من اثنى عشر لجنة مختلفة كلفت واحدة منها بالإشراف على المرور من مقر إدارة الوالى ، وأخرى بالنظر فى مظاهر الحفاوة ، وثالثة للإشراف على الوقود والإضاءة وثمة لجنة أخرى كلفت بالإشراف على دواب النقل والعربات . كذلك ذكرت المواد التالية للإمداد بالأغذية : الخبز ، الشعير ، الجبن ، الدجاج ، الأوز ، صغار الخنازير ، العجول، وغذاء دواب النقل وكان كل عضو من أعضاء اللجنة يتولى منصبه بالالتزام وبالتناوب مع أفراد طبقته الاجتماعية والاقتصادية . لقد سميت هذه الخدمات بالأعباء الالزامية Liturgies ، وقد سبق أن عددنا الكثير منها فيما سبق ، وحان الوقت الآن لكى نقوم بالنظر فى تفصيلتها :

الأعباء الإلزامية Liturgies :

لقد سخرت جهود شعوب ممالك الشرق القديمة منذ القدم لخدمة احتياجات وأهواء وانتصارات حكامهم . وكان من نتاج هذه الجهود بناء الأهرامات العظيمة والهياكل الكبيرة ، وتزيين القصور الملكية ومدها بالطعام . أما فكرة أن توجه جهود الشعب فى المقام الأول من أجل الصالح العام فهى فكرة نبعت من ديمقراطية الإغريق القديمة ، والتى تلاحظها بوضوح

(طبقا للمعلومات التى لدينا) فى ديمقراطية أثينا . لقد أطلق الإغريق على هذه الجهود اصطلاح الأعباء الإلزامية (Leiturgia) "أى الأعمال التى يقوم بها الشعب" ، حيث كان ينبغى على كل أسرة من أسر الأثرياء فى أثينا خلال القرن الخامس والرابع أن تقوم بالإنفاق لمدة عام من مواردها الخاصة على خدمة من الخدمات العديدة من أجل الدولة . وقد ارتبطت بعض هذه الخدمات بالنواحى الدينية ، وأخرى بالأعمال العامة ، أما أكثرها نفقات وأهمها من الناحية التشريفية فقد تمثل فى بناء وتجهيز سفن الأسطول ذات الصفوف الثلاثة من المجاديف Trireme وإعداد فرق الممثلين لتقديم الاحتفالات المسرحية السنوية . لقد ظل نظام الأعباء الإلزامية راسخا فى جهاز المدن الإغريقية خلال العصر الهيلنستي والرومانى . ومن (اصطلاح خدمة الشعب أو الجماعة) استخدمت الكلمة للإشارة إلى خدمة الإله - وهو المعنى المقصود الآن بكلمة التزام "Liturgy" .

ولقد تبنى الرومان منذ فترة مبكرة من تاريخهم مفهوماً أكثر اتساعاً عن الأعباء Mu-nera، واعتبروها نوعا من الواجبات العامة ، التى كان يرفضها المواطنون وأصحاب المراكز العليا . أما فى مصر فقد قام الأباطرة بالمزج بين التقاليد الإغريقية القائمة فى شرقى البحر المتوسط وطعموها ببعض العناصر الرومانية ، واستخرجوا منها نظاما فريدا للالتزامات لايمكن أن يقارن بأى نظير له فى العالم القديم ، حيث وصل أثره إلى كل قرية نائية ، وأرغمت جميع فئات طبقات السكان على القيام به .

وتم استثناء فئات معينة من تأدية الالتزامات، كما هو الحال بالنسبه للضرائب ، وقد حافظ جميع الأباطرة على تحديد هذه الفئات رغم مضى الوقت ، حيث أعفى كل من : المواطنين الرومان ، مواطنو المدن الأغريقية ، أبطال الرياضة الفائزين ، أصحاب المهن التعليمية ، الآباء الذين لديهم خمسة أطفال ، العاملين فى بعض الأعمال الهامة (على سبيل المثال إمدادات الجيش الرومانى)كذلك تم إعفاء أفراد الأسرة الواحدة من تأدية الالتزام فى نفس الوقت ولذلك تم إعفاء الجنود المسرحين من الجيش الرومانى ، بعض رجال الدين المسنين حيث جرت العادة على إعفائهم إذا كان الالتزام فى حاجة إلى جهد بدنى . وبمعنى آخر فقد كان هناك التزامات لذوى الياقات الزرقاء ، وأخرى لأصحاب الياقات البيضاء ، أو كما كان الرومان يسمونها : الخدمات الجسدية "لذوى الأيدى الخشنة" ، أو الخدمات الشرفية "لأصحاب الأعمال المكتبية" .

وتعطى لنا بعض الوثائق المتفرقة التى ترجع لفترة مبكرة الإحساس بأنه كان هناك ثمة مشروع لنظام الأعباء بدأ يتشكل منذ منتصف القرن الأول م . ثم أخذ هذا النظام ينمو بسرعة

مع نهاية هذا القرن ، ثم بلغ تمام نضجه قبل انصرام القرن الثانى م ، كما واصل الرومان إنشاء مناصب إلزامية جديدة حتى نهاية فترة حكمهم . لقد نضج هذا النظام قبل إنتهاء فترة حكم تراجان عام ١١٧م وذلك لأنه قام بوضع الخطوة الأساسية فيه عندما نقل جباية الضرائب النقدية إلى أفراد يتولون مناصبهم بالإلزام بدلا من المحصلين الذين كان يتم تعيينهم من قبل الدولة . وفى الحقيقة فقد قضى هذا الإجراء - إلى حد ما - على تسلط واستبداد محصلى الضرائب .

ونحن نعرف حتى الآن ما يقرب من مائة نوع متفرق من الالتزامات بعضها يضم عدداً كبيرا أو صغيراً من الفروع ، وفى بعض الأحيان كان يعين فرد أو لجنة ليقوم بتأديته ، وكان هؤلاء على النحو التالى : شيوخ القرى ، كاتب القرية والمدينة والبوليس ، ومحصلو ضرائب الغلال والضرائب النقدية، الحمالين الذين يحملون القمح من الصومعة إلى الميناء النهرى ، ومن الميناء النهرى إلى الإسكندرية ، أو لمعسكر القوات الرومانية ، مراقبو فيضان النيل الذين يتأكدون من وصول المياه أو عدم وصولها للحقول ، المشرفون على بذر الحبوب والحصاد ، ومشرفو العمل فى إقامة الجسور ، وعلى الأعمال العامة ، ومحصلو الضرائب ، والمشرفون على استقبال كبار الزوار ، رجال البنوك الذين يتداولون النقود العامة ، الأوصياء على القصر ، وجميع من تضمهم قائمة أعضاء مجلس عاصمة الإقليم والحكام . كل هذه الخدمات السابقة وأكثر منها كانت تشغل جميعها بالإلزام وذلك فى فترة تكامل النظام فى القرن الثانى والثالث م . وقد بلغت مدة شغل كل منصب إما سنة واحدة أو ثلاث سنوات ، وكان من المفروض عدم تكليف أى فرد بالعمل إذا سبق له أن شغل أى من المناصب السابقة لفترة تبلغ عدة سنوات ، ولكن حدث عكس ذلك من الناحية العملية ، حيث تغافل الموظفون القائمون بمهمة التعيين عن هذا الأمر عندما كانوا يواجهون بنقص فى عدد المرشحين اللائقين لشغل جميع مناصب الالتزام التى كان عليهم أن يقوموا بأدائها .

وإذا كان منصب محصل الضرائب قد بدأ يختفى من على المسرح ، فإن ذلك لم يكن يرجع إلى أن الحكومة الرومانية قد بدأت فى تغليب العامل الأخلاقى ، وأصبحت لديها رغبة فى تخفيف مستنقع الفساد ، ولكن لأنها وجدت أنه يمكنها الحصول على الهدف الرئيسى من المنصب عن طريق استبداله بالالتزام ولكن بصورة أكثر شمولا . فشاغل منصب الالتزام لم يكن مطالبا فقط بالانفاق على متطلبات منصبه ، ولكن حيث إنه كان مسئولا عن تحصيل

الضرائب ، فإنه يصبح مسئولاً مسئولية شخصية عن تسليم الضرائب كاملة للدولة - وهذا يعنى أنه كان عليه أن يقوم بتغطية أى عجز فيها من موارده الخاصة . الأمر الذى يوضح لنا السبب فى أنه كان من شروط شغل كل منصب من المناصب الإلزامية أن يملك شاغلها حداً أدنى من الأملاك ، يتراوح حده الأقصى من "٣" تالنت (= ١٨٫٠٠٠ دراخمة) أو أكثر وذلك بالنسبة لصاحب البنك الذى كان يخدم الإقليم nome بأكمله ، وحده الأدنى الذى كان يصل إلى ٢٠٠ دراخمة لمنصب حارس القرية . وهكذا يتضح لنا أن المناصب الإلزامية قد جرفت الجميع وأحاطتهم بسياج من البلاء .

وفور أن يتم تحديد الالتزام واختيار مرشحه ، كانت أملاك المرشح توضح رهن تصرف الدولة، كما كان على المرشح أن يسلم قسطا منها للدولة يتعهد فيه بالقيام بتأدية الالتزام بأمانة وإخلاص " ومع ذلك فإن الحكومة الرومانية لم تكتف بالاعتماد على أملاك المرشح لضمان قيامه بالعمل ، بل عرف نظام الأعباء شبكة من المرشحين الأوائل المسئولين عنه يليهم مرشحو الدرجة الثانية . حيث كان يقع على عاتق موظف الدولة المسئول عن استلام طلبات الترشيح لمناصب الالتزام فى المدينة أو القريه التأكد من أن كل مرشح من المرشحين صالح لمنصبه ولائق لتأدية العمل ، كما كانت تقع عليه مسئولية ضمان قيام المرشح بتأدية العمل بالفعل ، وكان يجب على المرشح فى بعض الأحيان - ولقد تزايد هذا بمعنى الوقت - أن يقدم ضمانا يؤكد فيه موافقته على شغل المنصب . ثم أضافت القواعد التنظيمية بأنه لما كان المرشحون يؤدون عملهم بموافقة ضمنية من المجتمع ، فإن حدوث أى تقصير من قبلهم تقع مسئوليته تبعا لذلك وبطريقة آلية على كل أفراد المنطقة .

لقد كان الترشيح بالنسبة لمختلف مناصب الالتزام المحلية بمختلف أهدافها وأغراضها يتم محليا ، ثم تعرض الإجراءات بعد ذلك على مدير الإقليم الذى يقوم بإضفاء الشكل الرسمى على المرشحين بالموافقة على تعيينهم ، ويعلن رسميا قيامهم بتأدية مهامهم . وعلى أى حال فلقد كانت هناك إجراءات مختلفة لشغل منصب محصلى الضرائب ، كان الهدف منها منع التواطؤ والمحاباة لذا كان لابد من تقديم اسمين أو ثلاثة من المرشحين اللائقين لشغل هذا المنصب ، ثم يقوم مدير الإقليم (الذى كان يعرف شخصياً واحداً أو أكثر بوصفه المدير المحلى) بإرسال القائمة كاملة إلى المدير العام Epistrategos الذى كان يقيم عادة فى منطقة بعيدة وكان رومانى الجنسية (وليست له مصلحة فى التعيين) حيث يقوم باختيار المرشحين عن طريق إجراء القرعة ولقد استقينا تفاصيل هذه الإجراءات من خلال الوثائق الخاصة بالترشيح :

"إلى أبوللونيوس Apollonios مدير إقليم الفيوم ، قسم هيراكليديس Heraklcides ، من بيتاوس Petaus كاتب قرية بطوليمايس هرموس Ptolemais Hermou والقرى الأخرى. بخصوص استبدال كل من مارون بن سابينوس Maron S. of Sabinus وإيسخيريون بن فاسيس Ischyrion S. Phasis ، وهيرون بن هاتريس Heron S. Hatres محصلى الضرائب النقدية الثلاثة لقرية بطوليمايس هورمو ومحصلى الضرائب النقدية الستة من قرية سيرون Syron (أسماء بعض الأفراد) ومحصلى الضرائب النقدية الأربعة (أسماء الأفراد) من قرية كيركيسوخا أوروس Kerkesoucha Oros : لقد أكمل المحصلون الثلاثة عشر فترة السنوات الثلاث لمنصبهم وطبقا لذلك وعلى مسئوليتى بالإشراف مع السكان الذين يعيشون فى القرى ويقومون بالزراعة فى أنحائها وهم مسؤلين عن ترشيح المرشحين كما جرت العادة ، أقوم بترشيح أصحاب الأسماء الآتية الذين تتوافر لديهم ثروة كافية ومناسبة ، وسوف ترسل أسماؤهم إلى المدير العام ليجرى القرعة عليها وهم على النحو التالى :-

لقرية بطوليمايس هورمو : بيثيوس بن إيسجويون وثاوباستيس Thaubastis ويملكون ثروة تقدر بـ ٧٠٠ دراخمة . ديوس بن بابونتوس Dios S. Papontos وثاوباس Thaubas ٦٠٠ دراخمة .{يلى ذلك أسماء ٢٤ فردا من القرى الثلاث ، فيكون الإجمالى ٢٦ مرشحا حيث يتم اختيار ١٣ منهم عن طريق إجراء القرعة . وقد تراوحت ثرواتهم بين ٦٠٠ ، ٧٠٠ ، ٨٠٠ دراخمة لكل منهم }.[٢٠]

ونتساءل الآن ما الذى كان يحدث - وقد حدث فى بعض الأحيان - إذا وقع خطأ وتم تعيين شخص كان قد تم إعفاؤه من تولى المناصب الإلزامية ، أو لم يكن يتوافر لديه النصاب المالى المطلوب ؟ فى هذه الحالة إذا كان مايزال هناك وقت لدى الموظف الذى قام بالترشيح فسيحاول إصلاح الخطأ ، بترشيح شخص آخر ، أما لو كان الأمر غير ذلك فسيضطر أن يتولى المنصب بنفسه طبقا لمسئوليته عن الترشيح . وقد طبقت هذه القاعدة منذ منتصف القرن الأول م : "يتعين على كاتب القرية الذى قام بإعطاء التزام الزراعة للنساجين منتهكا بذلك القواعد السابقة - أن يتولى شخصيا القيام بتأديه الالتزام أو يقوم بتحويله لآخرين على مسئوليته الشخصية " وقد حدث موقف مشابه لذلك فى عام ٢٤٤م بخصوص أخوين كانا مواطنين من مدينة أنتيتوبوليس ، ولذلك تم إعفائهم من تأدية الالتزام ، وعندما تم ترشيحهم لتأدية خدمة إلزامية فى البهنسا حيث كانوا يملكون أملاكا هناك ، قدموا اعتراضا على ذلك ، وأجاب

كاتب المدينة الذى قام بترشيحهم على المدير قائلا "لقد وجدت بعد إجراء البحث بأنه "قد تم إعفائهم ، وعلى ذلك فسوف أحل مكانهم فى تأدية الالتزام". [٢١]

وقد فرض على الموظف الذى يرتكب خطأ فى أثناء تأدية مهام عمله دفع ثمن الأضرار التى تسبب فيها . ولذلك أصدر والى مصر فى "١١" فبراير عام ١٤٣م الحكم التالى على كاتب القرية عند النظر فى هذا الموضوع :

"ماذا كنت تتوقع عندما قمت بترشيح شخص لا يملك النصاب المالى الكافى ليقوم بشغل منصب الالتزام ؟ لقد تسببت فى فراره ، ونتج عن ذلك بيع ممتلكاته (لكى يتم الإسهام بثمنها فى تغطية نفقات الالتزام) ولذلك فإنك تستحق العقاب التالى : يجب أن تقوم بدفع أربعة أمثال قيمة ما تم بيعه من ممتلكاته". [٢٢]

ويمكننا أن نتفهم السبب الذى كان يدفع أغلب الأفراد إلى تحاشى قبول تولى مناصب الالتزام ، ولذلك كان يمكن دفع رشوة لكاتب الترشيح حتى يتغاض عن ذكر اسم أحد الأفراد فى قائمة المرشحين ، كما كان فى إمكانه هذا الكاتب أن يقوم بحذف اسم أحد أصدقائه منها . ومن الواضح أن أى عدد من القواعد التنظيمية لم يكن فى إمكانها أن تمنع منعا كاملا استغلال النفوذ أو المحاباة . وقد حاولت الحكومة أن تتدخل أحيانا لتضع المحاذير والضوابط وذلك بأن تصدر أوامرها لكتبة القرى وهم أنفسهم قد تولوا مناصبهم بالالتزام بأن يقوموا باختيار المرشحين للمناصب الإلزامية من قرى أخرى غير التى يعملون فيها كذلك تمكن بعض الأفراد من الحصول على استثناء من شغل المناصب الإلزامية باستخدام طرق غير مشروعة ، وعادة ما كان كاتب القرية يستطيع أن يجد وسيلة للنظر فى أمر (كما كانوا يقولون حينئذ) بعض الأفراد الذين يصرحون علنا بأنهم سيقومون بالثأر منه شخصيا فى حالة عدم إبعاد أسمائهم عن قوائم الترشيح . كما أن مثل هذه التهديدات كان من شأنها أن تخرس ضحاياهم الضعفاء المغلوبين على أمرهم من الذين يتم اختيارهم ليحلوا محل أولئك الأوغاد . وقد انتابت الشجاعة أحيانا بعض هؤلاء الضحايا فقاموا بتقديم شكواهم إلى الجهات العليا . وكان ينتج عن ذلك التوقف لفترة قصيرة فقط عن مثل تلك الانتهاكات . ونحن نعرف أنه قد صدر مرسوم إمبراطورى ضد شراء "الحماية" من تولى مناصب الالتزام فى عام ٤٨م ، ولكن بعد مضى تسعين عاما من صدوره نجد والى مصر يحقق فى قضية عن نفس الموضوع .

وفى شهر أكتوبر من عام ٢٠٧م قامت لجنة مكونة من خمس وعشرين رجلا بالدفاع عن سكان قرية سكنوبايو نيسوس Soknopaiou Nesos وأرسلت هذه الشكوى لمدير الإقليم :

"لقد أرغمنا على العمل ، كل واحد منا فى حدود قدرته ، فى الأراضى التى تقع على الشاطىء والتى انحسرت عنها مياه فيضان النيل . ولكن هناك شخص يدعى أورسيوس Or-seus وهو شخص عدوانى عنيد قام ، بمهاجمتنا ومعه إخوته الأربعة ، ومنعونا من القيام بالعمل وبذر الحبوب وهددونا لدرجة أننا سنضطر للفرار من منازلنا كما حدث من قبل ، وذكروا أنهم سيطالبون بالأرض . ولذلك قمنا بإرسال هذه الشكوى إليك لعدم شرعية ما قاموا به . بالإضافة إلى أنهم لا يقومون بدفع نصيبهم من الحصة الشهرية للضرائب النقدية والغلال... كما أنها لم يقوموا بأى عمل من أعمال الالتزام ، لأنهم يلجئون إلى إرهاب كتبة القرى المتتاليين . لذلك ألجئتنا الحاجة لطلب الحماية منك ونرجو من فخامتك أن تتفضل وتأمر باستدعائهم أمامك وأن تستمع لشكوانا منهم وتقوم بالتحقيق فيها حتى يمكننا أن نتفرغ للعمل فى الأراضى والقيام بالالتزام الملقى على كواهلنا . كذلك يجب على أورسيوس Or-seus وإخوته أن يشاركوا بنصيبهم فى دفع الضرائب العامة وأن يتولوا مناصب الالتزام ، وعلى ذلك تكون المسئولية ملقاة على عاتقنا جميعا بالتساوى لبذر الحبوب فى الأرض موضوع القضية حتى نتمكن من أن نحافظ على قريتنا مع شكرنا لفخامتك . والسلام". (٢٣)

ويأتى فى نهاية المشهد الاجتماعى ، وجوه المجتمع المحلى الذين دفعتهم روح الالتزام بالشهامة noblesse oblige أو المصلحة العامة Probono Publico بأن يتقدموا عن طيب خاطر لشغل المناصب الإلزامية التى كان قد تم استثناؤهم منها من الناحية القانونية . لكن بعض هؤلاء السامرائيين الخيِّرين " قد ندموا بعد ذلك على ماقدموه من إيثار عندما قرروا إرضاء السلطات ، لأنهم وجدوا أن مجتمعاتهم قد اعتبرت كرمهم بمثابة حق دائم لاتفضلا منهم. ففى إحدى الحالات نجد طبيبا يقدم طلبا لوالى مصر كى يأمر بإعفائه من منصبه . وتعلم من قضية أخرى أن إحدى السيدات من الذين يملكون أملاكا قد فرض عليها زراعة أرض مهجورة عن طريق الإلزام ، وقامت بتقديم طلب لإعفائها بالالزام من هذا العمل لكونها سيدة، وقد ظلت حوالى سنتين تتقاذفها أجهزة الإدارة البيروقراطية حتى تمكنت أخيرا من التخلص من هذا العبء ". (٢٤)

وفى أثناء فترة الركود الاقتصادى فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث ارتفعت الضرائب وازداد التشدد فى تحصيلها نتيجة للمطالب التى فرضت من أجل المساهمة فى

الصراع المرير على تولى عرش الإمبراطورية ، ونتيجة لحروب الأباطرة على الحدود ، وقد نتج عن هذا كله ضياع ثروات كثير من الأثرياء . وعندما نستعرض حياة مواطنى عواصم الأقاليم فى تلك الفترة نلاحظ جهودهم التى بذلوها لمحاولة التنصل من شغل المناصب الإلزامية فى هذه الظروف الصعبة ، أو محاولاتهم إيجاد شركاء لهم على الأقل ليساهموا معهم فى سد نفقاتها. وعندما فشلت جميع الجهود بدأنا نرى بعض الذين تم استدعاؤهم للقيام بتولى المناصب الإلزامية ، يفضلون التنازل عن جميع ممتلكاتهم لمن قاموا بترشيحهم لشغل هذه المناصب ، حيث كان ذلك جزءا من المسئولية الشخصية التى تقع على عاتق من يقوم بالترشيح ويبدو أن المتنازل عن أملاكه كان يسترد جزءاً قليلاً منها بعد ذلك ، حقيقة لم تذكر الوثائق هذه التفصيلات بالتحديد ، ولكن مما لاشك فيه أن مثل هذا التنازل عن الأملاك كان يتم بالفعل . بل لقد وصل الأمر بموظفى الإدارة المحلية إلى ضرب المرشحين ووضعهم فى السجن لكى يرغموا على إلغاء التنازل وقبول الالتزام . ولذلك فقد أصدر الإمبراطور سبتيميوس سيفروس أوامره التى تنهى عن اقتراف هذه المعاملة السيئة ، وأيضا عدم المساس بمنزلة هؤلاء الملتزمين الاجتماعية أو بامتيازاتهم المسموح لهم بالتمتع بها . ولدينا أدلة واضحة على ما تقدم من عدة حالات ، نذكر هنا واحدة منها والأخرى فى فصل تال من هذا الكتاب :

"إلى أوريليوس ليونيداس Aurelius Leonidas مدير إقليم البهنسا ، من أميلوس ستيفانوس بن هاتريس وتاسورابيس Aemilius Stephanes S. of Hatres & Tasorapis من قرية سنكيفا Sinkepha : لقدعلمت اليوم أن أوريليوس أميوس بن باتريس وديمتريا Aurelius Amois S. Patres & Demetria من نفس القرية ، قد قام بترشيحى خلفا له فى السنة التالية الجارية لمنصب محصل الضرائب النقدية المستحقة على القرويين فى القرية المذكورة سابقا : وحيث إننى لا أملك النصاب المالى الكافى ، لذلك فإننى أعتبر غير أهل لهذا المنصب ، كما أن هذا الترشيح لايتفق مع المنطق ، أو مبدأ المشاركة فى تحمل الالتزام (عن حق) . لذلك فإننى أتنازل عن كل ممتلكاتى له وفقا لتعليمات مولانا (الإمبراطور) الحاكم ، وأقر بأن أملاكى العقارية هى . . . . (فقد باقى النص السنة ٢٣٦م)". (٢٥)

ولما زاد ثقل أعباء الضرائب والالتزامات وأصبحت فوق الاحتمال ، كان الملاذ الأخير لدافع الضرائب هو أن يشمر عن ساعديه ويختفى . وقد حدث نفس الشىء حيث إن بعض المرشحين لم ينتظروا أن يتم تعيينهم ولكن مجرد أن يعلم الواحد منهم أو يساوره شك فى أنه قد تم تعيينه لإحدى الخدمات الإلزامية كان يلوذ بالفرار .

وقد أصدر والى مصر منشورا فى رأس السنة المصرية الثامنة عشر لحكم الأمبراطور أنطونيوس بيوس Antoninus Pius (٢٩ أغسطس ١٥٤) لم يلجأ فيه إلى إخفاء الحقيقة عند حديثه عن : "هؤلاء الذين فروا تهرباً من القيام بشغل بعض مناصب الالتزام بسبب الفقر الذى أصابهم جميعا فى ذلك الوقت ، والذين مازالوا يعيشون بعيدا عن ديارهم فى خوف ، لاعتبارهم خارجين عن القانون . بل قام بإصدار عفو عنهم إذا عادوا إلى ديارهم خلال ثلاثة شهور" .(٢٦)

ومما لاشك فيه أن بعض هؤلاء الفارين قد انتهزوا الفرصة للعودة إلى ديارهم دون أن ينالهم عقاب . ولكن دورة الفساد ستعود لتعمل من جديد لتشمل الجميع ، حقيقة أن العفو يلغى الديون والأخطاء ، ولكنه لا يؤمن لهم شيئا فى المستقبل . بل على العكس من ذلك فقد تميزت مجريات أحداث التاريخ الرومانى بعد صدور المنشور الأخير بزيادة فى الحروب على الحدود ، وتدنى الاستقرار السياسى ، وذبول الاقتصاد ، وهذا يعنى عدم تخفيض الضرائب والالتزامات، بل يعنى أنها ستصبح أكثر عبئا بمرور الوقت . ولم يكن فى استطاعة حكام مصر أن يحلوا هذه المشاكل الواضحة ، ولكن كل ما كان يمكنهم عمله هو أن يتغاضوا عن الضرائب ويصدرون عفواً عاماً عندما يزداد التمزق ويتفشى الشغب على يد الفارين وتصل الأزمة إلى قمتها . إن أفضل القرارات لم يكن ليحقق سوى نتائج مؤقته . ولاشك أنه كان : توجد مشاكل خلال قرون الحكم الرومانى ولكنها تفاقمت دون شك أثناء القرن الثالث م ، فقد استمر الرجال يفرون من ديارهم عندما ازدادت الأعباء المالية عليهم وبلغت أقصى حد لها ، وواصلت الحكومة سياستها فى اعتصار بذورها مما أدى إلى فقدان القوة البشرية ، وانهيار مصادر الدخل ، ورفع درجة الاستعداد العسكرى لمواجهة عصابات اللصوص وقطاع الطرق التى كان ينتظم الفارون فى صفوفها أو يكونونها .



الفصل التاسع

(أمة) جاهلة بالقوانين Insciam Legum أو "إرساء العدل"

"أمة تجهل القوانين" حتى المؤرخ تاكيتوس الذى ذكر هذه العبارة ، وهو المؤرخ الذكى الذى يتصف عموماً بالدقة والحصافة قد تأثر فى نقده لجماهير الشعب المصرى بما أبداه الرومان نحوهم من ازدراء ، أما ديودوروس الصقلى الإغريقى ، الذى كتب قبل تاكيتوس بمائة عام فهو يخالف تاكيتوس فى رأيه على خط مستقيم ، حيث لاحظ تأصل عادات المصريين وقوانينهم ، وامتدح الأسس التى يقيمون عليها العدالة . وتذكر الأساطير أن القانن المصرى كان هدية من الإله توت (الذى تمت مماثلته بالإله هرمسيس واهب القوانين فى الأسطورة الإغريقية) للفرعون مينا Menes الذى وحد بين جنوب مصر وشمالها وكون الأسرة المصرية الأولى فى حوالى نهاية الألف الرابع ق.م وحتى إذا غضضنا النظر عن مجموعة نصوص قانون الملك مينا باعتبارها حكاية أسطورية ، فهناك دليل تاريخى واضح على أن قواعد العدالة تكونت فى مصر من مجموعة من القوانين المسجلة ، كما كان يوجد لديها نظام للمجالس القضائية نما وتطور قبل أن يبدأ الرومان تاريخهم بحوالى ألفى عام. (١)

وكان الإمبراطور الرومانى يمثل أعلى سلطة قضائية فى الإمبراطورية الرومانية ، وبالتالى فقد أصبح حاكم الولاية يمثل قمة السلطة القضائية فيها . وكان من حق المواطن الرومانى فى أى مكان يحل به فى الإمبراطورية أن يستأنف قضاياه أمام الإمبراطور وذلك فى حالة القضايا العظمى . كما أتيحت له نفس الفرصة فى الدعاوى المدينة نظير رسم مالى . أما باقى سكان الإمبراطورية فكانوا يمثلون - مع ندرة فى الاستثناء - أعلى جهاز قضائى محلى خاص بكل ولاية من الولايات الرومانية العديدة أو عندما يقرر الوالى نفسه أن يرسل لروما بعض القضايا الهامة لأنه يرى أنها فى حاجة إلى قرار من الإمبراطور شخصيا .

وبالإضافة إلى الوالى الذى تم تعيينه لحكم الولاية كان يوجد عدد من كبار الموظفين الإداريين الرومان فى مصر يمارسون التشريع فى القضايا المدنية فقط ، وكانوا يحملون الألقاب التالية : الناطق بالأحكام Iuridicus كبير القضاة Archidıkastes ، ومفسر القانون أو المستشار exegetes ومدير الحساب الخاص Idios Logos ، ومراجع الحسابات Dioiketes ولما كانت الإشارات إليهم فى مصادرنا قد جاءت متفرقة ، لذلك فهى تتركنا دون أن نتزود بفكرة واضحة عن دور واختصاص كل منهم من الناحية القضائية . وجرت العادة على أن

يصاحب أحدهم أو اثنان منهم حاكم الولاية عند عقده لمجالسه السنوية للإشراف على إدارة الأقاليم ، ولعقد المجالس القضائية فيها . ونلاحظ أن الوالى كان نادراً مايتجه جنوب ممفيس أو الفيوم لعقد مثل هذه الجولات (وكان على موظفى الأقاليم (التى تقع جنوب ممفيس) أن يبحروا إليه ليعرضوا عليه تقاريرهم) ، كما أنه نادرا ما كان ينظر فى قضايا غير تلك التى أرسلت لإبداء الرأى فيها عن طريق المحاكم الأدنى درجة - ولم يكن ينظر سوى فى قضايا مختارة منها فقط كما سنرى الآن ومعنى ذلك أن شريحة صغيرة جداً من أفراد المجتمع كانت على اتصال بالسلطة التشريعية العليا فى الولاية . أما بالنسبة لباقى أفراد الشعب ، فقد كان الذهاب للمحكمة معناه المثول أمام مدير الأقليم . وحتى تلك الشكاوى التى كانت ترسل إلى السلطة العليا كان يتم إعادتها للمدير فى أغلب الأحيان للنظر فيها .

إن القانون والإجراءات القضائية التى سادت مصر فى العصر الرومانى كانت مزيجا من تجارب الماضى والحاضر . وكانت كلمة مصريين تعنى فى العصر الرومانى ، كما سبق أن لاحظت أكثر من مرة كل سكان الولاية فيما عدا الرومان ومواطنى المدن الإغريقية واليهود . وقد تمتعت كل مجموعة من المجموعات المستثناة بحق ممارسة حياتها وفقا لقانونها ونظمها . أما ما أطلقت عليه الإدارة الرومانية اسم "قوانين المصريين" فى أثناء الغزو الرومانى فقد كان عبارة عن مجموعة مختلطة من القوانين الإجرائية والعرف والعادات ، بعضها مصرى وأغلبها له أساس إغريقى . ومع تقادم قرون الحكم الرومانى تحتم على تلك المبادىء والأعراف المطبقة أن تتكيف بالتدريج كى تتوافق مع القانون الرومانى . وقد سبق أن ذكرنا بعضاً من نماذج هذا التطور فى الفصل السابع .

ولقد أقام أول حكام البطالمة محاكم مدنية منفصلة لكل من الشعبين الإغريقى والمصرى ، فكانت الإجراءات الخاصة بالمصريين تتم أمام "قضاة الشعب" باللغة المصرية ووفقا للقانون المصرى ، أما الإجراءات الخاصة بالإغريق فقد استخدمت فيها اللغة اليونانية وذلك أمام دوائر "القضاة الذين كانوا ينتقلون من مكان لآخر" حيث يقيم الإغريق .

وعلى أى حال فلم يحدد للأفراد نوع التشريع الذى يجب عليه أن يتعاملون معه : فلقد كان من حق أى فرد سواء أكان إغريقياً أو مصرياً أن يختار المحكمة التى تقوم بالنظر فى قضيته . وكان المترجمين متوافرين عندما تبرز مشكلة عدم معرفة اللغه . وحدث نفس الشىء بالنسبة للقضايا أو العقود التى كانت تسجل باللغة المصرية وتعرض على المحاكم الوطنية وكان الإغريق طرفا فيها . واستمرت ثنائية تنظيم المحاكم لفترة من الوقت خلال الحكم

الرومانى ثم بدأ التخلى عنها منذ منتصف القرن الأول الميلادى ، حيث اعتاد المصريون على تصريف أمورهم أو ربما تمت صياغة قوانينهم باللغة اليونانية التى أصبحت لغة شبه عالمية Lingua Franca وكانت تصرف بها الأعمال وتدار بها الحكومة آنذاك .

وكان لإدارة الولاية طريقتها فى إقامة الادعاء العام . فعندما تكون القضية خاصة بأحد الأفراد ، فيرجع له تحديد الإجراءات ، إما بنفسه أو عن طريق وكيل له . وتبدأ الخطوة الأولى بكتابة الشكوى وتقديمها للجهة المسئولة ، وهو مدير الإقليم أو المدير العام فى أغلب الأحيان، حيث كان لكل منهما سلطته القضائية الخاصة بالأفراد فى المشاكل المالية . وقد طلبت بعض الشكاوى منهم أن يخففوا عنهم أو ينصفوهم فى قضاياهم ، وطلبت شكاوى أخرى منهم أن يرفعوا مظلمتهم إلى والى مصر فى الجلسة القضائية العليا القادمة . أما المجموعة الأخيرة من الالتماسات فهى إحدى الحقائق الأزلية ، تذكرنا بالملاحظة الكلاسية الحصيفة التى مس بها الشاعر الإنجليزى الكسندر بوب Alexander Pope وهى أن الإنسان يتمسك دوما وفى أحلك الظروف بحبال الأمل الذى يجيش فى صدره . ولما كان الوالى لا يطلع إلا على قضايا الجرائم والموضوعات الكبرى حيث يصدر حكمه فيها دون أن يوضح الإجراءات التى سبقتها ، فإن أغلب القضايا - كما سنرى فيما بعد - لم تكن تصله مباشرة ولكن كان يتم إرسالها له بطريقة روتينية إذ يبعثها مرؤوسيه إلى مدير الإقليم أو إلى محكمة أخرى أدنى درجة .

ولدينا التماس من هذا النوع قدمه ستة من كهنة تيبتونيس Tebtynis عام ١٧٧م لمدير الإقليم حيث قالوا فيه :

"نتقدم لك بشكوانا ضد كرونيون بن سابينوس Kronion S. of Sabinus عن اعتدائه علينا ، وهو أمر سوف نقوم بتوضيح تفصيلاته فى الموعد المحدد ، ونرجو منك أن تستدعيه عن طريق أحد مرؤوسيك للمثول أمام المحكمة العليا التى سوف يعقدها فخامة والينا باكتوميوس المعظم Pactumeius Magnus "[٢] (توقيعات) .

ويحتاج المتهم الذى ينتظر المحاكمة إلى ضامنين يتمكنون من العمل على حضوره المحكمة عند استدعائه لنظر القضية ، وهو يشبه الكفالة فى عصرنا الحالى . وفى حالة عدم وجود الضامن حتى فى أكثر القضايا وضوحا يظل المتهم تحت الحراسة فى الحجز حتى يوم المحاكمة وعندما يستعد مدير الإقليم للنظر فى القضية يصدر هو أو أحد مساعديه أمرا بالحضور والمثول أمام المحكمة ، والشىء الذى يثير اهتمامنا أن لدينا حتى الآن ما يقرب من مائة أمر بالاستدعاء ، ولكنها لا تشير مباشرة للحضور للمحاكمة أو إلى الدفاع أو المتهمين ، ولكن

هذه الأوامر كانت ترسل إلى موظفي البوليس المحلى ، الذين يستخدمون عبارات رسمية محددة مع اختلافات طفيفة وتشير باختصار إلى السبب :-

"إلى رئيس بوليس تامبيتى Taampetei : أرسل كلاً من هاتريس بن هارسيوريس Ha-tres S. of Horseoris وهوروس بن بيليس Horos S. of Belles ، ويسينامونيس بن باوزيريس Psenamounis S. of Pausiris ، وجميعهم مقيمين فى سيفو Sepho ، بخصوص الالتماس المقدم من فيللينوس Phillinos . ١٨ مسرى - ٣٠". (٣)

أما المحاكمة التى يعلن أن مدير الإقليم سيقوم بفحصها فى دورة المحاكم القضائية فكثيرا ما كانت الشهادة الشفوية تنتهى بطلب تقديم الشهادات المكتوبة ، والوثائق الخاصة بالموضوع كما كانت تسجل فيها القوانين والإجراءات ، وفى النهاية وبعد الاستماع يصدر المدير قراره . وهذه الإجراءات تناظر كما سنرى تلك التى كانت متبعة فى المحاكمات التى يرأسها والى مصر.

أما عندما يصدر مدير الإقليم حكمه بأن القضية المعروضة لاتدخل فى نطاق اختصاصه هنا يقوم برفعها إلى المدير العام وفى بعض الأحيان إلى الوالى مباشرة . وفى أحد القضايا نجد الفقرة التالية التى اختتم بها المدير حكمه : "وإذا كان الحال كما زعمت بأن جناب المدير العام قد أصدر حكماً فى قضية مشابهة فسوف أحيل له هذه القضية ليتخذ قراراً فيها" . وفى ختام قضية أخرى أصدر المدير أوامره لمدير البوليس فى القرية" بأن على (المجنى عليهما) الحضور معك للمثول أمام فخامة المدير العام عند قيامه بالنظر فى القضية" . وكان يمكن الاستئناف تظلماً من الأحكام التى يصدرها المديرون إذا وقع فيها خطأ قانونى ، ولكننا لانعرف شيئا عن الشروط والقواعد التى كانت تتبع لإجراء مثل هذا الإجراء . أما إذا اتهم مدير الإقليم بإساءة استخدام السلطة أو التحيز فى معاملة المتقاضين فمن الواضح أنه كان يتم رفع القضية إلى سلطة أعلى للنظر فيها .

وعلى الرغم من أن سلطة المدير العام Epistrategos التشريعية كانت أعلى من سلطة مدير الإقليم Strategos إلا أنها كانت محدودة . فالقضايا التى كانت لاتقع فى نطاق اختصاصه يتم إحالتها للوالى أو إلى مسئول آخر أعلى منه سلطة :

"من مضبطة محكمة فخامة فيديوس فاوستوس Vedius Faustus المدير العام" بعد قيام فاوستوس Faustus باستجواب المتهمين والتشاور مع مساعديه الموجودين على المنصة قال لهرباكراتيون Harpakration مدير قسمى بوليمون Polemon وتيمستيس Themistes

(فى إقليم الفيوم) "أنه وفقا للتحرى الذى اضطلعت أنا به وأوامر جناب الوالى ، فالأمر متروك لفخامته كى يقوم هو باتخاذ القرار ، كما وأننى سأشرح له تفصيلا كل الخطوات التى قمت باتخاذها". (٥)

ولكن هل كان هناك ما يؤكد أنه عند عرض الشكوى أمام المحكمة العليا سيتم سماعها أو إصدار الحكم فيها على الأقل من قبل الوالى نفسه ؟ والإجابه المختصرة هى بالنفى . حيث كان فى استطاعة أحد الأفراد أن يعرض قضيته قبل قضية شخص آخر ويضيع عليه الفرصة . ولكن مجرد وصول القضية إلى المحكمة العليا كان يعتبر فى حد ذاته فرصة لانظير لها . ولكن حيث إن الشخص كان يتكبد نفقات الرحلة للإسكندرية وكذلك نفقات وكيله أيام غير محددة فإن النظر فى قضيته كان أمرا محتما لأنه كان هناك يوما أو أياما مخصصة لإقليمه خلال الدورة القضائية . وقد سجل أحد الأفراد فى نقش يرجع لأواخر القرن الأول كيفية: "وصوله للوالى ماركوس ميتيوس روفوس Marcus Mettius Rufus حيث سلم له التماسا أثناء مروره .. وقبل الوالى الالتماس وسلمه لكلوديوس جيمينوس Claudius Geminus مدير الحساب الخاص لبحثه". ثم استمع الأخير للقضية وأصدر حكمه فيها . كذلك تطلعنا إحدى برديات أواخر القرن الثالث كيف أن وكيل أحد الأفراد من البهنسا ، ويدعى نيمسيانوس Nemesianus قد انتظر الوالى أثناء فترة الأسابيع السابقة لعقد المحاكمات والتى من بينها محكمة البهنسا . وفى المرة الأولى قيل لنيمسيانوس هذا أن يعود مرة أخرى فى جلسة الاستماع" ولما عاد فى ذلك اليوم اتضح أنه يوم عطلة ولذلك لم يتم عقد الجلسة . وعندما عاد فى اليوم التالى إلى قاعة الجلسة أعلن الوالى أنه خصص جلسة ذلك اليوم لمعالجة أمور معينة (ليست من بينها قضيته) ثم نجح فى المحاولة الرابعة فى أن يقترب من الوالى فى الحديقة الخلفية للقصر ، حيث طلب الوالى منه أن يقدم له الالتماس مكتوبا ، وهو ما قام به ، فتم إدراج قضيته فى الملف "١" ص ٨١ وتم تقديمها فى موعدها(٦) .

أما الشخص المغمور وخصوصا إذا كان يعيش فى جنوب الوادى فلم تكن تتح له مثل هذه الفرصة ، ولذا كان عليه الانتظار حتى تعقد محكمة إقليمية ، وهذا يعنى الانتظار لعدة شهور وربما تطول المدة لتبلغ عاما . واعتاد الوالى أن يأتى كل عام إلى ممفيس أو الفيوم (وفى بعض الأحيان يختار مدينة أخرى مثل قفط) فى أواخر يناير أو أوائل فبراير ، ويمكث عادة حوالى شهرين أو ثلاثة حتى يستطيع أن يقوم بمراجعة الحسابات المالية وعلاج المشاكل الإدارية الخاصة بتلك الأقاليم التى تمتد من ممفيس حتى حدود مصر الجنوبية ، وكذلك النظر فى القضايا التى

تراكمت طوال العام . ولم يكن الوالى يطيل إقامته بسبب القيظ فى صيف مصر الحار الذى يبدأ فى الاقتراب ، إضافة إلى أنه لم يكن مستعدا لخرق التقاليد وتحمل إنهاك الإبحار فى النيل المقدس أثناء فترة الفيضان (يونيو - أكتوبر) . ولذا خصص لكل إقليم عدة أيام فى تقويم المحكمة العليا . وفى ختام الدورة يصبح مجلد العمل الذى تم إنجازه ضخما . وقد حمل أحد الالتماسات التى قدمها أحد سكان البهنسا فى المحكمة العليا رقم ١٠٠٩ . كما تحدثنا وثيقة من مجموعة جامعة ييل Yale ، أنه عندما كان الوالى يعقد محكمة فى الفيوم فى عام ٢٠٩م تسلم ١٨٠٤ التماساً فى مدة يومين . وهذا يعنى بين ٧٠٠ إلى ٧٥٠ التماس يوميا . وإذا وضعنا فى الاعتبار أن مكتب الوالى يعمل لمدة عشر ساعات يوميا ، وهو الحد الأقصى المسموح به لعمل المحاكم فى اليوم كما هو الحال فى البلديات الرومانية ، فمعنى هذا أن كل التماس من هذه الالتماسات لن يستغرق سوى دقيقة خلال فترة الساعات العشر . ولايحتاج الأمر لخيال عريض لكى تتصور منظر أصحاب الالتماسات وهم يقفون فى طابور طويل قبل شروق الشمس وينتظرون فى نظام لكى يعرضوا ورقتهم الثمينة التى كانت زاخرة بكثير من الآمال ومحفوفة بكثير من المخاوف . (٧)

ومن الواضح أن الالتماسات ذات الطابع الروتينى - وهى تمثل العدد الأكبر منها - لم تكن تصل لمكتب الوالى ، حيث تقوم سكرتارية المدير ومساعديه بالنظر فيها . أما الوالى فكان ينظر فقط فى الالتماسات التى يرى مرؤوسوه أن لها خطورتها أو أن لها وضعاً استثنائيا . ويقوم الوالى فى أغلب الحالات بإحالة أغلبها إلى موظفين أدنى درجة أو إلى القضاة المؤقتين الذين أنشأت مناصبهم لتأدية مهام محددة . أما إذا كان الجنود يمثلون أحد أطراف القضية فكانت تحال عندئذ إلى ضابط عسكرى . ثم يبقى الوالى فى النهاية لنفسه عدداً قليلاً من تلك القضايا التى يرى أنها تعتبر قضايا غير عادية أو ذات أهمية بحيث تتطلب أن ينظر فيها الحاكم شخصيا . أما تلك الالتماسات التى بلغ عددها ١٨٠٤ التماسا والتى سبق ذكرها فى الفقرة السابقة فنحن نعرف أنها جمعت وأرسلت للإسكندرية ، حيث قام مكتب الوالى بالإجابة عليها بعد حوالى شهرين من تاريخ إرسالها .

وتشير عدة وثائق بردية إلى التحقيق المبدئى الذى كان يجرى أمام الوالى ، كما حفظت لنا بعض العبارات فى مضبطة جلسة التحقيق . ومنها يتضح لنا أن القاعدة الرئيسية التى كان الوالى يختار على أساسها القضايا التى تحتاج إلى رأيه الشخصى هى تلك المشاكل الخاصة بالجيش والجنود المسرحين ، والضرائب والنواحى المالية ، والإعفاء من الالتزامات ، وحقوق الملكية ، والأعمال العامة ، وجرائم العنف والاحتيال .

وتتكون أطول مضبطة جلسة حفظت لنا من لفافة بردية موجودة فى المكتبة البريطانية ولكنها ، غير كاملة ، ومن سوء الحظ أنها عبارة عن شذرات ، وتتكون من "٥" أعمدة تضم ١١٤ سطرا . وقد استخرجت عدة عبارات من محضر جلسة سنة ٢٥٠م سبق ذكرها فى الفصل الرابع من هذا الكتاب . والآن نقدم عدة نماذج أخرى تم استخراجها من ذلك المحضر .

- (محكمة) الوالى ديكيموس ڤيتوريوس ماركينوس سنة ١٨١/١٨٣م Decimus Veturius Marcinus سأل الوالى ماركينوس بسائيس Psais ، هل سجلت نفسك فى التعداد ؟ ورد عليه هذا عن طريق المترجم : لا ، لم أقم بذلك ؟ فسأله ماركينوس أين إذن تم تسجيل اسمك ؟ فأقر بالآتى : لم يتم تسجيلى . فلقد توفى والداى عندما كنت صغيرا ولم يقوما بتسجيلى . "وبعد تبادل آخر للحديث قال ماركينوس ، إن هذا أمر خطير ، وبعد أن درس الأمر مع مجلس مستشاريه أمر بإلقاء القبض على بسائيس (فقد باقى الوثيقة) .

(محكمة) الوالى سرڤيوس سولبيكوس سيميليس Servius Sulpicius Similis السنة الخامسة عشر من حكم المؤله تراجان ، ٢٥ برمودة (=٢١ مارس سنة ١١٢م) فى نقراطيس .

- تقدم ديوسكوروس بن ديونيسيوس Dioskoros S. Dionysios إلى (المنصة) وقال "إننا أخوين فرضت علينا الأعباء الإلزامية ، ولذا أطالب بأن يعفى أحدنا لكى يقوم بالإشراف على زراعتنا" ، فقال سولبيكوس سيميليس "هل مازال والدك على قيد الحياة ؟ وعندما أجابه (ديوسكوروس) بالنفى حكم سولبيكوس سيميليس بأنه يجب أن يتم إعفاء واحد منهما .

من مضبطة جلسة فلاڤيوس تيتيانوس Flavius Titianus الوالى السابق . السنة الثانية عشرة من حكم المؤله هادريان ، ٨ بؤونه (=٢ يونيو ١٢٨م) ، فى المحكمة التى عقدت فى السوق .

- ثم مثول أنطونيوس أبوللونيوس (أمام المحكمة) وقرر عن طريق محاميه ، أيسيدوروس الصغير أن سمبرونيوس Sempronius والد زوجته قد تحرش به واختلق مشاجرة وأخذ ابنته رغما عنها ، ولذا مرضت وأصابها الحزن . وقد تعاطف معه باسوس Bassus المدير العام وأصدر حكمه بأنه يجب عدم منع أنطونيوس (من الاحتفاظ بها فى عصمته) إذا رغبا كلاهما فى أن يعيشا معا . ولكن هذا الأمر لم يجد فتيلا لأن سمبرونيوس تجاهله ، ثم تقدم بالتماس للوالى يتهم فيه (أنطونيوس) باستخدام العنف معه ، وأفلح فى استلام خطاب صدر فيه الأمر باستدعاء جميع الأطراف للمثول أمام المحكمة .

ولذا فإن أنطونيوس يلتمس من الوالى ، إذا شاء ، أن لا يتم طلاقه من زوجته التى يحبها . وهنا اعترض ديديموس Didymus محامى الخصم ورد قائلا بأن ما قام به سمبرونيوس لم يكن بدون سبب : وذلك لأن انطونيوس هدد سمبرونوس بأنه يرتكب زنا المحارم مع ابنته ، وقد رفض سمبرونيوس أن يتحمل هذه الإساءة البالغة ، ولذا استخدم الحق الذى منحه له القانون وقام باتخاذ هذا الإجراء ضد أنطونيوس ثم أضاف بروباتيانوس Probatianus بالنيابة عن أنطونيوس ، أنه فى حالة إذا لم يتم حل مشاكل الزواج فإن الوالد ليس له الحق فى الدوطة أو الأطفال الذين أنجبوا عن طريق هذا الزواج . وأجاب تيتيانوس Titianus قائلا : "إن العامل الرئيسى الذى يفصل الموضوع هو مع من ترغب المرأة المتزوجة أن تعيش . قرأت ذلك ووقعته عليه .

من مضبطه جلسة موناتيوس فيلكس Munatius Felix السنة الثالثة عشر من حكم المؤله أيليوس أنطونينوس Aelius Antoninus ٢٢٠ برمودة (١٧ أبريل عام ١٥٠م) .

– لقد تم مثول كل من جليكون بن ديونسيوس Glykon S. Dionysios وأبوللونيوس بن جليكون Apollonius S. of Glykon أمام المحكمة ، وبعد عدة ملاحظات أبداها أرخيلاؤس Archelaos المحامى قال : "إن جليكون لايملك الموارد (للقيام بالالتزام) وتنازل عن أملاكه "وأجاب موناتيوس:" سيتم فحص أملاكه والتحقق من قوله ، وهناك قاعدة سبق أن طبقتها مرارا – ويبدو لى أنها عادلة – أنه فى حالة الأشخاص الذين يتنازلون عن أملاكهم بغرض التحايل على دائنيهم فإن هذا العمل يعتبر غير قانونى" .(٨)

ومما لاشك فيه أن قلة فقط من أصحاب الالتماسات والمتنازعين كانوا محظوظين لأنهم كانوا يحصلون دون سواهم على فرصة عرض قضاياها أمام الوالى ، لأنه بمجرد أن يقوم بإصدار حكم يضع حدا للموضوع ويغلق ملف القضية Res Judicate . أما بخصوص المتشاحنين الذين لم تعرض شكاواهم على الوالى فإن الاجراءات القضائية الخاصة بهم كانت تمتد وتستغرق وقتا طويلا جداً . وهى تبدأ بانتظار انعقاد الجلسة التالية للمحكمة العليا ، وهى مدة قد تطول لتصل إلى عشرة شهور . وبعد انعقاد المحكمة العليا كان يمكن للقضية أن تأخذ عدة شهور أخرى ، كما حدث بالنسبة للالتماسات التى بلغت كما ذكرنا آنفا ١٨٠٤ التماسا ، وكان يتعين على المتقاضى الانتظار لفترة لحين عرض قضيته والفصل فيها . وحتى بعد ذلك فكثيرا ما كانت الإجابة تتم على النحو التالى : "سيتولى المدير العام النظر فى فحص قضيتك بدون تحيز" ، أو: "إذا كان لديك أى دليل فقدمه لمدير الإقليم الذى سيقوم

باتخاذ الإجراء اللازم" ، أو ما شابه ذلك . وفى بعض الأحيان كانت الأوامر تصدر لمدير الإقليم بأن لايقوم بإصدار الحكم بنفسه ، ولكن بأن يقوم بعملية تحقق وفحص للموضوع (وهو عمل كان يعهد به عادة إلى الكاتب الملكى لإقليمه) ثم يقدم تقريره بعد ذلك للمدير العام أو الوالى ؛ ولاشك أن كل هذه الإجراءات كانت تؤدى إلى تأخير نظر القضية مرة بعد مرة .

وكان الوالى يخصص عادة بعض القضايا "للأصدقاء" من القضاة كى يفصلوا فيها ، وكان هؤلاء القضاة معروفين شخصيا للوالى أو تمت تزكيتهم له ، ومما لاشك فيه أنهم كانوا عادة يساعدون على سرعة الإجراءات ، ولكن ذلك لم يكن يتم فى كل الأحوال . ففى ختام جلسة المحكمة العليا التى عقدت عام ١١١م على سبيل المثال علم الوالى أن القضاة لم ينتهوا بعد من الفصل فى قضايا عديدة ، لذلك فقد أعلن : "أنه إذا كان القضاة الذين قمت بتعيينهم هم السبب فى ذلك التأخير ، فسوف أتركهم هنا حتى ينتهوا من الفصل فى القضايا الموكولة إليهم" .(١٠)

وفى بعض الأحيان كان التأخير ينجم عن الأطراف المتنازعة نفسها ، إما بسبب تعمدهم التهرب أو بسبب طلبهم التأجيل لسبب مشروع (مثل الحاجة الماسة لمباشرة حصاد محصولهم) ، أو ببساطة لعدم استطاعتهم الحضور عند نظر القضية . وقد دفع عدم حضور المتنازعين جلسة ٣ أغسطس سنة ٨٩ الوالى ماركوس ميتيوس روفوس Mettius Rufus لإصدار حكم جديد : "نسخة من محضر الجلسة (التاريخ) نتيجة لعدم حضور أطراف القضية عند استدعائهم ، فقد أصدر ميتيوس روفوس أمره للحاجب بأن يعلن : " أن الأفراد الذين تدرج أسماؤهم للمثول أمامى فى جلستى القضائية ، ولا يتمكنون من الحضور ، فإنهم يعلنون من الآن بأنه سيتم استدعاؤهم مرة أخرى ، فإذا لم يحضروا بعد ذلك فسيتم النظر فى قضيتهم غيابيا "in absentia" .

ومن الواضح أن مشكلة إزعاج المتعارضين للإدارة قد استمرت مما أثار سخطها . لذلك أصدر الوالى تيتوس باكتوميوس ماجنوس Titus Pactumeius Magnus - أصدر المنشور التالى بخصوص نفس الموضوع بعد مائة عام من منشور روفوس :

"بالنسبة لأصحاب الالتماسات الذين قاموا بتسليمها ، أو الذين وصلتهم بعد ذلك التعليمات والردود الخاصة بطلب حضورهم أمام محكمتى ، والذين أدرجت أسماؤهم فى قائمة قضايا الجلسة ، فى حالة عدم حضورهم خلال عشرة أيام من استلام هذه التعليمات وعدم ردهم عليها ، فإنه لن ينظر فى أى التماس يتقدمون به بصدد أية إجراءات قانونية أو حكم

قضائى.. أما إذا اتبعوا هذه التعليمات وقاموا بالتسجيل لدى (كاتب الجلسة) خلال الأيام العشرة فسوف أنظر فى قضيتهم (باقى الوثيقة عبارة عن شذرات) .

وتتضمن مضبطة جلسة المحكمة الابتدائية (جلسة الاستماع) التى عقدت عام ٢٥٠م هذه الملحوظة "لقد عرضت القضية أمام المدير العام وقد تم الحكم ضدهم غيابيا بعد أن تم استدعاؤهم ثلاث مرات ولم يتم حضورهم". (١١)

أما مديرى الأقاليم والمسئولون الآخرون من الذين كانت القضايا تحال إليهم فقد كانوا يبادرون بتنفيذ أوامر الوالى ، ولا غرو فى ذلك فالوالى هو صاحب السلطة العليا كما أنهم كانوا يشغلون مناصبهم وفق إرادته . أما صاحب القضية الذى كان يتمكن من الفوز بها بعد انتهاء التحقيق فيها أمام محكمة مدير الأقاليم ، تظل أمامه معركة أخرى تمثل الموجة الأخيرة من تعطيل الإجراءات ، وذلك بسبب العوائق التى كان يضعها عادة الموظفون المحليون المسئولون عن وضع حكم المدير موضع التنفيذ . لقد كان كتبة المدن والقرى هم سادة الماضى فى وضع تلك العراقيل حتى لايتم تنفيذ الأحكام الصادرة ، وهى أحكام كانت تمثل تهديد لمواردهم المالية ، وعلى سبيل المثال حين يضطرون إيجاد بديل لشخص سبق وأن قاموا بالإبلاغ عن اسمه كى يضطلع بالأعباء الإلزامية ثم يصدر الحكم القضائى ببطلان هذا الإجراء لأنه يخالف حقوق المبلغ عنه . ونذكر كأحد الأمثلة ذلك الحكم الذى أصدره الوالى لصالح إحدى السيدات ، ولكن بعد عامين من صدور الحكم ، كانت هذه السيدة ماتزال تلتمس من مدير الإقليم أن يلزم كاتب القرية بتنفيذ أوامره . ولدينا قضية أخرى بنزاع حول الأملاك عرضت على المدير العام ، الذى أحالها بدوره للوالى نظرا لتعقيد إجراءاتها ، إذ وجهت تهمة القتل لوالدة المدعى عليه ، الذى توفى . وصدرت الأوامر للمدعى عليها بالحضور إلى الإسكندرية ، حيث تجمدت قدميها هناك من طول الانتظار فعبثا كانت تنتظر حضور صاحب الدعوى الذى لم يظهر قط ، ولما ضاع الوقت سدى عادت مرة أخرى تلتمس من الوالى أن يسمح لها بالعودة إلى البهنسا ، ومنحها الوالى الإذن مع إصدار تعليماته بأن تضع السيدة الأمر برمته بين يدى المدير العام الحالى ؛ ولقد مرت شهور ، وربما سنوات بعد ذلك ، ثم عادت القضية مرة أخرى إلى حيث بدأت . (١٢)

والأمر الذى يشير دهشتنا أنه بالرغم من مئات ومئات الوثائق التى لدينا والتى ترتبط بموضوع المنازعات والجنح بمختلف أنواعها ، فليس لدينا سوى معلومات قليلة جدا عن العقوبات . فالشكاوى تحتاج مثل اليوم للتحقيق وإعادة الفحص وكانت تصاغ فى تعبيرات

رسمية روتينية وكانت الشكوى تصدر عادة بعبارات مثل : "إلى مولانا العادل "أو "الرحيم" خصوصا إذا كان الوالى هو الذى سينظر القضية . أما العقاب المطلوب فكان يصاغ فى عبارات عامة مثل "العقاب المناسب" أو "يتعرض للعقوبة المفروضة" أو ما شابه ذلك . أما فيما يخص الجرائم العنيفة فكان العبيد أو الأحرار من الطبقة الدنيا يعاقبون بالأشغال الشاقة فى أحد معسكرات الجيش أو المناجم أو المحاجر . ونسمع أيضاً عن وجود السجون وعن الحراس الذين كانوا يقومون بحراستها كنوع من الأعباء الإلزامية ، ولكن لاتوجد لدينا معلومات عن نزلائها . وهناك عدة إشارات قليلة عن العقوبات الخاصة بانتهاك أوامر المحكمة. وكانت أغلب العقوبات عبارة عن دفع غرامات . وأغلب القضايا التى نقرأ عنها فى أوراق البردى لها صلة بالمنازعات الخاصة ومن ثم كان يحكم فيها بدفع تعويض مالى عند الاعتداء على أحد الأفراد أو تعويض عن إتلاف ممتلكات . كذلك صدر الحكم بالغرامة المالية فى الحالات القليلة التى لدينا عن قضايا الاحتيال أو الغش ضد الإدارة الحكومية ، تلك الجريمة التى كان من الصعب على الرجل المدنى أو العسكرى أن يقاوم إغراءها وكان مرتكب مثل هذه الجرائم يعاقب بدفع غرامة أما المبلغ الذى يقوم بالإرشاد عنها فكان يتقاضى مكافأة . ففى عام ١٣٩م كان أحد كهنة سوكنوبايو نيسوس Soknopaiou Nesos يتولى الإشراف على أحد مراكز تحصيل الضرائب ، وقدم أحد الأفراد شكوى ضده للمدير العام اتهمه فيها بالاختلاس المنتظم على مدى أربع سنوات . وذكر مقدم الشكوى فى ختامها "أنه قام بتسليم هذا التقرير أملا فى الحصول على المكافأة (المقررة)" ، ومن هذا يتضح أن المكافأة كانت تدفع نظير ما قام به المبلغ . (١٣)

إن التباطؤ فى تصريف العدالة ، يجعلها عدالة مرفوضة ، فبالإضافة إلى الأعباء الضرائبية كان يوجد ضغط قانونى على الأفراد ، فالمنازعات القانونية سمة من سمات الحياة فى مصر خلال العصر الرومانى . وربما كان الفشل الذى واجهه كثير من الأفراد فى الحصول على علاج سريع فى المحاكم بمثابة القشة الأخيرة التى قصمت ظهر البعير والتى أحالت حياة الفرد إلى حد غير محتمل .

لقد عانى المصريون فى صمت فى أغلب الأحيان ، ولم تكن الحكومة تقابل هذا الصمت سوى باللامبالاة وعدم الاهتمام بإيجاد حل للمشاكل ، ولكن الغضب كان موجودا وكذا الشعور بالاستياء كان يتفاعل تحت السطح ، وسوف يبدأ الآن بالانفجار على شكل موجات من العنف الفردى أو الثورة الجماعية ، وهى القصة التى سنعالجها فى الفصل العاشر من هذا الكتاب .



الفصل العاشر

الثورة والتغيير

Discordem et Mobilem

أو"فوهات براكين السلام الرومانى"

لقد اقتبسنا عنوان هذا الفصل من مؤلف تاكيتوس Tacitus التاريخى ، كما فعلنا فى فصول أخرى سابقة من نفس الكتاب ، وهو يعتبر واحداً من عديد من المصادر الأدبية القديمة التى تعبر عن احتقار الرومان للشعب المصرى كما لو كان شعباً أدنى درجة منهم . ولقد تردد هذا الرأى على مدى العصور وأصبح من المسلمات لكثرة تكراره . وكان الشاعر الرومانى جوفينال أشهر صوت حمل هذا اللواء ودوى بهذا الهجاء (كما سبق ورأينا) . أما معاصره صاحب "الصوت الذهبى" ديون من بروسا Dio of Prusa ، ففى رسالته التى وجهها لمدينة الإسكندرية يغلف مديحه لنشاطها التجارى وإشادته بعظمتها الثقافية ، بستار من التشهير انتشرت خيوطه بين ثنايا الحديث مشيراً إلى عبث سكانها وطيشهم ، ومنازعاتهم التى لاحد لها ، وطموحهم اللانهائى ، وإسرافهم ، وتقلب أهوائهم ، وسلاطة لسانهم ، وميلهم للفوضى ، وضوضائهم ، وعنفهم الجسمانى ، وولعهم بوسائل اللهو ، وتفاهتهم ، وافتقارهم للجدية ، وسخافاتهم ، ورعونتهم ، وقسوتهم وسوء سلوكهم . ثم يضيف قائلا لهم : "وليس من الغريب أنكم موضع ازدراء حطامكم ". أما ديون الآخر ، وهو ديون كاسيوس ، فقد سار هو الآخر فى مجلداته الضخمة التى كتبها فى التاريخ إبان القرن الثالث م على نفس المنوال ، إذ اتهم المصريين ، وخصوصا غوغاء الإسكندرية بتقلب أهوائهم ، وهياجهم وتخريبهم ، واعتقادهم بالخرافات ، وحماقاتهم ، وعدم احترامهم للسلطة ، هذا بالرغم من أنه لم يقم بزيارة مصر . وقد اعتاد كتاب العصر الحديث على الاستمرار فى تبنى هذه الأوصاف وتكرارها فى مؤلفاتهم .

أما فرجيل Virgilius "شاعر الدولة" فى العصر الجديد الذى عرف باسم "نظام حكم المواطن الأول" Principate فهو الذى حدد الإطار الكلاسيكى لرسالة روما التاريخية التى اختارتها لها الآلهة بزعامة أغسطس ، قد قدر لروما فى عهد أغسطس أن تحكم شعوب العالم لخير الجميع ، وأن تقوم بنشر السلام ، والصفح عن المقهورين ، وقهر المتجبرين . أما الأداة المختارة لتحقيق هذا الهدف المقدس فهو الإمبراطور بطبيعة الحال . وإبتداء من الإمبراطور أغسطس

وهو أحد كبار مؤسسى فن الدعاية السياسية فى التاريخ ، وكذا العملة الإمبراطورية ، والمراسيم الإمبراطورية ومراسيم الولايات ، والمهرجانات السنوية واحتفالات النصر ، فقد كان الجميع يعزفون باستمرار على نغمة أن الإمبراطور - وهذا هو الخط الرسمى للدولة "كما نقول اليوم - هو الراعى الصالح للجميع ، وحامى سلام الإمبراطورية وأمنها ، لخير الجميع ورفاهيتهم ، وهو الذى يؤمن بوجه خاص موارد الغذاء لهم وهو الشىء الذى يهم الجميع . وقد أمكن للإمبراطور أن يهب كل هذه النعم بفضل إلهام الله وبالتحام جميع الأفراد وجميع المبادىء النفسية والسياسة الفاضلة وأهمها : الشجاعة ، الرحمة ، الحرية ، الإنسانية ، العدل، الإخلاص فى العمل ، والرؤية الثانية الحكيمة لرفاهية رعاياه . وما من شك فى أن القارىء الذى سبق أن صادفته هذه التعبيرات سوف يستعيد واحدة أو أكثر من هذه الأفكار فى الوثائق التى سبق لنا اقتباسها فى الفصول السابقة . [٢]

لقد تقبل سكان مصر ، كما هو الحال فى بقية الولايات ، السيادة الرومانية وصبروا على احتمالها لعجزهم عن التخلص منها . ولكن جمرات من الغضب والكراهية كانت تلتهب تحت السطح الهادى للسلام الرومانى المزدهر . وواصلت هذه الكراهية استمرارها وغذاها فى أغلب الولايات قسوة الضرائب ، واحتقار الحكام للمحكومين ، الذين نفسوا عن ذلك بكلمات الاعتراض ، وهمهمة مشاعر الإحباط . وقد لاحظ سنيكا Seneca الفليسوف الرومانى ورجل الدولة ، والذى بدأت أولى علاقة له بمصر بامتلاك مزرعة هناك ، لاحظ أن الولاية تتمتع بذكاء إيجابى خارق فى أسلوب سخريتها من حكامها الرومان . وكان شعب الإسكندرية حيث يقيم الحاكم الرومانى يتصف بالتطرف فى التشهير واستخدام الألفاظ المثيرة ، ولكنهم مع ذلك كانوا يعرفون الحدود التى لاينبغى تخطيها حتى لايتعرضوا للعقوبات القاسية .

وبمضى الوقت أفسح التلاعب بالألفاظ الطريق أمام الفعل . إذ كثيرا ما اندفع الناس إلى القيام بالثورة إما لسبب حاد مثل ضغط مجاعة ، أو بسبب جزئى مثل جرح الكبرياء . وأفضل المعلومات التى نعرفها عن تحدى الرومان تتمثل فى ثورات اليهود . ولكن ثوراتهم كانت لها جذور نفسية ودينية مختلفة مما تجعلنا نضعها فى جانب منفصل ، وقد سبق أن قمنا بمناقشتها فى الفصل الثانى . أما فى هذا الفصل فسوف نركز دائرة اهتمامنا على كل من الإغريق والمصريين الذين أثاروا العداء ضد الرومان ، لقد كان لعداء كل منهم أسبابه المنفصلة عن الآخر وكذلك وسيلة تعبيره المختلفة فى أغلب الأحيان ، ولكنهما كانا يلتقيان معا عندما يصلان إلى مرحلة الثورة والتمرد .

ولنبدأ أولا بالوجه الإغريقى ، فالإسكندرية لم تخفى شعورها بالعداء تجاه أوكتافيانوس حتى بعد انتصاره على أنطونيوس وكيلوباترا الذى انتهى بانتحارهما . ولقد بادلهم أوكتافيانوس الشعور بالامتعاض واستن سابقة استمرت سائدة لدى خلفائه من الأباطرة لفترة تربو على المائتى عام ، وكانت تقضى برفض التماس السكندريين المتكرر الذى كانوا يبغون منه أن يحظوا بمجلس نيابى منتخب على غرار المجالس الديمقراطية التى كانت لهم فى دويلات وطنهم الأم . ومما أهان كبريائهم وفخرهم فى الصميم وضاعف من سخطهم على الرومان أن مدينتين بغير شك أو ربما ثلاث مدن إغريقية فى مصر قد سمح لها بميزة أن تحظى بحكم ذاتى محلى ، مما جعل الحقد يزداد فى نفوسهم من جيل إلى جيل .

ولقد ازدهرت الإسكندرية إبان الحكم الرومانى باعتبارها ملتقى تجارياً للطرق بين الغرب والشرق ، ولكن بالنسبة للمنزلة السياسية أصبحت الإسكندرية - وهى التى كانت قبلاً ملكة مدن البحر المتوسط - مجرد مدينة فى ولاية رومانية . وهناك فى هذه المدن وتعنى بها عواصم الأقاليم كان هناك غضب يغلى ويفور فى النفوس بين طبقة الإغريق من سكان المدن الذين اعتبروا أنفسهم رغم كونهم من سلالة أسلافهم الهيلنيين وحملة لواء الثقافة اليونانية مهضومى الحق ، لأنهم كانوا يعاملون من قبل الحكومة الرومانية على أنهم شرذمة مثل باقى سكان مصر من المصريين المستضعفين . حقا إنهم كانوا مميزين إلى حد ما لكنهم مع ذلك اعتبروا مثل سائر المصريين .

ولقد عانى السكندريون من عامل آخر أقض مضجعهم وأثار الحزن فى نفوسهم . حيث لم يعد هناك الآن أدنى شك فى أن مدينة روما قد احتلت المكانة الأولى فى ميدان حوض البحر الأبيض المتوسط الحضارى ، أما الإسكندرية التى كانت من قبل قبلة الأنظار إليها قد أصبحت تحتل الآن المرتبة الثانية .

وبالإضافة إلى ذلك كان هناك عامل آخر أثار حقدهم ويتمثل فى اليهود الذين كانوا يقيمون بينهم ويتمتعون - لمدة مائة عام من الحكم الرومانى - بالتأييد الإمبراطورى ، الأمر الذى كان يرفضه السكندريون . لقد تجمعت جميع الأسباب السابقة سواء أكانت حقيقة أم خيالا ، وأدت إلى خلق دائرة من الأدب السرى ، مازال لدينا منه حوالى اثنتى عشرة رسالة أو أكثر ، ومنذ ظهور هذا النوع بين ماعثر عليه من أوراق البردى ، عرف باسم مثير للانتباه هو "أعمال الشهداء الوثنيين" The Acts of the Pagan Martyrs .

إن عمليات الاستشهاد هنا لها نفس شكل وقالب الحقيقة المزعومة ، وكل نص منها وهو عبارة عن سجل لكل كلمة قالها فرد أو جماعة من الإسكندرية أثناء مثولهم بين يدى الإمبراطور لعرض قضية أو للدفاع عن أحد الاتهامات الخطيرة التى ألقيت عليهم وكانت فى العادة تهمة الخيانة العظمى Maiestes .

فى هذه النصوص جميعا وبلا استثناء كان صوت أبطال الإسكندرية يدوى أثناء دفاعهم أو يلقى بألفاظ السباب والاستخفاف على حاكم الإمبراطورية ، أقوى شخصية فى العالم إن التواريخ الروائية لهذه المجموعة تتضمن حقبا عديدة تبدأ سلسلتها من عهد أغسطس حتى كومودوس Commodus وربما كاراكالا ؛ وهى من كلمات كاتب واحد لنفس الموضوع ، "وقليل من أباطرة القرنين الأول والثانى هم الذين نجوا من حملة التشهير .. فى هذه النصوص المهربة والممنوعة" (٤) . كذلك ينبغى أن نلاحظ أنه بالرغم من أن أبطال هذا الأدب هم السكندريون ، فقد عثر على جميع أوراق البردى التى دونت عليها تلك النصوص فى مصر العليا ، مما يدل على مدى اتساع دائرة شهرتها وعلى استمرار هذه الأعمال بين المنتسبين للثقافة الهللينية فى عواصم الأقاليم والقرى .

ويكشف تحليل محتويات أعمال الشهداء Martyrdoms عن ملامح وشواهد متكررة مثل الكبرياء الوطنى ومعاداة الجنس السامى ولكن أكثر ما تؤكده هو العداء ضد الرومان . وقد استخدم التكرار فى النصوص لإقناع القارئ ، سواء أكان ذلك حقيقة أم انتحالاً بطمع الحكومة الرومانية وظلمها ، وطغيان الأباطرة وولاة مصر وفسادهم . ومن أفضل القطع المحفوظة لدينا النص التالى (وتاريخه الروائى منتصف القرن الأول) حيث يقول : "لقد تم استدعاء رسل السكندريين للحضور ، ولكن الأمبراطور أجل سماع قضيتهم لليوم الثانى .. وفى اليوم التالى ٦ من بشنس Pachon ، استمع (الإمبراطور) كلوديوس قيصر لقضية ازيدورروس Isidoros مدير معهد التربية لمدينة الإسكندرية ، ضد الملك (اليهودى) أجريبا Agrippa فى حدائق لوكولوس Lucullius (فى روما) ، وكان يجلس معه عشرون عضوا من أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى ، وستة عشر قنصلا ، وبعض سيدات البلاط من اللواتى حضرن محاكمة ازيدورروس .

ابتدأ ازيدورروس قائلاً : "مولاى قيصر ، إننى أتوسل إليك وأجثو عند ركبتيك كى تصغى إلى معاناة شعب مدينتى" .

الإمبراطور : "سأخصص هذا اليوم (لسماعك)" وأشار جميع أعضاء السناتو الحاليين بموافقتهم .. .

كلوديوس قيصر : "لقد تسببت فى موت أحد أصدقائى ياازيدوروس" .

ازيدوروس : "لقد أطعت أوامر الإمبراطور (كاليجولا) الذى كان آنذاك هو الآمر الناهى . وأنت أيضا بإمكانك وحدك أن تأمرنى وتحدد لى من يمكن أن أتهمه وسوف أفعل ذلك (بغير إبطاء) .

كلوديوس قيصر : "هلى أنت حقيقة ابن ممثلة ياازيدوروس ؟

ازيدوروس :" إننى لست عبداً ولا ابن ممثلة ، ولكن مدير لمعهد تربية مدينة الإسكندرية الشهيرة . ولكنكِ أنت ابن غير شرعى لسالومى اليهودية .

لاميون : (سكندرى آخر) قائلا لازيدوروس : "ماذا يمكننا أن نفعل ؛ لابد أن نستسلم لملك مجنون .."

كلوديوس قيصر : "هؤلاء الذين أمرتهم مثلا بإعدام ازيدوروس ولاميون (سيقومون الآن بتنفيذ الحكم) .. (فقد باقى النص). (٥)

أما القطعة التالية التى تم اختيارها فهى للإمبراطور كومودوس Commodus وتقع أحداثها عام ١٩٠م .

وبينما كانوا يقتادون أبيانوس Applan .. استدار ، ورأى هليودوروس Heliodoros ، فقال:"هليودوروس ، ألا تريد أن تقول شيئا وأنا أساق إلى الإعدام ؟".

قال هليودوروس : إلى من يمكننا أن نتحدث بينما لايوجد شخص يستمع إلينا ؟ اذهب يابنى لتلقى حتفك . يكفيك عظمة وافتخارا أنك تموت من أجل شعب مدينتك الغالية . لا تندب نفسك .. فسوف ألحق بك ." ونادى الإمبراطور على أبيانوس .

وقال : "إننى أفترض أنك تعلم لمن تتحدث الآن ؟

أبيانوس: "أعلم أن أبيانوس يتحدث إلى طاغية " .

الإمبراطور : "لا ، بل إلى الحاكم" .

أبيانوس : "لاتقل ذلك ! "إن والدك (الراحل) المؤله ماركوس (أوريليوس) ، كان جديـــرا بأن يكون إمبراطورا . ألا فلتعلم أنه كان فى المقام الأول فيلسوفا ، وأنه ثانيا لم يكن مولعا بحب المال ، وأنه ثالثا كان محبا لخير الجميع . أما أنت فعلى عكسه تماما فى هذا الخصال - طاغية، غير أمين ، فظا وخشن الطباع".

وأمر قيصر باقتياده وتنفيذ حكم الإعدام فيه . وعندما كان فى طريقه قال أبيانوس "أرجو أن تمنحنى هذا المعروف ، أى سيدى قيصر" .

الإمبراطور : ماهو ؟

أبيانوس : أصدر أوامرك بتنفيذ حكم الإعدام فى وأنا ارتدى شارات نبالتى" .

الإمبراطور : يمنح ذلك .

أخذ بيانوس وشاحه ووضعه فوق رأسه ، وانتعل الحذاء الأبيض فى قدميه وصاح فى وسط مدينة روما : "أيها الرومان ، احضروا بسرعة إنكم سوف تشاهدون للمرة الوحيدة فى حياتكم ، تنفيذ حكم الإعدام فى مدير معهد التربية وسفير السكندريين". (٦)

ويمكننا أن نحس من تلك النماذج التى قدمناها من أدب الشهداء أنه كان أدبا سليطا أكثر منه أدبا هداما فهو لم يتضمن دعوة للقيام بعمل ما ، كما أنه لم يتورط - مثل كتابات اليهود والمسيحين والمصريين السرية - فى طلب الثأر وتوقيع العقوبة القاسية على الحاكم الظالم . ويمكننا أن نتخيل بسهولة مثقفى السكندريين وأثريائهم ومواطنى عواصم الأقاليم وهم ينفسوهم عن همومهم السياسية عن طريق تصفح هذه الكتب فى خلوة فى مكتباتهم الخاصة ، أو قراءتها بصوت مرتفع أثناء جلسات الأصدقاء . فعلى الرغم من أنهم كانوا يبعثون فى بعض الأحيان بعض الزعماء الوطنين فى سفارات لروما ، إلا أنهم كانوا يعبرون عن إحباطهم بالكلمات أكثر من تعبيرهم بالأفعال لكن غوغاء الإسكندرية لم يكونوا كذلك إذ أنهم اكتسبوا لمدة طويلة سمعة سيئة بأنهم متمردين ، متقلبين ، سريعو الغضب .

ففى خلال القرن الأول من الحكم الرومانى ركز السكندريون عدواتهم ضد مجتمع اليهود القائم بينهم ، فالامتيازات التى سمح الرومان لليهود بالتمتع بها بينما حرم منها السكندريين

كانت عاملا مثيرا لآلامهم . لقد حدثت بعض الصدمات الطفيفة بين الجماعتين مرارا ومن حين لآخر ، وتطورت هذه الصدامات فى بعض الأحيان لتبلغ حد الهياج القاتل مثل تلك التى نلاحظها بشكل واضح فى أحداث عام ٣٨م ، ثم ماحدث بعد نحو عشرين أو ثلاثين عاما منها . ولكن بعد ثورة اليهود فى عام ١١٥/١١٧م قل عددهم ، وتقلصت امتيازاتهم وأصبحوا عنصرا مهملا ، عندئذ بدأ السكندريون يوجهون كامل عدائهم ضد الحكومة الرومانية مباشرة ، وبوضوح سافر فى المقر الرسمى لهؤلاء الحكام فى قلب المدينة . فكثيرا ما نظموا المظاهرات العامة ، فى الشوارع ، وفى المسرح ضد حاكم الولاية ، بل انهم كثيرا ماتظاهروا ضد زيارة الإمبراطور . وكان ظهور أية ثورة فى أى مكان آخر فى الولاية يجد لديهم فى الحال استجابه سريعة وعونا فلقد وضع المطالبون بالعرش الذين ثاروا ضد الأباطرة منذ عهد دوميتوس دوميتيانوس Domitius Domitianus عام ١٧٥م حتى أواخر القرن الثالث الميلادى فى اعتبارهم عادة إمكانية حصولهم على مساعدة الإسكندرية فى هذا الصدد . وكان لهؤلاء المرتدين السياسيين أكثر من مغزى سياسى : حيث كان بوسعهم منع سفن القمح (الإسكندرية) من الإبحار لروما مما يهدد إمدادات العاصمة بالطعام . غير أن العقوبات التى كانت تلى قمع المقاومة كانت تزيد من مشاعر كراهية السكندريين للحكام الرومان . أما الانتقام الدموى الذى صبه كاراكالا عام ٢١٥م عليهم فيقص علينا قصته اثنان من المؤرخين المعاصرين ، وكلاهما كانا معاديا لكاراكالا هما ديون كاسيوس وهيروديان Herodian ، وقد أكد كل منهما بأسلوبه الخاص فساد كاراكالا وقسوته ؛ وقد جاهر السكندريون باستهزائهم بالإمبراطور عندما ادعى خلود شهرته ، كما سخروا علنا منه عندما أصدر بيانا رسميا أعلن فيه أن قتله لأخيه المولد غير الشقيق جيتا Geta كان من قبيل الدفاع عن النفس . لقد كان كاراكالا يستعد فى ذلك الوقت لإعلان الحرب على بارثيا لذلك يبدو أنه كان يضع فى اعتباره أن حدوث أى هياج فى الإسكندرية من شأنه أن يهدد خطوط تموين جيشه الغازى . وكان رد فعله للموقف سريا وسريعا وقاسيا . فعند اقترابه من الإسكندرية خرج إليه الزعماء الوطنيون كما هى العادة لتحيته ، فاستقبلهم بالترحيب وبذراعين مفتوحتين ، ثم أمر بقتلهم جميعا فى نفس المكان . ثم أطلق العنان لقواته كى تعيث فساداً فى المدينة ، مع السماح لهم بالسلب والذبح كما يشاؤون وبعد عدة أيام أصدر أوامره بوقف المذبحة ، وفى خطابه الذى ألقاه أمام مجلس الشيوخ فى روما ذكر أنه لم يكن مهما أن يعرف كم بلغ عدد الذين قتلوا من السكندريين ، لأنهم جميعا يستحقون الموت ، ثم أصدر بعد ذلك عدة أوامر ، حفظت لنا واحدة منها كاملة فى النص التالى :

"يتم طرد جميع المصريين الذين يقيمون في الإسكندرية بكل الوسائل ، خصوصا القرويين الذين هربوا إليها من أماكن أخرى وأمكن التعرف عليهم . ويستثنى من ذلك باعة الخنازير ، وعمال القوارب النهرية ، والقائمون على إحضار مواد الوقود لتدفئة الحمامات ، وفيما عدا هؤلاء يتم طرد الجميع ، حيث إنهم يعكرون صفو المدينة بأعدادهم الكبيرة وبطالتهم . وقد بلغني أن المصريين يقومون خلال الاحتفال بعيد سيرابيس ، وفي بعض أيام الأعياد الأخرى وحتى في أيام أخرى بالمثل - بجلب الثيران وبعض الحيوانات الأخرى لتقديمها كأضاحي . لذلك فلا يمنع هؤلاء من الحضور لهذا الغرض . أما الذين يتحتم منعهم فهم الذين فروا من أنحاء الريف الذي ينتمون إليه هربا من العمل الزراعي . أما الذين يفدون للإسكندرية بهدف رؤية المدينة العظيمة ، أو الذين يأتون إليها سعيا وراء اكتساب الثقافة ، أو لأداء بعض الأعمال العارضة ، فلن يتم سريان قرار المنع عليهم .

وبالإضافة إلى ماتقدم ، فإنه يمكن تمييز نساجي الكتان ذوي الأصل المصري بسهولة من حديثهم ، الذي يظهر أنهم يحاكون الآخرين في مظهرهم وزيهم . وأكثر من ذلك فإن طريقة معيشتهم وعاداتهم تختلف عن سلوك أهل المدينة ، وهو أمر من شأنه أن يكشف عن جنسيتهم المصرية . (٧)

لقد كنا حتى الآن نتحسس مشاعر الإغريق - إغريق مصر - وأفعالهم ضد الرومان ، ويذكرنا أمر كاراكالا بالطرد السابق ذكره أن نقوم الآن بإلقاء نظرة للتعرف على مشاعر جماهير الشعب المصري الفقيرة تجاه الحكام الرومان .

من هم هؤلاء "المخالفين للقانون" الذين أعلن كاراكالا انهم يزعجون أمن الإسكندرية ؟ لا يوجد شك لدينا من أنهم كانوا يضمون عددا من الذين جرفوا في التيار ولا حيلة لهم ، والكثير منهم - أو ربما معظمهم - كانوا من أهل البلاد الذين هربوا من الريف للمدينة . لقد اكتفى كاراكالا بوصف هروبهم بأنه نتيجة لتهربهم من العمل الزراعي وأغمض عينيه عن الحقيقة . والمعروف أنه على مر عصور التاريخ كان أغلب الأفراد - وخصوصا من الشعوب الزراعية - سعداء قانعين بوجه عام بالبقاء في موطنهم الأصلي ، حيث يشعرون بوجودهم في مكان ينتمون إليه ، بوسعهم تحمل ظروف الحياة ذاتها ولقد أثبت الفلاحون المصريون طوال عشرات القرون من السنين مدى ارتباطهم بالأرض على الرغم من أنها كانت تمدهم في أغلب الأحيان بالقليل ، إلا أن هذا القليل كان بالنسبة لهم كافيا لمتطلبات الحياة .

أما الفرار وهجر المنزل - حتى ولو كان شديد التواضع - بلا أمل في العودة فهو فرار

اليائس ، وهو الحل الأخير الذى لجأ إليه الناس ، كما سبق وشاهدنا فى الفصل الثامن ، ولم يحدث ذلك إلا عندما فقدوا ذلك آخر أمل لهم فى مواجهة مطالب الإدارة الماليه التى كانت لاترحمهم ، وهى المطالب المتمثلة فى الضرائب والخدمات الإلزامية .

لقد اتخذ بعض الفارين طريقهم إلى الإسكندرية ، وإلى بعض المراكز السكنية الكبيرة الأخرى ، أملا منهم فى الاختفاء دون عقاب والانصهار فى بوتقتها . ووجد آخرون فى الصحراء ملاذا لهم حيث كونوا أو انضموا إلى عصابات قطع الطرق كما سبق ورأينا فى الفصل السابع. ولذلك كان يتم دائما تأمين القوافل التجارية التى تعبر الصحراء بالحرس المسلح من البوليس والجنود ضد هجمات الخارجين على القانون . وقد أصدر الأباطرة والحكام أوامرهم تباعا بخصوص هذا الموضوع ، بالوعيد مرة ، والتهديد مرة ، والترويض مرة أخرى . وكانت تلك التصريحات وخصوصا تلك التى يتم فيها إصدار قرارات العفو والتنازل عن الضرائب بمناسبة قرب إجراء التعداد السكانى تأتى بنتيجة مؤقتة من حيث انخفاض عدد قطاع الطرق المتنقلين من مكان لآخر وعلى سبيل المثال فإن الفلاحين الملتزمين من قرية سوكنوبايو نيسوس Soknopaiou Nesos الذين سبق وقرأنا التماسهم فى ص ١٨٢ قد بدأوا هذا الالتماس بالآتى :

"لقد كان من النعم الكثير التى منحها مولانا وأباطرتنا على الدوام سيفروس (كاراكالا) عندما حلوا ضيوفا على أرض بلدهم مصر هو رغبتهم فى أن يعود كل الأفراد ، الذين يقيمون فى مناطق أخرى ، إلى ديارهم بالرغم مما قاموا به من أعمال أو خروج على القوانين . ولذلك فقد عدنا طبقا لأوامركم المقدسة . (٨)

وبالإضافة إلى الأسباب التى سبق توضيحها والتى أدت إلى فرار الرجال فقد ظلت أعمال اللصوصية متوطنة فى مصر فى العهد الرومانى ومتمكنه لدرجة لايمكن استئصالها فى أوقات الرخاء ، أما فى أوقات الشدة فقد كانت تتفاقم لتصبح أقرب إلى الكارثة . فبعد عدة سنوات من صدور الأمر الإمبراطورى الذى استفاد منه مزارعى سوكنوبايو نيسوس Soknopaiou Nesos وعادوا بمقتضاه إلى ديارهم أرسل والى مصر الخطاب التالى إلى مديرى إقليمى هيبتانوميا Heptanomia وإقليم الفيوم يقول فيه :

"لقد سبق وأصدرت أمرى فى الخطاب السابق بشن حملة مركزة للبحث عن قطاع الطرق ، وقد سبق تحذيرك من المجازفة بإهمال هذا الأمر . ولقد قررت الآن أن أصدر منشورا آخر لتأكيد اهتمامى بالموضوع ، حتى يعلم جميع الموجودين فى مصر ، أننى لا أعتبر هذا عملا من الدرجة الثانية ، كما أننى سأقوم بتقديم مكافآت لهؤلاء المتعاونين معكم ، وأتوعد بالعقاب

أى فرد يخاطر بعدم طاعة هذا الأمر ، ويجب أن يتم إعلان منشورى على الملأ فى عواصم الأقاليم ، وفى أكثر المناطق وضوحا فى أقاليمكم . وسوف تعرضون أنفسكم للعقاب والمخاطرة (بالطرد) من مناصبكم إذا ارتكب أى مجرم أى عمل إجرامى وترك دون أن يكتشف أمره . ولكم تحياتى" .

ولكن المشكلة لم تتوقف كما سبق ورأينا ، كما أن القيام "بالتفتيش والتخريب" لم يكن أمرا جديدا . وعندما أعلن الوالى فى سنة ١٥٤م مهلة الشهور الثلاثة التى كان يمكن للفارين العودة فيها إلى مواطنهم دون عقاب ، قام بتحذير المعارض له والمتردد فى تنفيذ أوامره على النحو التالى :

"ينبغى عليهم أن يعرفوا أننى أصدرت لأصحاب المعالى من مديرى العموم ، والمديرين والجنود أوامرى بتأمين وسلامة جميع أنحاء البلاد ، وأن يقوموا بوأد الغارات فى مهدها عن طريق اتخاذ الإجراءات اللازمة فى موعدها ، حتى يتمكنوا من شن هجوم سريع ومباغت أثناء ارتكاب اللصوص لجرائمهم ، وأن يتعاملوا مع سائر المتورطين الذين يتم القبض عليهم بطريقة لاتختلف عن أولئك الذين يقومون فعلاً بأعمال اللصوصية ". (٩)

ولاينبغى علينا بأيه حال أن ندع أسلوب الوالى البليغ أو حالة الطوارىء يفسدان إحساسنا بالمنظور العام . فعلى الرغم من أن الحكومة لم يقدر لها أبدا النجاح الكامل فى استئصال اللصوصية ، إلا أن عدد قطاع الطرق كان قليلا بالمقارنة بالعدد الكلى للسكان حتى فى أسوأ الظروف . فلكى يختار الفرد أن يكون خارجا على القانون فإن ذلك يتطلب منه جرأة أكبر لاتتيسر للفرد العادى ، لأن ذلك يعنى الانفصال الدائم عن المنزل وعن الذين تحبهم كما أن إلقاء القبض عليه كان يعنى الموت المحقق وقد ذكر فيلوستراتوس Philostratos وهو أحد كتاب القرن الثالث قصة تبدو كما لو كانت عابرة وتتلخص فى أن عدة أشخاص اتهموا بالقيام بأعمال اللصوصية ، فتم الطواف بهم فى موكب سار بهم فى شوارع الإسكندرية حتى وصل بهم إلى مكان تنفيذ حكم الإعدام بضرب العنق (*) .

ومن الواضح أن القاعدة العريضة من السكان كانت ببساطة ماتزال باقية فى مكانها لتمارس أعمالها . ولكن كيف كانت تعبر عن نفورها ؟ لقد طالت معاناتها ، ولكنها كانت

(*) كان القانون الإنجليزى يعاقب بالإعدام شنقا وعلنا من يقوم بالنشل ومداهمة المنازل وعرقلة رجال الأمن عن تأدية واجباتهم وذلك حتى القرن الثامن عشر ، ثم عدلت الحكومة عن تلك العقوبة تحت ضغط الرأى العام وتطور علوم الجريمة والعقاب ، ولجأت إلى وسائل أخرى للعقاب منها نفى المجرمين .

هادئة فى أغلب الوقت ، فبالرغم من صبرها إلا أنها كان يمكن أن تتحرك نتيجة لنقص فى مصادر الغذاء أو بسبب الضرائب والالتزامات الإجبارية التى لم يكن لها نهاية . لقد اشتعلت بالفعل بعض الاضطرابات وأعمال العنف ، ولكن السلطات المحلية تمكنت من إخمادها عن طريق القوات العسكرية التى انتشرت معسكراتها فى الولاية . كما تطورت بعض مظاهر الاحتجاج الأخرى بسرعة لتصبح أكثر أو أقل من الثورات العامة ، وقد سعدت عصابات قطاع الطرق بالانضمام إليها بطبيعة الحال ، ومن بين تلك الاضطرابات الكبيرة ذلك التمرد الذى انفجر عام ١٥٢م والذى استمر قرابة عام ، ولم تسجل لنا عنه إلا تفاصيل قليلة ، أهمها أنه هدد روما فى تموين الطعام ، كما نجم عن ذلك أن دفع والى مصر حياته ثمنا لهذا ، ويبدو أن هذا التمرد قد تطلب تدخل الإمبراطور شخصيا قبل أن يتم القضاء عليه . أما الثورة التى اندلعت عام ١٧٢/١٧٣م فقد كانت أكثر خطورة ، حيث تمركزت فى أحراش الرعاة (بوكوليا Boukolia) فى دلتا النيل . وهنا أيضا صمتت المصادر القديمة عن ذكر السبب أو الأسباب التى أدت إلى اندلاعها ، ولكن حقيقة كون قائدها كاهنا مصريا يقودنا للافتراض بأنها كانت ثورة قومية . ومما لاشك فيه أن هذا الوباء الذى اكتسح الامبراطورية الرومانية فى ذلك الوقت قد حد من شدة قبضة السلطة وقلل من خضوع المحكومين لها عندما كشف عن عجزها وقلة حيلتها . ويبدو أن هناك عاملا آخر شجع على الثورة يتمثل فى أنه إحدى الفرقتين الرومانيتين اللتين كانتا تتمركزان فى مصر قد تم سحبها حديثا كى تشترك فى الحرب ضد القبائل الجرمانية التى كانت تضغط على الإمبراطورية فى جبهة الدانوب . وقد تمكن الفلاحون المصريون الذين سلحوا تسليحًا عشوائيا من قهر بعض وحدات القوات الرومانية بالفعل وكانوا على وشك الاستيلاء على الإسكندرية . لذلك تم استدعاء حاكم سوريا من الولاية المجاورة ، حيث كان يتولى آنذاك قيادة أقوى القوات العسكرية التى كانت متمركزة فى النصف الشرقى من الإمبراطورية لكى يعيد الأمن والنظام إلى مصر ، ولقد نجح فى تلك المهمة لأنه لم يلجأ إلى شن الهجمات ضد الثوار إلا قليلاً ، ولجأ بدلاً من ذلك إلى بث الخلاف فى صفوفهم وزرع بذور الفرقة بينهم .

لقد عبر المصريون كالإغريق عن كراهيتهم لروما بالقلم كما عبروا عنه بالسيف . فمن بين الكتابات التى كشفت عنها أوراق البردى ، هناك كتابات على الرغم من أنها كتبت باليونانية لتصل إلى أكبر عدد من المستمعين ، إلا أنه يتضح أنها ذات أصل مصرى ، ويمكن مقارنتها بأدب الشهداء الإغريقى. وصفحات هذه الكتابات المصرية لها طبيعة النبؤات التى تبشر بقرب

التغيير ، عندما يسقط سادتهم عديمي الرحمة والمبادىء ، وبعدها لن يصبح المصريون مقهورين أو مظلومين ، وسوف ينعمون بعد ذلك بعصر ذهبي . وأطول الأجزاء التي حفظت من هذا العمل أطلق عليه قصة (أو نبوءة) صانع الفخار "الفخراني" التي استمد جزء منها من الأسطورة المصرية التي قام فيها الإله خنوم Khnum الخالق (الكبش) ، بخلق الجنس البشري مستعينا بعجلة صنع الفخار .

لقد نما الحلم من الناحية الأدبية بالتكرار وبالإضافات الخارجية عليه ، بحيث أصبح لدى الحلم الحرية في أن يدمج داخله خيالا وأفكارا وصيغا من ثقافات أخرى ، بحيث أصبحت تكون معا قطعا وأجزاء متجانسة لتوصل رسالتها العاطفية وغايتها في الخلاص . لقد تشكلت نبؤة "الفخراني" من هذا كله ، ولكنها ظلت في أغلبها عملاً فرعونياً عتيقاً ، كما يتضح من ترجمتها اليونانية الباقية لدينا ، والتي ظلت تنسخ ويعاد نسخها مرات ومرات حتى أواخر القرن الثالث الميلادي على الأقل ، أنها تضم بعض عناصر الأسطورة والتاريخ اليوناني ، وربما أيضا بعض عناصر أخرى فارسية وعبرانية . وقد نسجت هذه العناصر جميعها في نسيج القصة دون أن يقلل ذلك أو ينتقض من شخصيتها المصرية منذ آلاف السنين لكي تعود مرة أخرى وتتنبأ بسقوط حطام الحاضر الحتمي . والأجزاء الثلاثة الباقية ، التالية ، التي تم العثور عليها في البهنسا ، هي أطولها ، وأفضلها حفظا حيث يقول "الفخراني" :

"أما بالنسبة للكفرة والمارقين ، فإن ملكا من سوريا سوف يحكمهم . وسوف يزول الحظ السعيد من حياة هؤلاء القوم ، ويستعبد نسلهم ، وتضطرب أرضهم اضطرابا كبيرا ، وتصبح أقل في مساحتها مما كانت عليه من قبل .. وسيلاقي كل فرد نفس المصير من أجل مصلحة أحد .. وسوف يحصر الموت الكثيرين في الأماكن المرتفعة ، وسوف تقفر مدينة المتمنطقين بالأحزمة من سكانها ، وسيتم تحرير العبيد ، ويموت سادتهم وستهلك بناتهم العذارى ، وسيقضى الناس على رجولة أصهارهم ، ويمارسون زنا المحارم مع أمهاتهن ، ويرغمون على التضحية بالذكور من أبنائهم وبأنفسهم .. وسيهجر الإله الحارس مدينتهم ، تاركا إياها مقفرة، وسوف يرحل إلى ممفيس واهبة الأرباب وسيكون في ذلك نهاية كربنا ، وعندما .. تصبح مدينة الذين يرتدون الأحزمة مهجورة مثل موقدى بسبب الأفعال غير القانونية التي ارتكبوها .. ستعود (العدالة) مرة أخرى لمصر ، وسيكون هناك مكان للصيادين في المدينة التي تقع على البحر ليقوموا بتجفيف الأسماك التي اصطادوها ، لأن كنفيس Knephis الرب الحارس سيتوجه إلى منف ، وسيقول عابرو السبيل ، هذه هي المدينة التي ترعى الجميع ، حيث

يعيش فيها كل أجناس البشر "عندئذ سوف تنمو مصر ، عندما .. وموزع الخير والهبات يأتى من لون الشمس ويقيم هناك على يد الربة (إيزيس) فائقة العظمة ، عندئذ سيصلى كل من ظل على قيد الحياة ، وسوف يبعث الموتى ليشاركوا فى الهبات بعد أن زال كربنا". (١١)

لم يسمع إدوارد جيبون E- Gibbon إطلاقا عن نبوءة *الفخرانى* . لأنه توفى قبل أن تنشر هذه الشذرات من الصفحات المصرية بتسعة وتسعون عاما . وبالإضافة إلى ذلك فإن جيبون ركز أنظاره على القوى الحاكمة فى الإمبراطورية ؛ ولم تدخل مصر دائرة رؤيته إلا عندما فقدها الرومان وفتحها العرب . وقبل أن يتحدث عن أهم جزء فى عمله عن سقوط روما ، والذى سرد فيه بطريقة درامية عوامل الانحلال التى أدت إلى سقوطها ، فإنه خط بقلمه مايعد أنشودة للتغنى بالإمبراطورية عندما كانت فى أوج عظمتها :

"إذا طلب من أى فرد أن يحدد أفضل عصر فى تاريخ العالم عاش فيه الجنس البشرى فى سعادة وازدهار ، فسوف يجيب دون تردد ، بأنها تلك الحقبة التى أعقبت موت دوميتان Do-mitian واستمرت حتى تولى كومودوس Commodus العرش ، فقد حكمت الإمبراطورية إبان ذلك العصر عن طريق الحكم الفردى المطلق الذى ظلل بالفضيلة والحكمة . حيث قام الأباطرة الأربعة المتعاقبين ، الذين كانت خصالهم وسلطتهم تدعو إلى التقدير والاحترام ، بكبح جماح الجيوش العسكرية ولكن بيد من حرير . كما حافظ كل من نيرفا وتراجان وهادريان والأباطرة الأنطونيين على الجهاز الإدارى المدنى بدقة ، وكانوا سعداء بانتشار الحرية حيث كانوا يعتبرون أنفسهم بمثابة حماة القانون والمسئولين عنه . ولاشك أن جهود أولئك الملوك قد كللت بالنجاح الباهر الذى لاقوه ، وأنهم كانوا يشعرون بالانتشاء لمشاهدة السعادة العامة التى كانوا هم مبعثها".

وبعد لقد كانت مصر وبالتحديد خلال سنوات الازدهار فى عهد هؤلاء "الأباطرة الصالحين" تعانى من اضطرابات حادة : ثورات اليهود فى عهد تراجان وهادريان ، وثورات المصريين فى عهد أنطونينوس Antoninus الذى لقب بالورع ، وأثناء حكم الفيلسوف ماركوس أوريليوس. ومن حقناأن نتساءل : كم فردا من سكان مصركانوا يعتبرون تلك الكلمات التى وصف بها جيبون ممثلة لعالمهم الذى كانوا يعيشون فيه ؟



ملــــحق
"أسعار البضائع والخدمات"

إن أفضل طريقة لمعرفة وتقدير قيمة المبالغ النقدية التى تذكر فى الوثيقة هو أن تتم مقارنتها بأسعار السلع الأساسية ، مثلما يحدث اليوم عند القيام بعمل قائمة بالأسعار للمستهلك .

وقد ذكرنا الأسعار التى نعرفها فى القائمة التالية :

أما أعلى الأسعار فهى تعكس بلا شك حقائق موسمية ، وعامل الندرة ، وعوامل أخرى مشابهة ، كذلك يعكس عدد من أرقام القرن الثالث التضخم المالى آنذاك .

وسيتم ذكر الأسعار بوحدة الدراخمة :

	القرن الأول	القرن الثانى	القرن الثالث
أردب القمح	٣ - ١١	٥ ١/٢ - ٢٠	٨ - ٢٠
المتوسط :	(٧)	(٨)	(١٥)
أردب الشعير	٣ - ٤	٤ ١/٣ - ١١	٥ - ٢٠
المتوسط :	(٣ ١/٢)	(٥)	(١٤)
جرة نبيذ	١/٢ - ٧	١ ١/٢ - ٢٤	٩ - ٥٢
المتوسط :	(٥)	(١١)	(١٢)

* أجرة العمال اليومية خلال موسم الحصاد (*) :

	١/٣ - ١/٢	٥/٦ - ٢	٢ - ٢ ١/٣
المتوسط	(١/٣)	(١ ١/٢)	(٢ ١/٦)

(*) عن أجور عمال الزراعة راجع ، آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص١٧٢ ومايليها .

	القرن الأول	القرن الثانى	القرن الثالث
أعمال زراعية أخرى	$١\frac{١}{٢} - \frac{١}{٣}$	$٢ - \frac{١}{٣}$	$٦ - \frac{١}{٣}$
المتوسط :	$(\frac{٢}{٣})$	$(\frac{٥}{٦})$	(٢)
صناعة منزلية	$١\frac{١}{٣} - \frac{١}{٢}$	$١\frac{٢}{٣} - \frac{١}{٢}$	$٩ - \frac{٢}{٣}$
المتوسط :	$(\frac{٢}{٣})$	(١)	(٤)
ملاحظ العمال ، المدير . الخ	١	٣ - ١	٢
مرتب جندى الفرقة فى اليوم	$٣\frac{١}{٣} - ٢\frac{١}{٢}$	$٥\frac{١}{٥} - ٤\frac{١}{٦}$	$٨\frac{١}{٣}$

	القرن الأول	القرن الثانى	القرن الثالث
ثمن المنزل	١ر٥٠٠-١٨٠	٦ر٤٠٠-١٢٠	٢٥ر٠٠٠-١٢٥
المتوسط :	(٦٠٠)	(٦٥٠)	(١ر٤٠٠)
سعر الأرض الزراعية	٤٩٥-١٢	٦٣٦-٢٠	١ر٢٠٠-٢٠
(بالأرورا) المتوسط :	$(٩٧١\frac{١}{٢})$	(١٦٠)	$(٢٦٦\frac{١}{٣})$
ثمن العبد (الذكر)	لايوجد بيانات	٢ر٨٠٠-٢٠٠	١٢ر٠٠٠-١ر٦٠٠
المتوسط :		(١ر٢٠٠)	(١ر٩٦٠)
ثمن الأمة	٢ر٠٠٠-٦٠٠	١ر٥٠٠-٧٠٠	٤٨ر٠٠٠-٢ر٢٠٠
	(٩٥٠)	(١ر٢٠٠)	(٣ر٠٠٠)
ثمن العبد (الطفل)	٦٤٠	٢ر٦٠٠-٣٠٠	٥ر٠٠٠-١ر٦٠٠
		(٧٠٠)	(٢ر٦٠٠)

إن هذه الأجور لاتتضمن (أ) مقابل الطعام ـــ وهذا شائع فى حالة العمال الزراعيين .

(ب) مقابل عمل الصبية الذين كانوا يحصلون على أجور منخفضة .

قائمة بالمصطلحات

- Aroura – أرورا وهو اصطلاح إغـريقى الأصل ويعنى حـرث الأرض ، واستخدم فى العصر اليونانى والإغريقى كوحدة لقياس الأرض ، وهى تساوى ٢٩٫٨٢٥ قدم مربع ، أو ٦٨ر من الفدان الإنجليزى ، أو ٢٧٥ر من الهكتار .

- Arsinoite nome – إقليم أرسينوى ، راجع الفيوم : Fayyum

- Artabe – الأردب : مكيـال للحبـوب ، استـخـدم لكيل القـمح وحبـوب المحاصيل الجافة الأخرى ، وقد كان هناك عدة أنواع للأرادب من حيث السعة تبدأ من ٢٤ إلى ٤٢ خوينيكيس Choinikes (راجع هذه الكلمة أدناه) ، أما وحدة المكيـال الذى شاع استخدامه فى كيل مستحقات الضرائب العينية فقد بلغ ١ ١/٢ بوشل Bushel(*)

وعن أحـدث دراسـة عن الأدلة ذات الطابع المركب أنظر : Zeitschrift Für Papyrologie und Epigraphik, 42 (1981)101.

- Aurelius – (أوريليـوس ومـؤنثـهـا Aurelia وهو اسم عـشـيرة الإمـبـراطور مـاركـوس أوريليـوس Marcus Aurelius (١٦١/١٨٠)م وتم اختـيـار الاسم كـدليل على الخلافة الشرعـية لتولى العـرش ، واستـخدم كـإسم لعـدد من الأباطرة الذين خلفـوه فى الحكم ومن بينهم كاراكالا ، ثم اتخذ كل الأفراد الذين حصلوا على الجنسية الرومانية فى جميع الولايات الرومانية هذا الاسم بمقتضى مرسوم كـاراكـالا عـام ٢١٢م الذى منح الجنسـيـة الرومـانيـة لرعـايا الإمبراطورية .

- Choinix – خـوينكس (الجمع خوينيكيس Choinikes مكيـال لوزن الحبوب وهو يساوى حوالى لتر .

* البوشل Bushel مكيال إنجليزى للحبوب يساوى ٨ جالون – المترجمة .

- Chous - خويس الجمع Choes خونيس : مكيال للسوائل يزن حوالى ٥ر١ لتر .

- Dekaprotos - ديكابروتوس - وهو لقب محصلى ضرائب الغلال فى المركز to-paschy (أنظر أدناه) خلال النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى .

- Demotic - (أى شعبى) - وهو الاصطلاح الحديث للخط السريع Cursive (=الرقعة) الذى كتبت به اللغة المصرية إبتداء من القرن السادس ق.م إلى القرن الرابع الميلادى . ثم تبنى المصريون بعد ذلك حروف الكتابة الإغريقية وأضافوا إليها بعض الحروف غير اليونانية لاستخدامها لسد احتياجات لغتهم الوطنية وعرفت اللغة المصرية على هذا النحو باسم القبطية .

- Drachma - دراخما : (١) مثقال يساوى ٥ر٣ جرام (٢) وعملة تمثل وحدة التعامل الأساسية فى العملة اليونانية وظلت تستخدم فى شرقى البحر المتوسط خلال الحكم الرومانى ، وهى فى أصلها عملة فضية، ثم انخفضت الدراخما انخفاضا سريعا أو بمعنى آخر تلاعب بها الأباطرة الرومان الذين كانوا يبحثون عن تحقيق مصالحهم المالية . وقد تمت مساواة الدينار الرومانى denarius بالعملة النقدية من فئة الدراخمات الأربع tetradrachm .

- Elders - (الشيوخ) وهو مجموعة من القرويين الذين كانوا يضطلعون بمسئولية الأعمال الإلزامية ، وهو يعنى الرؤساء الذين تقع عليهم مسئولية بعض أعمال البوليس وفرض الضرائب . ولقد فقد اللقب بسرعة مفهوم السن ، وأصبح منصبا يعين فيه وجال فى سن العشرين .

- Epikrisis - (فحص المستندات) - وهى عملية تجرى لتقرير حصول الفرد على وضع مميز عسكريا كان أم مدنيا .

- Epistrategos - (المدير العام) رومانى من طبقة الفرسان أسند إليه تولى أحد ثلاثة مناصب إدارية لإدارة عدد من الأقاليم nomes فى مصر ، وتسمى

وحدته الإدارية epistrategia (وجمعها epistrategiai) وكانت من الشمال إلى الجنوب على النحو التالى :(أ) الدلتا Delta ، (ب) هيبتانوميا Heptanomia والفيوم Arsinoite ؛ (جـ) وطيبة Thebaid .

- Fayyûm وهو الاسم الحالى للمنطقة الجغرافية إلى يغذيها نهر النيل جنوب شرقى القاهرة ، وهذه المنطقة كان يشملها إقليم الفيوم فى العصر البطلمى والرومانى .

- Heptanomia (منطقة الأقاليم السبعة) : أنظر الفيوم .

- Keramion (جَرّة) - وهو مكيال للنبيذ ، والزيت ، والسوائل الأخرى ، وسعة أحد أنواعه ستة خوثيس Choes ، بينما سعة نوع آخر منه ثمانية (= ٩ - ١٢ لتر). وكذلك سمى هذا المكيال باسم "المكيال" Me-tretes .

- Kotyle مكيال للسوائل ، وهو يساوى حوالى $\frac{١}{٤}$ لتر .

- Liturgy وهى تصحيف للكلمة اليونانية Leitourgia باللغة الإنجليزية وهو اصطلاح تضمن جميع الأعمال العامة الإلزامية والمناصب التى فرضت على الذكور المصريين حتى أكثرهم فقرا حيث كانوا يقومون بشغلها بالتعاقب .

- Medimnos وهو مكيال للحبوب سعته ٢ أردب (انظر تحت كلمة أردب Ar-taba) .

- Metretes راجع كيراميون Keramion .

- Metron (مكيال) يبدو أنه كان اسما آخر للخوس Chous أو مكيال السوائل الذين يسع $\frac{١}{٢}$ ١ لتر .

- Metropolis عاصمة الإقليم ولايعنى الاصطلاح كما هو بالنسبه لنا الآن ، مدينة كبرى Cosmpolitan, ، ولكنه كان أقرب مايكون إلى حاضرة الإقليم .

- Mina (١) مثقال ، يبدو أنه يساوى ماقيمته ١٦٠ دراخمة ، أو أقل من ست كيلو جرامات . (٢) وحدة عملة تساوى ١٠٠ دراخمة .

- Nome - وهى تصحيف لحروف الكلمة الإغريقية nomos (الجمع nomoi) ومعناها إقليم أو وحدة إدارية فى مصر ، وكان عددها ٣٠ إقليما . وكان يرأس كل إقليم من أقاليم مصر الإدارية الثلاثين مدير يدعى Strategos .

- Obol - وهى تساوى فى الأصل ١/٦ دراخمة (أنظر أعلاه) ، ولكن تغيرت قيمة هذه العملة نتيجة لسياسة الأباطرة المالية .

- Prefect - (١) (الوالى) Praefectus Aegypti حاكم مصر ، ويقوم الإمبراطور بتعيينه ويعتبر النائب الممثل له .

(٢) Praefectus militaris وهو ضابط رومانى أسند إليه الإشراف على قسم من القوات المسلحة .

- Sitologos - محصل ضرائب الغلال ، وجمعها Sitologoi وهى وظيفة من وظائف الالتزام لإدارة صومعة الغلال . راجع Liturgy .

- Stater - مثقال يساوى ٣٥٠ جرام .

- Strategos - الجمع Strategoi وهو مدير الإقليم والمسئول الأول فيه ويمارس سلطة تشريعية وإدارية ، وليست له سلطة عسكرية ، ولايقوم بقيادة أية قوات عسكرية .

- Talent - (١) مثقال يساوى ٤٤ كيلو جرام (٢) وحدة عملة تساوى ٦٠٠٠ دراخمة .

- Thebaid - راجع epistrategos .

- Toparchy - مركز ، قسم إدارى فى الإقليم ، يخدم أساسا مهام تحصيل الضرائب.

الحــواشى

أولا : الوثائق البردية Papyri

اتفق على أن يشار إلى البردى بحرف P وقطع الفخار "الاوستراكا" بحرف o ثم يتبع ذلك اسم المجموعة وهو عادة المكان ، الذى عثر فيه على أوراق البردى أو قطع الفخار مثل بردى البهنسا P. Oxyrhynchus أو المكان الذى توجد فيه الآن أوراق البردى مثل مجموعة بردى ميتشجان P. Michigan .

وتتمثل الاستثناءات فى هذه القاعدة فى المجموعات الآتية :

BGU = The Berlin Egyptian Museums' Greek "urkunden" (documentary Papyrili وأغلب أوراق هذه المجموعة فى برلين الشرقية (سابقا) .

M. Chr., W. Chr =

وهى الوثائق التى نشرت أو أعيد نشرها فى على يد كل من L. Mitteis وفيلكن U. Wilcken فى كتاب : Chrestomathie Leipzig - Berlin, 1912 .

S. B = Sammelbuch

الكتاب الجامع ، وهى سلسلة متصلة حتى الآن من المجلدات التى يتم فيها إعادة نشر الوثائق التى تم نشرها فى الدوريات أو التى نشرت فى أجزاء صدرت لمناسبات خاصة .. ألخ.

وجميع قوائم المجموعات الرئيسية التى صدرت حتى اليوم متوفرة مع اختصاراتها فى المؤلفات التالية :

J. F. Oates et al., Checklist of Editions of Greek Papyri and Ostraca, Bulletin of the American Society of Papyrologists, Supplement I, 1978, With addendum to 30 June 1981 .

E. G. Turner, Greek Papyri, An Introduction, Oxford, 1968, Second (paper back) edition, 1980) pp. 156-71.

ثانياً : النقوش :

IGRR = Inscriptiones Graecae ad Res Romanas Perinentes, 3 Vols., Paris, 1906-27, Reprinted Chicago, 1975.

OGIS = Orientis Graecae Inscriptiones Selectae, 2 Vols, Leipzig, 1903-5, Reprinted Hildesheim 1960.

SEG = Supplementum Epigraphicum Graecum. Leiden, 1923 .

LR = N. Lewis and M. Reinhold, Roman Civilization, 2 Vols., New York, 1951-5 .

حواشى المقدمة

1- Egypt Exploration Fund Archaeological Report, 1896-1897, pp. 5-9 .

حواش الفصل الأول

(١) أثبت سكيت T.C. Skeat فى مقاله الذى نشر فى The Journal of Roman Studies, 43 (1953), pp. 98-100 .

إن أقرب احتمالات اليوم الذى تم فيه انتحار كيلو باترا هو الموافق للعاشر من شهر أغسطس ، ولما كان التقويم الرومانى قد سقط منه فى تلك الفترة يومان ، فإن هذا يعنى أنه كان يوافق ، ١٢ أغسطس طبقا لتقويمنا الحالى ، ويستشهد على ذلك بالشعراء الرومان أمثال : Virgil, Aeneid, Book 8, Vevse 697 ; Horace, Odes, Book I, no. 37, Prospertius, Odes, Book 3, no. 11 .

لقد تم الاستشهاد هنا بالفقرة رقم ٢٧ من وثيقة أغسطس التى اقتبس اسمها من كلماتها الافتتاحية على أنها إنجازات المؤله أغسطس Res Gestae Divi Augusti . وقد نقش نصها على أعمدة باب ضريح أغسطس فى روما ، والتى تم نقش نسخ منها أرسلت لكل عواصم الولايات الرومانية ، ولم يعثر على النقش فى روما ، ولكن عثر على نقش كامل تقريبا فى أنقرة Ankara فى تركيا (وكانت أنقرة عاصمة ولاية جالاتيا Galatia الرومانية) بالإضافة إلى عدة شذرات أخرى وجدت فى بعض العواصم الشرقية الأخرى (مثل أنطاكية) .

(2)Justinus, Roman History, Book 34, Sect. 2. وهو كاتب من القرن الثانى م

(3) Polybius, Histories, Book 29, Ch. 27.

وقد ثبت حديثا من نشر إحدى البرديات أن "أنطيوخوس كان يزمع القيام بغزو دائم لمصر - ومن الواضح أن ذلك كان يسبب مشاكل للرومان أكثر من التدخل المؤقت :

R.S. Bagnal, Classical World, 76 (1982-3), 14.

(4) P. Teb. 33 = W. Chr.3 = Select Papyri, 416.

(5) Virgil, Aeneid, Book 8, v v. 687-88 الفقرة المقتبسة هنا من :

حواشى الفصل الثانى

(1) Pliny, Letters, Book 10, nos. 6-7.

ولكى يصف الرومان وظيفة رجل مثل هاربوقراط Harpocras فقد استعادوا الكلمة اليونانية التى يمكن ترجمتها بطبيب "التدليك" .

(٢) ترد البيانات الخاصة بالفصيلة Cohort فى : BGU. 696 = Select Papyri . 401.

(٣) لقد تم نشر وثيقة أوسلو البردية فى : Proceedings of The Xvi international Congress of Papyrology, American Studies in Papyrology, 23 (1981), 329.

وقد كتبت الوثيقة السابقة باللاتينية وهى من مجموعة PSI. 1026 . وكان كل جندى مسرح من الفرقة أو القوات المساعدة يحصل على براءة برونزية Diploma مكتوبة باللاتينية ، تشهد بتسريحة المشرف ومنحه الامتيازات المترتبة على ذلك ، وقد كان رجال الفرقة الرومانية Legionaries مواطنون رومان طوال سنوات خدمتهم ، ولذلك لم يكونوا فى حاجة لأن يحصلوا على الجنسية أو على شهادة باكتسابها عند تسريحهم . أما حالة هؤلاء الجنود الاثنا والعشرين الذين تقدموا بالتماسهم فقد كانت حالة شاذة (غير عادية) حيث إنهم لم يكونوا مواطنين رومان عندما بدأوا خدمتهم العسكرية حيث تم بعد ذلك ترحيلهم إلى قوات الفرقة ، وحيث إن قوائم تسجيلهم سوف توضح أنهم كانوا ملتحقين بالقوات المساعدة لذلك شعروا بحاجتهم لشهادة توضح وضعهم وهناك ترجمة للوثيقة الخاصة بهم وهى PSI. 1026 نشرت فى L.R.TI, pp. 525-6.

(٤) نشرت البيانات الخاصة بسكنوبايو نيسوس مع التعليق عليها فى: D.H. Samuel, Proceedings of the xvi International Congress of Papyrologists, American Studies in Papyrology, 23 (1981), 389-403. حيث يجد القارىء فيها أيضا إشارات إلى الأبحاث السابقة المتعلقة بأماكن أخرى .

(5) SB. 9636 .

(٦) وهذه الوثائق هى = SB. 11114, and SB. 7523 Select Papyri, 254.

الفقرة التى تم الاستشهاد بها هنا من شيشرون فى دراسته عن الجمهورية Cicero, On The Republic, Book 2, Ch. 52.

(٧) لدينا دليل على وجود مجلس الشورى فى مدينة بطلمية مستمد من الوثيقة التالية : SB. 9016 التى تتضمن وثائق من عام ٤٨م ، ١٦٠م .

(٨) تم نشـر خطاب كلوديوس في: P. Lond. 1912 = Select Papyri 212 = Corpus Papyrorum Judaicarum 153 .

(مع الترجمة والتعليق المفصل) وهناك ترجمة أخرى وردت في : L- R., II, pp. 366-9.

أما خطاب السكندريين فقد نشر في : BCU. 1079 = Select Papyri 107 = Cor. Pap. Jud. 152 .

(٩) الوثائق التي تم الاقتباس منها هنا هي على النحو التالي : P. Giss. 41 = W. Chr. 18 = Select Papyri, 298, and P. Oxy. 705 = W. Chrest. 153. هذه الوثائق ، وأخرى غيرها تعكس الثورة ونتائجها تم جمعها في Corp. Pap. Jua. 435-50 .

(10) History of Rome, Book, 38, Ch. 37.

(11) W. Chr. 52 = Select Papri, 301.

(12) BGU. 1210.

وهناك فقرة كبيرة مأخوذة منها في : L-R. II, pp. 380-3

(١٣) والمقتطفات الواردة في هذه الفقرة منشورة في : T. Rice Holmes, The Arcitect of the Roman Empire, II, p.16; R. Syme, The Roman Revolution, p. 275; Horace, Odes, Book I, no. 37.

حواشى الفصل الثالث

(1) P. Brem. 23.

ويعتبر عمل هذه اللجان عملاً مدنيا ليست له صلة بقوات البوليس النظامية :

(٢) وقد سجلت نتائج الحفائر الأثرية التى أجريت فى هرموبوليس فى : G. Roeder Hermopolis, 1929 - 1939 ; Hildesheim, 1959.

كذلك قدم ملخص منها فى J. Schwartz. Ktema, 2 (1977), 59-63.

وقد قامت المترجمة بتقديم دراسة عن هرموبوليس تحت العنوان التالى : "هرموبوليس ماجنا فى العصر الرومانى" ، دراسة لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى ضوء الوثائق البردية ، وحصلت بها على درجة الماجستير فى التاريخ اليونانى والرومانى من جامعة القاهرة عام ١٩٧١ .

(٣) وردت التفصيلات عن منشأة البهنسا Oxyrhynchus فى الوثيقة التالية : P. Oxy- 43 Verso

أما تلك الخاصة بمد المياه فى الفيوم فقد ذكرت فى الوثيقة التالية P. Lond. 1177= Select Papyri, 406 ولها ترجمة فى L. R. II, pp. 333-5 .

(٤) ونجد ذكرا للمحسن البار الذى كان ينفق على الألعاب فى الوثيقة التالية = P.oxy. 705 W. Chres. 153. كما يظهر مجلس الشيوخ فى الوثيقة التالية = P.Ry L. 599 SB. 8o32 أما عن توزيع الغلال فى البهنسا فراجع P. Oxy. XL أما التعليق الإضافى عليها فقد ذكر فى المقالة التى نشرت فى مجلة Chronique d'Egypte 49 (1974), p.158-62. وقد بلغ عدد من تسلموا الحصص ٤,٠٠٠ من الذكور البالغين وهو عدد يقدر بحوالى خمس مجموع سكان المدينة .

(5) P. Oxy. 1681 (III Cent.) = Select Papyri, 152.

(6) P. Oxy. 2186.

(٧) أما الطلبات التى مازالت باقية حتى الآن فهى منشورة فى المجموعة التالية :

P. Oxy. 3276 - 84.

(٨) أما العائلات التى تمت فيها حالات عديدة من الزواج بين الإخوة فتجدها فى الوثيقة التالية :

P. Amh. 75 and BGU, 115 = W Chr. 203 .

(وهناك تفاصيل أخرى أدناه) وعن دعوة لحضور حفل زفاف راجع P. Oxy. 111 = W. Chr. 484

ومن نماذج لزواج الإخوة فى القرى راجع ص ٧٧-١٥٨ .

أما رسالة الماجستير التى قدمها H. Thierfelder فى مينستر عام ١٩٦٠ فلم تقدم أكثر من نماذج من الوثائق المتبقية التى توضح أن زواج الأخت بأخيها فى مصر فى العصر الرومانى .. حقيقة لاتقبل الجدل . وقد افترض المؤلف (ص ص ٩٠-٩٤) أن الأثر الدينى كان أقوى وأكثر أهمية من الأوضاع الاقتصادية ولكن هذا الرأى لم يجد إلا قليلاً من التأييد .

أما أحدث وأدق دراسة عن الموضوع ، والتى تمت فيها محاولة تفسير الحقائق التاريخية بمساعدة علم الأنثروبولوجيا وعلم الوراثة بالإضافة إلى نظريات الإحصاء الحديثة فهى تلك التى قدمها هوبكنز K. Hopkins, Comparative Studies in Society and History, 22 (1980), 303 - 54.

وقد أوضح هوبكنز (ص ص ٣٢٢/٣٢٣) ضعف النظرية التى تنادى بغلبة الجوانب الاقتصادية لهذه العادة ، ولكنه سلم هنا وبعد ذلك ، بأن الذين كانوا يمارسونها ربما كان لديهم مثل هذا الهدف . (فربما حرص الآباء على الحفاظ على ثروة الأسرة متجمعة : ص٣٥١) وحيث إن مصادرنا لسوء الحظ غير قادرة على أن تجعلنا نعرف الأسباب التى "أدت إلى وجود هذه الظاهرة" لذلك فقد كرس الجزء الأخير من مقالته لتحليل "عناصر المجتمع المصرى .. التى ربما تساعدنا فى كشف المحيط الاجتماعى الذى كان ينتشر فيه زواج الأخت بأخيها" ص ص ٣٢٧/٣٢٨ .

(٩) وجد المرسوم بين تشريعات جستنيان Codex Justinianus Book, 5, Ch. 4, no . 17 أما الإشارة إلى ديودوروس فهى من مؤلفه المكتبة التاريخية Historical Library, Book I, Ch. 27.

(١٠) الوثائق المذكورة هى : BGU. 141, P.Lond. 188, p. Mil. Vogl. 52 and 130 introd وهناك نموذج آخر لأحد مواطنى عواصم الأقاليم الذين يملكون مزرعة سبق ذكره أعلاه .

(١١) أخذت هذه الأمثلة من P. Giss. 32; St. Pal. XX, 18 : PSI, 1253; P. Oxy. 2848' P. Grenf.I, 50.

(١٢) أنظر P. Oxy. 2147 لقد تم شغل المرشحين للمنصب فى يوم رأس السنة المصرية الموافق ١ توت Thoth (= ٢٩ أغسطس) .

(١٣) أما المهام الأخرى التى أسندت إلى هذا الموظف الملقب بـ exegetes مثل تعيين الأوصياء على القصر والنساء ، فربما لم تكن من واجبات المنصب .

(١٤) أما لجنة الاستماع التى عقدت فى عام ٢٥٠م سجلت فى الوثيقة التى نشرت فى SB, 7696 وهى لسوء الحظ وثيقة بردية ممزقة لم تحفظ حفظا جيدا فى عدة أماكن .

(15) P. Turner. 37.

(16) P. Oxy. 243.

(17) St. Pal. XX, 67 Recto.

(١٨) عن وجود القطن فى العصر الرومانى راجع P. Mich. 500 والتعليق على السطر رقم ٧ .

(19) BGU. 115 = W. Chr. 203.

(20) P. Oxy. 744 = Select Papyri, 105; and BGU. 1104.

(21) BGU. 1052 = Select Papyri, 3.

وعن أم فى الخامسة عشر من عمرها أنظر أدناه .

(22) P. Oxy. 528 = Select Papyri, 125.

(23) P. Oxy. 237.

وهذه الوثيقة تتضمن قضية ترجع لعام ١٨٦م وإجراءاتها ، أما مضبطة جلسة الاستماع عام ١٢٨ م فقد ذكرت أدناه هذه الوثائق وغيرها التى توضح حق الأب التاريخى قد تمت مناقشتها فى الدراسة التالية :

Revue internationale de Droits de Antiquité, 17 (1970), 251 - 8.

(24) P. Oxy. 3197, of AD. 111.

(٢٥) هناك مثال مذكور أدناه أما الوثيقة التى تمت الاستعانة بها فهى P. Oxy. 494 = P. Chr. 305 .

(٢٦) وطبقا لتسلسل الوثائق فهى توجد فى المصادر الآتية : Aegyptus, 2 (1921), 283 - 5 ; P. Oxy . 1153 and 2192, Aegyptus, 2 (1921), 19 - 20 .

وهناك تعليق إضافى عن نفس الوثيقة فى نفس المجلة رقم : 44 (1964), 23 - 4: and P. Mil. Vogl.11

(27) P. Oxy. 2548 and 529 .

(٢٨) وقد قام هارفى بمناقشة مدى انتشار التعليم فى أثينا فى القرن الخامس فى المجلة التالية :

F. D. Harvey, Revue des Etudes Grecque, 79 (1966), 585 - 636.

(29) P. Turner, 38.

وقد ذكرت وثيقة من عام ١٩٨م أن أحد مواطنى مدينة أنتينوبوليس كان أميا . وقد نشرت الوثيقة منذ حوالى ثلاثون عاما مضت .

(30) P. Oxy. 1467 = Select Papyri, 305.

(31) P. Flor. 56, and 382 = W. Chr. 143; St. Pal. 11, p. 27

(٣٢) الخطابان اللذان تم الاقتباس منهما هما : P. Oxy. 2190, and 531 = W. Chr. 482

حواشى الفصل الرابع

(1) E. G. Turner, Greek Papyri . an Introduction, pp. 78 - 9.

(2) Herodotus, Histories, Book, 2, Ch. 36.

(٣) لقد تم نشر أرشيف الأسرة مع تعليق مفصل على يد شفارتز :

J. Schwartz, Les archives de Serapion et de Ses Fils, Cairo 1961.

(4) P. Corn. 9 = Select Papyri, 20.

(5) W. Chr. 63, P. Mich 224, PSI. 101 and 102.

(6) Diodoros, Historical Library, Book I, ch. 34, P. Oxy. 2234; p. Turner, 25.

(٧) استمدت البيانات الخاصة بهذه الحسابات من المصادر التالية :

T. Reckmans, Papyrolgica Bruxellensia, 3(1966), esp. 55 - 7.

(٨) وهناك إشارات عن عائلات أخرى موجودة فى الوثائق التالية :

P. Lugd. Bat. Val. V, Col V = P. Brux.5, and P. Soterichos.

(٩) ومن أجل ذلك فإنه فى حالة سوتريخوس Soterichos من ثيادلفيا of Theadelphia الذى بدأنا نسمع عنه من خلال دراسة نشرت حديثا ، فقد لاحظ ناشر أرشيفه ص ٢٣" أن سوتريخوس حاول أن يقتصد من يوم لآخر ولكنه لم يتمكن من أن يجمع أية مدخرات ، وذلك كان هو حال الفلاح فى ذلك الوقت . وبالرغم من ذلك فهو لم يكن يعتبر رجلا فقيرا بمقياس تلك الفترة ، فقد كان سوتر يخوس "كما يرى الناشر" مستأجرا فى الأساس للأرض ولم يكن من ملاك الأراضى ، وكثيرا ما اقترض المال لينفق على احتياجات زراعته .. وعند موته ترك وراءه دينا ماليا كبيراً ، أمضت أرملته وأطفاله سنوات فى تسديده" .

أنظر : R.S. Bagnall, Bull . Ames. Soc Papyrobgists, 17 (1980), 98

(10) P. Mil. Vogl 84 = P. Kronion, 50.

(11) P. Mil. Vogl 85 = P. Kronion 52.

ولقد أجرى حساب علم بمقتضاه أن وزن الذهب والفضة الذى ورد ذكره يساوى حوالى ٩٠٠ دراخمة .

وبلغت دوطة بنات مواطنى عواصم الأقاليم أكثر من هذا الرقم مرات عديدة كما رأينا أعلاه .

(12) P. Ryl. 168.

وتوجد أمثلة أخرى فى : L. R. II, P. 185.

(١٣) الوثائق الرئيسـيـة هى: SB, 7528; P. Iand. 27, P. Hamb. 65; P. Phil. 15, CPR. I, 33; BGU. 618 and P. Bour. 42.

أما أحدث دراسة عن الموضوع فهى : G. Poethke, Papyrologica Bruxellensia, 8 (1969).

(١٤) وكنموذج على استمرار وجهة نظر الرومان عن "الأفراد الذين اعتادوا على القيام بالشغب" راجع :

J. G. Winter, Life and Letters in the Papri, P. 113.

أما الوثائق التى تمنا بالاقتباس منها فى هذه الشكاوى فهى : P. Ryl. 125 = Select Papyri 278; P. Mich. 421; BGU. 22, P. Teb. 332; and P. Mich. 424. and 228.

وهناك مثال آخر أدناه قدمت فيه الشكوى إلى قائد المائة Centarion ، راجع أيضا ، الفصل السادس ، حاشية رقم ١٠ .

(١٥) الخطابات مقتبسة من BGU. 665; P. Oxy. 3313.

(16) PSI. 1248.

وهناك خطاب بخصوص وفاة سيدة عندما كانت تضع طفلها ثم نشره فى المصدر الآتى : L - R, II, pp. 408 - 9.

(١٧) وعن بيتاوس Petaus "الكاتب الذى لايعرف الكتابة" راجع : Chronique d'Egypt, 41 (1966), 43 - 127 وعدد الوثائق التى عثر عليها من مكتبه يبلغ ١٢٧ وثيقة وثلاثة أرباعها فى جامعة كولونيا ، والربع الأخير فى جامعة ميتشجان وقد تم نشرها بالتعاون بين باحثين من ألمانيا وأمريكا (هما Hagedorn - Youtie) Das Archive de Petaus, Papyrologica Coloniensia, 4. 1969.

أما ذلك الذى قام بتوقيع الوثيقة وذكر أنه لايعرف الكتابة اليونانية ولكنه يعرف الكتابة المصرية فقد ظهر فى الوثيقة التالية : SB. 5117

وعن عدم الإلمام بالقراءة والكتابة بصفة عامة راجع أعلاه.

حواشى الفصل الخامس

(1) S.B. 10173 a = SEG, XX, no 760 .

(٢) تم الاقتباس من هذه الوثائق : P. Mert. 63 and P. Oxy. 2782.

أما إشارة هيرودوت فهى على النحو التالى : Herodotus, Histories, Book, 2, Ch. 59 and 156

(3) P. Oxy. 1380 and Diodorus, Historical Library, Book, I, Ch. 25.

(4) SB. 3924 = Select Papyri, 211.

(5) BGU. 362 = Select Papyri, 404.

(٦) الوثائق المذكورة هى على النحو التالى : P. Oxy. 1021 and BGU. 646 = Select Papyri, 235 and 227.

(٧) الاقتباسات هنا من : Dio Cassius, Roman History, Book 51, ch. 16, Juvenal, Satire, 15, Verse 1 - 8.

كان العبادة الاسترضائية للحيوانات المفترسة بطبيعة الحال ظاهرة ملحوظة وواسعة الانتشار فى المجتمعات البدائية .

(٨) الاقتباس من : Herodotus, Histories, Book , ch, 59.

(9) BGU. 1199 .

(١٠) الوثائق التى تم الاقتباس منها هى : P. Tebt. 293 and BGU. 347 = W. Chr. 75 and 76.

وهناك تصديق على إدانة مرشح ثبت تورطه فى : SB. 16 ; P. Teb. 314 .

(١١) هذه الترنيمة جزء من وثيقة P.Lond. Lit. 239 مروى Meroe هى عاصمة النوبة والقصد من ذكرها هنا هو الإشارة بطريقة مجازية إلى أنها المكان الذى كان ينبع منه النيل . وكانت مروى تقع جنوب النيل الأبيض فى المكان الذى يلتقى فيه بالنيل الأزرق ، ومن هذه النقطة تقطع مياه النيل مسافة تقدر بأكثر من ألف كيلو متر قبل أن تصل إلى الأراضى المصرية .

(١٢) تم اقتباس هذه الوثائق من : SEG. VIII, nos - 548 - 549; P. Oxy. 1830 وقد ذكر أحد زوار مصر فى أواخر القرن الثامن عشر : "أن الاحتفال بكبير الملائكة ميخائيل قد أدى لوجود أسطورة أصبح يؤمن

بها الأتراك والأقباط ومسيحيون آخرون فى الدولة . الخ ، وهم يرون أن كبير الملائكة يقوم فى هذا اليوم بإلقاء قطرة من الماء التى تسبب هياج النهر وهو الأمر الذى ينتج عنه ارتفاعه إلى مثل ذلك الحد الذى يغطى فيه الدولة بأكملها ، ولذلك سمى اليوم الأول من شهر يونيو باسم نوكتا Nockta (= نقطة) ومعناها قطرة الماء ، من قبل جميع سكان مصر ، فإذا ما عارض أى فرد هذه الخرافة سيتهم من فوره بالجهل المطبق .

ونفس الحال إذا لم يعترف المرء بفضل البئر النبوى فى بلدة القرنة El -Garnaus فى مصر الوسطى ، حيث تتضح المعجزة طبقا لرأيهم فى ارتفاع المياه بطريقة كالمعجزة فى الشهور الأول من السنة إلى المنسوب الذى ستكون عليه مياه النيل فى هذا الفصل". أنظر : J. Antes, Observations on the manners and Cus-toms of the Egyptians, Dublin, 1801, pp. 78-9.

(13) P. Oxy. 1151

(١٤) وهناك تمثال من الصلصال علقت فيه تعويذة كتبت على ورق البردى ، نشرت صورته فى المجلة الآتية : Journal of Egyptian Archaeology, 15 (1929) وتعتبر هذه التعويذة فريدة من نوعها لأنها تعبر عن رغبة رجل تجاه رجل آخر ، أما وثيقة الهوارة Hawara التى نشرت فى : Archiv Für Pap-yrusferschung فهى تعويذه خاصة بأنثى تهوى بنات جنسها (تمارس السحاق) .

ويعتبر اللجوء الى تعاويذ الحب ظاهرة عالمية حتى فى العصور الحديثة . وقبل أن نترك هذا الموضوع لنا ملحوظة تثير الانتباه وهى أن أشهر نص عن طقوس التعاويذ السحرية من بين كتب الأدب القديم هى الأنشودة الثانية من ديوان الشاعر الصقلى ثيوكريتوس Theokritas ، والتى يبدو أن أصلها يرجع لمنطقة ثيساليا .

(15) P. Lond. 124 = Pap. Gr. Mag. X .

(16) Dio, Oration 32, Sect. 12 .

(١٧) تم اقتباس النصوص من الوثائق الآتية : P. Mrt. 81; BGU. 229; and P. Oxy. 1149, 1213, and. 1477 وفى الوثيقة الأخيرة يشير السؤال رقم ٨٦ الى المحاولة اليائسة الأخيرة للأفراد الذين يعجزون عن مواجهة أعباء الضرائب والالتزامات الأخرى التى تطالبهم بها الدولة . (راجع الفصل الثامن) ولقد تم تكيف الناس بسرعة ويسر مع النبؤات بعد انتصار المسيحية ، ومن نصوص القرن السادس نذكر مثالين من الأمثلة العديدة التى لدينا وهما على النحو التالى : P. Oxy. 925; 1150 = Select Papyri, 196; 197

"أيها الإله القادر ، المقدس ، الحق ، الكريم الخالق ، والد مولانا ومنقذنا المسيح عيسى ، استحلفك بقدرتك وبالحقيقة التى تتبلج من لدنك أن تكشف لى ما إذا كانت إرادتك بأن أرحل إلى خيوط Chiout ؟ وهل ستقوم بمعاونتى "وتيسير أمرى ؟ ليكن آمين" . ومرة أخرى :

"أيها الرب .. ياحامي قديسنا فيلوكسينوس Philoxenos ترى هل تأذن لنا بمشيئتك أن نحمل آنوب Anoup إلى دارك الشافية ؟ رب أرنا قدرتك ، وليكن النجاح حليف هذه الرسالة " .

(18) P. Oxy. 1381.

(19) P. Harr. 107.

(20) See M. Smith, Jesus the Magician, New York, 1978.

أما الجزء المقتبس من سويتونيوس Suetonius فهو من حياة كلوديوس Life of Claudius, Ch.25.

(٢١) ونجد العكس من ذلك في دفاع عالم اللاهوت تيرتوليان Tertullian في الفصل ٤٠ من عمله الدفاع (= الاعتذار) Apology الذى دونه حوالى عام ٢٠٠م وفيه يقول : "إذا وصل نهر التيبر إلى الجدران، ولم يتمكن النيل من أن يروى الحقول ، وإذا لم (تقطر) السماء ، أو حدث (زالزال) للأرض ، إذا ما حدثت مجاعة ، أو انتشر وباء الطاعون ، سترفع الأصوات صارخة وقائلة "القوا بالمسيحيين للأسود ". ولكن فى ضوء تلك البلاغة الواضحة وذلك التعميم الواضح فى هذه الفقرة فيبدو أنه من غير المناسب أن نتمسك بأن ذكر كل من التيبر والنيل كان يشير إلى حالات أو مناسبات محددة .

(22) P. Mich. 158.

(٢٣) انتهى الاضطهاد الدينى طبقا للأمر الإمبراطورى الذى أصدره الإمبراطور جالليانوس Gallienus بعد حوالى جيل من صدور هذا الأمر بإيقاف الاضطهاد ، ثم حدث الاضطهاد الأكبر بعد ذلك فى أوائل القرن الرابع الميلادى ، تبعه إصدار منشور العفو عام ٣١١ ، ثم اعتراف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية واعتناقه لها فى العام التالى .

وكان أوريجن Origen أشهر شخصية فى تاريخ المسيحية فى مصر ، وذلك لما تمتع به من جرأة فكره اللاهوتى وعمقه ، وتفسيره البارع للكتاب المقدس ، ولذا فهو يعتبر أحد كبار مفكرى المسيحية .. وكان ينتمى إلى مدرسة الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، كما تأثر بالفلسفة الغنوسية Gnostisism فى مصر ، أنظر :

H. I. Bell, Cults and Creeds in Graeco- Roman Egypt, p. 97.

(24)P. Par. 69 = W. Chr. 41, ii

(٢٥) الوثائق المذكورة هى على النحو التالى :

P. Oxy. 705 = W. Chr. 153; P. Oxy. 2338; SB, 7336,

P. Oxy. 519 = W. Chr 492 = Select Papyri, 402, and P. Oxy. 413 and 2127.

(26) P. Oxy. 1025 = W. Chr. 493 = Select. Papyri, 359.

تم استخدام المصطلح "الأوريليان Aurelii" بعد عام ٢١٢ : راجع معجم المصطلحات .

(27) P. Oxy. 1211 = Select Papyri, 403 (II Cent.);

P. Oxy. 2797 (Late rhird Century).

كانت الخنازير محرمة فى الاحتفالات الدينية المصرية منذ فترة مبكرة راجع أدناه .

(٢٨) وهذه الصيغة تميز الأبناء الذين ولدوا للجنود أثناء خدمتهم العسكرية وعلى الرغم من أنه كان من غير المسموح للجنود بالزواج بمقتضى عقود زواج قانونية ، لكن جرت العادة على زواج الجنود بطريقة غير قانونية وتكوين عائلات ويعكس اسم ليونيداس Leonidas الإغريقى نسبه من ناحية والدته ، بينما يدل الاسم اللاتينى سيرنيوس Serenus على والده الذى كان جنديا بغير شك .

(29) P. Oxy. 475 = W. Chr. 494 = Select Papyri, 337 .

حواشى الفصل السادس

(١) وقد أوضح كل من كاتون تومسون G. Caton Thompson وجاردنر E. W. Gardner فى تقارير حفائرهم (The desert Fayum, London, 1434, p. 14) كيف يمكن للرمال التى تحركها الرياح أن تطمس بسرعة جهد الرجال بصورة مفاجئة حيث قالوا : "لقد أصبح واضحا أننا وجدنا نظاما قديما للرى حيث قامت الرمال بملأ القنوات .. واندمجت اندماجا كاملا مع سطح الصحراء ، وقد أمضى الرجال ثلاثة أشهر ونصف فى حفر خمسة وعشرين كيلو مترا لتعميق القنوات" وواصل المتحدث قوله : "وبعد مضى ثلاث سنوات .. انتهزت الفرصة لكى أحلق فوق المنطقة .. ولكن كانت كلها صحراء عارية ، ولم يكن فى الإمكان رؤية أى شىء سواء بالعين المجردة أو بالصور الفوتوجرافية ."

وعن هجر المزارعين لأراضيهم راجع صفحات ٦٨ ، ١٦٣ / ١٦٥

(2) Herodotus, Histories, Book, 2, Ch. 34.

وقد ذكرت النظريات بالتفصيل فى الفصول ٢٠/٢٦ ، أما الإشارة الأخرى فقد ردت لدى يوريبيديس Euripides, Frag. 228 in A Nauck's Collection of Fragments of Lost tragedies, (2nd, 1889); Diodorus, Historical Library, Book I, Ch. 38; and Pliny, Natural History, Book, 5, Sect. 51.

وقد كتب J. Antes فى مؤلفه Observations on the manners and Customs of the Egyptians, Dublin, 1801, pp. 103- 4 باعتداد قائلا : "لم يعد السبب فى الفيضان السنوى للنهر لغزا الآن ، كما أننا لانريد أن نضحك على أنفسنا بأساطير القدماء السخيفة ذلك أن ارتفاع المياه فى النهر يحدث نتيجة لهطول الأمطار على الحبشة حيث ينبع النهر . وهو أمر مقنع لذلك ". وعلى أى حال فبعد عشر سنوات من صدور ذلك الكتاب ، قام سوس وهو أحد أعضاء اللجنة السياسية والاقتصادية فى المعهد العلمى بمصر ، وهو المعهد الذى أنشأه نابليون ، بقراءة بحث يدعو فيه لضرورة الكشف عن منابع النيل .

(٣) الاقتباس من : Seneca, "Natural Questions, Book 4, no. 2.

وقد ذكر أنتيس أيضًا فى أواخر القرن الثامن عشر، J. Antes, op. Cit., p.86. الآتى :

"عندما يصل النهر إلى أقصى ارتفاع له ، فإن القرى التى يتم فى العادة إحاطتها بأشجار النخيل ، وأشجار الفاكهة الأخرى تبدو كما لو كانت جزراً فى بحر هائل ، وكانت المساحة تتسع فى بعض الأماكن بحيث لاتستطيع العين أن تحيط بها : وإنه لمنظر رائع" .

(4) Pling, Natural History, Book 5, Sect. 58; Pling the Younger, Panegyric, Sect. 31 .

إن انخفاض فيضان النيل وقلة المحصول هو أمر لاشك فيه ، كما يتدخل فى ذلك أيضا انخفاض عدد السكان الذى تم وصفه أدناه .

(5) SB. 8392 = IGRR, I , 1290 .

لقد تم حديثا اكتشاف مقياس النيل الثانى فى الفنتين Elephantine ، راجع أيضا الفصل ٥ حاشية رقم ١٢ .

(6) Histories, Book 2, Ch. 4.

(7) P. Oxy. 1409 (= Select Papyri 278) and 3264

وقد ذكرت حالات التحايل والمحاباة فى تعيين من يعمل فى الجسور فى الوثائق التى وردت أدناه .

ولقد ذكر أن نابليون بذل جهدا كبيرا فى الحفاظ على إصلاح وسائل الرى وقد قال عن ذلك : "لاتوجد حكومة فى أية دولة فى العالم لها مثل هذا الأثر الكبير على الرخاء العام ، فلا دخل للحكومة فى الأمطار أو الثلوج التى تسقط على Beauce أو Brie ولكن لحكومة مصر أثر مباشر فى مياه الفيضان والاستفادة منها .

وهذا هو وجه الخلاف بين إدارة البطالمة لمصر ، وهذا التدهور الذى حدث فى العصر الرومانى ثم فى النهاية ذلك الانهيار الذى حدث فى العصر التركى .

(اقتبس هذا النص من : F. Charles - Roux, Bonapart , Governor of Egypt, London 1937. pp. 113 - 4.)

(٨) ورد ذكر للعمال الذين يعهد إليهم بالعمل فى مناطق بعيدة فى الوثائق الآتية :

P. Fay. 79; P. Gren Fell, II 33 d; P.Mich. 381; SB, 5124.

(9) SB. 9567.

لقد كانت هذه الإيصالات تجهز على نطاق وأسع مقدما ، وكان يترك مكان اسم الشخص فارغا على يسار الإيصال ، وحددت إيصالات القرن الثانى الشهر واليوم الذى تتم فيه تأدية العمل .

(١٠) وردت الإشارات فى المصدر التالى: Diodorus, Historical Library, Book I Ch 34; Strabo: Geography, Book 17, Ch. I, Sec. 30.

وفى البردية الآتية التى تم نشرها حديثا فى : Scritti.. Montevecchi, Bologna, 1981, p. 318

ويشتكى كاتبها لرئيس البوليس فى قريته من أن جاره قام بكسر القاعدة التى تسند دعامة محور آلة الرى التى تخص أخاه الذى توفى حديثا ، لذلك أصبح من غير الممكن سحب المياه لتغذية حدائق الكروم بالدلو . . ولذلك فقد أصبحت حدائق الكروم عطشى ونتجت عن ذلك خسائر غير قليلة .

(١١) الوثيقة من المجموعة البردية التالية : P. Brem. 36 أو ترجمة المنشور فهى موجودة فى :
L - R, II, pp. 396 - 7 .

(12) P. Amh, 91.

لقد ورد ذكر حظر زراعة القرطم Safflower فى عدد من عقود الإيجار ، ولكن دون تفسير للغرض من ذلك، ربما لأن المتعاقدين كانو يعرفونه جيدا . وعلى أية حال فإن علينا أن نبحث عن السبب وراء هذا الحظر ، والأمر الذى يثير حيرتنا أننا نعرف أن القرطم كانت تتم زراعته وله قيمته الزيتية (كما سنوضح أدناه) ولقد قدمت هذه المشكلة لأحد كبار المتخصصين وهو جالستون Galston من جامعة ييل Yale فاقترح الآتى : "أن الافتراض الذى يبدو أنه أكثر احتمالا ، أن القرطم يعتبر من النباتات الشوكية ، ولذلك فهو يفرز من جذوره وأوراقه المتساقطة مركبات كيميائية تمنع نمو النباتات الأخرى ، مثل هذه المركبات التى تعرف اصطلاحا باسم Allelopathic Substances كانت كثيرا ما تستخدمها النباتات فى حربها الكيميائية" ضد جيرانها للصراع من أجل البقاء فى المحيط الصعب ، وإذا كان يجب على أن أقوم بالافتراض فإننى أختار هذا السبب ، ولكننى رغم ذلك غير متأكد."

(13) P. Oxy. 1024.

(14) p. Alex. Giss. 25.

(15) P. Oxy. Hels. 41.

– أما الشرط الخاص بالمساحات التى لم يصلها الفيضان فلم يكن ينطبق على السنة الجارية لأن العقد تم بعد ارتفاع منسوب النيل وفيضانه على الأرض موضوع العقد .

(16) P. Amh. 104 = Select Papyri,73.

(17) P. RyL. 147.

وهناك مثال آخر موجود أدناه ، وكلاهما من الأرشيف الذى قمنا بوصفه أعلاه

(18) P. Oxy. 2704.

(١٩) عن إيطاليا وصقلية : G. Richman, The Corn Supply of Ancient Rome, pp. 103 - 4
Marmarica : P. Vot. II recto; Negev : P. Ness. 82.

مازال تقدير إنتاج الأرض من المحاصيل منذ خمسين عاما مضت على يد جونسون A. C. Johnson, Roman Egypt, p. 59 (والذى يتراوح (من ٥ر٤ - ١٠) أرادب للقمح ، ومن ٧ إلى ١٢ أردباً للشعير) مستخدما حتى الآن ، أنظر على سبيل المثال : D. Bonneau, Pub. de La Sorbonne : 'Série Etudes', 14 (1979), P. 65 .

ولكن البيانات التى ذكرت فى هذه الفقرة توضح أن هناك حاجة لمراجعة هذه الأرقام السابقة وقد اعتبر D.Foraboschi Scritti .. Montevecchi, Bologna, 1981, pp. 155 - 6. أن إنتاج محصول قدره عشرة أرادب كان أمرا عاديا ، كما كانت هناك محاصيل تنتج أكثر من ذلك فى أنواع عديدة من الزراعة الكثيفة ، وعلى سبيل المثال زراعة محصولين فى العام كما عثر على غلة محصول بلغت ستة عشر أردبا فى الوثيقة التالية : P. Teb. 375.

(20) P. Oxy. 1049.

(21) P. Ryl. 90.

(22) P. Oxy. 518.

(٢٣) لقد ذكر لنا بلينى فى تاريخه الطبيعى : Natural History Book 15, Sect. 16

أن أفضل وقت لجمع المحصول من ناحية الكم والمذاق ، هو عندما يصبح الزيتون أسود اللون .

(24) Pliny, Op. Cit., Book 13, Sect. 56: Book 15, Sects. 68 - 71.

وفيها يتحدث بلينى عن التين المصرى المدهش "حيث ذكر لنا حلاوته ، وعدم وجود بذور فيه وإنتاجه الوفير ، وفى وصفه لأنواعه المختلفة المبكرة والمتأخرة كتب يقول إن آخر إنتاج له يأتى قبل الشتاء ، وأكثر من ذلك ، فإن هناك أنواعا أخرى تنتج مبكرة وأخرى متأخرة ، لنوعين من المحاصيل ، الأبيض والأسود والتى كان يتم نضوجها مع محصول الغلال والعنب" .

(25) P. Oxy. 1631 = Select Papyri, 18.

وهى وثيقة مشابهة (ولكنها أقل فى تفاصيلها) من الوثيقة التالية التى ترجع لعام ٢٥٢ .

P. Berl. Leihg حيث يذكر فيها أن شتلات الكروم الجديدة كان يتم غرسها ثلاث مرات فى أثناء فصل النمو .

(26) BGU. 241 and P. Ryl. 138.

وعن الأخيرة أنظر حاشية ١٧ أعلاه .

(27) T. Heyerdahl, The Ra Expedition, New York, 1971.

(28) P. Med. 6, P. Teb. 308, and BGU. 1180.

(٢٩) التفاصيل الخاصة بالعقد الذى يرجع لعام ٥ ق.م والمنشور فى :

BGU. 1121 = Select Papri, 41 .

موجودة فى N.lewis, Papyrus in Classical Antiquity, Oxford, 1974, pp. 109 - 13 .

(30) Aristotle, History of Animals, 522 c 26; Varro, On Agriculture, Book, 2, Ch. 11.

(31) P. Lond. 1171; P. Strassb. 29; P. Oxy. 807 and P. Hamb 34.

حواشى الفصل السابع

(١) لم يكن يدفع أجر عن السنة الأولى فى عقود التدريب ، وفى العقد الذى تم اقتباسه هنا من .
P. Oxy. 1647 بلغ الأجر فى السنة الأخيرة من التدريب مايقارب أجرة العامل غير الماهر ، أنظر الملحق .

(2) P. Oxy. 724 = W. Chr. 140 = Select Papyri, 15.

(3) P. Oxy. 520 , of A.D. 143.

(4) P. Hamb. 12 and P. Teb. 402.

(5) SB. 4639.

(6) P. Mich. 203 and O. Flor, 1.

(7) Pliny, Natural History, Book 46, Sect. 67.

(8) P. Oxy. 2272.

(9) P. köln. 53.

(10) P. Ryl. 197 a and P. Gren F. II 50c = Select Papyri, 383 and 382.

(11) OGIS, 701 = IGRR. I, 1142.

وقد عدد لنا بلينى ثمان محطات فى طريق قفط - برنيس - ويبدو أنه كان يوجد هناك أكثر من ذلك .
Pliny Natural History, Book 6, Sect. 102 - 3.

(12) OGIS, 674 = IGRR, I ,1183.

ولقد تم ترجمة النص كاملا فى . L - R, II, pp. 147 - 8 وكان رسم مرور الجمل ، الذى يحمل حمولة كبيرة ، تبلغ نصف قيمة رسم حمولة الحمار ، ويمكننا أن نفسر ذلك فى ضوء أن الجمل يستهلك مياها أقل من الحمار على طول الطريق .

(13) P. Princ. 20 = SB, 8072 ; P. Oxy . 36 = W. Chr. 273; and Ps.- Quintilian, Declamations, 359.

(14) P. Lond. 1164 h = Select Papyri 38 .

ومقدارها أربعون كيلو لترا يوميا .Pling, Natural History, Book 6, Sect. 16 وعن التفصيلات التقنية الخاصة بهذا الموضوع راجع : ,L. Casson, Ships and Seemanship in The Ancient World
Princeton, 1971, esp. p. 164.

(١٥) الوثيقة البردية هى P. Lond.inv. 616 + 245 وتم نشرها فى :

Zeitschrift Fur Papyrologie und Epigraphik, 20 (1976), 162 - 5 .

(١٦) راجع على وجه الخصوص الوثيقة التالية : P. Mich. 243 - 5.

(١٧) وهناك مثال جيد ظهر فى ص .

(18) BGU. 1024 . Vii.

(١٩) الأمثلة المذكورة هنا من الوثائق التالية : P. Oxy. 2584 and P. Strassb. 34

(20) P. Oxy. 2471.

وعلى أية حال فقد تأثر بعض رجال البنوك فى القرن الثالث م تأثرا سيئا لزيادة التضخم . والمثال على ذلك مذكور فى .P. Oxy. 1411 = Select Papyri 230

(٢١) الوثائق التى تم اقتباسها وردت فى : .BGU. 1074; P. Oxy. 2476; and P. Oxy. Hels. 25

وهى متعلقة بثلاثة من الأشخاص ذوى مكانة كبيرة (وماركوس أوريليوس سيرينوس Marcus Aurelius Serenus هو موضوع الوثيقة الثالثة).

(22) Corp. Inscr. Lat. VI, 10048 = Inscr Lat. Selectae 5287 and IGRR IV 1519 = Sardis VII 79.

(٢٣) الوثائق المذكورة هى : P. Lond. 1178 = W. Chr. 156 and St. Pal. V 52 - 6 = Select Papyri 306.

(٢٤) ذكر تقديم هذه المنحة للحفيد فى الوثيقة التالية :

St. Pal. V 119 Verso iii = W. Chr. 158 = Select Papyri, 217.

وقد تمت ترجمتها والتعليق عليها فى : L- R. II, P. 237.

(25) P. Lond. 1164 = Jur. Pap. 31.

كانت ماتيديا Matidia هى ابنة أخ (أو أخت) الإمبراطور تراجان ووالدة زوجة الإمبراطور هادريان ، الذى أنشأ مدينة أنتينوبوليس ، أما لقب كاليتكنيان "Kalliteknian" والدة الأبناء ذوى الطلعة البهية " فهو لم يكن خاصا بمدح ماتيديا ولكنه كان لإطراء مدينة أنتينوبوليس .

(26) BGU. 647 and P. Mert. 12 .

كان أرخاجاثوس طبيبا إغريقيا فى القرن الثالث ق.م وقد أخبرنا كل من بلينى الكبير والطبيب والكاتب الرومانى كيلسوس Celsus عن شهرته العريضة بالإضافة إلى ماورد فى هذه الوثيقة . وقد تم تداول هذه الوصفة الخاصة به لعدة قرون تالية .

مازالت المشاكل الصحية الخاصة بتصلب باطن القدم مشكلة متوطنة فى المناطق التى يسير فيها الأفراد حفاة الأقدام أغلب الوقت .

(٢٧) وعن تحديد النص راجع : M. H. Marganne, Papyrologica Florentina, VIII, 1980, pp. 179-83.

(28) E. A. E. Reymand, A Medical Book From Crocodilopolis, Mitteil .Papyrussamml. Oesterv. Nationalbibl. 10, 1976.

(٢٩) والوثيقة التى تمت مناقشتها هى : P. Giss. 43 = SB. 10630 , Physicians' Under twenty in Asia Minor : Phoenix 36 (1982), 271.

(٣٠) ولقد تمت (أى المؤلف) بمناقشة التأثير الرومانى فى هاتين النقطتين فى :

BASP, 18 (1981), 73 - 4 and by H.J. Wolf in Zeitschr. Savigny - Stift, 96 (1979), 258 - 68 .

حواشي الفصل الثامن

(1) P. Lond 904 = Select Papyri, 220 and BGU. 1210.

(2) P. Ludg. Bat. V, Col.X = SB. 7460 = P. Brux. 10.

(3) Diodorus, Historical Library, Book, I, Ch. 31; Jose phus, The Jewish War, Book, 2, sec. 385.

(4) SB. 7738 = SEG VIII, no. 527

وسبق فى ذكر مثال على الاحتيال توزيع العمل فى الجسور ، أما اعتراض تيبيريوس الذى سبق اقتباسه فى هذه الفقرة فهو مذكور لدى ديوكاسيوس Dio Cassius, Roman History Book 57, Ch. 10.

(5) Philo, On Special Laws, Book 3, ch. 30.

من الصعوبة بمكان أن نضيف أن الأفعال التى سبق ذكرها كانت غير قانونية ، لأن الأقارب والأصدقاء كانوا غير مسئولين عن ضرائب الفارين ، ولذلك وحد الإمبراطور سبتيميوس سيفروس Septimus Severus أنه من الضرورى أن يكرر بعد نشر القرار التالى فى عام ٢٠٠ : "حيث إن كثيراً من القرويين مازالوا يتقدمون بالتماساتهم حتى لايتم إرغامهم بالرغم من المنشورات التى سبق إصدارها على دفع ضرائب الآخرين لو كانوا شركاء متضامين معهم ، فإننى أرى وجوب تأكيد ماجاء فى المنشور الذى سبق وقمت بإعلانه بخصوص هذا الموضوع من أنه لاينبغى أن يرغم أى فرد على أن يقوم بدفع ضرائب (مستحقه على) شخص آخر - لا الأب عن ابنه ولا الابن عن والده ، ولا أى فرد عن أى فرد آخر ، وألا تحصل من شخص بديل تحت أى اسم آخر"

P. Mich. 529, Verso.

وقد تم مراجعتها فى الدراسة التالية : Chronique d'Egypte, 50 (1975), PP. 202 - 6.

(6) BGU. 515 = Select Papyri, 286.

(7) راجع أيضا ص

(٨) وقد تم الاقتباس من الوثائق التالية : P. Oxy. 2669, P. RyL. 595; SB. 7462, PSI, 101, 102.

(9) Josephus, Jewish War, Book 2, Sect. 386 Aurelius Victor, The Caesars, Ch. 1.

(10) P. Oxy. 2670.

(11) P. Oxy. 2125; and 708 = W. Chr. 432.

(12) P. Lond 259 = W. Chr. 63 (A. D. 94).

(13) See Scritti .. Montevecchi, Bologna, 1981, pp. 196-7.

(15) WO. 1157.

(١٥) الوثائق التى تم الاقتباس منها على النحو التالى :

Select Papyri 211, P. Lond. 1171 Verso = W. Chr. 439, Inscr. Lat. Selectae 214; SB. 4226; Revue int. des droits de L'antiquité, 15 (1968), 137; PSI, 446 = Select Papyri 221 ; OGIS, 609, and Dio Cassius, Roman History, Book 79 {78}, Ch. 3. See also L. R, II, pp. 399 - 403

(16) BGU. 1564 = Select Papyri, 395.

ولقد سبق شرح عبارة "عبد سيرابيس المعتق" فى ص أعلاه .

(17) P. Amh. 107 = W. Chr. 417.

أما هذه النسخ الأربعة على النحو التالى : نسخة لمدير الإقليم وهى تلك التى أرسلت له ، والثانية لشيوخ القرية ، ويبدو أن الثالثة كانت لموظفى الإقليم الذين ذكروا فى آخرها (ومن المحتمل أنها كانت للسكرتير الملكى) أما النسخة الرابعة فيحتفظ بها الموظف الذى أصدر الإيصال ، فى القسم التابع للإدارة المركزية .

(18) BGU. 266 = W. Chr. 245.

(١٩) ويشمل تقويم الأعياد الذى سبق ذكره فى هذه المقدمة المدونة بتاريخ ٢٠ برمودة (=١٦ مارس) :
"بمناسبة زيارة فخامة والينا سبتيميوس هيراكليتوس Septimius Heraclitus تزين جميع (الآثار) فى المعبد بعقود الزهور (وتدفع مبالغ نقدية) لشراء أعواد الصنوبر والمواد العطرية الأخرى ، وكأجر للحدادين الذين يقومون بطلى التماثيل بالزيت ، والعمال الذين يحملون تمثال الإله لاستقبال الوالى (عند وصوله) ، وعقود الزهور للتمثال المذكور ، والخطيب العام الذى سيقوم بإلقاء خطبة الترحيب لفخامة الوالى سبتيميوس هيراكليتوس بمناسبة قيامه بإهداء تمثال النصر وهدايا أخرى للمعبد .

(20) P. Petous, 65 (A. D. 185).

(21) P. Phil. I and P. Oxy 119 = W. Chr. 397 .

(22) P. Wisc. 81 .

وعن الهروب بسبب الأعباء راجع ص .

(23) SB. 4284 .

أما الإشارة إلى المنشور والمصادر الأخرى الخاصة بهذه الفقرة فهى موجودة فى .

Hibis I = OGIS, 665 and PSI, 1406 .

(24) P. Oxy. 899 = W. Chr. 361.

أما عن التماس الطبيب فهو فى الوثيقة التالية .

P. Fay. 106 = W. Chr. 395 = Select Papyri, 283 .

وترجمتها موجودة فى : L - R, II, p. 374.

(25) P. Oxy. 1405.

(26) BGU. 372 = W. Chr. 19.

وترجمتها موجودة فى L - R, II, pp. 374 - 5.

وعن الخارجين عن القانون وقطاع الطرق راجع ص

حواشي الفصل التاسع

(1) Tacitus, Histories, Book I, Ch, 11, Diodorus, Historical Library, Book I, Chs. 93 - 4 .

وعن تطور القواعد القانونية وإدارة العدل فى مصر فى عصورها المبكرة ، فإن المرء لايزال يقرأ ويستفيد مما ذكر فى الفصول الخاصة بها فى المؤلف التالى : J. Pirenne, Histoire de Institutions et du droite privé de L'ancienne Egypte, 3 Vols, Brussels, 1932 - 5.

أما عن الإجراءات القانونية فى العصر الرومانى فقد قام بتحليلها Coles فى الكتاب التالى :

R.A. Coles, Reports of Proceedings in Papyrologica Bruxellensia 4, 1966.

(2) P. Teb. 303 = Select Papyri, 248.

(3) P. Oxy. 3190.

وعلامة Xs فى النهاية والتى تظهر فى أوامر أخرى ، يبدو أنه قد وضعت فى هذا المكان لمنع التعاقب فى الأمر وذلك بقصد عدم إضافة أى تعديل أو حذف أو أية إضافة باطلة .

(٤) الوثائق المذكورة هى على النحو التالى : SB. 7601; P. Oslo. 17.

أما عن الشاكى الذى يتهم المدير بإساءة استخدام السلطة فقد ذكر فى ص .

(5) PSI, 1100

(6) SEG, Xviii, no. 646 and P.Oxy. 2343.

(٧) أما الوثائق المذكورة فهى على النحو التالى : P.Oxy. 2131; P. Yale, 61.

(8) PSI, 1326; SB. 9050 ii; P. Oxy. 237 Vii and P. Ryl. 75 = Select Papyri, 258 and 259.

وعن سلطة الأب فى أن يبعد ابنته عن زوجها ويقوم بتطليقها منه ، راجع ص اعلاه وعن التنازل عن أملاك لتحاشى الالتزام راجع ص .

(٩) إن الوثائق المذكورة هى :

P. Oxy. 2131; P. Wurzb. 9. وهذين مثالين فقط من أمثلة عديدة .

(10) P. Oxy. 2754 .

(11) P. Hamb. 29 = Jur. Pap. 85; P. Oxy. 3017; SB, 7696 (Lines 35 - 6) .

(12) P. Oxy. 899&486 = W. Chr. 361; M Chr. 59.

(13) P. Amh. 77 = W.Chr. 277 .

حواشى الفصل العاشر

(١) وعن تاكيتوس راجع Tacitus, pp.vii and esp. 185; for Juvenal , pp. 84 and 90; For Dio Chrysostom, Oration 32, Sec. 31 and Passim .

وهناك مثال على الكاتب المنتمى للعصر الحديث يظهر فى الفصل الرابع حشية ١٤ .

(٢) راجع على وجه الخصوص ص ، وإشارة فيرجيل Virigil فى الإينيادة Book 6 Verses 851-3 ولقد تمت دراسة موضوع الإمبراطور وفضائله فى كثير من الدراسات ، وأحدث دراسة عن هذا الموضوع وردت فى : A. Wallace - Hadrill, Historia, 30 (1981), pp. 298-323 .

(٣) أما عن الإشارة التى ذكرها سيتيكا فقد وردت فى :

Consolation addressed to Helvia, Ch. 19.

(4) C. H. Roberts, Journal of Roman Studies, 39 (1949), 79.

(5) W. Chr. 14 = Musurillo (see note 6), Text IV A .

(6) P.Yale inv. 1536 (Published in Trans. Amer. Philol. Assn. 67 (1936), 7 + P. Oxy. 33.

وقد نشرت الوثيقة كاملة وتحمل رقم ١١ فى الكتاب التالى :

H. Musurillo, The "Acts of the Pagan Martyrs, Oxford, 1954 and Acta Alexandrinorum, Leipzig 1961.

(7) P. Giss. 40ii = Select Papyri, 215.

(8) SB. 4284.

(9) P. Oxy 1408 = Select Papyri 244, BGU 362 = W. Chr. 19.

وقد ذكر المنشور فى ص .

(10) Philostratos, Life of Apollonios of Tyana, Book 5, Ch. 24.

(11) P. Oxy. 2332 .

لقد كانت نبوءة "الفخرانى" مثلها مثل الأدب القبطى فى الصور المتأخرة تنهض دليلا واضحا - كما ذكر موميليانو A. Momigliano فى عبارته الحصيفة "على حيوية جذور هذه الحضارة العميقة" .

(12) The Decline and Fall of the Roman Empire, ch. 3.

اللوحـــات

لوحة رقم (١) تصوير الإمبراطور على هيئة فرعون :

تم تصوير أباطرة الرومان على جدران المعابد المصرية بنفس الشكل التقليدى الذى كان يتم به تصوير ملوك الفراعنة ، ويعتبر الشكل نموذجا لذلك . ففى هذا المنظر التقليدى الموجود فى لاتوبوليس بالقرب من طيبة ترى الإمبراطور تيتوس Titus (٧٩/٨١م) فى الناحية الشمالية، وفيه يظهر الإمبراطور تقوده الإلهة الصغيرة ليقدم للإله الأكبر خنوم : الخالق (الذى لايظهر هنا فى الصورة) .

[الصورة من متحف بروكلين قسم المصريات والآثار القديمة] .

لوحة رقم (٢) ديكور داخلى :

تم فى عام ١٩٢٠ فى حفائر جامعة ميتشجان فى أرسينوى (الفيوم) الكشف عن أحد جدران منزل كبير فى قرية كرانيس ، وقد زخرف الجدار بملامح وجه هاربوقراط Harpokrates (وهو أحد الأسماء الإغريقية للإله المصرى حوروس Horus والذى شبه بالإله الإغريقى أبوللو Apollo ولون بألوان مشرقة : وفى الصورة أبو الهول وربة الزهور Flora وربة الحقول والقطعان Founa .

لوحة رقم (٣) قناع مومياء :

كانت الأقنعة فى مصر فى عصر الرومان ترسم على ألواح خشبية ، وكثيرا ما وضعت على وجوه الموتى ، وقد تم العثور على عدة مئات من هذه الأقنعة المصورة ويمكن مشاهدة العديد منها فى المتاحف ، ولكن قليل منها تم رسمه عن طريق مزج الألوان بالبيض ، أو الفراء بدلا من الزيت ، ورسمت أغلب هذه اللوحات باستخدام الألوان الشمعية المثبتة بالحرارة وتظهر قدرة الفنان فى كيفية استخدامه للتأثير بالألوان لإظهار الواقعية ومعالجة التفاصيل بمادته الخام البدائية وتم حفظ هذا النموذج الذى يرجع للقرن الثانى الميلادى حفظا جيدا ، وهو مثال على الواقعية ليس فقط فيما يختص بالجبهة وتجاعيد البشرة فقط ولكن فى كل أجزائها ، وتشير النجوم السبعة على الجبهة إلى أن هذا الرجل كان يعمل كاهنا لإله الشمس فى عبادة الإله سيرابيس .

[الصورة من المتحف البريطانى]

لوحة رقم (٤) احتفال دينى :

إن هذا النقش الذى عثر عليه فى منطقة أريكيا Ariccia على مقربة من روما يدل على شهرة المعبودات المصرية فى إيطاليا ، والإفريز العلوى منه يمثل معبداً مزيناً بتماثيل الآله المصرية المصورة على شكل حيوانات فى الجزء المركزى بالوسط (ولقد فقد أغلب الجزء الشمالى من هذه الإفريز ، وعلى اليمين نشاهد الربة إيزيس ومعها سيرابيس ، أما الجزء الأوسط أو الجزء الأساسى من اللوحة فيصور طقوس الرقص الماجن ، فالراقصون يمسكون بالصناج أو شىء شبيه به ، بينما يقوم المشاهدون الذين يوجدون على الجانب الأيمن بالتصفيق والطرق بالأيدى ، أما الإفريز الضيق الذى يوجد أسفل الصورة فقد صور فيه ابيس Ibis المقدس فى أوضاع وحركات متنوعة .

[الصورة من متحف أليناري Alinari بروما] .

لوحة رقم (٥) النيل أثناء الفيضان : فيضان النيل :

لقد لاقت الموضوعات الفنية الخاصة بفيضان نهر النيل ، والتى كان منبعها الفن السكندرى شهرة واسعة فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية ، ويوضح ذلك ويؤكده تلك الأمثلة التى تمتد من القرن الأول والمصورة على جدران مدينة بومبيى حتى كنائس قورينة Cyrenaica التى يرجع تاريخها إلى القرن السادس م ، وأوضح الشواهد التى تدل على غرام الرومان بالفن المصرى تلك الأرضية التى شيدت من الموزاييك والتى كشف النقاب عنها منذ مايقرب من مائة عام فى خرائب معبد ربة الحظ فى باليسترينا Palestrina (برابنسيتى القديمة Praeneste) بالقرب من روما . وتبلغ مساحة هذه الأرضية ٧ × $\frac{١}{٢}$ ٤ متراً تقريبا ، وهى تعتبر من أكبر ماتم العثور عليه من الأرضيات الموزاييك ، أما تفاصيل هذه اللوحة بالغة الأناقة فهى على النحو التالى: فى النصف الأيمن منها منظر يجمع مناصفة بين الواقعية والخيال عن فيضان النيل : "ويقدم وهذا الموزاييك عمل على نطاق كبير وهو يصور - كما لو كان الفنان ينظر بعين طائر - منظراً طبيعياً شطر إلى شطرين . الجزء العلوى منه عبارة عن مساحة من الأرض تشغلها حيوانات دخيلة ، وقد جاءت الإشارة إليها بأسمائها الإغريقية ، أما منظر المستنقع السفلى فقد رسم فيه معبد يجمع فى طرازه بين الطراز المصرى والمصرى المتأغرق من خلال المبانى المتواضعة ، والمنازل المرتفعة والأكواخ ، ومنازل مشيدة من البوص وبرج الحمام . ولقد رسمت المياه التى تسير عليها القوارب النشطة من بين رسوم الأرضية : القوارب الكبيرة والصغيرة ،

من زورق للبردى يحمل فيه رجل واحد إلى السفن التى تحمل شحنات تجارية ، وسفينة حربية وقارب صيد متقن الصنع ، أما الأفراد الذين تم تصويرهم على الموزاييك ، فهم صيادون يرتدون ملابس جلدية داكنة فى جزئها العلوى أما فى الجزء السفلى فهم فلاحون يرتدون ملابس العمل، وكهنة فى ملابسهم المصرية المميزة ومدنيين وجنود ، ويعطى منظر المجموعة الأخيرة شيئا من البروز فى الخلفية .

H. White house, The Dal Pazzo Copies of the palestina Mosaic

{British Archaeological Reports, Supplementary Series, 12, 1976 p. 3.}

] الصورة من مجموعة مانسيل Mansell]

لوحة رقم (٦-٧) الزراعة ، رى الأرض :

هؤلا المزارعون المصريون يستخدمون هنا نفس الأدوات التى كان أسلافهم يستخدمونها من ألفى عام ، حيث يقومون برفع المياه من النيل من القنوات الجانبية لرى حقولهم الواقعة فى مناطق مرتفعة ، والصورة رقم (٦) لشادوف ، ورقم (٧) للساقية .

(الصورتان من مجموعة هلتون) .

لوحة (٨) الوالى كقاضى :

المحكمة الإقليمية لعام ٢٥٠م و"التى سبق وصفها ، سجلت على بردية توجد الآن فى المتحف البريطانى ، وقد دونت جلست الاستماع أمام والى مصر فى خمسة أعمدة ، حيث توضح الصورة العمود الثانى منها ، والجزء الأكبر الذى عثر عليه من الوثيقة - مثل هذا الجزء- مهلهل نتيجة لبقائها الطويل فى رمال الصحراء ، وهذه اللوحة توضح أيضا الوثائق البردية غير الكاملة ، والجهد الذى يقوم بكل من عالم البردى والمؤرخ والوقت الذى يستغرقه لكى يجمع من القطع المتناثرة المعلومات التى تمكنه من تقديم صورة من تلك العصور .

]الصورة من متحف أشمولين (*) Ashmolean Museum]

(*) متحف أشمولين فى مدينة أوكسفورد فى المملكة المتحدة . المترجمة .

المحتويات

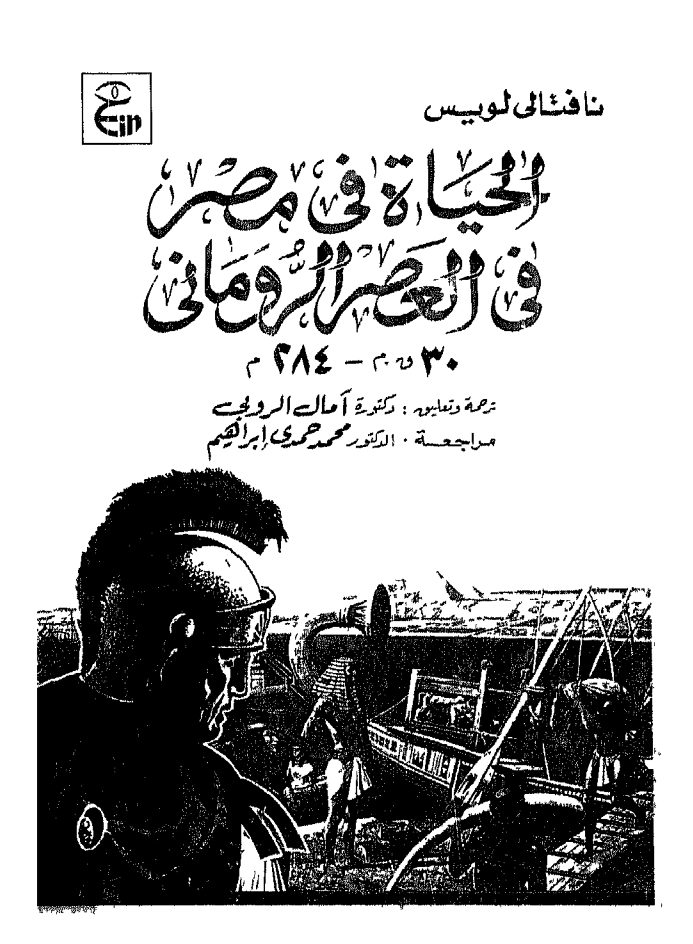
رقم الإيداع ٩٨/٣١٧

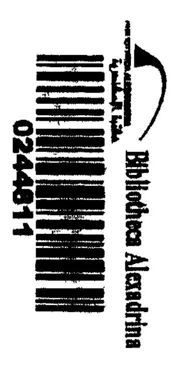
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 5487 - 86 - 2

دار روتابرينت للطباعة ت· ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق









عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES